العِلْمُ وَبِنَاءُ الأُمَمِ

دِرَاسَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ لِدَوْرِ الْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلَةِ

أ.د/ راغب السرجاني

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٦٧٢١

الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-441-031-9

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقــــرأ

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣
www.iqraakotob.com
E-mail:info@iqraakotob.com

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

فأمة الإسلام أمة عظيمة!!

هذه حقيقة لا ينكرها إنسان.. وكيف تُنكَر وقد ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه في أكثر من موضع، بل لم يكتف بالإشادة بعظمتها، ولكنه ذكر تصريحًا أنها خير الأمم مطلقًا.. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فهذه شهادة من رب العالمين الذي خلق الخلق أجمعين، ويعلم ما سبق من أمم، وما هو لاحق.. فهذا يثلج صدور المسلمين، ويزرع الثقة اليقينية في قلوب الأمة أنها مهما تقادم عليها الزمان ستظل خير أمة أخرجت للناس.

ومع كون هذه الحقيقة ثابتة، إلا أن هذا لا يمنع أن يحدث للأمة هنّات وأزمات، ولا يُستغرب أن يأتي عليها زمان يتقدم عليها غيرها، وتتراجع الأمة بالتالي من المكانة السامية التي أرادها الله لها، ويُصدِّق ذلك قول ربنا في كتابه الكريم: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فليست هناك أمة - بما فيها أمة الإسلام - تبقى قوية أبد الدهر، وإنما تتناوب الأمم قيادة الأرض، ولكن وعد رب العالمين أن هذه الأمة الإسلامية العظيمة ستظل باقية إلى يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وبرغم اطمئنان قلوبنا إلى هذه البشريات إلا أن النفس تتألم لرؤية الأمة في حالة ضعف أو سقوط، ويخشى الصادقون أن يكون ذلك بسبب تقصير من المسلمين، أو تفريط في قاعدة من قواعد العزة والنهوض.. وليس من شك في أن حال الأمة في زماننا هذا - برغم وجود مبشرات كثيرة - ليس كما نتمنى لهذه الأمة العظيمة ونرغب.. فأزماتنا كثيرة وفي مجالات

متعددة، ومصائبنا جمة، والكوارث ما تركت ركنًا من أركان أمتنا إلا وحلَت عليه ووقعت.. واتسع - كما يقولون - الخرق على الراقع!

هل هذا وضع يَصْلُح معه سكوت؟!

إن الواجب علينا في ظل هذه اللحظات الأليمة التي تمر بالأمة أن نقف وقفات جادة أمام هذه الأحداث، فنشخص بدقة أسباب الانهيار، ونصف بصدق وأمانة العلاج الناجع الذي يعيد الأمة إلى مكانتها التي لا ينبغي أن تتخلف عنها..

إن الأمم لا تُبنى بسهولة، كما أنها لا تُبنى بطريقة عشوائية!!

إن بناء الأمم أمر صعب يحتاج إلى جهود متضافرة، وصبر طويل، وعزم أكيد، وهو - في الوقت نفسه - يسير وفق خطوات محددة، وسنن ثابتة، لا تبديل لها ولا تغيير، قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

وعلى الأمة في لحظات ضعفها أن تدرس بعمق الأسس التي ينبغي للأمة أن تُبنى عليها، حتى لا يصبح بناؤنا هشًا ينهار مع أي عاصفة..

إننا يجب أن نتدبر في سنن بناء الأمم التي جاءت في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وفي سنه رسولنا ﷺ، كما يجب أن نتدبر في سنن بناء أمتنا في مراحلها السابقة، وكيف استطاع المغيِّرون والمجدِّدون من أبناء الأمة المخلصين أن يحوِّلوا الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والهوان إلى سيادة وتمكين..

وفوق ذلك فإن على المسلمين أن يدرسوا بعمق تجارب بناء الأمم المختلفة من عموم أهل الأرض، وليس بالضرورة أن تدرس تجارب المسلمين فقط، بل على العكس، إن على المسلمين أن يستفيدوا من ميراث الإنسانية، وذلك - بطبيعة الحال - دون التنازل عن شيء من ثوابتنا، أو التخلي عن أمر من شريعتنا..

وبدراسة متأنية لكتاب الله ﷻ، ولأحاديث الرسول الكريم ﷺ، والقصص والتاريخ، وكذلك لأحداث الواقع، يتبين لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - عدة عوامل تُسهم بشكلٍ متفاعل في بناء أي أمة، ويأتي على رأس هذه العوامل - وبشكل لافت جدًّا للنظر -: «**العلم**»!

وهذا الذي ذكرت ليس خاصًا بأمة الإسلام وحدها.. إنما هو أمر ضروري لازم لكل من أراد القيام.. مسلمًا كان أو غير مسلم.. وشواهد ذلك من القرآن والسنة - كما سيتبين لنا

خلال صفحات هذا الكتاب - لا تحصى ولا تعد..

والعلم الذي أعنيه هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، بل العلم الحياتي أيضًا، ويشمل ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا، وغير ذلك من علوم تصلح بها حياة البشر وتتحسن معيشتهم، فهذا علمٌ لابد منه، وهو يُكوِّن – مع العلم الشرعي- دعامة رئيسية من دعامات الأمة الإسلامية.

ولا يخفى على الناظر إلى حال أمتنا أن قضية العلم لم تأخذ مكانها المناسب في اهتمام المسلمين، على الرغم من التركيز الواضح على هذه الوسيلة المهمة في بناء الأمم في كلمات القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك في أقوال الصالحين والمخلصين من أبناء هذه الأمة.

ولعلَّ عدم دخول العلم في بؤرة اهتمام المسلمين هو أحد أهم الأسباب للحالة غير المُرْضية التي عليها أمتنا في زماننا الحالي.. ويصبح واضحًا للجميع أنه لن تقوم الأمة من جديد إلا عندما ينشأ جيل يضع قضية العلم هذه في مكانها الذي ينبغي أن تكون فيه، كأولوية من الأولويات المهمة جدًّا في اهتمامات الأمة كلها..

وكمحاولة لوضع لبنة في صرح الأمة الإسلامية فكّرت في جمع ما يؤيد أهمية العلم في إعادة الأمة إلى مكانها الصحيح، فتجولت في صفحات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، وعدت إلى حياة الصحابة ﷺ، والتابعين رحمهم الله، وقرأت سِيَر العلماء والمجدِّدين، ودرست تجارب الأمم التي كان لها نصيب من الصدارة والتمكين.. فعلت ذلك وغيره، وجمعت من هنا وهناك، ورتبتُ وصنفتُ ما عندي من أوراق.. فكان هذا الكتاب!!

أسأل الله عز وجل أن ينفع الأمة الإسلامية بكل حرف في هذا الكتاب، وأن يقرَّ أعيننا برؤية أمتنا عظيمة رائدة، وأن يجعل ذلك كله في ميزان حسنات كل من ساهم في هذا العمل أو استفاد منه..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

أ.د. راغب السرجاني

***

الباب الأول

أمة الإسلام والعلم

ويضم الفصول التالية:

الفصل الأول: العلم في منظور الإسلام.

الفصل الثاني: أنواع العلوم.

الفصل الثالث: قراءة في واقعنا العلمي.

الفصل الرابع: الإسلام وعلوم الحياة.

الفصل الخامس: نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية.

الفصل السادس: آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية.

***

الفصل الأول

العِلْمُ فِي منظور الإسلام

لقد كانت الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأول مرة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين الجديد «الإسلام» دين يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملة وتفصيلاً..

فقد نزل الوحي أول ما نزل بخمس آيات تتحدث حول قضية واحدة تقريبًا، وهي قضية العلم.. قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وهذا النزول الأول بهذه الكيفية عجيب من عدّة وجوه..

فهو عجيب لأن الله ﷻ قد اختار موضوعًا معينًا من آلاف المواضيع التي يتضمنها القرآن الكريم وبدأ به، مع أن الرسول ﷺ الذي يتنزل عليه القرآن أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فكان واضحًا أن هذا الموضوع الأول هو مفتاح فهم هذا الدين، ومفتاح فهم هذه الدنيا، بل وفهم الآخرة التي سيُقبل عليها الناس أجمعون.

ثم هو عجيب لأنه نزل يتحدث عن قضية ما اهتم بها العرب كثيرًا في هذه الآونة في عمق التاريخ، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أولها إلى آخرها.. فكانوا يفتقرون إلى العلم في كل المجالات، اللهم إلا في مجال البلاغة والشعر، فكان هذا هو الميدان الذي تفوق فيه العرب وبرعوا، ولذلك نزل القرآن - وهو الأعجب - يتحداهم في هذا الذي برعوا فيه، معلنًا لهم أنه ينادى بالعلم والتفوق فيه في كل الجوانب، بما فيها تلك التي يجيدونها.

ثم هو عجيب أيضًا لأنه اختار وسيلة من وسائل التعلم تُعد الأشقّ والأصعب بين كل الوسائل، وهى القراءة.. لكنها ولا شك أرسخ من غيرها، فهي أرسخ من مجرد السماع، أو النظر، أو مجرد الاستنباط أو الاستنتاج.. فهو يُعْلِن للناس جميعًا من أول يوم ومن أول لحظة،

أن الذي يريد أن يرتبط بهذا الدين لابد أن يبذل مجهودًا مُضنيًا في العلم والتعلم والقراءة.

لقد كان الإسلام بمثابة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أول كلمات القرآن تعرف باسم «الجاهلية»!!.. فصفة «الجهل» ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانية.. قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فليس هناك مكانٌ في هذا الدين للجهل أو الظنِّ أو الشكِّ أو الرِّيبَة.

لقد أمر الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ منذ الأيام الأولى للرسالة أن يعرض عن الجاهلين الذين يتمسكون بجاهليتهم، ويرفضون العلم.. قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

كما كان واضحًا منذ الأيام الأولى لهذا الدين أنه يرفض المناهج الظنية، وعليه فلا يمكن أن يبنى شرائعه وأحكامه وقوانينه وتصوراته ونظرياته إلا على أساس من اليقين.

فهذا رب العالمين سبحانه يقول في إعجازٍ ظاهرٍ يصف حياة الكافرين والمعرضين عن دينه ﷻ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

فجعل الله ﷻ الفارق الرئيسي بين المؤمنين وبين الكافرين هو قضية العلم.. فالمؤمن يعلم والكافر يظن.. والمؤمن يبنى على اليقين، والكافر يبني على الشك.

وعليه فقد قال سبحانه يصف حال الكافرين يذمهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

ولم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز «القرآن» هي التي تتحدث عن العلم وقيمته وأهميته، بل كان هذا منهجًا ثابتًا في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد فوجئت مفاجأة كبيرة عندما قمت بإحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة «العلم» بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله ﷻ؛ إذ وجدتها - بلا مبالغة - قد بلغت ٧٧٩ مرة !! أي بمعدل سبع مراتٍ - تقريبًا - في كل سورة!!

وهذا عن كلمة «العلم» بمادتها الثلاثية (ع ل م)، إلا أن هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تُذكر بلفظه، وذلك مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبينة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه.

أمّا السنة النبوية فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً..

فقد وردت كلمة «العلم» في صحيح **البخاري** أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا كتاب واحد من كتب السنة، وهو في ذات الوقت ليس بأكبرها حجمًا؛ إذ أن هناك من كتب السنة ما يحوي أضعاف ما في صحيح **البخاري**، مثل صحيح **مسلم** وسنن **الترمذي** و**النسائي** و**أبي داود** و**ابن ماجه** و**الدارمي** و**البيهقي**، ومسند الإمام **أحمد بن حنبل**، وموطأ الإمام **مالك**، وكذلك معجم **الطبراني** وصحيح **ابن حبان** ومستدرك **الحاكم**، وغيرهم وغيرهم..

بل إن الملاحظ أن الاهتمام بقضية العلم لم يكن منذ أول لحظات الإسلام ونزول القرآن فقط، وإنما كان ذلك منذ بداية خلق الإنسان نفسه.. كما حكى ذلك القرآن الكريم في آياته!!

فالله ﷻ خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، وأمر الملائكة أن تسجد له، وكرَّمه وعظَّمه ورفعه، ثم ذكر لنا وللملائكة سبب هذا التكريم والتعظيم والرِّفعة.. فعيّن أنه «العلم»..!!

لم يتفوق آدم ﷺ على الملائكة بطول قيام، ولا بكثرة ذكرٍ أو تسبيحٍ، ولا بقوةٍ خارقة، ولا بطاعةٍ مطلقة.. فهذه الأمور كلُّها مما تتفوق فيها الملائكة بلا منازع، وإنما تفوق عليهم فقط في قضية «العلم»..

ومن أجل ذلك رفعه الله ﷻ فوق مصافِّ هؤلاء الملائكة العِظام وفضَّله عليهم، بل وأسجدهم له ﷻ.

يقول تعالى في تقرير ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

وهكذا كانت القضية منذ اللحظات الأولى لخلق آدم عليه السلام واضحة جلية.. فما إن يتمسك الإنسان بالعلم، ويحرص عليه، ويبذل الجهد في تحصيله، إلاّ استحقَّ أن يكون خليفة الله في الأرض، وما إن يألف الجهل ويتعوَّد عليه، أو يزهد في العلم، ويبتعد عنه، ويرضَ منه بالقليل.. فإنه - لا ريب - يكون قد فَقَدَ مؤهلاتِ هذه الخلافة، ومن ثَمَّ لا يصلح أن يكون عبدًا صالحًا مرفوع الذكر معظَّم الشأن..

ولم يكن الاحتفال بقيمة العلم منذ أول خلق «الإنسان» فقط، بل ظهر هذا الاحتفال قبل خلق الإنسان!! فإن الله عز وجل خلق أول ما خلق «القلم»، أداة العلم الأولى والخالدة، وذلك كما روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ**»(١).

وهكذا نجد أن العلم أمرٌ محوري ورئيسي في الحياة الإنسانية التي وجدت على ظهر الأرض، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة.

ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه إلى أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها - بل هي ملعونة - إلا إذا ازدانت بالعلم وذِكْر الله عز وجل..

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ: ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا**»(٢).

بل إنه إذا اختفى العلم من الدنيا، فإن الحياة فيها تصبح مستحيلة، أو لا معنى لها، لهذا فإن اختفاء العلم يكون إيذانًا بقرب قيام الساعة..

---

(١) الترمذي: كتاب التفسير، باب تفسير سورة «ن» (٣٣١٩)، والحاكم (٣٦٩٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطيالسي (٥٧٧)، والطبراني في الكبير (١٢٥٠٠)، والبيهقي في سننه (٢٠٦٦٤)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٤٨، وقال الألباني: صحيح (٢٠١٧) صحيح الجامع.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله (٢٣٢٢)، والدارمي (٣٢٢)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢)، والبزار (١٧٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٨)، وقال الألباني: حسن (١٦٠٩) صحيح الجامع.

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا**»(١).

ورفعُ العِلم هذا لا يكون بمحوه من الصدور، ولكن يُرفع بموت العلماء..

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢).

ولذلك فإن موت العالِم هو الكارثة الحقيقية، والتي هي أشد من كوارث الزلازل والبراكين؛ لأنه بغياب العالِم تفسد الأرض، ويجهل الناس الغاية من خلقهم، ومن ثم تصبح الحياة بكاملها لا قيمة لها..

يقول **عمر بن الخطاب** ﷺ: «لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار، أهون من موت عالمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه»(٣)!!

ولما مات **زيد بن ثابت** ﷺ - كاتب الوحي ومن علماء الصحابة الأجلاء - قال **عبد الله ابن عباس** ﷺ: «من سرَّه أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه»(٤).

العِلْمُ صِفَةُ الأَنْبِيَاء:

إن أعلى منزلة وأسمى رتبة في الخلق وبين البشر عند الله تعالى هي منزلة الأنبياء ورتبة النبوة، ولمكانة العلم ولأهميته القصوى في ميزانه سبحانه وتعالى، فإن الله ﷻ قد ربط في كتابه الكريم بين الأنبياء وصفة العلم، على أساس أنها صفة ثابتة ولازمة لهم، بل وضَّح سبحانه أن العلم هو أهم الصفات التي يتميز بها هؤلاء الأنبياء، وكيف لا والدور الرئيسي لهم في الدنيا أن يُعلِّموا غيرهم؟

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧١)، والترمذي (٢٢٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٥)، وأحمد (١٢٨٢٩)، وأبو يعلى (٣٠٦٢).

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، والدارمي (٢٣٩)، وابن حبان (٤٥٧١)، والطبراني في الأوسط (٥٥).

(٣) الحارث بن أبي أسامة، الحافظ نور الدين الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨١٣.

(٤) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣/ ٣٤٤.

فإذا كان فاقد الشيء لا يُعطيه - كما قيل - فكان لزامًا على النبي أن يكون عالمًا، بل وأن يحرص على زيادة علمه، وفي ذات الوقت يكون حريصًا على نقل علمه هذا إلى غيره، وألا يكتم علمًا علَّمه الله إياه.. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

فكيف يُبلِّغ شيئًا بلاغًا مبينًا وهو يجهله ولا يعلمه؟!

ومن هنا فقد جاء ذِكْرُ الأنبياء دائمًا مرتبطًا بالعلم، فقال ﷻ في حق آدم ﵇: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقال في حق **لوط** ﵇: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال في حق **موسى** ﵇: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقال في حق **يعقوب** ﵇: «﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال في حق **يوسف** ﵇: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في حق **داود وسليمان** عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال في حق **عيسى** ﵇: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال كذلك في حق رسولنا الكريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٤، ٥].

وقال أيضًا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي** -يعني- عمر» قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال «**العلم**»[1].

(١) البخاري: كتاب التعبير، باب اللبن (٦٦٠٤)، وأحمد (٥٨٦٨).

فكان العلم أثمن ما يمتلك الأنبياء، ولذلك كان هو الذي أورثوه لنا.

وعليه فمن أراد أن يحمل لواء الأنبياء وأن يسير في طريقهم ومن ثم يُحشر في زمرتهم يوم القيامة، فعليه بطريق العلم..

ولعظم قيمة العلم ومكانته، فقد امتن به الله ﷻ على أُناس معينين واختصهم بالزيادة منه، وقد اصطفاهم ﷻ على غيرهم.. فجعل - على سبيل المثال - مؤهلات القيادة عند طالوت -رحمه الله- هي العلم والقوة، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد قدَّم هنا العلم على القوة؛ لأن العلم بإمكانه أن يُسخِّر القوة لصالحه، وليس العكس بصحيح إذ إنه بإمكان الرجل الضعيف أن يُسخر الأسد القوى لخدمته كون هذا لا يرجع إلى معيار القوة والضعف عند الرجل، وإنما يرجع إلى سعة علمه وإحاطته بما يمكن من خلاله أن يتفادى مهاجمة الأسد له، وما يمكن من خلاله أن يذلّله له.

بل إن الله ﷻ جعل العلم سببًا في السيطرة والهيمنة والعلوّ، فقال في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وينسب الله ﷻ إلى أهل العلم دائمًا كل صلاحٍ وفلاح، بل وشهادة حق وعمق نظرة ودراية، فيقول في إشارة إلى من أدرك منهم حقيقة التوحيد: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ويقول عن أولئك الذين يحفظون القرآن في صدورهم: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفيمن يدرك الحق من غيره يقول سبحانه: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وفي إشادة بأولئك الذين فقهوا حقيقة الدنيا والآخرة في قصة قارون يقول ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد مدح أيضًا الخضر، ودلّ موسى عليه السلام عليه ليتعلّم منه، لأنه اتصف بالرحمة والعلم فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقد امتن ﷻ على المؤمنين بصفة خاصة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وامتن على الإنسان بصفة عامة فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

مع ملاحظة تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان مع أن الإنسان خُلق أولاً ثم عُلِّم، ولكنه قدم العلم ليوحي بأن الإنسان إذا فقد العلم فَقَدَ معه إنسانيته فكأنه لم يُخلق بعد.. ثم إنه أعقب الحديث عن خلق الإنسان بقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وكأن العلم يحيط بحياة الإنسان من أولها إلى آخرها.. فقبل ذكْر الخلق يمدح العلم، وبعد ذكْر الخلق يمدح العلم.

ولم يَقْصُر ﷻ رفع العلم لأصحابه على عالم الإنس فقط، بل تعدى ذلك عنده ليشمل عالم الجن أيضًا، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠].

وفي عالم الحيوان والطير، فإنه سبحانه يرفع من شأن الجوارح المعلَّمة والكلب المعلَّم عن الجوارح غير المعلمة، فيُحل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعلمة ويحرِّم الذي تصطاده غير المعلمة.. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. وقد جعله رسول الله ﷺ أمرًا عظيمًا يجب على الإنسان أن يتنافس فيه مع غيره ويتمنى أن لو تفوَّق فيه عليهم..

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(١).

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦)، وابن ماجه (٤٢٠٨)، والطبراني في الأوسط (١٧١٢)، وأبو يعلي (٥٠٧٨)، والبزار (١٨٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٢٨).

كل هذه الملاحظات وغيرها تبين مدى أهمية العلم، وأنه أعظم النعم التي أنعم بها الله العليم الخبير على مخلوقاته..

فلا غرو إذن أن يكون العلم من الأشياء القليلة التي أمر الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أن يطلب الاستزادة منها، فقال تعالى موجهًا نبيه والأمة الإسلامية من بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم إن الإنسان لَيقف مذهولاً أمام علم الله ﷻ الذي وصفه سبحانه في كتابه حيث قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقد وصف سبحانه علم البشر بكل أنواعه وتصانيفه وتفريعاته، من علوم فضاء وسلاح وكيمياء وطب وهندسة وجغرافيا وعلوم نووية وبيولوجية وغيرها.. وصف كل هذه العلوم بالقليل فقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. وذلك في إشارة خفيّة منه سبحانه إلى البحث عن المزيد، والتنقيب عن ذلك المجهول.

وإننا في هذا الفصل لم نسع إلى حصر كل ما جاء عن العلم في كتاب الله عز وجل، أو في سنة رسوله ﷺ؛ فإن ذلك أمر يصعب جدًّا، ولكننا فقط نضع أيدينا على الوزن الحقيقي له من منظور الشريعة الإسلامية؛ فلن يهتم إنسان قطّ إلا بما يشعر بأهميته وقيمته، ونسأل الله ﷻ أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

أَنْـــوَاعُ العُلُـــــومِ

جاءت كلمة «العلم» في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله الكريم ﷺ مطلقة، ودونما تقييد أو تحديد؛ فهي تشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى خير الدنيا وعمارة الأرض.. وكل علمٍ يهدف إلى صلاح الناس، والقيام السليم بواجبات الخلافة البشرية على هذا الكوكب.

وبالإمكان تقسيم العلوم إلى قسمين كبيرين يشملان كل علم نعرفه أو نحتاج إليه، وهذان القسمان هما: العلوم الشرعية والعلوم الحياتية.

أما العلوم الشرعية: فهي العلوم التي يُعرَف بها الله ﷻ، ويُعرَف بها كيف تكون العبادة الصحيحة، ويشمل ذلك كل العلوم المتعلقة بدراسة الدين وفقه الشريعة، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة والحديث الشريف، وعلوم العقيدة، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم الأخلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالشريعة والدين. ويرتبط بهذا القسم بعض العلوم الأخرى التي يُحتاج إليها في فقه تلك العلوم الشرعية، مثل علوم اللغة والأدب والتاريخ، ونحو ذلك..

أما العلوم الحياتية: فهي العلوم النافعة التي يحتاج إليها الإنسان ليصلح بها حياته، ويعمِّر بها أرضه، ويستكشف بها كونه وبيئته.. وذلك مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم المشابهة.

فكلمة العلم التي كَثُرت الإشارة إليها في الكتاب والسنة إنما تعني - في أكثر الأحيان - العلم بشقيه الشرعي والحياتي.. وكل ما جاء من مدحٍ للعلماء، فهو لكل عالمٍ نفع الناس بعلمه، سواء كان شرعيًا أم حياتيًا. وتوضيح ذلك - وخاصة أهمية العلم الحياتي - سيرد في موضعه من هذا الكتاب.

ثم إن هذه العلوم - سواء علوم الشرع أو علوم الحياة - تنقسم بدورها إلى قسمين: علوم فرض عين، وعلوم فرض كفاية.

وفرض العين: هو ما طلب الشارع فعله طلبًا جازمًا من كل مكلف بعينه، فلا يكفي أن

يقوم به البعض دون البعض الآخر، ومنه: الصلاة، والصيام، والوفاء بالعقود وغيرها.

وفرض الكفاية: هو ما طلب الشارع حصوله طلبًا جازمًا من جماعة المكلفين، فإن أقامه أحدهم أو بعضهم على الوجه المطلوب، سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقمه أحد أثم الجميع، ومنه: الجهاد في سبيل الله، وإقامة الخلافة، والصلاة على الميت ودفنه، وغيرها[1].

وعليه فالعلوم التي تُعَد من فروض العين هي تلك التي يتعين على كل مسلم ومسلمة ممن اتصف بالعقل والبلوغ أن يُحصِّلَها ويتعلَّمها، وإذا لم يحصلها أثم بسبب ذلك، وركبته السيئات بحجم التفريط الذي فرّط.

فهذا النوع من العلوم حتميٌ على كل المسلمين، وليس هناك استثناء فيه، وهو الذي عناه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ وقال فيه: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[2].

وأما العلوم فرض الكفاية: فهي تلك العلوم التي إن قام بها بعض المسلمين على الوجه الأكمل، واستطاعوا أن يكْفوا بقية الأمة فيها، فإنهم يثابون عليها ويسقط الإثم عن باقي الأمة، حتى أولئك الذين لم يقوموا بها.. وأما إذا لم توفر الأمة من العلماء ما يكفي حاجتها في فرع معين، فإن الإثم يقع على الجميع إلى أن تكفي الأمة حاجتها في ذلك الفرع، فتوفر الكم والنوع اللازم لسد كل الثغرات..

وفروض الكفاية كثيرة جدًّا، والأمة النجيبة الواعية هي التي توزِّع فروض الكفاية على أفرادها بحيث تسد كل الثغرات لديها، وتكفى كل حاجاتها، بحيث لا يصبح هناك - مثلاً - تكدسٌ في أحد المجالات، ونقصٌ وقصورٌ في مجالات أخرى.. وهذا يحتاج إلى اتساع أفقٍ وشمولِ نظرة.

ولنحاول أن نسقط هذه التعريفات على الواقع..

فالعلوم الشرعية منها ما هو فرض عين، «يتعين» على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه،

(١) راجع النووي: المجموع شرح المهذب، ١/ ٤٩.

(٢) ابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلم والحث عليه (٢٢٤)، والطبراني في الكبير (١٠٤٣٩)، والبزار (٩٤)، وقال الألباني: صحيح (٣٩١٣) صحيح الجامع.

ويأثمون بتركه، وذلك مثل العلم بالله ﷻ على سبيل الإجمال، كالعلم بأنه سبحانه عليمٌ وخبيرٌ وقادرٌ على كل شيء، وأنه خالقٌ ورازقٌ ورحيمٌ وكريمٌ وغير ذلك..

وأيضًا مثل العلم بأمور الفقه الضرورية لأداء العبادات.. فيتعلم المسلم كيف يتوضأ وكيف يصلِّي، وما نواقض الوضوء، وما نواقض الصلاة، وما الفرق بين الفرض والنافلة، وبين ما تصح الصلاة بدونه، وما لا تصح الصلاة إلا به، وأن يعرف الصيامَ وأحكامه، والزكاة وأحكامها، وأن يعرف أمور الحلال والحرام، وخاصة المشهور منها، والذي سمّاه العلماء «ما هو معلوم من الدين بالضرورة» كحرمة الزنا والخمر والخنزير والربا، وكذلك عليه أن يعرف رسوله الكريم ﷺ ونبذة عن سيرته، وأيضًا يعرف القرآن وكيف يُتلى، ويعرف عن الساعة ويوم القيامة إجمالاً، وكذلك عن الجنة والنار وهكذا..

ومن العلوم الشرعية ما هو فرض كفاية على بعض علماء الأمة وليس مفروضًا على بقية المسلمين، مثل دقائق علم العقيدة، ودقائق الفقه مثل فقه المواريث، ودقائق فقه التجارة لغير التجار، وكيفية حساب الزكاة في الاحتمالات المختلفة، ودقائق الاقتصاد لغير الاقتصاديين، ودقائق تفسير القرآن، وأسباب النزول، وتفاصيل حياة الرسول وحياة أصحابه، وتخريج الأحاديث، والعلم برواتها، ودرجاتهم من حيث الجرح والتعديل، وتفاصيل التاريخ الإسلامي، وفنون اللغة ودقائقها[(١)]..

فهذه العلوم هي من فروض الكفاية، والتي وجب على الأمة أن توجد طائفة من أفرادها ليقوموا بالخوض فيها، وإتقانها والتبحر فيها والتمكن منها، والقدرة على معرفة جميع أطرافها ودقائقها.. وهو مصداق قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وإذا لم توفر الأمة هؤلاء العلماء، وكانت تعاني - مثلاً - نقصًا في علماء التفسير أو علماء الفقه أو الحديث أو غيره، فإن الأمة جميعها تأثم إلى أن توفر هذه الطائفة.

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

---

(١) راجع في ذلك ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، ٥/ ١١٣ وما بعدها ويوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ص٩٣، ٩٤.

والأمر هو نفسه بالنسبة للعلوم الحياتية.. فمنها ما هو فرض عين، «يتعين» على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه، ويأثمون بتركه، ومنها ما هو فرض كفاية، إن قام به البعض سقط عن الباقين..

فمثلاً علم الطب يُعد فرض عينٍ على الطبيب، وعلم الهندسة يُعد فرض عينٍ على المهندس، وعلم الكيمياء فرض عينٍ على الكيميائي وهكذا.. فإذا تعلم كل واحدٍ من هؤلاء مهنته وأتقنها وبرع فيها، ووصل إلى درجة من الابتكار وحل المشكلات في مجاله، وهكذا في كل تخصص، فإن الفرض يُكفى، وبذلك يسقط الإثم عن المسلمين..

أما إذا فشلت الأمة في إخراج عدد مناسب، وبكفاءة متميزة يكْفون حاجة المسلمين.. فإن الإثم يقع على الأمة جميعًا؛ وذلك لفشلها في تحقيق ذلك الأمر[1]!!

وليس غريبًا بعد ذلك أن يكون من نتيجة ذلك الفشل أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة، وأن تكثر أزماتها ومشكلاتها، فضلا عن سقوطها في أعين غيرها من الأمم الأخرى، فتصبح وقد اقتادها غيرها، وقد أضحت فريسة سهلة للطامعين، فلا يُستبعد أن تنتهك سيادتها، وأن تحتل أرضها، وأن تسلب ثرواتها.. حتى تضيع تحت أقدام الغزاة!!

والشاهد من ذلك أن المرء المسلم واقع بين نوعين من العلوم يتعين عليه أن يتقنهما: الأول خاص بمعرفة دينه المعرفة التي توصله إلى العبادة الصحيحة كما ذكرنا سابقًا، وهو ما لابد للجميع منه. والثاني خاص بمجال التخصص الذي هو فيه، أيًّا كان مجاله وطبيعة عمله. والذنب والإثم في كلٍ هو بحجم التقصير الذي يحصل.

ومن هذا المنطلق لا يستقيم لطالب رفعةٍ لهذه الأمة، وراجي التمكين لها في الأرض، أن يكون فاشلاً في مجاله، متخلفًا في صنعته أو في مهنته أو في علمه الذي وُكِّل به؛ إذ إنَّ تقدم الأمة معتمدٌ على تقدمه، وتخلفها هو نتيجة لتخلفه.

وعلى ذلك فإننا إذا أخذنا أحد المسلمين كمثال توضيحي، فإننا نقول:

لو أن هناك اقتصاديًا متخصصًا (من المسلمين)، فإنه يتعين عليه أن يتعلم كيف يُصلِّي، وكيف يصوم، وكيف يزكِّي، وكيف يعتقد في ربه وفي رسوله وفي القرآن، وأن يعرف عن يوم

---

(١) انظر في ذلك: الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ١٦.

القيامة والجنة والنار، كما سبق أن ذكرنا..

وفوق ذلك فيتعيَّن عليه أن يُتقن مجال الاقتصاد ويبرع فيه، ويبتكر الطرق الحديثة التي ترفع من اقتصاد الأمة وتُعْلي من شأنها ماديًّا، وعليه أيضًا أن يعرف الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد، وحكم الإسلام في المعاملات الاقتصادية المختلفة، وحكمه في قضايا البنوك وشركات الاستثمار والتأمين والتوفير والقروض.. وغير ذلك من الأمور التي تمس هذا الجانب بصورة مباشرة.

ولكن هذا الاقتصادي لا يتعين عليه ولا يلزمه أن يتعلم دقائق التفسير، أو يتعلم بنود الفقه المختلفة الخاصة بالطب، أو الخاصة بالحرب أو الخاصة بالزواج أو الطلاق أو الميراث؛ فهذا له متخصصون ومهتمون، تماما كما هو في تخصصه في مجال الاقتصاد.

كما أنه لا يلزمه أن يتعلم شيئًا عن الطب أو الهندسة أو الفلك أو الزراعة أو غيرها، إلا فيما يرتبط بعمله كاقتصادي..

وهكذا تتوزع كفاءات الأمة على الفروع المختلفة، وتسد الثغرات تباعًا..

ولا يستقيم لأمة ناجحة أن تتكدس فيها - مثلاً - طاقات فقهية، بينما تفتقر إلى علماء الطب أو الكيمياء، ولا يستقيم لأمة متكاملة أن يتكدس فيها جمعٌ غفيرٌ من القضاة، وهي تفتقر إلى علماء التاريخ، وهكذا..

وهذا دور الدولة الناجحة.. أن ترقُب باستمرارٍ أوجه النقص، ومن ثم تسد الخلل وتحرص على تكميله.. كما أنه دور الأفراد في أن يتوجهوا إلى سد الثغرات المهمة والضعيفة، وألا يترك أصحاب التخصص منهم تخصصهم وينشغلوا بغيره من الأعمال التي لم يُكلَّفوا أصلاً بأدائها، ولم تُوجَب عليهم..

على أن الدور الأكبر والمسئولية الضخمة في هذا الأمر تتحمله الدولة ممثلة في الحكومة، ولابد لها من أن تسعى لرفعة شعبها وإعزاز أمَّتها في كل المجالات، وهي غير معذورة في أي تقصير في هذا الأمر، كما أنه ليس هناك مبررٌ للبقاء في ذيل الأمم لسنوات وسنوات..

وهذا لا يعني - كما سبق أن أشرنا - إعفاء أنفسنا من المسئولية، فهذا مصير الأمة، وإننا - كأفراد - لدينا من المساحات الضخمة التي من الممكن أن نعمل فيها وننتج ونبرع الكثير والكثير..

فالطالب - مثلاً - في أي مراحله التعليمية بإمكانه ألا يكتفي بما هو مقررٌ عليه فقط، وخاصة إذا كان هذا المقرر على مستوى غير كافٍ، ومن ثم فيمكن أن يلجأ إلى المكتبات وإلى الشبكة العالمية (الإنترنت) وغيرها، مما يزيد من حصيلته العلمية في مقرراته الدراسية وفي مجال تخصصه.

فإذا كان طالبًا يكون طالبًا متفوقًا، وإذا كان أستاذًا أو معلمًا يكون معلمًا متقنا ومبدعًا، وإذا كان مهندسًا يكون على أعلى درجة وأمكن معرفة بمجال عمله وهندسته، وهكذا.. والمطلوب هو بذل الجهد كلٌ في مجاله قدر المستطاع.

وحين يكون الالتزام بذلك، وحين لا يكون مبلغ علم الجميع وأقصى أمانيهم هو فقط الحصول على شهادة في كذا أو كذا.. حينها يسود جوٌ عام من حب العلم، فيصبح البلد أو الإقليم وقد اتخذ وجهة العلم قبلة له، شاء في ذلك أم أبى أصحاب اتخاذ القرار وصُنَّاعه!!

بل إن السياسيين حينذاك سيجدون أنهم مضطرون إلى أن يسايروا تلك الموجة العلمية، ويكونون من ركْبها، تماما كما يسايرون الموجة الدينية - رغم أن الكثيرين منهم ليست لهم ميول دينية أصلاً - فتراهم - مثلاً - يُقيمون المسابقات الدينية، ويحضرون الاحتفالات الموسمية، ويهبون الجوائز على حفظ القرآن الكريم.. وذلك مادام هناك جو عام من الاهتمام بالدين.

فكذلك إذا كانت هناك ثورة علمية، وأصبح العلم شغل الأفراد ومصب اهتماماتهم.. حينها ستجد السياسي - مثلاً - الذي يريد أن ينجح في الانتخابات، تراه يضع في برنامجه الانتخابي الاهتمام بالمؤسسات العلمية، والعمل على إنشاء الجديد منها والمزيد، وزيادة ميزانية الدولة في هذا الجانب.. وعليه فلن تجد اهتماماته متجهةً فقط إلى الطعام والشراب، وما إلى ذلك، وإنما يكون جل اهتماماته هو همّ الأمة الأول وشغلها الشاغل، وهو يومئذ العلم وقضايا التعليم!!

ولو قامت الأمة الإسلامية بدورها في هذا المجال (الاهتمام بالتوازن بين العلوم والربط بين العلم الشرعي والعلم الحياتي) حكومة وشعبًا جماعات وأفرادًا، ما افتقرت أبدًا إلى غيرها ولقامت معتمدة على سواعد أبنائها.. وهذا - ولاشك - يرفع من قيمتها ويعز شأنها..

***

الفصل الثالث
قِرَاءَةٌ فِي وَاقِعِنَا الْعِلْمِيّ

مع ازدهار الصحوة الإسلامية، وشيوع الالتزام بين صفوف المسلمين، وبالذات طائفة الشباب، ترسَّخ في أذهان الكثيرين حب العلم وطلبه، والبحث عنه وبذل الوقت له. وكل هذا - ولاشك - أمر محمود، ونتيجة طبيعية لعودة المسلمين إلى ربهم وإلى دينهم..

لكن بقيت نقطة أشعر أنها ما أخذت المساحة الكافية من تفكير شباب الصحوة، وما فُرِّغت لها الأوقات كما فرغت لغيرها، مع أن هذه النقطة من أهم النقاط التي تنفع في بناء الأمم، وتفيد في تشييد الحضارات..

وهذه النقطة هي الاهتمام بعلوم الحياة، والتفوق والإبداع فيها..

وعلوم الحياة - كما أشرنا قبل ذلك - هي العلوم التي تُصلح حياة البشر على الأرض، والتي يهتدي إليها الناس بعقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والنباتات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح «حياتهم» على هذا الكوكب..

وتلك العلوم هي التي يقصدها الغرب، وهي التي يعنونها دائمًا حين يكون الحديث عن مطلق العلم..

وقد تعددت الشواهد والملاحظات المهمة التي تبين سوء الوضع العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ومدى ما وصل إليه حالها فيه، وهي كلها ناتجة عن عامل واحد، هو إهمال المسلمين لعلوم الحياة..

ولعل في الملاحظات التالية دليلاً على القصور غير المقبول الذي وصل إليه المسلمون الآن..

الملاحظة الأولى:

بدراسة أحوال العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية في أكثر من بلد إسلامي، يُلاحَظ أن نسبة المتفوقين دراسيًا في أوساط الدعوة نسبة قليلة بصورة لافتة للنظر،

وأن الطالب الملتزم بدعوته وبرسالته الإسلامية يرتب أموره بصورة تضع التحصيل الدراسي والتفوق العلمي في أخريات أولوياته.. وهذا لشعوره واعتقاده الدائم بأنه يجب عليه أن يُضحِّي بعلومه الدراسية ومناهجه البحثية من أجل الدين، فيُعطي - مثلاً - حلقةَ تحفيظ القرآن أولويةً عن محاضرة علمية، ويعطي موعظة تُقال في مدرّجٍ أولويةً عن موضوع علمي يلقيه في فصل دراسي أو في مجموعة علمية، ويعطي قراءةً في كتاب تفسيرٍ أو فقهٍ أو حديثٍ أولويةً عن قراءةٍ في كتاب كيمياء أو فيزياء أو رياضيات، ويهتم بحضور دروس العلم للمشايخ والقراء، ولا يهتم بحضور الدوريات أو الندوات العلمية، أو المؤتمرات المتخصصة في مجاله مثلاً!!

وهذه ليست ملاحظة عابرة، أو حالات فردية، أو مشكلة محلية، إنما تكاد تكون هي الأصل بين أوساط الشباب العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية.. وهذا أمر يحتاج - ولاشك - إلى وقفات ووقفات..

ومثل هذا الحديث ليس من قبيل الإحباط أو اليأس، وإنما هو محاولة لتشخيص الأمراض برصد الظواهر والحقائق، ثم وصف العلاج بعد ذلك.. والأمر يحتاج إلى مصارحة، ووقوف على مواطن الداء..

ومما زاد من أهمية هذه الملاحظة وإبراز دورها بين أهم المشاهدات التي تبين إهمال المسلمين لهذا الجانب الحياتي من العلوم، وأنهم لم يعطوه حقه بالصورة الكافية، أنه ترتب عليها خشية كثير من الطلاب المتفوقين -الذين ليست لهم وجهة إسلامية- من الالتزام أصلاً؛ وذلك لئلا يُصبِحوا مثل كثير من الأمثلة الدعوية، الذين هم متردون دراسيًا، ومتعثرون علميًا..

وقد تحدثت كثيرًا مع بعض الشباب المتفوق دراسيًا ولكنه بعيد عن آداب الإسلام وسلوكه، فكان يقبل كلامي عن الإسلام، وعلاقته بالعلم، وحضِّه عليه، وتزكيته لأهله.. ولكن كان هذا القبول منه مجرد قبول نظري غير واقعي. وقد رصدته وهو يقول لي بلسان الحال، أو بلسان المقال: إن هذه قواعد غير قابلة للتطبيق؛ لأن ما أراه حقيقة هو خلاف ما تتحدث عنه!! وإلا فكيف تفسر حصول الطلاب الإسلاميين على تقديرات متدنية، بينما يتصدر قائمة المتفوقين شبابٌ لا يضعون الإسلام منهجًا واضحًا لحياتهم، بل قد يكونون من

غير المسلمين أصلاً؟! إنها معضلة تحتاج حقًا إلى وقفات!!

الملاحظة الثانية:

التقيت في أمريكا مع أحد العرب الدارسين هناك، وكنت أتحدث في محاضرة عن أهمية علوم الحياة، وأهمية أن تكفل الأمة الإسلامية نفسها في هذا المجال، بل وأهمية أن تقود غيرها، وأن تصل إلى درجة التفوق والإبداع..

وبعد هذه المحاضرة دار بيني وبينه حديثٌ عنها، ففوجئت بوجهة نظره في هذه القضية، والتي اكتشفت فيما بعد أنها ليست وجهة نظر شخصية غير متكررة، بل هي وجهة نظر لها مؤيدون، ومن ورائها مشجعون، والتي يرى فيها أن الله ﷺ - بفضله ورحمته - قد سخَّر الكفار لخدمتنا، وأنه منحنا الأموال الكافية لشراء الإنتاج العلمي المجهِد الذي يقومون به!!

ومن أعظم نعم الله علينا - والكلام ما زال له - أنه وهبهم العلم والتقنية المتطورة التي يصنعون بها كل ما نحتاجه نحن دون أن نبذل أدنى مجهود، والحمد لله الذي فرَّغ لنا الوقت للبحث في الأمور الشرعية، وإتمام العبادات والنوافل، أو حتى في اللهو.. ثم هم يعملون لنا!!

مع ملاحظة أن الرجل كان يتحدث عن هذا المنطق بحماسة شديدة وبحمية ظاهرة، بل ويصرِّح - بغرابة أشد- أن الله ﷺ قد سخر لنا **أمريكا** و**اليابان** و**الصين** و**ألمانيا** و**روسيا** وغيرهم ليكونوا طوع إرادة الأمة الإسلامية، فيخترعون ويبتكرون كل ما نريده!!

ولعلَّه قد فاته أن يذكر أن الله قد سخر **إسرائيل** أيضًا لخدمتنا، عن طريق الاحتلال باستخدام التقنية الحديثة والأسلحة المتطورة!!

الملاحظة الثالثة:

هناك خللٌ في فهم احتياجات الأمة الإسلامية، وطرق الإنفاق على وجوه الخير المختلفة، فتجد أن كثيرًا من أصحاب رؤوس الأموال قد يُنفقون على الفقراء والمساكين، ولكن لا ينفقون على طلبة العلم، وخاصة المغتربين منهم، والذين يعانون معاناة شديدة، ويحتاجون إلى تفرغ لجمع وتحصيل العلم..

ونجد أن بعض الأثرياء - مثلاً - يتبعون العمرة بعمرات عديدة، ومنهم من يوالون الحج عامًا بعد عام، ثم هم لا يفكرون في إنفاق المال في حضور مؤتمرٍ علمي متخصص في مجال كالطب أو الهندسة أو الفلك أو غيره، مما هو في مجال تخصصه وصميم عمله..

وقد تجد بعضهم يفكر في إنشاء معهدٍ ديني أو دار تحفيظ للقرآن، ولكنه لا يفكر في إنشاء مركزٍ لتعليم الكمبيوتر، أو مكتبةٍ علميةٍ حديثة، أو شبكة معلومات، أو جامعةٍ علميةٍ متخصصة..

بل إني رأيت كثيرًا من المسلمين في بلاد الغرب يحرصون على بناء مسجدٍ في بلدٍ قد يكون فيه عشرة مساجد أو يزيد، ولكنهم لا يحرصون علي بناء مدرسةٍ في نفس البلد، رغم افتقارها إلى مدرسةٍ واحدةٍ متخصصة!!

وهذا الخلل - لا شك - مردُّه عدم فقهٍ لمفهوم العمل الخيري في الإسلام؛ فالعمل الخيري عندهم مرتبط بالشعائر والعلوم الشرعية فقط، أما أمور إعمار الأرض وعلوم الحياة فهو مما يقع في مرتبة متأخرة جدًّا في الأولويات، أو لعله لا يقع في الأولويات أصلاً!!

الملاحظة الرابعة:

تفشِّي الأمية بصورة كبيرة في بلدان العالم الإسلامي.. وهو ما يعني غياب قضية العلم أصلاً، أو أنها ليست مطروحة بالمرة..

ففي مصر - على سبيل المثال - وصلت نسبة الأمية في الفئة فوق سن الخامسة عشرة ٢٩,٦٪ وهذا يعني أن من بين كل عشرة مصريين ثلاثةً تقريبًا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة[١]!!

ويعني أيضًا أن ما يقرب من ثلث المجتمع المصري الذي يقع عليه واجب الإنتاج لا يقرأ ولا يكتب.. وخاصة ونحن نواكب عصر الفضاء والأقمار الصناعية والتكنولوجيا متناهية التعقيد..!!

كما يعني ذلك أيضًا - فيما يعنيه - أن هذه النسبة الخطيرة لا تقرأ الجرائد ولا تعرف المجلات.. بل لم تمسّ المصحف الشريف أصلاً..!!

أمّا الغريب، فحين نعلم أن هذه النسبة ليست بمعزل عنّا، وإنما تعيش بيننا وفي محيطنا، ومع ذلك فلا تجد أهل الخير حريصين على تعليمهم أو الإنفاق على تعليمهم، وكأن القضية مهمشة تمامًا في حياتنا!!

وحتى نعي خطورة وفداحة هذا الرقم، فيكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في إسرائيل تبلغ

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت صفحة مصر، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

٩ , ٢٪ فيما فوق ١٥ سنة[١]!!

وفي الفئة العمرية من سن ١٥ إلى ٢٤ سنة، وهي فئة الشباب، والتي هي أمل الأمة وعليها بناؤها، فتبلغ نسبة الأمية بينها في مصر ١ , ١٥٪ في مقابل ٢ , ٠٪ لإسرائيل في هذه الفئة نفسها..[٢]!!

ولإبراز الصورة بشكل أوضح، فإن دولة مثل كوبا، والتي أنهكها الفقر والحروب، تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب من ١٥ إلى ٢٤ سنة (صفرًا)!! أي ليس بها شاب ولا فتاة لا يقرءون ولا يكتبون، وتبلغ نسبة الأمية في الكبار فيها ٢ , ٠ ٪ والتي هي في مصر - كما مر بنا - ٦ , ٢٩ ٪[٣].

بل إنك لتعجب أشد العجب إذا علمت أن نسبة الأمية في نفس هذه الفئة العمرية (فئة الشباب) في **فلسطين** المحتلة، في الضفة الغربية وغزة، هي ٩ , ٠٪ فقط، وذلك رغم الفقر والقهر والحصار اليهودي، ورغم قتل الأطفال والشباب والرجال والنساء، ورغم تهديم البنية التحتية من مبانٍ ومدارس ومستشفيات وغيرها[٤]..!!

وليست **كوبا** الفقيرة ولا **فلسطين** المحتلة وحدها في هذا المجال، بل إن معظم دول **أمريكا اللاتينية** الفقيرة مثل **شيلي والبرازيل**، وحتى **كولومبيا**، تتخطى نسبة التعليم فيها حاجز ٩٧ ٪ و ٩٨٪[٥].

ونعني بذلك أنه ليس هناك من أعذار ولا من مبررات للقعود عن حلِّ هذه المعضلة وإحداث التغيير المنشود، ولا ينفع في ذلك التحجُّج بالفقر أو الأزمات الاقتصادية أو غيرها..

ومثل هذا لا ينطبق على مصر فقط، بل وعلى معظم البلدان الإسلامية الأخرى؛ إذ إنَّ

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، صفحة إسرائيل، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2005/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت،كوبا ، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_CUB.html

(٤) موقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

(٥) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http:llhdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html

نسبة الأمية فيها قريبة جدًّا من النسبة في مصر، بل وأحيانًا كثيرة تكون أعلى منها، وذلك كما في المغرب - مثلاً - حيث تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب ٣٠٪ أي ضعف التي في مصر، وفي فئة الكبار تبلغ ٤٨٪ وهذه كارثة بكل المقاييس..[١]!! [انظر شكل رقم ١].

وإذا جئنا إلى موقف الإناث في مصر أيضًا - كمثال للبلدان الإسلامية - وجدنا أن نسبة الأمية بينهن وصلت إلى ٤١٪ في مقابل ٤٪ فقط لمثيلاتهن في إسرائيل[٢]!!

ومثل هذه الإحصائيات (انظر جدول رقم ١) تُعطي انطباعًا عما يكون عليه المستقبل في مصر مثلاً، وكذلك البلدان الإسلامية الأخرى، مع العلم بأن هذه النسبة من الشباب الذين لا يقرءون ولا يكتبون قلما تجدهم يعرفون قيمة العلم، ومن ثم لا يحرصون على تعلمه، وفي الأغلب الأعم لن يدفعوا أولادهم مستقبلاً إليه، وسيزداد الوضع بالنسبة لهم سوءًا على سوء.

فعلى مَنْ - يا تُرى - تقع مسئولية تعليم هؤلاء الشباب؟! هل هي مسئولية الحكومة وحدها؟! أم هي مسئوليتنا أيضًا كباغين للخير وساعين للصلاح، وكمتطلعين إلى رفعة أمة الإسلام وعلو شأنها..؟!

إن تعليم مثل هؤلاء القراءة والكتابة لهو من أبلغ وأهم مجالات الدعوة إلى الله ﷻ، وهو بابٌ يحتاج لمزيدٍ من الفكر والجهد، كما ينتظر من أهل الخير أن ينفقوا عليه بسخاء، وذلك عن طريق كفالة المعلمين الذين يقومون على تعليم هؤلاء الأميين، وإنها - والله - لنقلة نوعية للأمة، يوم يتقن جميع أبنائها القراءة والكتابة، بل علوم الدنيا والدين.

وقد يبدو لنا أن تعليم القراءة والكتابة أمر صعب قد يطول وقته، وتتعدد جلساته، ولكن هذا ليس صحيحًا بالمرة؛ وقد حكى لي أحد من أعرفهم أنه جلس مع اثنين من حرَّاس العمارات في المنطقة التي يقطنها، وفي خلال شهر واحد، بثمانية لقاءات تقريبًا لمدة تتراوح بين الساعة والساعتين، أصبحوا يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة..!!

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_MAR.html

(٢) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، مرجع سبق ذكره.

جدول رقم (١)

	على مستوى العالم	العرب	مصر	إسرائيل	فلسطين	المغرب	كوبا	سوريا	السعودية	سلطنة عمان	تونس	السودان
أكبر من ١٥ سنة												
الإجمالي	١٢٪	١٦٪	٢٩٪	٢,٩٪	٧,٦٪	٤٨٪	٠,٢٪	٣٠,٤٪	٢٠,٦٪	١٨,٦٪	٢٥,٧٪	٣٩,١٪
الذكور	٩٪	١٠٪	١٧٪	١,٥٪	٣,٣٪	٣٥٪		١٤٪	٢٢,٩٪	١٣,٢٪	١٦,٦٪	٢٨,٩٪
الإناث	١٠٪	٢١٪	٤١٪	٤٪	١٢٪	٦١٪		٢٦,٤٪	٣٠,٧٪	٢٦,٥٪	٣٤,٧٪	٤٩,٢٪
من ١٥ إلى ٢٤ سنة												
الإجمالي			١٥٪	٠,٢٪	١٪	٣٠٪	٠٪	٧,٨٪	٤,١٪	٢,٧٪	٥,٧٪	٣٢,٨٪
الذكور			١٠٪	٠٪	٠,٩٪	٢٠٪		٤٪	٤٪	١٪	٤٪	١٦٪
الإناث			٢١٪	٠,٤٪	١,٢٪	٤٠٪		٩,٨٪	٦,٣٪	٣,٣٪	٧,٨٪	٢٨,٦٪

مقارنة بين نسب الأمية في العالم العربي ودول أخرى

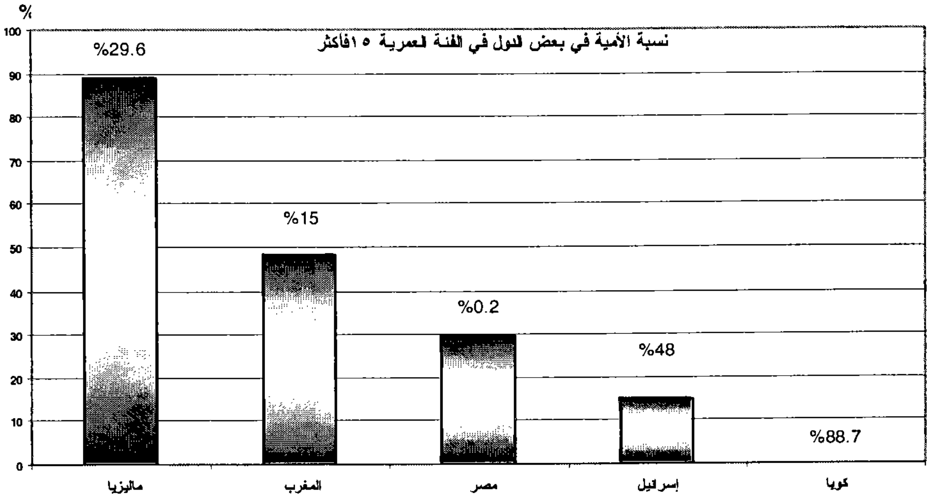

شكل رقم (١)

نسبة الأمية في بعض الدول في الفئة العمرية ١٥ فأكثر

وأعتقد أن مثل هذا العمل متيسرٌ للجميع.. لمن أراد الثواب، ولمن أراد الخير والصلاح لهذه الأمة..

الملاحظة الخامسة:

من الملاحظات المزعجة حقًا والمحزنة جدًّا، ظاهرة هجرة العقول الإسلامية إلى الغرب، فيما يُعرَف بظاهرة «استنزاف العقول» أو «Brain Drain»، فالدول الغربية بصفة عامة - وأمريكا بصفة خاصة - تحرص على استقطاب العقول المفكرة والمبدعة علميًا من شتي بقاع الأرض، ومنها - بالطبع - بلاد المسلمين..

وليس أدل على ذلك من أن أمريكا قد أعطت في التسعينيات ١٢ مليون مهاجر من شتي أنحاء العالم تأشيرة هجرة إليها، ولم تكن هذه التأشيرة مجرد تأشيرة سفر، فقد كانوا يعطونهم الجنسية الأمريكية، وفوقها ضمانات هائلة، وإغراءات مادية عالية، بحيث يذوب المهاجر تمامًا في المجتمع الأمريكي، وينقطع كليةً عن أصوله وجذوره التي انحدر منها[١]..

وموضوع استقطاب العقول هذا له أولوية خاصة في القرارات الأمريكية، حتى إن قانون الهجرة الأمريكية عُدِّل في سنة ١٩٩٥م ليعطي أولوية الهجرة لأصحاب العقول المفكرة والمبدعة، ويكفي أن نشير إلى أن أمريكا خصصت في سنة ٢٠٠٣م مائتي ألف تأشيرة لاستقطاب مهارات في مجالات علمية معينة، منها مائة ألف تأشيرة لاستقطاب مبرمجي كمبيوتر من الهند، وذلك عندما ظهر التفوق الهندي في هذا المجال في السنوات الأخيرة، مع أن الظاهر للعيان أن التفوق الأمريكي في مجال الكمبيوتر يُعدُّ تفوقًا ملحوظًا[٢]!!

وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنهم لا يبحثون عن مجرد التواجد أو السيادة بفارق بسيط، وإنما يبحثون عن السيادة بفارق هائل وحاسم، كما أن هذا الاستقطاب لن يقوي أمريكا فقط، بل سيعمل على إضعاف الهند التي ستفقد مائة ألف متخصص جملة واحدة!!

وبنظرة متفحصة في ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية إلى الغرب، تجد - على سبيل المثال - أن ٥٠٪ من الأطباء العرب المسلمين يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا هجرة نهائية،

---

(١) موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط:
http://www.balagh.com/thaqafa/320t3zh0.htm

(٢) راجع في ذلك مقال بعنوان: «العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار»، منشور على شبكة «بلاغ».

ليصبحوا بذلك ركنًا أساسيًا في نهضة المشروع الأمريكي الأوروبي الطبي، بينما ينزوي المشروع الإسلامي مع مرور الوقت.. وليس هذا في مجال الطب فقط؛ فالإحصائيات تقول: إن ٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المتخرجة يهاجرون متوجهين إلى أوروبا والولايات المتحدة، وكندا بوجه خاص، بل إن في **بريطانيا** وحدها تبلغ نسبة الأطباء من أصول عربية ٣٤٪ من مجموع الأطباء هناك[1]!! [انظر شكل رقم ٢].

وقد أثبتت دراسة أجريت على الطلاب العرب الذين يسافرون لتحصيل العلم من أوروبا **وأمريكا** أن ٥٤٪ منهم لا يعودون إلى بلادهم!! وبهذا وصل عدد العرب الذين يستقرون في

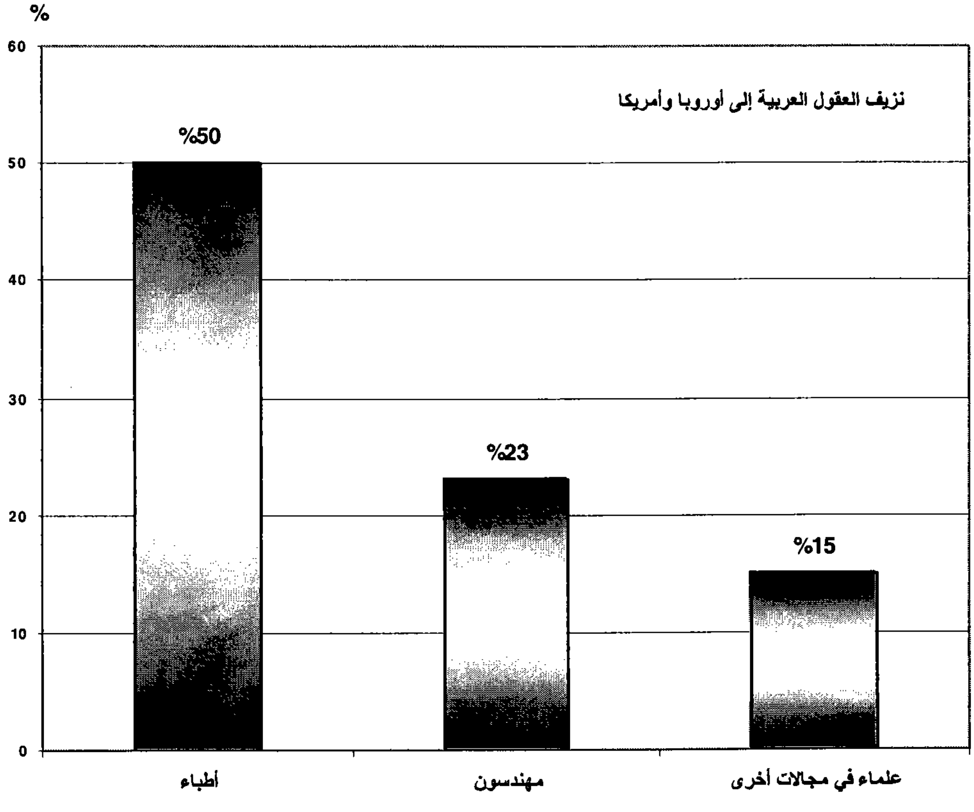

شكل رقم (٢)

---

(١) مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر ٢٠٠١: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط:

http://www.arab-ipu.org/publications/journal/782/memobrain.html

أوروبا وأمريكا من حملة الشهادات المؤهلة العليا حتى سنة ٢٠٠٠ إلى ٤٥٠ ألف عربي(١)!!

مع ملاحظة أن كل الإحصائيات السابقة على العرب وليست على عموم المسلمين، مع أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس العالم الإسلامي. فإذا أضفت المسلمين غير العرب فإن الإحصائيات ستصل - بلا شك - إلى أرقام مفزعة، وبالأخص إذا كان هناك دول إسلامية غير عربية اشتهر أبناؤها بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا بصورة لافتة، وذلك مثل **باكستان** و**الهند** و**إندونيسيا** و**تركيا** و**نيجيريا** وغيرها..

ويكفي للدلالة على ذلك أن **نيجيريا** - على سبيل المثال - صدَّرت بمفردها إلى الآن إلى **أمريكا** فقط أكثر من ٢١ ألف طبيب نيجيري، وذلك على مدار السنوات السابقة(٢)!!

والوضع في قارة أفريقيا بصفة عامة مشابه للوضع في بلاد العالم الإسلامي، وخاصة أن كثيرًا من بلدانها هي بلاد إسلامية أو بها نسبة عالية من المسلمين، وذلك كما في **الصومال** و**النيجر** و**مالي** و**تشاد** و**أوغندا** و**سيراليون** وغيرها..

فأفريقيا تصدر سنويًا ٢٠ ألف مهاجرٍ متعلمٍ إلى أوروبا و**أمريكا**، ثم بعد ذلك تدفع ٤ مليارات دولار سنويًا؛ كأجورٍ لأجانب وخبرات علمية مستقدَمة؛ لسد الثغرات التي خلَّفها غياب هؤلاء العلماء الأفارقة المهاجرين(٣)!!

وهذه الإحصائيات كلها في الظروف الطبيعية العادية، أمّا في حال الكوارث أو الحروب أو الفتنة أو غيرها، فإن الأرقام تكون أبشع من ذلك..

فالعراق مثلاً تنزف من عقولها وعلمائها ما لا يُتخيل، وهناك في **بريطانيا** أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي!! ويتضح حجم الخسارة إذا علمنا أن الطبيب العراقي كان يكلف دولته في السبعينيات أكثر من ٤٥ ألف دولار.. فخسارة أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي إذن -

---

(١) مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر ٢٠٠١: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط:

http://www.arab-ipu.org/publications/journal/782/memobrain.html

(٢) موقع القنطرة: مقال بعنوان: هجرة العقول سلبيات وإيجابيات ظاهرة الهجرة، الرابط:

http://www.quantara.de/webcom/show_article.php/_c-471/_nr-158/_p-1/i.html?PHPSESSID=133099777

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية: إدريس جالو: مقال بعنوان: هجرة االعقول الإفريقية الآثار والحلول، الرابط:

http://www.meshkat.net/new/contents.php?catid=6&artid=7717

وبحساب السبعينيات - تعني خسارة ١٠٠ مليون دولار!! وهذا بالإضافة إلى الخسارة العلمية الناتجة عن فقد هؤلاء العلماء، وبالإضافة إلى الخسارة الصحية الناجمة عن فقد من يعالج مرضى الدولة[١]..

والوضع ليس أفضل حالاً بالنسبة إلى فلسطين ولبنان والسودان.. وكل بلدٍ مر بحروب شديدة أو فتنة متكررة، وإن كان الأمر عامًا على كل بلاد المسلمين كما ذكرنا.

الملاحظة السادسة:

مع كل المعوقات التي تواجهها أمتنا للخروج من مأزق التخلف العلمي، إلا أن الأعذار لاستمرار هذا التخلف غير مقبولة؛ وذلك لأننا نرى دولاً أخرى غير إسلامية مرت بظروف أمتنا نفسها أو أشد، ثم هي تخرج من كبوتها وأزمتها، وترتفع إلى مصافِّ الدول المتقدمة والمؤثرة في العالم..

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتكررة، فهناك - على سبيل المثال - **اليابان** التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الخروج من الأزمة الرهيبة التي عصفت بها، وهناك **ألمانيا** التي أبيدت أيضًا في الحرب العالمية الثانية، وهناك **كوريا الجنوبية** التي لم تظهر على الساحة العالمية إلا منذ سنوات معدودات، وهناك **كوريا الشمالية** التي استطاعت أن تصنع السلاح النووي مع كل المعوقات التي تمر بها.. بل هناك **الهند**، مع كل ما تعانيه من فقرٍ وتكدُّسٍ سكاني رهيب، فإنها قد استطاعت أن تُصنِّع السلاح النووي، واستطاعت كذلك أن تنبغ وتبرز في مجال الكمبيوتر، بل وتصبح من الدول الأولى المرموقة في هذا المجال في العالم. ويكفي في التدليل على ذلك ملاحظة المعدلات المتنامية لصادراتها في مجال برامج الكمبيوتر؛ فقد بلغت صادرتها نحو ٢٣,٧١ مليار دولار في ٢٠٠٥ -٢٠٠٦م مقارنة بـ ١٧,٢١ مليار دولار في ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، وتسجِّل صادرات الهند في قطاع تكنولوجيا المعلومات سنويًا نموًا هائلاً، ففي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ سجل حجم الصادرات الهندية في هذا القطاع نموًا بنسبة ٣٧,٧٧٪ مقارنة بالفترة ما بين ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥[٢].

ومع أن المعوقات أمام الدول الإسلامية قد تكون أشد، إلا أن هذا ليس مبررًا لقبول

(١) موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط:
http://www.balagh.com/thaqafa/320t3zh0.htm

(٢) مجلة البيان: العدد (٩٨٤٢) السنة السابعة والعشرون، الرابط:
http://www.albayan.ae/servlet/Satellite?c=Article&cid=1161352119791&pagename=Albayan%2FArticle%2FFullDetail

مبدأ التخلف العلمي؛ فإنه إذا أرادت دولة إسلامية أن تصل إلى مستوى علمي لائق فإنها حتمًا ستصل، والأسباب متاحة للجميع، وليس أدل على ذلك من المثال الماليزي.. فدولة **ماليزيا** الإسلامية تتقدم اليوم بخطوات ثابتة رصينة في طريق العلم، وترتقي يومًا بعد يوم مع كل المعوقات التي تمر بها..

وهذه التجربة الماليزية تحتاج إلى دراسة متأنية؛ لأنها بالفعل تفتح أبواب الأمل أمام عموم المسلمين، وسنتعرض لها في نهاية الكتاب بإذن الله..

الملاحظة السابعة:

من الملاحظات السلبية والخطيرة كذلك -والتي تدل على إهمال المسلمين لعلوم الحياة- قضية «الإنفاق على العلم والبحوث العلمية»..

فقد أورد تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، بندًا يقيس مدى اهتمام دول العالم المختلفة بقضايا العلم، ويحدد ذلك بنسبة ما تنفقه الدولة على البحث العلمي من جملة ناتجها القومي كل عام..

وفي هذا التقرير لن نقارن الدول الإسلامية بالدول الصناعية الكبرى، مثل **أمريكا واليابان والصين وفرنسا وألمانيا وإنجلترا** وغيرها وإن كان يجب أن نقارن أنفسنا بهؤلاء لنصل إلى ما وصلوا إليه، بل ولنسبقهم إن شاء الله.. ولكننا سنقارن بدولة لقيطة ليس لها جذور حقيقية، ولا تملك من القيم ما يدفعها للصدارة، كما أنها قامت على أرض مضطربة مليئة بكثير من المشكلات والصعوبات والمعوقات، وتلك الدولة هي إسرائيل!!

فإسرائيل تنفق ٤,٩٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجازات التقنية، وتُعَدُّ هذه أعلى نسبة إنفاق في العالم على العلم، ويفوق في ذات الوقت ما تخصصه كل الدول العربية مجتمعة بنحو ثلاث مرات ونصف[1]!! وهي بهذا الكم من الإنفاق تستطيع أن تصل إلى مستوى الدول المصنِّعة والمبتكرة، بل وتفوقها، وبالفعل فقد أصبح لها رصيد محترم من الاختراعات والإضافات، وفي أكثر من مجال، سواء في العلوم العسكرية، أو علوم الفضاء، أو علوم الذرة، أو العلوم الطبية، وكذلك باقي مجالات التصنيع المختلفة..

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، صفحة إسرائيل، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

فالعلم يقع في بؤرة اهتمامها، ولذلك وصلت إلى مستوى متميز، وإلى مكانة مرموقة [انظر شكل رقم ٣].

أما إذا نظرت إلى الدول الإسلامية، فإنك - وللأسف الشديد - تفاجأ بأن قضايا الإنجاز العلمي والتقني والابتكارات لا تقع في بؤرة الاهتمام، ولا ينفق عليها من الناتج القومي إلا النزر اليسير، مع أنه إذا زاد الاهتمام بالعلم فإن ذلك سيساعد على تقدم الصناعة والزراعة والاقتصاد والتصدير، وكل المجالات الأخرى، وهذا - من وجهة نظر مادية بحتة - سيقدم الأمة للأمام خطوات وخطوات، وسيصب في قوتها، ليس علميًا واقتصاديًا فحسب، وإنما أيضًا سياسيًا وعسكريًا..

ولكن - على ما يبدو - فإن القضية لا تشغل أذهان المسئولين عن هذه الأمة الضخمة!!

فيذكر تقرير الأمم المتحدة أن مصر - مثلاً - تنفق ٢, ٠٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجاز التقني، أي أن نسبة إنفاق إسرائيل على العلم ضعف نسبة إنفاق مصر ما يقرب من ٢٥ مرة(١)!!

وعليه فلا يشك أحد أن التميز اليهودي في مجال العلوم سيكون ضعف التميز المصري ٢٥ مرة.. وهذه سنة ماضية فالذي يبذل في الدنيا لابد أن يصل إلى ما يريده من غايات، كما لابد لتحقيق نتائج معينة أن تُبذل أسباب بذاتها، حتى لو كان هذا الذي يبذل كافر ملحد.. يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

وعن بقية البلدان العربية، فإن حالها لا يختلف كثيرًا عن أحوال مصر في مجال الإنفاق على العلوم والتقنية، وهي تحوم حول النسبة نفسها تقريبا..

فهذا الأردن ينفق ٣, ٠٪ من الدخل القومي على العلم، وتونس كذلك، وسوريا تقل لتصل إلى ٢, ٠٪ من جملة دخلها القومي. وتعد الإمارات أعلى الدول العربية من حيث الإنفاق على العلم؛ إذ يصل نسبة إنفاقها ٦, ٠٪ من دخلها القومي(٢)، ومع أنها أعلى الدول العربية إلا أن المسافة بينها وبين إسرائيل مازالت شاسعة..

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م صفحة مصر، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

(٢) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م صفحة كل البلدان، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html

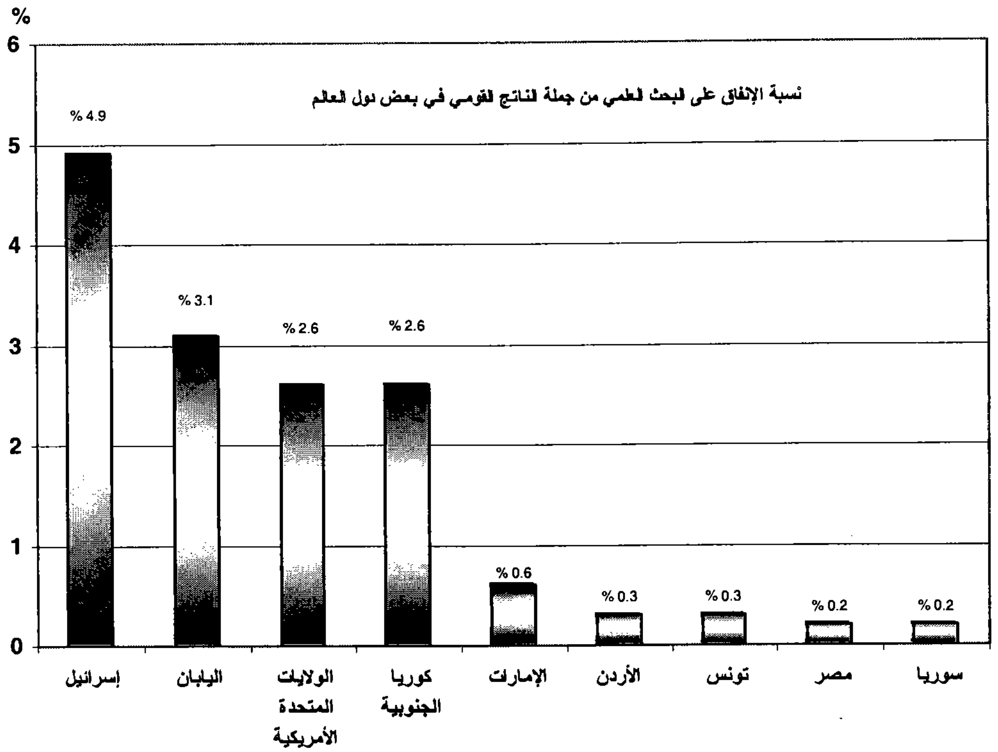
%
6
5
4
3
2
1
0
نسبة الإنفاق على البحث العلمي من جملة الناتج القومي في بعض دول العالم
% 4.9
% 3.1
% 2.6
% 2.6
% 0.6
% 0.3
% 0.3
% 0.2
% 0.2
إسرائيل
اليابان
الولايات المتحدة الأمريكية
كوريا الجنوبية
الإمارات
الأردن
تونس
مصر
سوريا

شكل رقم ٣

وفي غير قضايا الإنفاق على الأبحاث العلمية، وبما يعبر عن المدى الذي وصل إليه المستوى العلمي في الدول الإسلامية مقارنة **بإسرائيل**، فقد كشف تقريرٌ صادرٌ عن هيئة الأمم المتحدة عن حقيقة الفجوة التكنولوجية والعلمية بين العرب **وإسرائيل**، والتي تجسد تفوقًا علميًّا وتكنولوجيًا إسرائيليًا ساحقًا..

ففي حين يذكر التقرير أن لكل ١٠٠٠ مواطن إسرائيلي ٢١٧ جهاز كمبيوتر، يذكر أن في **الأردن** ٥٢ جهازًا لكل ألف أردني، وفي **لبنان** ٣٩ جهازًا لكل ألف لبناني، وفي **مصر** ٩ أجهزة لكل ألف مواطن **مصري**..[1]!!

وبالنسبة لعدد الباحثين العلميين في العالم العربي مجتمعًا، فإن التقرير يُشير أيضًا إلى أن لكل مليون مواطن عربي ١٣٦ باحثًا، في حين أن في **إسرائيل** ١٦١٣ باحثًا لكل مليون يهودي يعيش في إسرائيل[2]!!

وإذا أردنا التوسع في ذكر أمثلة أخرى، فإن في **أمريكا** ٤٣٧٤ باحثًا لكل مليون مواطن أمريكي، وفي **اليابان** ٥٠٠٠ باحث علمي لكل مليون مواطن ياباني[3] [انظر شكل رقم ٤]..

أما بالنسبة إلى نصيب المواطن في الدولة من الإنفاق على التعليم، فهو - حسب إحصائيات التقرير نفسه - في **إسرائيل** ٩٢٢ دولارًا سنويًا، والمواطن الأمريكي يصرف عليه ١٠٠٥ دولارات سنويًا، أما المواطن المصري فنصيبه ٦ دولارات سنويًا!! [انظر شكل رقم ٥].

والجدول رقم (٢) يوضح دارسي العلوم الطبيعية والعلماء والمهندسين، وإنتاجهم من البحوث العلمية، والإنفاق على البحث والتطوير العلميين في الدول العربية ودول مختارة، مقارنة بالمتوسط العالمي [انظر الجدول رقم ٢].

ولا تُعذَر البلاد العربية والإسلامية بفقرٍ أو بضيق في ذات اليد، ويكفي في ذلك أن نعرف أن واحدة من هذه الدول التي تشكو معاناة الفقر والتكدس السكاني، تُنفق الملايين والملايين على أمور ليست من الأولويات في شيء.. وقد رأينا مؤسسة علمية ضخمة في مصر تنفق ١٥ مليون جنيه مصري على تجميل السور المحيط بها، بينما يصعب جدًّا إنفاق ألف أو ألفيْ جنيه مصري على مشروع بحثي مفيد!! ورأينا أيضًا من يكلف تأسيس مكتب مدير مؤسسة علمية مئات الآلاف من الجنيهات، بينما يتردد هذا المدير في الموافقة على مكافأة بسيطة لعالمٍ كادح!!

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م.

(٢) المصدر السابق نفسه. (٣) المصدر السابق نفسه.

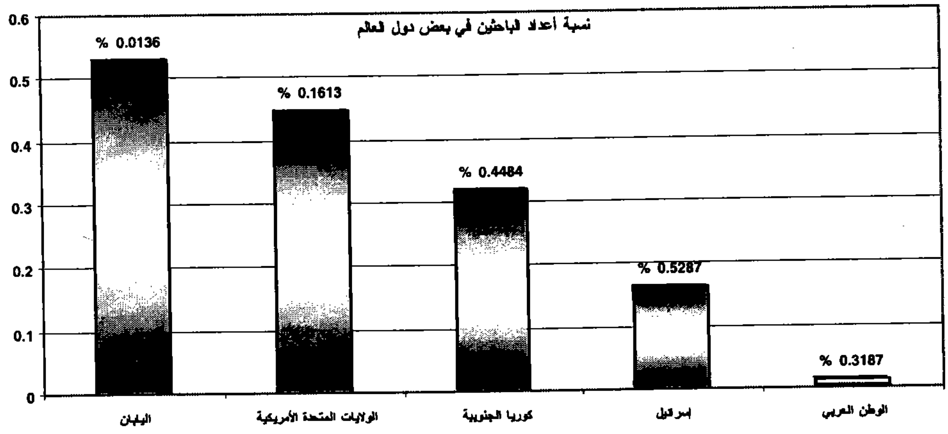

شكل رقم ٤

أعداد الباحثين

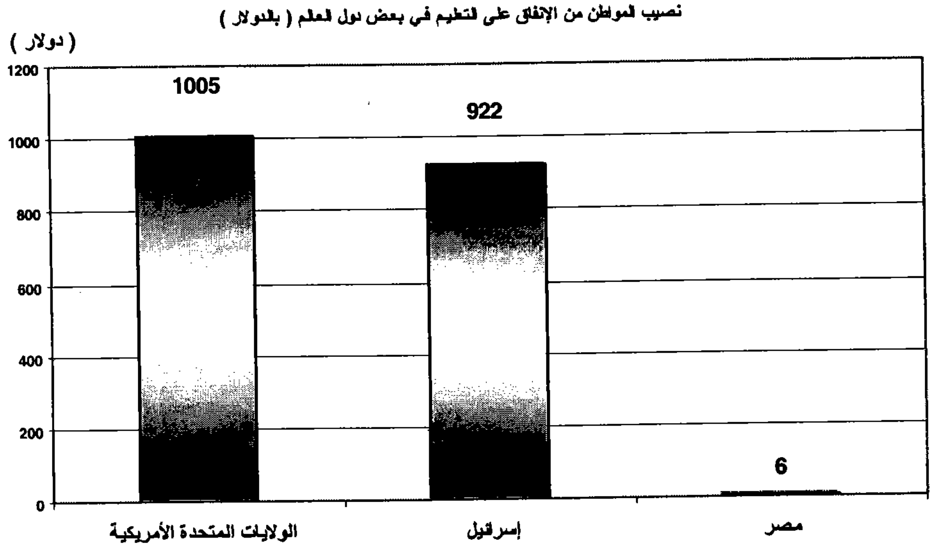

شكل رقم ٥

الإنفاق على التعليم

جدول رقم ٢

الدولة	عدد العلماء والمهندسين في البحث والتطوير لكل مليون من السكان ١٩٩٦ - ٢٠٠٢	عدد الفنيين في البحث والتطوير لكل مليون من السكان ١٩٩٦ -٢٠٠٢	عدد المقالات العلمية والتقنية عام ٢٠٠١	الإتفاق على البحث والتطوير كنسبة من الدخل القومي الإجمالي ١٩٩٦ -٢٠٠٢	الصادرات عالية التكنولوجيا بالمليون دولار عام ٢٠٠٣	عائد حقوق الملكية وتراخيص الإنتاج بالمليون دولار عام ٢٠٠٣
مصر	..	..	1548	0.19٪	9	121
الجزائر	..	..	225	..	12	..
العراق	..	..	21	..	..	..
الأردن	1977	728	240	..	28	..
الكويت	73	180	257	0.20٪	11	صفر
لبنان	..	..	202	..	17	..
ليبيا	361	493	19	..	..	..
موريتانيا	..	..	2	..	..	..
المغرب	..	..	469	..	680	26
عمان	..	..	96	..	26	..
السعودية	..	..	580	..	24	صفر
السودان	..	..	43	..	4	..
سوريا	29	24	55	0.18٪	5	..
الإمارات	..	..	159	..	17	..
تونس	1013	34	344	0.63٪	244	18
اليمن	..	..	10	..	..	..
الولايات المتحدة	4526	..	200870	2.66٪	160212	48227
اليابان	5085	..	57420	3.12٪	105454	12271
ألمانيا	3222	1435	43623	2.53٪	102869	4262
كوريا الجنوبية	2979	..	11037	2.53٪	57161	1325
الصين	633	..	20978	1.23٪	107543	107
إسرائيل	1570	518	6487	5.08٪	5322	425
العالم	..	..	648500	2.36٪	1043222	92116

العلامة (..) تعني: غير متاح، وقد اعتمدنا في الكتاب على بعض البيانات المحدثة عما في الجدول. والمصدر هو: World Bank, World Development Indicators: - 2005 P. 314) (316- عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠٠٦ - القاهرة، السنة الخامسة، يونيو ٢٠٠٦م.

فالإمكانيات متاحة والأموال موجودة.. لكن المشكلة تكمن في ترتيب الأولويات، وفي فقه الواقع، وفي الضمير، وفي تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وفي ضعف الاعتقاد في أهمية العلم..

وخلاصة هذه الملاحظة أن قضية العلم لم تقع بعدُ في بؤرة الاهتمام في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا – ولا شك – أحد أهم الأسباب المباشرة لحالة التخلف والتردي التي تمر بها الأمة، والأمر يحتاج إلى وقفات..

الملاحظة الثامنة:

نظرًا للأهمية القصوى للعلم، ونظرًا للاهتمام بأبحاثه والتطلع إلى كل جديد فيه، وأهمية أن تضع الدولة في مخططاتها المستقبلية سبل الارتقاء به وتنميته؛ فإن الأمم المتحدة – كما جاء في تقرير التنمية البشرية لسنة ٢٠٠١م – تُقسم العالم بحسب الإنجاز التقني إلى خمس فئات، وأولى هذه الفئات هي مجموعة القادة، ثم القادة المحتملين، ثم النشطين، ثم المهمشين، وأخيرًا: الآخرين..

وقد أظهر هذا التصنيف خللاً كبيرًا في عالمنا الإسلامي!! [انظر شكل رقم ٦].

فالفئة الأولى وهي مجموعة القادة ضمت ١٨ دولة، ليس من بينهم دولة إسلامية واحدة.. بينما تقع إسرائيل ضمن هذه الفئة الأولى!!

أما الفئة الثانية وهي القادة المحتَملون، فقد ضمَّت – فيما ضمَّته – دولة إسلامية واحدة هي ماليزيا، بينما تقع مصر وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر وإيران في فئة النشطين، أما بقية الدول العربية والإسلامية فتقع في طائفة المهمشين والآخرين، والذين لم يضعوا قضية العلم في حساباتهم مطلقًا..

والجدير بالذكر أن بعض هذه الدول الإسلامية تتميز بمستوى مرتفع في المعيشة، بل وارتفاع في معدلات التنمية، لكن – وللأسف – ليس لها اهتمام يُذكَر بالإنجازات التقنية.

وعند النظر إلى الدول القادة أو تلك التي يحتمل أن تصبح قادة، تدرك ولأول وهلة إلى أي مدى وضعت هذه الدول البحث العلمي في أولى حساباتها، وكيف كرَّست جهودًا مضنية للوصول إلى هذه المكانة المرموقة التي تبوأتها..

فعلى سبيل المثال فإن رجال الصناعة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وفي مجالات تصنيع الأخشاب في دولة مثل فنلندا - وهي دولة تتفوق في هذه المجالات - يخصصون ٢٠٪ من أوقاتهم لتوريث الخبرة إلى طلاب الجامعات الفنلندية.. وبذلك تستمر الدولة في طريقها نحو التفوق، ويبدأ فيها الطلاب من حيث انتهى العلماء، وتستطيع الدولة أن تحافظ على مكانتها العلمية، بل تتقدم وتسبق..

وفي دولة مثل الصين تجد أن الجامعات الحكومية تدعم مجالات البحث العلمي، ليس فقط في المشروعات الحكومية، وإنما تدعمه أيضًا لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص، وذلك مثل تحديث الصناعات البتروكيماوية، وتحسين الأنشطة التقليدية في مجال الزراعة، وغيرها..

وهكذا تساعد الجامعات الحكومية في الصين عموم الشعب لكي يبدع في مجالات العلوم والتقنية، ولا غرو إذن في أن تصل الصين إلى هذه المكانة المتقدمة التي احتلتها بين دول العالم..

وهذه كوريا الجنوبية.. تجدها تقفز خطوات كبيرة جدًّا في مجال العلوم والتقنية الحديثة، بل وتنافس الآن دول العالم الكبرى.. فإذا راجعت برامجها وقوانينها تجد أنها - مثلاً - تُقدم تسهيلات ضريبية كبيرة للشركات التي تسهم في مشروعات البحث العلمي، كما تجد أنها تمد هذه الشركات بالكفاءات العلمية التي تساعدها على إتمام مشروعاتها العلمية، وبالطبع فإن الفائدة في النهاية تعود على الدولة ككل(١)..

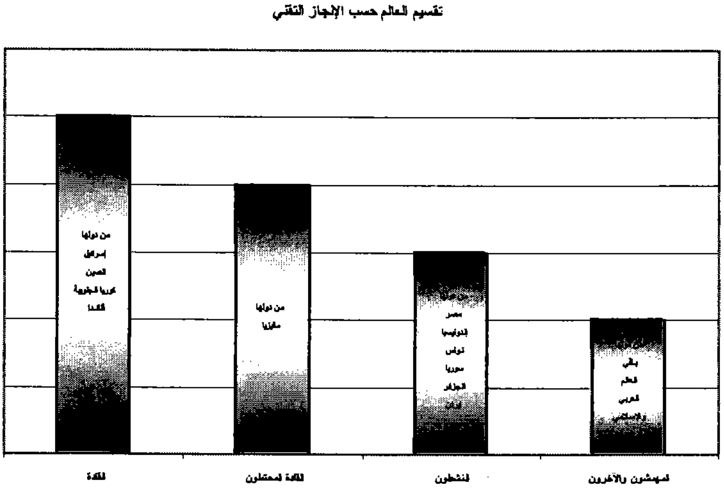

شكل رقم ٦ الإنجاز التقني

---

(١) مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية، ٢٠٠١م، الرابط
http://www.ahram.org.eg/acpss/ahram/1/1/2001/ECON٨.HTM.

الملاحظة التاسعة:

وضع وترتيب الجامعات الإسلامية على مستوى العالم.. فالطبيعي أن تقدم دول العالم يُقاس اليوم بقدر إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية وتقدم العلوم وهو دورٌ لا تقوم به إلا الجامعات العلمية في تلك الدول..

وعلى هذا الأساس فقد نشر معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج في شنغهاي بالصين [Institute of Higher Education Shanghai Jiao Tong University] تقريرًا تقييميًّا مفصّلا حول ترتيب ومكانة أفضل خمسمائة جامعة في العالم في سنة ٢٠٠٤م، وتلاه تقرير سنة ٢٠٠٥م، ثم تقرير سنة ٢٠٠٦م(١). [شكل رقم ٧]

وهذه التقارير تبرز بوضوح تلك الفجوة الهائلة في مجالات البحث العلمي والاهتمام بالإنجازات التقنية بين دول العالم الإسلامي ودول العالم الأخرى..

وبداية فإني لست مع من يُشكك في مصداقية أي من هذه التقارير، أو الادعاء بأنها غير موضوعية، وقد اطّلعت عليها فكانت النتائج جد متقاربة، مما يعطي انطباعًا بأن هناك دقة في المعايير.. وهذا بالإضافة إلى مطابقة نتائجها للواقع الذي نحياه..

ومما يعطي المصداقية أن تصنيف جامعة شنغهاي هذا استند إلى أربعة معايير علمية وموضوعية، يشهد بها كل الأكاديميين في العالم، كما يستند إلى عدد من المؤشرات أو وحدات القياس في كل معيار، ويخصص لكل من تلك المؤشرات نسبًا مئوية حصيلتها ١٠٠ علامة، وتلك المعايير والمؤشرات هي(٢):

١ - معيار جودة التعليم: المؤشر: «خريجو المؤسسة الجامعية، والحائزون على جوائز نوبل منها أو ميداليات في مجال تخصصهم، ونسبته ١٠٪».

٢ - معيار جودة الكلية أو المعهد: المؤشر: «الجهاز للبشري العلمي في المؤسسة، والحائزون على جوائز نوبل والميداليات في التخصص منها، ونسبته ٢٠٪، والمؤشر:

---

(١) نشر ترتيب الجامعات على موقع الكتروني يتبع جامعة شنغهاي، وذلك على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://ed.sjtu.edu.cn/ranking.htm

(٢) المرجع السابق نفسه، وفي صفحة خاصة بقواعد التفضيل بين الجامعات، الرابط الإلكتروني،
http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2004/Methodology.htm

نسبة أعداد جامعات بعض الدول ضمن أفضل خمسمائة جامعة في العالم سنة ٢٠٠٥م

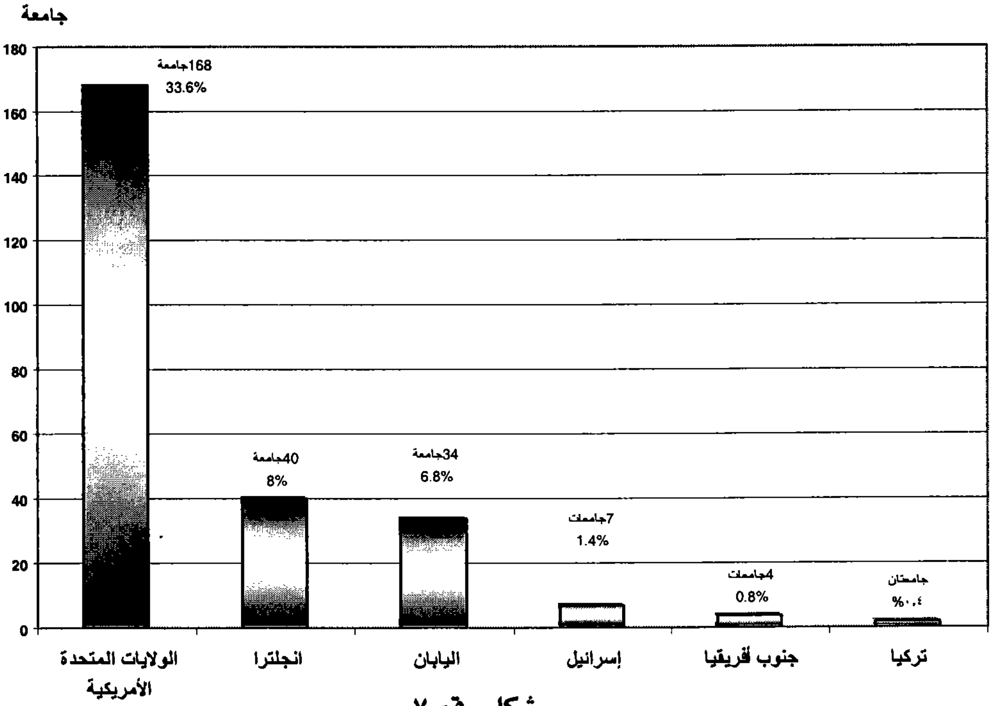

شكل رقم ٧

«الباحثون رفيعو المستوى لديها في ٢١ فئة من الموضوعات العلمية الرئيسية، ونسبته ٢٠٪».

٣- معيار مخرجات الأبحاث العلمية: والمؤشر: «المقالات المنشورة من قبلها في فهرس علوم الطبيعة والعلوم الأساسية، ونسبته ٢٠٪، والمؤشر: المقالات المنشورة في الفهارس الموسعة في العلوم الاجتماعية والفنون والعلوم الإنسانية، ونسبته ٢٠٪».

٤- معيار حجم المؤسسة: المؤشر: «الأداء الأكاديمي من قبلها، مع الأخذ بالاعتبار حجم المؤسسة العلمية، ونسبته ١٠٪».

فهي - ولا شك - معايير قوية وموضوعية جدًّا، استندوا إليها في ترتيبهم لأفضل خمسمائة جامعة في العالم.. وهو ما يجعلنا نقف وقفة - من خلال تقارير السنوات الثلاث السابقة - نستقريء منها الملاحظات المهمة التالية:

١- في تقرير سنة ٢٠٠٤م خَلَت الجامعات الخمسمائة من جامعة إسلامية، وفي تقرير سنة

٢٠٠٥م دخلت دولة إسلامية واحدة بجامعتين برقم ٤٠٩ و ٤٦٨ على العالم، وهي تركيا..!!

وهذا فأل حسن، والوصول إلى القمة لن يحدث قفزة واحدة، وتركيا استحقت بالفعل أن تدخل هذا الترتيب، وتحتاج تجربتها إلى دراسة متأنية.

وبينما أصابتنا حالة من الحزن لخروج تركيا من تصنيف الجامعات الأولى في تقرير سنة ٢٠٠٦م [انظر شكل رقم ٨]، عوَّضتنا مصر عن ذلك بدخولها في التصنيف بجامعة القاهرة، وذلك بترتيب ٤٠٤ من أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم[1].

٢- **أمريكا** هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد جامعاتها في تقرير سنة ٢٠٠٥م؛ إذ شملت القائمة ١٦٨ جامعة أمريكية، من بين العشرين الأولى فيها ١٧ جامعة أمريكية، ومن بين المائة الأولى ٥٣ جامعة أمريكية.

وتتصدر جامعة هارفارد الأمريكية الجامعات الخمسمائة، ثم جامعة ستانفورد في المركز الثالث، ومعهد ماساشوستش للتكنولوجيا، والذي درس به **بنيامين نيتانياهو** رئيس وزراء إسرائيل الأسبق في المركز الخامس ثم جاء معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، والذي يضم الدكتور **أحمد زويل** في المركز السادس.

أما بقية الجامعات العشرين الأولى: فاثنتان منها بريطانيتان، وهما جامعة كمبردج وتأتي في المركز الثاني وجامعة أكسفورد وترتيبها العاشر وجامعة يابانية، وهي جامعة طوكيو، وترتيبها العشرون، وكان ترتيبها في تقرير ٢٠٠٤م الرابع عشر.

٣- جاءت أولى جامعات **الصين** - التي خرج منها التقرير - في المركز ١٦٢ في ترتيب الجامعات، وذلك بجامعة تايوان الوطنية على أنها أولي الجامعات الصينية في الترتيب، وذلك باعتبار أن **تايوان** جزء من **الصين**.. ولم يرصد المعهد صاحب التقرير لجامعات بلاده ومعاهدها ومراكزها العلمية التي تبلغ الآلاف إلا ١٨ جامعة فقط..!!

وهو وإن دلَّ على شيء فإنما يدل على مصداقية وموضوعية هذا التقرير؛ إذ كان التحيز أن تأتي بكين أو **شنغهاي** على رأس القائمة لكونها في **الصين الشعبية** لا الجامعة الوطنية في تايوان.

---

(١) معهد التعليم العالي في جامعة شنغهاي جياو تونج، الصين، الرابط
http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2006/ARWU2006TOP500list.htm

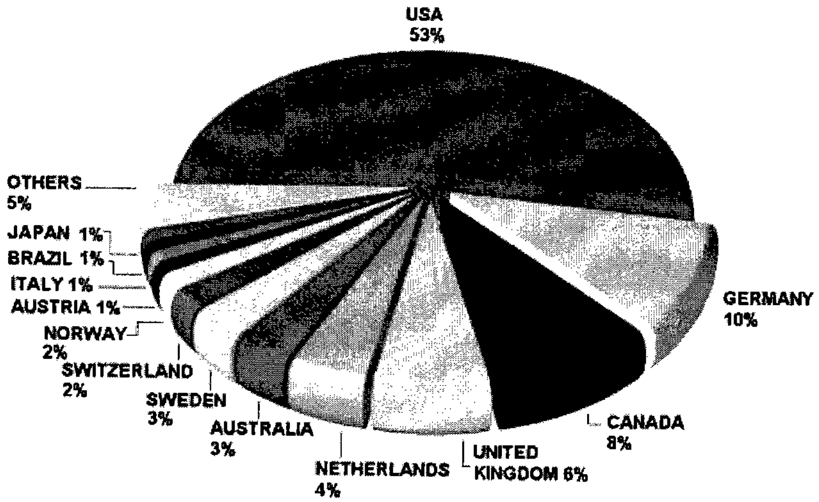

شكل رقم (٨)

٤- الدولة الثانية في عدد الجامعات بعد **أمريكا** هي **إنجلترا**، وعدد جامعاتها في قائمة الخمسمائة هو ٤٠ جامعة.. ولك أن تتخيل بعد ذلك الملازمة التي بينها وبين أمريكا، بعد أن تدرك أولاً من التابع ومن المتبوع فيهما..؟!

٥- الدولة الثالثة في عدد الجامعات في القائمة هي **اليابان** بنحو ٣٤ جامعة..

٦- تأتي **إسرائيل** لتحتل المركز الثاني عشر في التقرير، متفوقة بذلك علي دول كبري مثل **روسيا والصين**، وذلك بسبع جامعات إسرائيلية، على رأسها الجامعة العبرية في القدس، وجاءت في المركز ٧٨، وكانت في تقرير ٢٠٠٤م في المركز التسعين، بما يعني أنها في صعود وتقدم مستمر..!!

٧- وتأتي **جنوب أفريقيا** لتكون هي الدولة الأفريقية الوحيدة في قائمة دول الجامعات الخمسمائة عام ٢٠٠٤م، وذلك بأربع جامعات..

٨- ولئلاّ نعوِّل على الفقر، فقد ضمت القائمة دولاً فقيرة مثل: **سنغافورة والمكسيك وجنوب أفريقيا والمجر وأيرلندا والهند والأرجنتين واليونان وبولندا والتشيك وشيلي والبرتغال**..

٩- جاء ترتيب الدول الثمانية الصناعية الكبرى في المراكز العشرة الأولى، وذلك باستثناء روسيا، والتي جاء ترتيبها في المركز ١٧ بين دول القائمة، وليس هذا من قبيل المصادفة؛ فمن الواضح أن روسيا في تدهور مستمر، ولكن بصفة عامة لابد أن تكون الدول الصناعية

الكبرى في الصدارة بخصوص قضايا العلم والتعلم.

ويبين الجدول رقم (٣) تقرير معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج الصينيّة لسنة ٢٠٠٥م [انظر الجدول رقم ٣].

جدول رقم ٣

المكانة/ الرتبة	اسم البلد	حصادها من بين أفضل ٢٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ١٠٠ جامعة	حصادها من بين من أفضل ٢٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٣٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٤٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٥٠٠ جامعة
1	الولايات المتحدة الأمريكية	[illegible]	[illegible]	[illegible]	119	140	168
2	بريطانيا	2	11	19	30	36	40
3	اليابان	1	5	9	13	24	34
4	ألمانيا		5	16	23	33	40
5	كندا		4	8	17	19	25
6	فرنسا		4	8	13	19	21
7	السويد		[illegible]	5	9	11	11
8	سويسرا		3	6	6	7	8
9	هولندا		2	[illegible]	[illegible]	11	12
10	أستراليا		2	6	9	10	14
[illegible]	إيطاليا		[illegible]	5	9	18	23
12	إسرائيل		1	4	4	6	7
13	الدنمارك		1	3	4	4	5
14	النمسا		1	1	2	4	6
15	النرويج		1	1	2	3	4
16	فنلندا		1	1	2	2	5
17	روسيا		1	[illegible]	1	2	2
18	بلجيكا			4	6	6	7
19	الصين			2	6	15	18
20	إسبانيا			2	3	4	9
21	كوريا (ج)			1	2	5	8
22	البرازيل			1	2	3	4
23	سنغافورة			[illegible]	1	2	2
24	المكسيك			1	1	1	1
25	نيوزيلندا				[illegible]	2	5
26	(ج) أفريقيا				1	2	4
27	هنغاريا				1	2	2
28	اليونان				1	2	2
29	أيرلندا				[illegible]	1	[illegible]
30	الأرجنتين				1	1	1
31	تشيلي				1	1	1
32	بولندا					2	3

١٠- بعد تقارير معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج الصينيّة لسنة ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ و٢٠٠٦م [انظر شكل رقم ٩]، ظهر تقرير آخر سنة ٢٠٠٦ لمجموعة «لابوراتوريو دي إنترنت» المتخصصة، ومقرها مدريد، لتفاجئنا هي الأخرى بنتائج ترتيب أفضل ثلاثة آلاف جامعة في العالم.. إذ كانت النتائج أيضًا مفزعة [انظر الجدول رقم (٤)] ومخيبة للآمال[1]!!.

جدول رقم ٤

الرتبة / المكانة	اسم البلد	حصادها من بين أفضل ٢٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ١٠٠٠ جامعة
1	الولايات المتحدة	110	455
2	كندا	19	42
3	ألمانيا	16	68
4	المملكة المتحدة	13	79
5	استراليا	6	32
6	السويد	6	15
7	هولندا	6	13
8	سويسرا	5	10
9	اليابان	4	24
10	النرويج	3	7
11	البرازيل	2	11
12	النمسا	2	9
13	ايطاليا	1	27
14	تايوان	1	14
15	فنلندا	1	13
16	بلجيكيا	1	7
17	إسرائيل	1	7
18	جمهورية التشيك	1	7
19	المكسيك	1	4
20	سنغافورة	1	2
21	اسبانيا	1	32
22	فرنسا		20
23	الدينمارك		9
24	بولندا		9
25	الصين		9
26	البرتغال		7

(١) الترتيب الخاص بمجموعة «لابوراتوريو» منشور على موقعهم الخاص على شبكة الإنترنت، والرابط الإلكتروني
http://www.webometrics.info/index.html

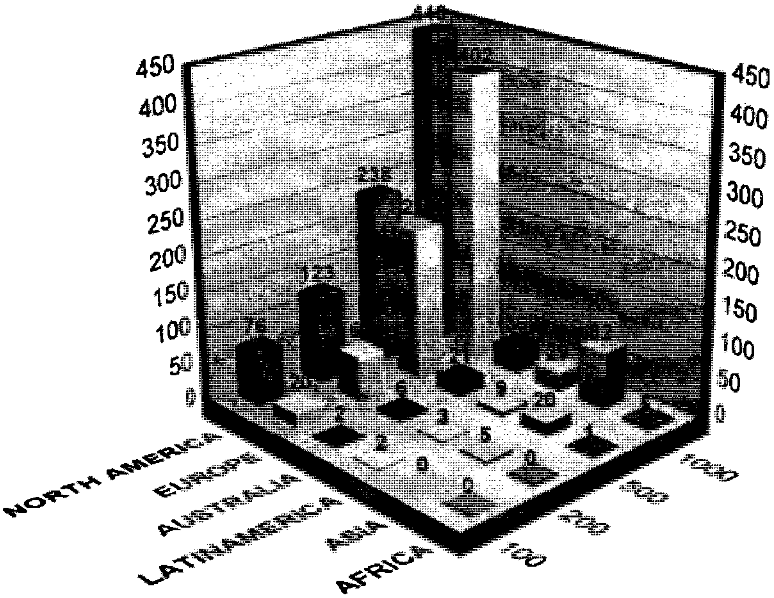

شكل رقم (٩)

فقد كانت **أمريكا** هي الدولة الأولى في العالم من حيث عـدد جامعاتهـا في تلـك القائمـة أيضًا؛ وقد شملت الألف جامعة الأولى ٤٥٥ جامعـة أمريكيـة، عـلى رأسـها جميعـا جامعـة **كاليفورنيا**. وكانت الدولة الثانية أيضًا في عدد الجامعات بعد **أمريكا هي بريطانيا**، بنحـو ٧٩ جامعة بريطانية.. ثم جاء الترتيب بعد ذلك قريبًا من التقرير السابق.

ولا شك أن مثل هـذه الحقيقـة لم تكـن مـؤامرة، وليسـت حقـدًا أو غـيرة مـن الـدول الإسلامية.. وإنما هي تجسيد وتصوير حيٌّ لما تمر به الأمة؛ الأمر الذي يوقفنـا عـلى تشـخيص المرض وموطن الداء، ومن ثم وصف الدواء..

الملاحظة العاشرة:

وهذه الملاحظة تعم بلدان العالم الإسلامي، وهي مؤسفة جدًّا، وتكمن في عدم الاهـتمام مطلقًـا بالهيئة التعليمية، تلك التي تحمل مسئولية قيادة البلاد علميًا وتقنيًا، وذلك بدءًا من العلـماء وأسـاتذة الجامعات، ومرورًا بكل مراحل التعليم، وانتهاء بمدرسي المدارس الابتدائية والحضانات..

والأمر - بلا شك - يعكس قيمة العلم في منظور هذه الدول..

فإذا نظرنا إلى المرتبات والأجور التي يتقاضاها العلماء والأساتذة - كواحدة من الصور التي تعكس قيمة العلم ومكانته في هذه الدول - تجد أنها لا تكفي بحال من الأحوال لسد أقل متطلبات الحياة اليومية!!

وعليه فإن هذا العالم وذاك الأستاذ من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يبرع ويبتكر في مجاله في مثل هذه الظروف.. فهو أولاً سيبحث عن عمل خارجي إضافي كي يتكسّب منه، ويحصِّل من ورائه جزءًا من المال يتقوى به على متطلبات الحياة، وكثيرًا ما يكون هذا العمل الإضافي في خارج مجاله تمامًا..

ثم هو ثانيًا لن يهتم كثيرًا بعمله في الجامعة أو المؤسسة العلمية؛ كونه يشعر بالغبن في الأجر، وبعدم التقدير للمجهود، ومن ثَم يعطي من مجهوده ما يتناسب في تقديره والأجر الذي يتقاضاه.

ثم هو ثالثًا يشعر بالسُّخط وعدم الانتماء لهذه الدولة التي لم تُقدِّر جهده وسعيه وعلمه.. وهذا الشعور المقيت يقتل كل نوايا الإبداع والابتكار.

وفي النهاية تراه وقد قرر الهجرة وترك الديار إلى بيئة تُقدِّره علميًا أو ماديًا.. فإما أن يهاجر إلى **أمريكا** أو إلى أوروبا ليرتقي بعلمه وينبغ فيه، ويدخل بذلك ضمن المنظومة العلمية الغربية، وإما أن يبحث عن عقد عمل مجزٍ، ولو كان على حساب مجاله، ولو كان في بيئة لا تهتم أصلاً بالعلم ولا تحفل به!!

ولعله من البدايات المهمة والتي يجب أن تكون نقطة انطلاق في تلك البلاد التي تريد أن يكون لها مكانة بين الدول الكبرى، أن تهتم بأجور علمائها وأساتذتها ومربيها.. ويكفي في الإشارة إلى ذلك أن تعلم أن مرتب أستاذ الجامعة في بلد مثل مصر هو أقل من مرتب أستاذ الجامعة في **أمريكا** أو أوروبا الغربية بأكثر من خمسين مرة على الأقل، وأحيانًا أكثر من مائة مرة، مع أن الأسعار بصفة عامة أرخص هناك عن الأسعار في بلادنا!!

وهذا يعطي انطباعًا وخلفية عن الحالة النفسية والمادية التي يعيشها العالم هناك، مما يعني فرصًا أكبر للإبداع والتفوق والابتكار..

ولا مجال هنا للاعتذار والتعلل بضعف الوضع الاقتصادي في بلادنا، والتحديات التي تواجهنا؛ فإن مرتب الوزير في بلادنا ومن كان في وضعه السياسي يفوق مرتب مثيله في تلك البلاد الغربية المتقدمة مرات عديدة!!

فالقضية إذن ليست قضية نقص مال، وإنما هي قضية نقص علمٍ ونقص فقهٍ وسوء تصرف.. وأحيانًا كثيرة تكون نقص ضمير!!

أنا لا أقول هذا لنلقي باللوم على بعضنا البعض، ولكن لنقف وقفة جادة في سبيل حصول التغيير.. أريد أن يعلم الجميع أن ديننا يأمر بعكس ما نفعل الآن.. ديننا يأمر بالعلم النافع على إطلاقه، سواء علوم الشرع أو علوم الحياة..

وأريد أيضًا أن أقول أن الوقت ليس متأخرًا أبدًا إذا أردنا البداية، وأن النهضة لا تحتاج إلى عقود، وإنما تحتاج إلى إخلاص، وإلى جهد، وإلى بذل، وإلى خطة، وإلى عمل..

نتيجة كل هذه الملاحظات السابقة، وبعد رؤية حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كان من الطبيعي أن يُتهم الإسلام بأنه سببٌ لهذا التخلف العلمي الذي تمر به الأمة..

وقد حرص أعداء الأمة - سواء من خارجها أو من أبنائها العلمانيين - على الضرب على هذا الوتر، وادعاء أن الإسلام «دينٌ رجعي» يقاوم التجديد، ويمنع الابتكار، ويقتل الإبداع!!

ولا ريب في أن هذا الادعاء خلاف الواقع والحقيقة تمامًا؛ إذ ما عرفت البشرية قانونًا أو تشريعًا كالإسلام يحض على العلم النافع، ويدفع إلى عمارة الأرض والاهتمام بكنوزها وثرواتها..

وإذا كان الغربيون معذورين بتخوفهم من الدين الإسلامي، وذلك لسابق عهدهم وذكرياتهم الأليمة مع الكنيسة الأوروبية، تلك التي حاربت العلم والعلماء بكل طاقتها، فلم يبدع علماء أوروبا إلا بعد أن تخلصوا من سلطان الكنيسة.. إذا كان الغربيون معذورين بذلك، فكيف يعذر المسلمون في هذا الفكر؟!

كيف يعذرون والنصوص القرآنية والنبوية التي تحض على العلم وتشجع عليه أكثر من أن تحصى؟ وكيف يعذرون والتاريخ الإسلامي كله يشهد بتفوق المسلمين العلمي وفي شتى

مجالات علوم الحياة؟ ويشهد كذلك التاريخ الإسلامي أن الدولة الإسلامية في معظم مراحلها كانت تشجع العلم وترعى العلماء، وكان الخلفاء يجزلون العطاء للعلماء، ويولونهم عناية خاصة، وكانت هذه سياسة عامة متبعة، وتوجهًا واضحًا للدولة الإسلامية على جميع مستوياتها..

إن الأمر يحتاج إلى وقفة جادة.. والألسنة التي تطعن في الإسلام لن تخرس إلا بصحوة علمية قوية، وبعزيمة صادقة.. تدفع المسلمين دفعًا إلى اللحاق بالركب، بل والسبق فيه إن شاء الله..

من هذه الملاحظات والمشاهدات العشر ومن غيرها، ندرك بوضوح أن قضية «علوم الحياة» والتقدم فيها ليست في نصابها، وليست في موضعها الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه بين المسلمين، بل أحيانًا نجدها خارجة عن بؤرة اهتمام المسلمين بالكلية..

أما لماذا وصلت الأمة إلى هذه الحالة.. فالأسباب - لا شك - كثيرة، وإن كانت كل هذه الأسباب مجتمعةً لا تبرّر هذا الموقف السلبي من قضايا الاجتهاد والابتكار في علوم الحياة، لاسيما أن الخلفية الشرعية لإهمالنا الذي نعيشه غير موجودة تمامًا؛ إذ الإسلام - كما رأينا - يحض على العلم النافع بكل صوره..

ولذلك فالقضية غريبة على الشرع الإسلامي، وتحتاج لوقفة وتحليل.. وهو موضوع الفصل التالي.

***

الفصل الرابع

الإِسْـــلامُ وَعُلُومُ الحَيَـاة

لا يخفى على أحد ذلك الخلل الكبير في المستوى العلمي لكثير من المسلمين، وأحيانًا يكون الخلل عند الملتزمين بتعاليم الدين، علمًا بأن مستوى هؤلاء الملتزمين في العلوم الشرعية غالبًا ما يكون على درجة طيبة جدًّا.. مما يعكس اهتمامًا بالجانب الشرعي، وتغليبه - إلى حدٍ كبيرٍ - على الجانب الحياتي في قضايا العلوم والتعليم..

وهذا الفصل في الاهتمام بين علوم الشرع وعلوم الحياة أمرٌ غريبٌ على الشريعة الإسلامية، ودخيل على أمتنا، وهو أمر جد خطير؛ لأنه كما لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بغير العلوم الشرعية، فكذلك لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بدون العلوم الحياتية، والفصل بينهما - لا شك - يؤخر المسيرة، بل يكاد يوقفها، وما عرِفَتْ الأمة الإسلامية السيادة والقوة والمجد والصدارة إلا وكانت علومها الحياتية قوية وسابقة، وما عرفت الأمة الإسلامية الضعف والتأخر والتخلف إلا وكانت علومها الحياتية ضعيفة ومهملة.. والتاريخ خير شاهد على ذلك، وفي أكثر من موضع.

إذن.. لماذا حدث هذا الفصام غير المفهوم؟!!

على ما يبدو فإن القضية في الأساس هي قضية فَهْم.. وإن كان للأعداء تخطيطهم وتدبيرهم، إلا أن العيب ينبع أساسًا من داخلنا..

فعلى مدار السنوات الماضية اختل فهم المسلمين - سواء بفعل فاعلٍ خارجي أو داخلي - لمعنى كلمة «العلم النافع»، فصاروا يقصرونها على العلوم الشرعية فقط، مع أن الأدلة - كما سنوضح بعد قليل - متواترة على عكس ذلك..

والأمر هذا كان مبنيًا على فهم أن ساحة التقرب إلى الله ﷻ محصورة فقط في الشعائر التعبدية المحضة، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، أما ساحة الدنيا وعمرانها وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، فقد ابتعدت عن تلك التي أُريد بها وجه الله سبحانه..

ففي العقود الأخيرة التي مرت بأمتنا نظر كثير من المسلمين إلى العلوم الحياتية نظرة

إهمال، بل نظرة ازدراء وتنقيص، وساعد على هذا الفهم الخاطئ بعض العلماء الذين قسّموا العلوم إلى علوم «دينية» وعلوم «دنيوية»، فغدت علوم الطب والهندسة والكيمياء، وما على شاكلتها علومًا دنيوية، بينما علوم الشريعة من فقه وتفسير وعقيدة وغيرها هي العلوم الدينية أو الأخروية!!

وهكذا فإن المسلم الملتزم سرعان ما يشعر بحرجٍ شديد وهو يدرس هذا العلم الدنيوي؛ إذ إنه ينصرف بذلك - فيما يظن - عن علوم الآخرة، وهذا يعني عنده أنه سيترك شيئًا من أمور «الدين» إلى شيء من أمور الدنيا!!

والدنيا بصفة عامة مذمومة في الكتاب والسنة، وما أكثر الآيات والأحاديث التي جاءت تحث المسلمين على الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها ولا بحجمها.. والأمر في ذلك أكثر من أن يُحصى، ويكفي للدلالة عليه أن نورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول سبحانه أيضًا منقصًا من شأنها وقدرها: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وروى المستورد الفهري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مَثَلُ الدُّنيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليم، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ»(١).

كذلك روى سهل بن سعد ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(٢).

ونتيجة لربط هذه العلوم الطبيعية والحياتية بالدنيا، نظر الملتزمون إليها على أنها مما يُبعد

---

(١) مسلم: كتاب الجنة ونعيمها وصفات أهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨)، وأحمد (١٨٠٣٧)، وابن حبان (٤٣٣٠)، والطبراني في الكبير (٧١٣).

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم (٧٨٤٧)، وقال: حديث صحيح، والطبراني في الكبير (٥٨٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٦٥)، وقال الألباني: صحيح (٥٢٩٢) صحيح الجامع.

عن الدين الإسلامي، وأن الاشتغال بها أمرٌ مذموم، وأن الدارس للهندسة - مثلاً - والكيمياء وعلوم الذرة، هو رجلٌ نسي دينه واهتم بدنياه!!

والحق أن هذه كلها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان؛ فعلوم الطب والهندسة وغيرها هي طرقٌ واضحة من طرق الجنة إذا صلحت النوايا وأخلصت لله تعالى، وهي علوم «أخروية» إذا ابتغى بها العبد ثواب الآخرة، وهي علوم «دينية» إذا أراد بها المسلم نصرة دينه ورفعة أمته..

والواقع كذلك أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا تُجّارًا وزُرّاعًا وصُنّاعًا، وقبلهم أنبياء الله ﷺ، كلٌّ كان له حرفة وصناعة بجانب مهمته الأساسية، فكان **آدم** حراثًا، وكان **داود** حدادًا، وكان **نوح** نجارًا، وكان **إدريس** خياطًا، وكان **موسى** راعيًا، وكان **زكريا** نجارًا.. فلم يقعد بهم انشغالهم بالآخرة والعمل لها وتعليم علومها عن العمل للدنيا وتعميرها وتسخيرها وتعليم علومها..

بل إن **عمر بن الخطاب** ﵁ كان إذا نظر إلى رجلٍ ذي سيما (هيئة حسنة) قال: أله حرفة؟ فإن قيل لا سقط من عينه[1]..!!

ثم ماذا يعني قوله ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»**[2]؟!

لماذا يغرسها وهي من نفع الدنيا، فضلاً عن أنه لن يستفيد منها دنيويًا أصلاً؟!

والذي يُفهم من ذلك كله هو - كما يُعبر الدكتور **عبد الباقي عبد الكبير**[3] - أنه في سعْينا لقضاء حوائجنا والقيام بمسئولية عمران الأرض ووظيفة الاستخلاف فيها بنية خالصة، سعْيٌ لإرضاء الله ﷻ.. بل إن سعْينا لعمران الأرض، وتعليم علومها، والوقوف على ثغراتها التنموية، وإخراج المجتمع من عوْز الحاجة، كلٌّ في مجاله وحسب إمكانياته وقدراته

---

(١) عبد الرءوف المناوي: فيض القدير ٢/ ٢٩٠.

(٢) أحمد (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١٢١٦)، وقال الألباني: صحيح (١٤٢٤) صحيح الجامع.

(٣) عبد الباقي عبد الكبير عبد الواحد ولد عام ١٩٧٠م في مدينة وردك بأفغانستان، حصل على الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة والقانون في السودان، ويعمل حاليا بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية بمدينة زليتين، ليبيا، ومن مؤلفاته: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.

الوظيفية.. هو في الأساس سعيٌ لإعلاء كلمة الله ﷻ ورفع راية الإسلام[1]..

وعليه، وإذا كانت القضية في الأساس - كما رأينا - قضية فَهم وسوء فقه.. فإننا نود القيام من ركائز ومنطلقات صلبة وقويمة، هي من أساس ديننا ومن صلب معتقداتنا..

وفي بداية هذا الطريق فلا أحبذ أبدًا إطلاق لفظ علوم «دنيوية» على هذه العلوم، وإنما يمكن أن نطلق عليها «**علوم الحياة**».. فهي علوم أراد الله ﷻ لنا أن نتعلمها لنصلح بها حياتنا على الأرض..

والحياة بصفة عامة ليست مذمومة كالدنيا، بل هي نعمة من الله تعالى..

وانظر إلى قوله سبحانه وهو يربط بين مراعاة أحكام الشرع وبين الحياة الطيبة حين يقول: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل: ٩٧].

وهكذا، فتكون علوم «الحياة» من هذا المنظور، والتي تعني شيئًا عظيمًا علويًا، أرقى وأعظم من علوم «الدنيا»، والتي تعني الدونية والسفلية..

ويوضح هذا المعنى وذاك المراد قوله تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعلى هذا النهج تسير كثير من الآيات والأحاديث.. مما يعطي ثراءً ملحوظًا لكلمة الحياة..

ثم لنقف وقفة نحاور فيها ونناقش أولئك الذين صرفوا جل وقتهم واهتماماتهم لعلوم الشريعة، ولم يشاءوا أن يصرفوا قدرًا من جهدهم وفكرهم ومالهم ووقتهم لعلوم الحياة.. ونجيب معهم عن سؤال مهم مفاده:

هل يعقل أن يُهمل المسلمون علوم الحياة؟!

وفي معرض الجواب بالنفي الصريح عن هذا السؤال، نقدم هذه الأدلة وتلك البراهين القطعية على نُبل هذه العلوم إذا ما وجهت لخير الأرض، ونفع البشرية، ورفعة هذا الدين، وعزة هذه الأمة:

الدليل الأول:

هل نسي الإنسان أن الله ﷻ قد جعله «خليفة» في الأرض؟!

وحين تكون الإجابة قطعًا بالنفي، فلنتفكر معًا: كيف يمكن أن يُستخلف الإنسان في

(١) موقع إسلام أون لاين: استشارة إعمار الدنيا فريضة وضرورة للدكتور: عبد الباقي عبد الكبير.

الأرض وهو لا يعلم شيئًا عن علومها؟!

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن الذي يُستخلف في الأرض يجب أن يعرف ربه، وأن يعرف كيف يعبده، ثم لابد له أن يعلم طبيعة المكان الذي استخلف فيه، وكيف يمكن استغلاله لعبادة الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فمن شروط الاستخلاف، ومن واجباته الأساسية، أن يعرف الإنسان كيف «يَعْمُر» الأرض، وكيف يكشف كنوزها ويستفيد من ثرواتها.. وكيف يُسخِّر كل ما يمكن أن تصلح به «الحياة» على وجه هذه الأرض.

ولما خلق الله آدم ﷺ، وعظمه ورفع قدره، وأسجد الملائكة له.. لم يكن ذلك إلا بالعلم الذي أتاه إياه، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

والسؤال إذن: ما هذا العلم الذي علمه الله ﷻ آدم ﷺ، وبه تفوق على الملائكة؟

لقد علَّمه الله ﷻ - فيما يروي ابن عباس ﷺ- أسماء كل شيء: الجبل، والشجر، والبحر، والنخلة.. وأسماء الناس والدواب[1]..

أي أن الله ﷻ علمه العلوم «الطبيعية» التي سيحتاج إليها للحياة فوق الأرض وعمارتها، أما الملائكة فهي لا تعلم هذه الأسماء وتلك العلوم؛ لأنها لن تستخلف على الأرض، ومن ثم فهي ليست في حاجة إليها..

والواضح أنه لو علَّم الله ﷻ آدم ﷺ العبادة بمفهومها المقتصر على الصلاة والصيام والذكر والدعاء، لتفوقت الملائكة على آدم ﷺ في هذا المجال، وما كان هناك داعٍ أن يُستخلف الإنسان في الأرض، بل يعيش في السماء كما تعيش الملائكة، يفعل أفعالهم، ويكتفي بعلومهم.. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

فلم يكن علْمُ آدم ﷺ علمًا شرعيًا فقط، وإنما كان علمًا حياتيًا كذلك..

وعليه فإن الإنسان إذا أهمل العلوم الطبيعية أو علوم «الحياة»، فإنه بذلك يُهمل أهم مقومات استخلافه على الأرض.. وهذا لا يجوز في حق مسلم واعٍ، يفهم دينه، ويدرك طبيعة

(١) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٩ .

استخلافه على الأرض..

الدليل الثاني:

أكمل الله ﷻ العلوم الشرعية قبل وفاة رسول الله ﷺ.. قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]..

وليس هناك وحيٌ بعد رسول الله ﷺ، ومن ثم فستبقى العلوم الشرعية كأصول كما هي.. نعم قد يجتهد علماء الشرع في بعض الأمور بحسب المتغيرات والمستجدات في البيئة والزمان والمكان، ولكن تبقى الأصول ثابتة موجودة في القرآن والسنة..

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

أما بالنسبة لعلوم الحياة، فإن الأمر يختلف؛ إذ أنها علوم لم تكتمل بعد، ولن تكتمل أبدًا.. ففي كل يوم يمر علينا يُكشف لنا كشفٌ جديد في هذه العلوم، وعلم اليوم في الطب - مثلاً - يختلف عما سيكون عليه غدًا، وهما غير ما كانا عليه بالأمس وهكذا..

فعلوم الحياة في تطور وتغير مستمرين.. وما يُعَدُّ اليوم حقيقة علمية، قد يُكتَشف غدًا أنه وهم لا أصل له، أو أن هناك ما يتخطاه ويتعداه، وما أكثر المعتقدات العلمية التي ظلت موروثة لمئات السنين، ولم تتغير إلا منذ سنوات قلائل بعد اكتشاف خطئها..

يقول تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

فالآية نزلت بصيغة المستقبل، وستظل تُقرأ إلى يوم القيامة بصيغة المستقبل، وسيظل المستقبل إلى يوم القيامة يحمل جديدًا في علوم الحياة، سواء كان في الكون (في الآفاق)، أو في الإنسان (وفي أنفسهم)..

والعمل الدءوب في هذا المجال مطلوب ومهم.. وإلا سبق الركب، وتعذَّر اللحاق!

الدليل الثالث:

هناك الكثير من القضايا الشرعية والفقهية لا يستطيع فقهاء المسلمين أن يقطعوا فيها برأيٍ صائبٍ، يبين الحل أو الحرمة فيها إلا بالاستعانة بعلماء مسلمين في مجال العلوم الحياتية.. يكونون مهرة في مهنتهم، أكفاء في تخصصهم..

فإذا أخذنا علم الاقتصاد والتجارة - على سبيل المثال - كنموذج للدراسة.. فهل يستطيع فقيهٌ مسلم غير متخصص أن يستنبط آراء فقهية صائبة في كل المعاملات الاقتصادية والتجارية؟! هل يستطيع أن يقطع بحل أو حرمة في قضية من قضايا التجارة وعلم الاقتصاد دون أن يكون على إحاطة تامة بأوجه المعاملات والمضاربات التي تتم في البنوك والبورصة والشركات والأسواق وغيرها؟!

بالقطع الإجابة هي النفي، خاصة وأن العلوم قد تشعبت كثيرًا، حتى أصبح داخل كل علم علومٌ أخرى كثيرة تتفرع منه وتنبثق عنه، ولكل فرعٍ من هذه العلوم متخصصون وباحثون ودارسون..

ثم وعلى فرض إمكانية أن يُدلي الفقيه بدلوه في مثل هذه القضايا ودون الرجوع إلى متخصصين فيه - وهو مستحيل وغير جائز - فما الحال إذا وجدنا مخالفة شرعية في مثل هذه العلوم؟ كيف يمكن إصلاحها وأسلمتها وفق المنهج الإسلامي؟! وكيف يمكننا أن نتعامل مع الأنظمة الاقتصادية العالمية المحيطة على ما بها من مخالفات، دون الوقوع في مخالفة شرعية؟!

ألا نحتاج في ذلك كله إلى اقتصادي متخصص؟! ألا نحتاج إلى من يدرس الاقتصاد بكل تفريعاته وعلومه، ويُلمُّ بكل تفصيلاته ودقائقه، ثم هو يدرس الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد والتجارة، ثم يبدأ في صياغة الاقتصاد الإسلامي بالصورة التي تتناسب والعصر الذي نعيش فيه، ودون الوقوع في أدنى مخالفة شرعية؟!

ونستطيع أن نستشهد في ذلك بمثال واقعي في مجال الحقوق والقوانين، فقد كان الشهيد القاضي **عبد القادر عودة** من خريجي كلية الحقوق، وقد ألَّف كتابه «التشريع الجنائي الإسلامي»، والذي استطاع أن يُقدِّم فيه دراسة فقهية حول التشريع الجنائي في الإسلام وفلسفته ومقارنته مع القانون الوضعي، كما استطاع أن يُثبت بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة محاسن الشريعة الإسلامية وتفوقها على القوانين الوضعية، مع سبقها إلى تقرير كل المبادئ الإنسانية والنظريات العلمية والاجتماعية التي لم يعرفها العالم، والتي لم يهتد إليها العلماء إلا مؤخرًا..

ألا تحتاج الأمة في حياتها إلى مثل ذلك؟!!

أليست هذه ثغرةً إسلامية تحتاج إلى من يسدها ويقف عليها؟!

ثم أليس من يقوم بذلك يكون مأجورًا من الله ﷻ على علمه وعمله هذا؟!

وهل يعتقد المسلمون المعظمون لدينهم أنهم لن يأثموا بترك هذا المجال وليس فيه متخصصون؟!

ألا يعتقد المسلمون أن دراسة الاقتصاد من هذا المنظور هو طريق مباشر من طرق الجنة؟!

والحقيقة أن الإجابة في ذلك لا تخفى على ذي عقل وصاحب لُبّ.. وليكن في خلد الجميع أنه لن يقوم هذا الدين حقًا إلا بمبدعين في شتى مجالات وعلوم الحياة!!

وفي علم الطب - كنموذج ثانٍ للدراسة - نستطيع أن نقف أيضًا على ما وقفنا عليه في علم الاقتصاد، من حاجة فقيه اليوم الماسة إلى طبيب مسلم متخصص، يساعده في تقرير فتواه فيما له علاقة ببعض جوانب الطب..

إذ كيف سيدلي عالمٌ شرعيٌ في قضايا دقيقة لها علاقة قوية بالطب، دون الاستعانة بطبيب مسلمٍ ماهر، يستطيع أن يشرح بدقة طبيعة الأمر في النقطة التي يحتاجها الفقيه؟!!

وكيف لنا أن نعرف حُكم الشرع في القضايا المستجدة وثيقة الصلة بالطب؟

كيف لنا أن نعرف حكم الشرع - مثلاً - في قضايا مثل «الاستنساخ» أو «زرع الأعضاء» أو «عمليات التجميل»، أو «أطفال الأنابيب» أو التداوي بما قد يتخلله مُحرَّم.. وغيرها؟!

كل هذه الأمور وغيرها مما يستجد في حياتنا اليومية، نحتاج فيها - ولا شك - إلى أطباء مهرة في تخصصهم، ثم هم يدرسون في الشرع ما يختص بالفرع الذي يتقنونه، وبذلك يمتلكون القدرة على الإدلاء برأي صائب، يوافق بين رأي الطب ورأي الشرع.

أفلا يكون الطب من هذا المنظور طريقًا إلى الجنة؟! وهل يعذر المسلمون إذا لم يخرجوا لأمتهم أطباء يوضحون لهم هذه الأمور، ويبينونه للفقهاء، فيتمكنون من الإفتاء بالحلال أو الحرام فيما يتعلق بهذه المسائل؟!

فهذا - ولا ريب - بابٌ لابد من أن يتفوق فيه المسلمون، ليقيموا بذلك دينهم، وليطبّقوه كما أراد الله ﷻ..

ومن هذا المنطلق فهذه العلوم جميعًا، سواء أكانت علوم اقتصاد أو علوم سياسة أو علوم طب أو هندسة، أو غيرها ممن هي على شاكلتها، وتنفع الأمة وتصلح الحياة للإنسان على الأرض.. هي كلها علوم أُخروية، بشرط توفر النية الصالحة، والإخلاص لله ﷻ.

الدليل الرابع:

إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!

لن يخالفني أحد إذا قلت بأن البديل في ذلك هو أن يعتمد المسلمون في هذه المجالات التي أهملوها وتخلفوا فيها، على غيرهم، أو قل: على عدوهم؛ إذ هو البديل الوحيد أحيانًا!!

فهل يستقيم هذا الأمر شرعًا؟!

هل تقوم أمة على أكتاف غيرها؟! بل هل تقوم أمة على أكتاف أعدائها..؟!!

أليس أمرًا يدعو إلى الدهشة والغرابة حين يضطر المسلم لكي يبدع في مهنة ما أن يسافر إلى بلاد أعدائه ليتعلم منهم، وينقل عنهم؟!

وكيف يقوم مصنع في بلد مسلم على ماكينات وقطع غيار مستوردة من بلاد عدوه؟!

وماذا يحدث لو دارت رحى الحرب بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها هؤلاء، أو حتى حدثت بينهما مقاطعات؟ هل سنوقف حياتنا انتظارًا لتحسن العلاقات مع الأعداء؟!

وأوضح من ذلك: كيف سنحارب أعداءنا إذا كنا نعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في السلاح، وهم الذين يعلمون بالضبط ما قد يكون مهمًا ومؤثرًا ومتقدمًا فيمنعونه إيانا، وما قد يكون قليل الأهمية ضعيف التأثير والجدوى فيبيعوننا إياه؟!

إن هذا - وايم الله - لهو العجب فعلاً!!

وحتى لا نكون مبالغين ولا مهوِّلين، فهذه إحدى إحصائيات سوق السلاح الدولية [انظر شكل رقم ١٠]، تشير الإحصائية إلى أن صادرات أمريكا من السلاح ما بين عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤م بلغت ٢٥,٣٩٠ مليار دولار، وهي بذلك تعد الدولة الثانية في العالم في تصدير السلاح بعد روسيا والتي بلغت قيمة صادراتها ٢٦,٩ مليار دولار في الفترة نفسها.. وأن ٥,٠٧٩ مليار دولار من إجمالي الصادرات الأمريكية من السلاح هي دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي[(١)]!!

---

(١) مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية الصادر عام ٢٠٠٦م ص١١٣-١١٨.

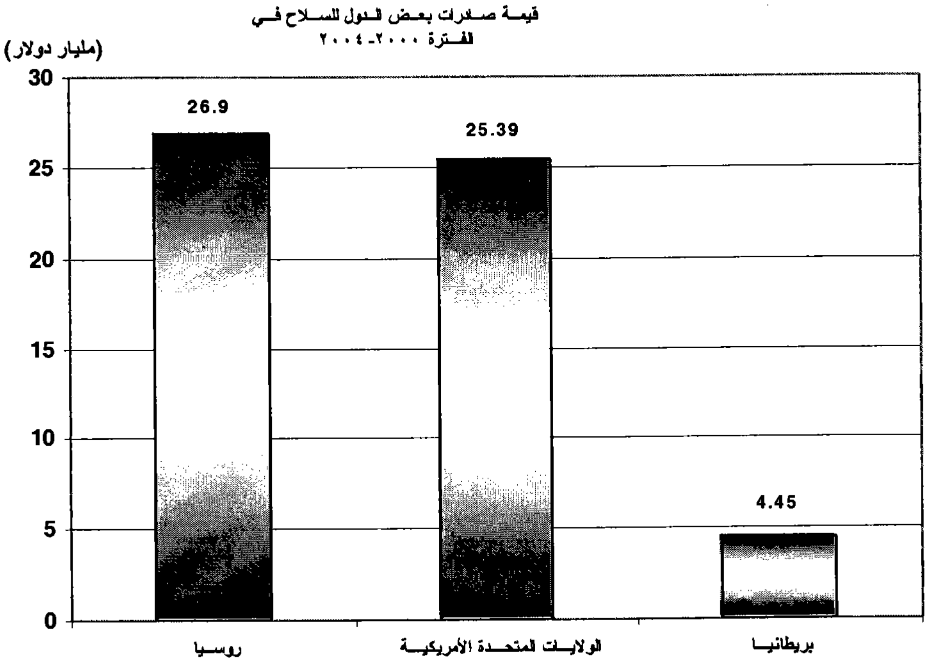

شكل رقم ١٠

تصدير السلاح

وجوهر القضية ليس فقط في دخول هذه الأموال الطائلة الخزانة الأمريكية أو غيرها، لكن القضية الحقيقية والكارثة الملمة هي في اعتماد هذه الدول اعتمادًا أساسيًا وكليًا على السلاح الخارجي فقط!!

وإضافة إلى أمريكا فإن بريطانيا وحدها - كما تشير الإحصائيات أيضًا - صدرت سلاحًا بما يبلغ قيمته ٤,٤٥٠ مليار دولار في الفترة نفسها، وأن ١,٠٠٤ مليار دولار تأتي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي!!

وتشير الإحصائيات أيضًا إلى أن ٤٠٪ من صادرات فرنسا من السلاح يتجه إلى العالم العربي!! وأن ١٨٪ من صادرات الصين من السلاح أيضًا يتجه إلى المنطقة نفسها!! وأن ١٥٪ من صادرات روسيا من السلاح يتجه كذلك إلى العالم العربي[1]!!

---

(١) المصدر السابق نفسه.

والملاحظ أن دولاً كثيرة - غير إسلامية - لها باعٌ في سوق السلاح، لكنها لم تدخل بعد هذه الإحصائيات؛ وذلك إما لأنها في أول طريق التصدير، أو لأن تصديرها منه سرًا، وذلك مثل كوريا الشمالية والهند وأوكرانيا وصربيا وجمهورية التشيك وغيرها..

أما الغريب والعجيب فهو أن تكون **إسرائيل** هي الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، وذلك بعد **أمريكا** و**روسيا** و**بريطانيا**، متخطية في ذلك دولاً مثل **فرنسا** و**الصين** و**صربيا** و**التشيك** و**أوكرانيا**[1]..!!

وتمثل صادرات السلاح في **إسرائيل** ٤٠٪ من إجمالي صادراتها، وهي أعلى نسبة على مستوى العالم[2]!!

أما الدولة التي حازت بنصيب الأسد من صادرات السلاح الإسرائيلي فهي الهند.. العدو التقليدي **لباكستان** المسلمة!!

فهل مثل هذه الإحصائيات لا تمثل غضاضة أو قلقًا أو حزنًا لدى الشباب المسلم الملتزم، وكل من عنده أدنى حمية لأمته؟!

ولا يتحجج البعض بأن القضية في ذلك هي مجرد قرار سياسي؛ إذ أنه لو حدث ذات يوم وتم اتخاذ مثل هذا القرار السياسي - أعني القرار بتصنيع السلاح والاكتفاء الذاتي منه مع ما يتطلبه ذلك من مسايرة أحدث تكنولوجيا التسليح في ذلك العصر - فإننا يجب أن يكون لدينا قبل هذا القرار العلماء الأكفاء في علوم الهندسة والذرة والكيمياء والفيزياء والطاقة وغيرها.. ممن يستطيعون تصنيع السلاح الأمثل، وإلا أصبح قرار تصنيع السلاح هذا قرارًا لا معنى له..

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه بصورة أكبر كان هناك تقريرات أخرى..

فقد أشار التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٦م، إلى مواصلة ارتفاع حصة

---

(١) موقع مجلة دار الحياة تقرير بعنوان: إسرائيل الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، الرابط:
http://www.daralhayat.com/special/features/09-2005/Item-20050917-65253914-c0a8-10ed-00a6-5760872f5f4c/story.html

(٢) موقع فلسطين المسلمة: تقرير ملف الصناعة الحربية الإسرائيلية إعداد: لواء أركان حرب متقاعد حسام سويلم، الرابط:
http://www.fm-m.com/2004dec/2004story19.htm

الواردات العربية من الولايات المتحدة وآسيا، ومنهـا الصـين بوجـه خـاص، وكانـت نسـبة الواردات العربية الإجمالية قد وصلت قيمتها في عام ٢٠٠٥م إلى ٣١٤,١ مليار دولار..!!

والجانب الأعظم من الواردات العربية يعتبر من الولايات المتحدة، وأهم ما يُسـتورَد منها: العدد والآلات ووسائل النقل المختلفة، حيث تستحوذ على ٦٠٪ مـن إجمـالي هـذه الواردات، ويليها في الأهمية السلع الغذائية مثل القمـح واللحـوم، وتمثـل حـوالي ١٥٪، ويأتي في المرتبة الأخيرة المشروبات الغازية والتبـغ ومنتجاتـه.. وتبلـغ فـاتورة الـواردات العربية في الأغذية وحدها ٢٠ مليار دولار سنويًا..

وتُعد واردات مصر - كمثال من تلك الدول - من السلع الغذائية ١٦,٨٪ من إجمالي الواردات المصرية، وتستهلك من القمح أكثر من ١٢,٢ مليون طن سنويا، تستورد منها ٦ ملايين طن[١]..

كل هذه الأرقـام وغيرهـا تعكـس ضـعف نسـب الاكتفـاء الـذاتي العـربي مـن السـلع الأساسية، ويعني أيضًا إمكانية استخدام هذا الضعف كسلاح ضد الدول العربية..

أما الغريب حقًا فهو أن تكون الواردات العربية من المواد الخام هي ٥٪ فقـط (انظـر الشكل رقم ١١، ١٢)؛ إذ أن ذلك يعني أننا نمتلك الكثير من الثروات الطبيعية التي حبا الله ﷻ بها بلادنا، وهو يعني في ذات الوقت عجزنا الكبير عـلى تحقيـق أدنـى نسـبة تحقيـق اكتفاء ذاتي.. ثم هو يعني ثالثًا أننا نصدر المواد الخام ليُعاد تصـنيعها، ثـم نسـتوردها مـرة أخرى.. ولكن بأضعاف مضاعفة..!!

(١) موقع صندوق النقد العربي، على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://www.amf.org.ae/vArabic/showPage.asp?objectID=

الهيكل السلعي للتجارة الخارجية العربية لعام ٢٠٠٣

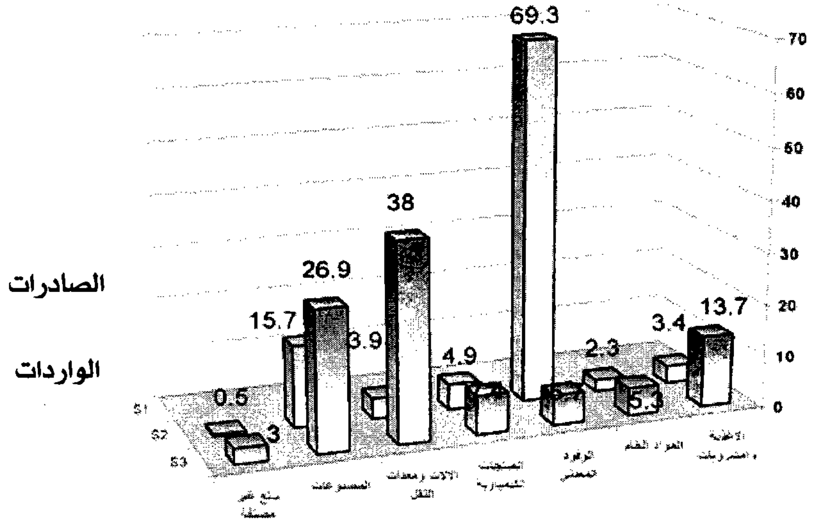

شكل رقم (١١)

الصادرات والواردات الزراعية

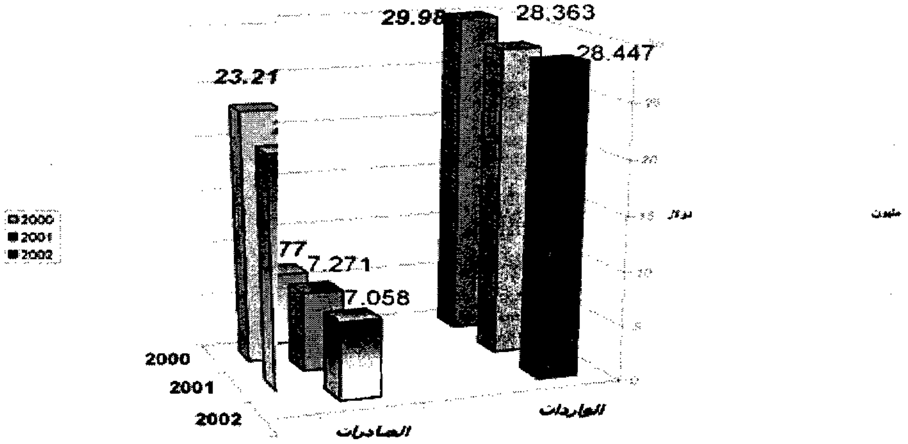

شكل رقم (١٢)

ويعتبر السكر من أكثر السلع الغذائية التي تعاني المنطقة العربية من عجز دائم فيها، وبدرجة اكتفاء ذاتي تصل لنحو ٣٥٪ فقط، وتقدر الفجوة الكمية من السكر في الوطن العربي عام ٢٠٠١م بنحو ٤,٤٨ مليون طن، تصل أقصاها في كل من **الجزائر والسعودية وسوريا واليمن ومصر**، وبأهمية نسبية تقدر بنحو ٢٠٪، ١٦,١٪، ١٢,١٪، ١٠٪، ٤,٨٪ لكل منها على الترتيب[1] [انظر شكل رقم ١٣]..

شكل رقم (١٣)

واردات الدول العربية

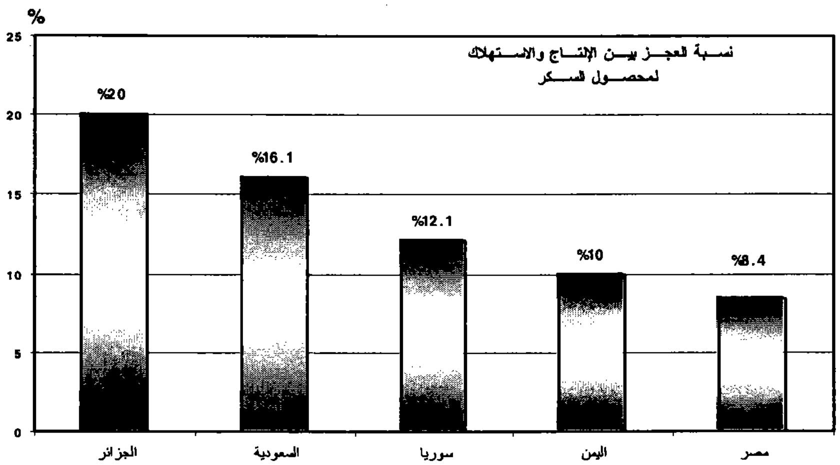

أما عن السلع الاستفزازية، فإن الأرقام تشير إلى أن مصر وحدها استوردت من أنواع الجبن المختلفة التي تم حصرها في ٣٢ نوعًا، ما قيمته نحو ١٢١ مليون جنيه في عام واحد، هذه الحقيقة تأتي على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول المنتجة للألبان، وتأتي أيضًا - وللأسف - رغم أن بمصر العديد من شركات تصنيع الأجبان، سواء من الشركات الحكومية أو من شركات القطاع الخاص..!!

وتبلغ فاتورة أغذية القطط والكلاب المصرية من الخارج في خلال ستة شهور فقط

(١) تقرير أوضاع الأمن الغذائي العربي ٢٠٠٢، الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية، والتقرير منشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني http://www.aoad.org/foods/TABLE20OF20%CONTENTS.htm

حوالي مليوني جنيه[1]..!!

والظاهرة الأغرب تلك الأرقام التي تصل إلى نحـو ٥ ملايـين دولار لاسـتيراد الآيـس كريم من الخارج..!!

ألا يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب..؟!

ثم ألا يـدعو كـل ذلـك إلى تفعيـل دور الصـناعات عنـدنا لـئلا نعتمـد - عـلى الأقـل - عـلى أعدائنا..؟!

وإن الحاجة الشديدة إلى ذلـك لتظهـر بوضـوح حـين نسـتعرض إحصـائيات بـراءات الاختراع للمنظمة العالمية، والتي تعبر عن حقيقة الوضع الذي نعيشه [انظر شكل رقم ١٤].

ففي سنة ٢٠٠١م قدمت مصر - كواحدة من الدول الإسلامية - اختراعًا واحـدًا، وفي سنة ٢٠٠٢م كان نصيبها في براءات الاختراع أيضًا اختراعًـا واحـدًا، وفي سـنة ٢٠٠٣م زاد هذا العدد - بفضل الله - ليصل إلى ١٢ اختراعًا، وكانت سنة ٢٠٠٤م قمة الإنجاز بوصـول عدد براءات الاختراع إلى ٧٨ اختراعًا.. وهو تطور طيب يدعو إلى التفاؤل.

وتعتبر مصر بذلك ثاني دولة إسلامية في تسجيل براءات الاختراع، أما الدولة الإسـلامية الأولى في ذلك فهي تركيا، وحصيلتها من عدد براءات الاختراع في سنة ٢٠٠٤م هو ١٠٤ اختراعات[2]..

لكن الحقيقة أن هذه النسبة - سواء التي في مصر أو التي في **تركيا** - هي قليلة جدًّا إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأخرى، وخاصة حين نعلم أن **إسرائيـل** وحـدها بلـغ نصـيبها في تسجيل براءات الاختراع في العام نفسه ١٢٢٢ اختراعًا، محتلة بذلك المركز رقم ١٥ بين دول العالم في عدد براءات الاختراع المسجلة سنويًا..!!

أما المركز الأول فكان - بالطبع - من نصيب **أمريكا**، والـذي وصـل نصـيبها فيـه مـن براءات الاختراع في نفـس العـام أيضًـا ٤١٨٧٠ اختراعًـا!! وتلتهـا في ذلـك **اليابـان** بنحـو ١٩٩٨٢ اختراعًا، ومن بعدها **فرنسا**، ثم **إنجلترا**[3]..

(١) موقع ديوان العرب: أشرف شهاب: مقال بعنوان: مصر تستورد طعام الكلاب والقطط، الرابط: http://www.diwanalarab.com/spip.php?article.

(٢) راجع تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦، مرجع سبق ذكره. (٣) التقرير السابق نفسه.

وحتى تتضح الصورة بعض الشيء، فليس معنى تسجيل براءة اختراع الاقتصار فقط على اختراع شيء لم يكن موجودًا أصلاً، مثل التليفزيون أو الكمبيوتر أو ما شابه، وإنما تمنح براءة الاختراع عن كل إضافة علمية جديدة ناشئة عن فكرة جديدة وجهد في الابتكار، وتكون قابلة للاستغلال الصناعي بما فيها الفلاحة. ويدخل في ذلك تطوير اختراع قائم، أو تحسينه بإدخال بعض التعديلات عليه، مما من شأنه أن يرفع من كفاءته، أو يقلل من مضاعفاته الجانبية، أو يساعد على تخفيض سعره، أو غيره..

أي أن أيّ إضافةٍ على هذا الشيء ولو صغيرة يُعد اختراعًا، يستطيع صاحبه أن يُسجله باسمه في براءات الاختراع، ويكون بذلك قد أضاف للإنسانية شيئًا جديدًا..

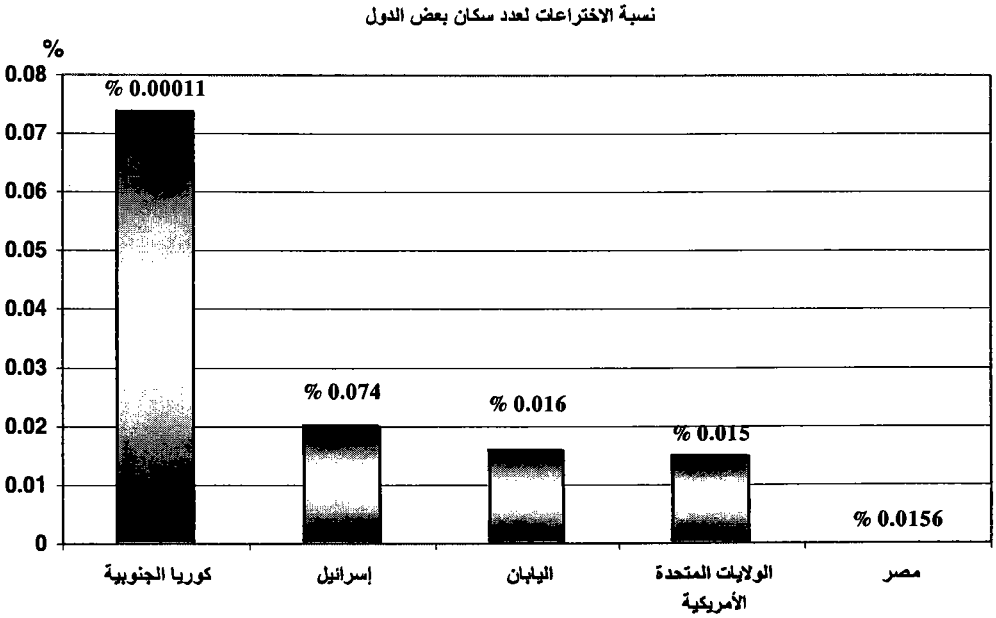

شكل رقم ١٤
براءات الاختراع

وإنه لما كانت هناك دول قليلة السكان ودول أخرى كثيرة السكان، فإن العلماء استحدثوا طريقة أخرى أدق لحساب براءات الاختراع للدول، وذلك بحساب عدد براءات الاختراع فيها بالنسبة إلى عدد السكان، وكان من نتيجة ذلك أن احتلت إسرائيل المركز

الثامن بين دول العالم في تسجيل براءات الاختراع، وسبقت في ذلك أمريكا واليابان وفرنسا وإنجلترا، ودولا أخرى كثيرة؛ لأن عدد السكان بها قليل..!!

وتوضيح ذلك أن بمثل هذه الطريقة يكون هناك اختراع لكل ٥٠٠٠ إسرائيلي، في حين أن ذلك الاختراع في أمريكا هو لكل ٦٧٠٠ أمريكي، وفي اليابان لكل ٦٣٠٠ وعلى هذا القياس أيضًا فإن النسبة في مصر هي اختراع واحد لكل ٩٠٠,٠٠٠ مصري[1]..!!

وغير تصنيف الدول، فإن للشركات على مستوى العالم تصنيفًا أيضًا في تسجيل براءات اختراع خاصة بها، وكانت الشركة الأولى في تقديم أكبر عدد من البراءات هي شركة «فيلبس» الهولندية، محتفظة بهذه الصدارة للسنة الثانية على التوالي.. ومن بعدها تأتي شركة «ماستوشيتا» التي منها «باناسونيك»، ثم «سيمنز» الألمانية، ثم «نوكيا» الفلندية، ثم شركة «بوش» الألمانية، ثم «إنتل» الأمريكية، ثم «بُسّ» الألمانية، ثم «ثري إم» الأمريكية، ثم «موتورولا» الأمريكية، ثم «سوني» اليابانية[2]..

شركات كثيرة - وللأسف - ليس بينها واحدة إسلامية.. فكل براءات الاختراع لدينا إنما هي من نصيب الأفراد، وهذا يعني - في أهم ما يعنيه - غياب العمل الجماعي أو العمل المؤسسي وعمل الفريق الواحد، والذي يعتمد عليه الإبداع كلية في القرن الحادي والعشرين..!!

ولا شك أن هذه الاختراعات تنعكس على طبيعة المواد المصدرة من كل دولة، والدول الكبرى هي التي تصدر مواد مصنعة أكثر من غيرها، وكلما ازدادت المواد المصنعة تعقيدًا، ازداد تقدير العالم لقيمة هذه الدولة علميًا..

والسؤال الآن:

أليس العلم الذي يتحصل به التصنيع والحصول على براءات الاختراع- بدلاً من أن نكون في ذيل الدول الأخرى - أليس ذلك علمًا شرعيًا؟!

أليس العالم الذي يصنع الأسلحة - مثلاً - أو يساعد في تصنيعها عالمًا نافعًا لأمته، مثابًا

(١) تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦.

(٢) تقرير براءات الاختراع لعام ٢٠٠٥ الصادر عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://www.wipo.int/edocs/prdocs/en/2005/wipo_pr_2005_403.html

على علمه وعمله هذا من ربه إن أخلص فيه نيته؟!

أليس هذا الطريق من الطرق الموصلة إلى الجنة؟

وقس على ذلك كل العلوم والفروع الأخرى..

فإن تخلف المسلمين في هذه العلوم الحياتية يعني أنهم إنما يُسلمون رقابهم لسيوف أعدائهم..

ولا ريب في أن الأمة التي تعثرت فيها العلوم الطبية أو العسكرية أو الهندسية أو الفلكية أو غيرها من العلوم الحياتية، أو تلك التي يرتبط تقدمها في هذه العلوم بقرار من أعدائها.. لا ريب أن هذه الأمة على حافة هاوية عظيمة..

والواقع أنه لا نجاة من ذلك ولا مفر إلا بفقه قيمة هذه العلوم في حياة الأمة، وفي ميزان الإسلام.

الدليل الخامس:

علوم الحياة طريقٌ لمعرفة الله ﷻ..

ففي القرآن الكريم لم تأت الدعوة للتفكر في الكون مرة أو مرتين، إنما جاءت مرات عديدة، وبصور مختلفة..

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وهذه الدعوة المتكررة للتفكر في الكون هي دعوة لتعظيم وتقدير رب العالمين ﷻ، فكلما اتسعت علوم الحياة في ذهن العالِم ازداد تعظيمًا وإجلالاً وإكبارًا لله ﷻ، ولذلك قال سبحانه بعد الحديث عن علوم الحياة - وليس علوم الشرع -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد قال سبحانه قبل تقريره في هذه الآية مباشرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

فكل علوم المياه والنبات والجيولوجيا والإنسان والحيوان هذه.. مما يقود إلى خشية الله ﷻ..

وهذا **أينشتاين** - وهو عالم غربي ليس مسلمًا - بعد ما نظر إلى الكون الفسيح وتدبر في أفلاكه، واستطاع أن يتوصل إلى نظرية النسبية، قال مقررًا وجود الخالق سبحانه: وراء هذا الكون قوة خارقة لا أعرفها(١)..!!

فالاهتمام بهذه العلوم إذن من شأنه أن يؤدي إلى الإيمان ويرفع من مستواه عند الفرد، ومن شأنه أيضًا أن يجعل الإنسان يزداد تمسكًا بالدين كلما تقدم العلم.. ولسنا نقصد بذلك العلماء فقط، وإنما يرتفع الإيمان عند عموم الأمة بعد أن ينتقل إليهم هذا العلم عن طريق علمائها..

الدليل السادس:

علوم الحياة طريق لفقه وفهم نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة..

وهي حقيقة كشفها الإعجاز العلمي الحديث.. فكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لا تُفهم ولا يُعرف المراد منها على وجه الحقيقة إلا في ضوء دراسةٍ علميةٍ واعية..

وفي واحدة مما يُثبت تلك الحقيقة، ما جاء حول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

فهاتان الآيتان فهمهما علماء السلف وفسروهما على محملٍ ووجه معين، ولما تقدم العلم كان لهما تفسير آخر مغاير تمامًا لما كان يُعتقد فيهما من قبل..

يقول الدكتور **زغلول النجار**(٢) مُعلقًا على الآية الثانية من هاتين الآيتين: يصف الله ﷻ

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ١٠ ص ٤٥ .

(٢) هو زغلول راغب النجار من مواليد محافظة الغربية، عام ١٩٣٣، تخرج في جامعة القاهرة عام ١٩٥٥م وكان أول دفعته ومنح العديد من الجوائز، وأشرف على عدد كبير من الأبحاث العلمية، ومؤلفاته العلمية تربو على مائة وخمسين بحثًا، وله العديد من المقالات والمرئيات التي تحدث فيها عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

الجبال بأنها أوتاد، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن هذه المعالم المدهشة ليست عبارة فقط عن الارتفاعات الشاهقة التي نراها على سطح هذه الكرة الأرضية (كما تصفها أغلب المعاجم ودوائر المعارف الحالية)، إنما يؤكد الله تعالى بهذه العبارة أن للجبال امتدادات إلى داخل طبقة الليثوسفير الأرضية. فكما أن الوتد يكمن أغلبه داخل التربة أو الصخر ووظيفته هي تثبيت طرف الخيمة إلى الأرض فكذلك الجبال، والتي أثبتت علوم الأرض حديثًا أن لها جذورًا عميقة جدًّا لتثبيت ألواح الليثوسفير، بل والكرة الأرضية ككل، فما نراه فوق سطح الأرض من جبال ما هو إلا قمم لكتل ضخمة من الصخور مخترقة لطبقة الليثوسفير وطافية في طبقة الإثنوسفير البلاستيكية والأعلى كثافة، كما تطفو الجبال الجليدية في مياه المحيط؛ فتبلغ امتدادات الجبال داخل طبقة الليثوسفير ما بين ١٠ - ١٥ ضعف ارتفاعاتها فوق سطح الأرض (حسب كثافة الصخور المكونة للجبل وكثافة المادة التي ينغمس فيه الجذر).

فجبل يبلغ ثقله النوعي ٢,٧ specific gravity في المتوسط (كالجرانيت مثلاً) يستطيع أن يغوص داخل طبقة من الصخور السيماتية simatic rock (البالغ ثقلها النوعي ٣,٠ في المتوسط) حتى يبلغ طول الجزء القابع داخل الأرض ٩/ ١٠ والجزء الظاهر فوق سطح الأرض ١/ ١٠ من الطول الإجمالي.

وهكذا نرى كيف تصف كلمةٌ واحدةٌ - وهي كلمة الوتد - جزءي الجبل العلوي والسفلي ووظيفته من تثبيت للكرة الأرضية وألواح الليثوسفير، وبالتالي فإن الكلمة التي يستخدمها القرآن الكريم لوصف الجبال أكثر دقة من الناحية العلمية واللغوية من كلمة «جذر» المستخدم حاليا من قبل العلماء لوصف الجزء السفلي المختبئ داخل الأرض.

ويتابع الدكتور زغلول قوله: ومع أن العلماء فكروا مليًّا منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أنه يمكن أن تكون للجبال جذور، إلا أن العلماء لم يؤكدوا هذه الحقيقة من وجود امتدادات سفلية وظيفتها تثبيت الأرض وألواح الليثوسفير إلا مؤخرًا. ولم نصل إلا لبداية فهم عملية تكوين تلك الامتدادات السفلية ووظيفتها في توقيف الاهتزازات المفاجئة لكوكبنا ولألواح الليثوسفير من خلال إطار علوم الفلك الحديثة، ومن خلال المفهوم الحديث لتكتونية الألواح الليثوسفيرية.

ويعتبر سبق القرآن الكريم في وصف الجبال كالأوتاد شهادة واضحة أن القرآن الكريم

كلمة الله ﷻ وأن محمدًا ﷺ هو آخر المرسلين[(١)].

ومثل هذا التفسير العلمي من شأنه أن يوقفنا على الفهم الحقيقي والتفسير الصحيح المراد من مثل هذه الآيات الكريمة، وأيضًا يعرفنا بالإعجاز العلمي الذي يحويه دستور الأمة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.. فضلا عما يمكن أن يكون سببًا لإسلام كثير من غير المسلمين ممن ولعوا بالحقائق العلمية..!!

ومثل هذا التفسير أيضًا وهذه الحقيقة العلمية هي أفضل بكثير من أن نذكر ما وقف عليه مفسرونا السابقون، من أن المقصود بقوله تعالى: ﴿**والجبال أوتادا**﴾ هو أنه سبحانه - كما يقول **الطبري** مثلاً في تفسيره - «جعل الجبال للأرض أوتادا أن تميد بنا»[(٢)]..

وفي واحدة أخرى من مثل هذه التفسيرات العلمية لنصوص القرآن الكريم، والتي كان لها بالغ الأثر على غير المؤمنين به حين أكدتها وأثبتتها الحقائق العلمية، ما جاء في أول سورة القمر، وهو قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١].

فبعد محاضرة ألقاها الدكتور **زغلول النجار** في كلية الطب بجامعة كاريف في مقاطعة ويلز غربي **بريطانيا**، وُجِّه إليه سؤالٌ حول الآيات السابقة، وهل هذه الآيات تمثل ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟

وفي رده قال بأن معجزة انشقاق القمر التي وقعت تأييدًا للنبي ﷺ في مواجهة الكفار تم إثباتها حديثا، ثم دلّل على ذلك بما أثبته العلماء، وبعد أن أتم إجابته استأذن رجل بريطاني في إضافة شيء إلى كلام الدكتور **زغلول**..

فبدأ بتعريف نفسه، وأنه يُدعى «**داود موسى بيدكوك**»، مسلم ويرأس الحزب الإسلامي في **بريطانيا**، ثم راح هذا الرجل يذكر أن هذه الآيات بعينها كانت السبب في إسلامه!!

وكانت البداية حين أهداه أحد المسلمين ترجمة لمعاني القرآن، فكان أول ما قرأ بداية سورة القمر، وفيها واقعة انشقاق القمر، فلم يصدق ذلك وأغلق القرآن، وذات يوم قدَّر الله له أن يرى برنامجًا على قناة BBC استضاف فيه المذيع ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين

---

(١) انظر الدكتور زغلول النجار: مقال بجريدة الأهرام المصرية، بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ٣٩٧.

وذلك عام ١٩٧٨م، وكان المذيع في هذه الحلقة يتحامل على علماء الفضاء في الإسراف الزائد في إنفاق الملايين والمليارات في مشاريع غزو الفضاء، في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقر والجوع والتخلف..

وكان جواب العلماء أنه بفضل هذا الرحلات تم تطوير عدد من التقنيات التي تطبق في مجال الطب والتشخيص العلاجي والزراعة وغير ذلك، ثم قالوا بأنهم توصلوا إلى اكتشاف لو أنفقوا أضعاف هذه المبالغ لإقناع الناس بهذه الحقيقة ما صدقهم أحد!!

وهنا سألهم المذيع عن هذه الحقيقة فقالوا: إن القمر سبق له أن انشق ثم التحم (انظر صورة رقم ١)، وأن آثارًا محسوسة تؤيد ذلك الحدث قد وجدت على سطح القمر وامتدت بداخله!!

فعاد السيد بيدكوك إلى ترجمة القرآن، فقرأ الآيات ثم قال: معجزة لمحمد في القرآن منذ أربعة عشر قرنًا يذكرها القرآن ويثبتها العلم الحديث، فلابد أن يكون هذا القرآن حقًا..!!

فكانت هذه الآيات هي السبب المباشر وراء إسلام «داود موسى بيدكوك»[1]..

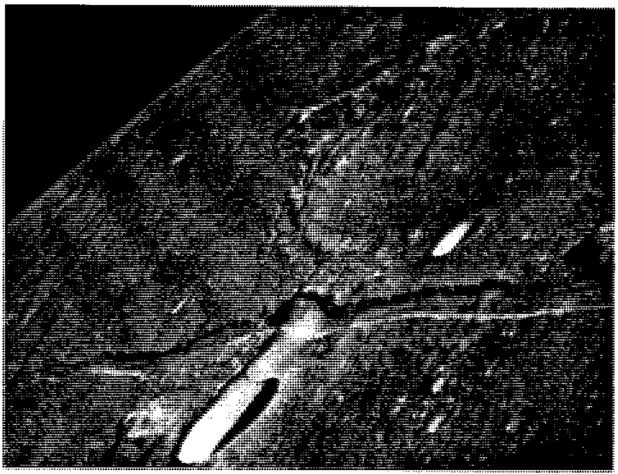

صورة رقم (١)

صورة وزعتها ناسا وبها الشريط الصخري الذي يثبت انشقاق القمر، ويبدو أثر الشق واضحًا على شكل أفقي من اليمين إلى اليسار.

فهذه ولا شك إضافة طيبة إلى أمة الإسلام، ونحن في ذلك بأمسِّ الحاجة إلى علماء مسلمين يكتشفون لنا مثل هذه الحقائق، لتكون حجة دامغة على العباد، وألا ننتظر لأن يقوم علماء أمريكيون أو روس أو غيرهم بهذا الدور، ثم لا يكون دورنا إلا أن نُسقط ذلك الكشف العلمي على ما جاء في آيات القرآن الكريم وسنة نبينا ﷺ، وهما اللذان لا تنقضي عجائبهما..

---

(١) دكتور زغلول النجار مقال بعنوان «داود موسى بيدكوك» جريدة الأهرام ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٥.

وعليه فإن العلوم الحياتية مكملة للعلوم الشرعية، وهي تُساعد على فهم القرآن الكريم، ومن ثم على هداية الناس لرب العالمين..!!

والأمة ستحتاج دومًا إلى العلماء المسلمين المبدعين في هذه العلوم الحياتية، الذين يفقهون علمهم إلى جوار فقه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فيستطيعون الربط بين هذا وذاك، ومن ثم نستطيع فهم وتفسير النصوص القرآنية والنبوية.. ولا شك أن هذا سيظهر لنا قيمة ذلك الكنز العظيم الذي بين أيدينا..

فإذا كان في أمتنا الفلكي البارع، وعالم النبات المتفوق، وعالم الحيوان النابغة، والطبيب الواعي، والجغرافي الفاهم.. لا شك أن مثل هؤلاء سيفتحون أبوابًا واسعة لفقه الإعجاز العلمي العجيب في الكتاب والسنة، وسيصبح هذا الفتح سببًا رئيسيًا لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام.

وما أكثر أولئك الذين دخلوا الإسلام عند مشاهدتهم للإعجاز العلمي في اثنين من مصادر شريعتنا: القرآن والسنة!!

الدليل السابع:

هل من مصلحة الدعوة أن يكون حاملوها في ذيل أهل التخصص؟! سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، أو حتى على مستوى الأمة ككل..؟!

وبصورة أوضح.. إذا كان الطالب المسلم الملتزم بدينه غير متفوق في دراسته، ولم يكن سابقًا في علومه بين أقرانه.. هل سيكون قدوة بين الطلاب، ومن ثم يقلدونه في منهج حياته، ويتبعونه في دعوته؟! وهل سيطمئن الآباء على أبنائهم في صحبتهم له؟!

إن من أخطر الأمور أن يتميز طالبٌ أو متخصصٌ بسمتٍ إسلامي ودعوي ظاهرٍ، ثم تخاله في مجال دراسته أو في تخصصه، أو حتى في مهنته - تخاله قليل العلم، أو ضعيف المستوي، أو بطيء الأداء.. فهذه - ولا شك - دعوة سلبية، وهي دعوة إلى ترك هذا الدين الذي يلتزمه هذا المتأخر وذاك الضعيف، وذلك إما من أجل الخوف من أن يماثله في تأخره وضعفه، أو خوفًا من أن تتعطل أو تتعثر مسيرة العلوم..

وقد قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] قالوا: إن

معنى الدعاء في هذه الآية: أن لا تجعل الكافرين أعلى من المؤمنين وأعظم؛ فيفتن الكافرون بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما نُصِرنا عليهم، ولو كانوا على الحق ما كانوا أضعف منا وأهون[1]..

ولقد سمعت واحدًا من الأمريكيين أسلم حديثًا يحمد الله أنه قرأ عن الإسلام واقتنع به قبل أن يرى حال المسلمين، وإلا لكانت فرصة إسلامه ضعيفة.. والسبب أنه ربما لم تكن ستواتيه فرصة الاقتناع بهذا الدين الذي لا يدفع أصحابه - كما يعبر حالهم - إلى العلم والتقدم والعمل.. لكنه - بفضل الله - كان قد قرأ عن الإسلام قبل أن يرى المسلمين، وعلم أنه يدعو إلى العمل ويحث على العلم، ويحض على الفضيلة والمعاني الجميلة، وإعمار الأرض.. وعلم أيضًا أن هؤلاء المسلمين الذين يراهم لا يمثلون حقيقة الدين الإسلامي، بل هم مخالفون لمبادئه، بعيدون عن تطبيق قوانينه..

والأمر في النهاية لا يخرج عن أن يكون فتنة؛ فكم من البشر صُدُّوا عن سبيل الله برؤية تأخر المسلمين هذا وبمعاينة تخلفهم وضعفهم؟!!

أفلا يدعو كل ذلك المسلمين إلى النبوغ في مجالات العلوم الحياتية، تمامًا كما ينبغون في العلوم الشرعية؟!

إن هذا - والله - لهو الحق الذي لا ريب فيه..

الدليل الثامن:

أمر الله ﷻ المسلمين بالإتقان في كل شيء.. واهتم الإسلام بالمتمرسين والمتفوقين في كل مجال، وأولاهم القيادة على ذلك، وأعطى التبعية لغيرهم ومن دونهم..

ففي كلمته الجامعة فيما يرويه الإمام مسلم عن شداد بن أوس ﵁، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»**[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٣. بتصرف.

(٢) مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩)، والنسائي (٤٤٠٥)، وابن ماجه (٣١٧٠)، وأحمد (١٧١٥٤)، والدارمي (١٩٧٠)، وابن حبان (٥٨٨٣).

وانظر إلى قوله «كل شيء»؛ فهي تعني - فيما تعنيه - أن الله ﷻ كتب الإحسان على المسلم في علمه الشرعي، وكذلك في علمه الحياتي. ولا شك أن الإحسان هذا يقتضي التفوق والنبوغ والسيادة والريادة..

وعلى ما هو واضح من سياق الآيات الكريمة في كتاب الله، وكذلك من سياق حياة رسول الله ﷺ، فإن القيادة تُساق دومًا إلى المتفوق، والناس جميعًا يكونون تبعًا لهذا المتفوق. ولا تشذ هذه القاعدة في حال الأمم والشعوب؛ فالأمة المتفوقة تكون قائدة، وتتبعها غيرها من الأمم، وهكذا..

ومصداق ذلك في كتاب الله ﷻ، ما كان من إعطائه سبحانه القيادة لطالوت ﷺ، وقد علل ذلك صراحة بأنه -سبحانه- زاده بسطة في العلم والجسم. وليس يخفى على أحد أن المقصود بالعلم هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، وإنما أيضًا العلم بأمور الحرب والقيادة والإدارة، وغير ذلك مما يلزم القائد العسكري من معارف وعلوم.. وتصديق ذلك أنه كان من الممكن أن تُعطى هذه القيادة للنبي ذاته، والذي هو أعظم الناس - بلا شك - تفوقًا في مجال العلم الشرعي، وهو يوحى إليه، لكن النبي لم يقد الجيش في المعركة، وإنما قال للملأ من بني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [يونس: ٨٥].

فهذا مجال تفوقه.. وذاك سبب قيادته..

وكذلك فإن يوسف ﷺ لما عرضت عليه الوزارة في مصر قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فهو هنا يذكر أن المجال الذي يتخصص فيه ويبدع هو مجال الاقتصاد وإدارة المال، ومن ثم لم يتردد في أن يعرض خدماته في هذا المجال المهم، ولم يقبل مكانًا آخر، حتى ولو كان مرموقًا ومؤثرًا.. وخلفيته الدافعة له في هذا الاختيار هي مستوى علمه في هذا الجانب، ومدى تمكنه منه.

ولو كان المقصود بالعلم في قوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ العلم الشرعي وعلم الوحي، لكان يوسف ﷺ صالحًا لكل المناصب، وليس فقط في الاقتصاد وإدارة المال؛ إذ إنه أعلى الجميع بلا جدال في هذا الجانب الشرعي، ولكن الواضح أنه كان يتميز - إضافة إلى ذلك - في

جانب الاقتصاد، ومن ثم فقد اختاره وفضله..

ولما ولّى رسول الله ﷺ الصحابي الجليل **عمرو بن العاص** ﷺ إمارة سرية ذات السلاسل، ووضع تحت إمرته عظماء الصحابة وسابقيه إلى الإسلام.. فإنه لم يفعل ذلك لأنه كان يرى أن **عمرو بن العاص** أكثر منهم علمًا بأمور الشرع والدين، وإنما لأنه ﷺ كان يرى أنه أعلمهم بأمور الحرب، وفنون القتال والنزال والمناورة، وهو الذي لم يكن قد مضى على إسلامه بعد أكثر من خمسة شهور فقط.. ومن ثم تجده ﷺ وقد قال في وضوح: «**لقد وليته لأنه أبصر بالحرب**[1]».

فإتقان **عمرو بن العاص** ﷺ وتفوقه قدَّمه على عمالقة عظام من الصحابة، **كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وأُسيْد بن حضير**، وغيرهم ﷺ أجمعين، وليس ذلك إلا لفقه الرسول ﷺ لأهمية إتقان العلم الحياتي اللازم للحرب والجهاد.

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقلدوا نابغين من الصحابة في قراءة القرآن، فعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ فَبَدَأَ بِهِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**»[2].

فلم يقل ذلك ﷺ لعلو قدر هؤلاء النفر عن بقية الصحابة مثلاً في التقوى أو الزهد أو الورع، أو لأنهم كان يكثرون من القيام أو الصيام أو النافلة أو غيرها.. وإنما قال ﷺ ذلك في حقهم؛ لإتقانهم القراءة، وتمكنهم من النطق بها كما ينبغي.. ولذلك وجب على الجميع أن يتبعوهم فيها..

وعندما أمر رسول الله ﷺ **بلالاً** أن يصدع بأذان الصلاة، لم يأمره بذلك لعلمه الشرعي أو لسبقه أو لهجرته، إنما قدَّمه لحلاوة صوته في الأذان، وتفوقه في هذا المجال، بل إنه ﷺ لم يُقدم في ذلك **عبد الله بن زيد** ﷺ، ذاك الصحابي الذي رأى الرؤيا التي كانت سببًا في تشريع الأذان، وقال له: «**إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ**»[3].

وكذلك في أمور الطب كان ﷺ أيضًا يأمر بالعلاج عند الأمهر والأتقن في تلك الصنعة..

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٩٦.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بن كعب (٣٥٩٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود وأمه (٢٤٦٤)، واللفظ له، والترمذي (٣٨١٠)، وأحمد (٦٧٨٦)، والحاكم (٤٩٩٩).

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب بدء الأذان (١٨٩)، وقال: حسن صحيح، وابن خزيمة (٣٧٣)، والبيهقي في سننه (١٨١٨).

وقد روى الإمام **مالك** -رحمه الله- في الموطأ أن رجلاً من الصحابة أصيب بجرح، فدعا النبي ﷺ، رجلين من بني أنمار فنظروا إليه، فسألهما رسول الله ﷺ: أيُّكم أطبّ (أي أمهر في الطب)؟ فقالا: أوفي الطب خيرٌ يا رسول الله؟ فقال: «**أنزل الدواء الذي أنزل الداء**»[1] يعني الله ﷻ..

و تعليقًا على هذا الحديث يقول **ابن القيم** ﷺ: «إنه يجب الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق؛ فإنه إلى الإصابة أقرب»[2]..

أما الذي لا يتقن الصنعة وهو يشتغل بها، فقد يؤذي ويضر بدلاً من أن ينفع.. ولذلك كان الحكم الفقهي على من عالج مريضًا فأذاه ولم يكن معروفًا عن هذا المعالِج أنه ماهرٌ بالطب متمرسٌ فيه، فإنه يتحمل المسئولية عن ذلك، بأن يدفع ما يعوض المريض عن مقدار الأذى الذي وقع له.. بينما لا يقع ذلك الحكم على الطبيب الذي عرف عنه الإتقان والمهارة في صنعته..

روى أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَطَبَّبَ وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ**»[3].

ولخص الحكم الفقهي في ذلك الفقيه الطبيب الفيلسوف **ابن رشد القرطبي الحفيد** فقال: أما الطبيب وما أشبه إذا أخطأ في فعله وكان من أهل المعرفة، فلا شيء عليه في النفس، والدية على العاقلة (يعني العصبة) فيما فوق الثلث، وفي ماله فيما دون الثلث. وإن لم يكن من أهل المعرفة فعليه الضرب والسجن والدية، قيل في ماله وقيل على العاقلة[4].

وفي هذا الإطار فقد أمر ﷺ أن يعالَج **سعد بن معاذ**[5] ﷺ عند الصحابية الجليلة **رفيدة**[6]

---

(١) مالك: كتاب العين، باب تعالُج المريض (١٦٨٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٧٣٩٥)، وابن أبي شيبة (٢٣٤٢٠).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٤/ ١٢١.

(٣) أبو داود: كتاب الديات، باب من تطبب بغير علم (٤٥٨٦)، والنسائي (٤٨٣٠)، وابن ماجه (٣٤٦٦)، والحاكم (٧٤٨٤)، وقال: صحيح الإسناد «لم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (٦٣٥).

(٤) ابن رشد: بداية المجتهد ١/ ٩٩٧.

(٥) سعد بن معاذ بن عبد الأشهل، أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورُمِيَ يوم الخندق بسهم فعاش شهرًا، ثم انتفض جرحه فمات منه، وكان موته بعد الخندق بشهر. الإصابة- الترجمة (٣٢٠٠)، أسد الغابة ٢/ ٢٣٩.

(٦) رفيدة: امرأة من أسلم، كان رسول الله ﷺ حين أصاب سعد بن معاذ السهمُ بالخندق؛ قال لقومه: اجعلوه في خيمةِ رُفيدة حتى أعوده من قريب، فكانت تداوي الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين. أسد الغابة ٦/ ١١٤، الإصابة- الترجمة (١١١٦٩).

رضي الله عنها[١]؛ لأنها ماهرة بالطب، مع أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعد قد تعارفت على معالجة المرأة للرجال، ولكن لعلمها بالطب وإتقانها له كانت لها هذه المكانة السامية..

بل إنه أمر **سعد بن أبي وقاص** ﷺ أن يأتي **الحارث بن كلدة**[٢]، الطبيب العربي المعروف - وهو من قبيلة ثقيف - ليعالَج عنده، مع أن هذا الطبيب لم يثبت إسلامه بعد.. ولكن لإتقانه لحرفته وصنعته ومهارته فيها، قبِل رسول الله ﷺ أن يعالَج عنده المسلم[٣]!!

كل هذه الأمور تصب في النهاية في أمر واحد، وهو أن الإتقان مطلوب في كل مهنة وحرفة وصنعة.. وذلك الإتقان لا يأتي إلا بعلم ودراسة، وخبرة وكفاءة..

أما غير المتمرس في صنعة ما وغير الخبير بها.. فلا يؤخذ برأيه، مهما كانت مكانته في التقوى والصلاح والورع.. وليس أدل على ذلك من قصة تأبير النخل في المدينة..

فقد روى الإمام مسلم، وأحمد عن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال: «**مَرَرْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَخْلِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى أَقْوَامًا فِي رُءُوسِ النَّخْلِ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: يَأْخُذُونَ مِنْ الذَّكَرِ فَيَحُطُّونَ فِي الْأُنْثَى يُلَقِّحُونَ بِهِ. فَقَالَ: مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا. فَبَلَغَهُمْ فَتَرَكُوهُ وَنَزَلُوا عَنْهَا، فَلَمْ تَحْمِلْ تِلْكَ السَّنَةَ شَيْئًا. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ، إِنْ كَانَ يُغْنِي شَيْئًا فَاصْنَعُوا، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللهُ ﷻ، فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ**»[٤].

فالنصيحة النبوية للقوم لم تكن من وحي إلهي ولم تكن تشريعًا، ولذلك ففي مثل هذه القضية يرجع فيها إلى أهل الخبرة والإتقان، وليس إلى الرسول ﷺ، على علو قدره وسمو مكانته..

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٠٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٠٣، ابن هشام: السيرة النبوية ١٩٨/٤.

(٢) الحارث بن كلدة: ثقفي من أهل الطائف، طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين، رحل إلى فارس وأخذ الطب هناك، ولد في الجاهلية وعاش في أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كان شاعرًا، توفي في أيام معاوية.

(٣) أبو داود: كتاب الطب، باب في التداوي بالعجوة (٣٨٧٥).

(٤) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٢)، وابن ماجه (٢٤٧٠)، وأحمد (١٣٩٩)، واللفظ له، والطيالسي (٢٣٠).

ويؤكد على ذلك رواية مسلم عن رافع بن خديج ﷺ أن الرسول ﷺ قال لهم: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»(١).

وقال لهم كذلك كما في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- وأنس بن مالك ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»(٢).

وليس هناك دليل أعظم من ذلك على اهتمام الإسلام بأهل الخبرة في كل تخصص من تخصصات الحياة، سواء كان ذلك في الزراعة أو في الطب، أو في الحرب أو في التجارة، أو في غير ذلك..

الدليل التاسع:

الإسلام بصفة عامة يحث على تكوين العقلية العلمية الموضوعية، التي تبني أفكارها على الاستدلال والاستنباط، وينكر تمامًا ذلك التقليد الأعمى، الذي لا يُنظر فيه إلى حجة، ولا يُهتم فيه بمنطق ولا برهان..

فتراه سبحانه ينكر على الكفار تبعيتهم العمياء لآبائهم دون برهان فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وترى رسول الله ﷺ ينكر على المسلم أن يكون هملاً إمعة لا رأي له ولا قرار، فيقول في الحديث الذي رواه الترمذي عن حذيفة ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»(٣).

بل إن الله ﷻ قد طلب البرهان من الكفار على كفرهم هذا وعنادهم فقال: ﴿أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٢).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٣).

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو (٢٠٠٧)، وقال: حديث حسن.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وقد عرض ربنا سبحانه وتعالى كل القضايا بمنطق الحجة والبرهان والدليل..

فقال في إثبات وحدانيته سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال في موضع آخر: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. [لقمان: ١١].

وفي قضية البعث يقول سبحانه معددًا الأدلة والبراهين والحجج العقلية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨١].

وهكذا.. فالإسلام يحث على استخدام العقل، وعلى التفكير الناضج، والفقه الواعي.. بل إنه يعد الإنسان الذي عطَّل عقله أشبه بالحيوان، أو أحط قيمة منه!!

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالإسلام إذن دينٌ يدعو إلى إعمال العقل، وتحريره من قيود التقليد والجمود والمحاكاة، وأن يطلق له العنان لأداء وظيفته وفق ضوابط معينة وأطر خاصة..

وعليه فإن الذي يُعطِّل عقله عن العمل والتفكير والإبداع.. يكون قد خالف المنهج الإسلامي مخالفة جسيمة، وأضرّ بنفسه، ثم بأمته من بعده..

الدليل العاشر:

بمراجعة التاريخ الإسلامي نجد أن عهود القوة فيه كانت مرهونة دائمًا ومرتبطة تمام

الارتباط بالتفوق في العلوم الشرعية والعلوم الحياتية معًا.. كما أنه لم يكن في هذا التاريخ أيٌّ من مظاهر اضطهاد العلماء، كما كان الحال عند الأوروبيين..

فالدين لم يقف أبدًا عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، إنما كان الدين بالفعل عائقًا للعلم في المجتمعات الأوروبية قبل نهضتهم الحديثة، وهو الذي رسخ في أذهانهم وأذهان من تعلم على أيديهم واقتفى أثرهم من المسلمين أن الدين من المعوقات الرئيسية للعلم..

فالكنيسة الأوروبية في عصور ظلامهم كانت شديدة القسوة على العلماء، وكانت تقمع كل محاولة للابتكار والاختراع والبحث في العلم؛ في سبيل أن تظل لها السيطرة الكاملة على الشعوب وقيادة الناس.. وفي سبيل استمرار جباية الأموال.. وفي سبيل أخذ القرارات المصيرية.. بل وفي سبيل أخذ قرار الغفران من عدمه، لعبد أخطأ أو ارتكب ذنبًا..!!

من هذا المنطلق حدث صراعٌ بين الدين والعلم في أوروبا، وعليه فقد شُلَّت حركة العلم في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ولم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثورة العلمية الأوروبية، والانقلاب على الكنيسة..!!

والقصص والروايات التي تصف ظلم الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية لا تكاد تنتهي، ولا يخفى على أحد محاكمات **كوبرنيكس** ومحاكمات **جاليليو**، وما حدث **لأينشتاين وماكس بلانك**، وغيرها الكثير..

لقد اكتشف **كوبرنيكس** عام ١٥٤٣م أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، فيحدث تبادل الليل والنهار، وتدور حول الشمس مرة كل عام، فيحدث تغير الفصول الأربعة، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقدًا قبل ذلك.. إلا أن هذا الكشف كان كارثة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، وقد تعجبت الكنيسة لهذا الكشف حين حاكمته بميزان الحقائق الإنجيلية، إذ وجدته يتناقض مع معتقداتهم، ومع الإحساس الظاهري للبشر، ومع الجبال الساكنة في نظر النصوص المقدسة[1]..!!

ولهذا قررت الكنيسة محاربة **كوبرنيكس**، واضطهدوه واتهموه بالكفر وطلبوه للقتل، بل

(١) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة الدكتور/ محمد علي أبو درة ٣٠/ ٢٧٣.

وأحرقوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. ولم يكتشفوا صحة ما وصل إليه إلا بعد وفاته بسنوات وسنوات..

أما **جاليليو** والذي أثبت أن **كوبرنيكس** كان على حق، وأن الشمس هي مركز الكون، واكتشف أيضًا أن القمر ليس جسمًا مستويًا.. فقد أمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته، للتحقيق معه لتأييده فكرة تحرك الأرض، وحكمت الكنيسة عليه بالسجن في بيته (قيد الإقامة الجبرية) إلى أن يموت[(١)]..!!

وكذلك أعدمت الكنيسة أيضًا **برونو** حرقًا في ميدان عام لدفاعه عن تحرك الأرض، وتوقعه وجود أراضين أخرى[(٢)]..!!

وهذا غيض من فيض.. والأمثلة على ذلك جد كثيرة، ولم تتوقف فقط على محاكمات **كوبرنيكس وجاليليو**، حتى إنهم توسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضد العلماء، وقد حكمت تلك المحاكم على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين عالمًا بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م، أي في غضون ١٨ سنة[(٣)]، كما أصدرت قرارات تُحَرِّم قراءة كتب **جيوردا نويرنو**، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال **إكيمنيس** في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة[(٤)]..!!

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوروبا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان، وقد رسَّخ هذا الواقع في أذهان العلماء والفلاسفة (أمثال **ديكارت وفولتير**) وعموم الناس أنه لا أمل في طلب العلم والابتكار إلا بهدم سلطان الكنيسة، وإلا بمحو الدين تمامًا من الصدور، والاتجاه إلى الإلحاد بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. فأعلنوا صراحة معارضتهم للكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائها على ما يتعارض مع الحقائق العلمية، ولاعتقادهم بأن الدين

---

(١) المصدر السابق نفسه ٣٠/ ٢٧٩- ٢٦٩.

(٢) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة ٣٠/ ٣٠٠.

(٣) الإمام محمد عبده: مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ نقلاً عن كتاب البابا والإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف. شوقي أبو خليل: سقوط غرناطة ص٩٨ بتصرف.

- كما رأوا - هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحجر على العقول[1]..

وقد راحوا يدعون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحجتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، ويستطيع التمييز بين الخير والشر..

وقد ساعدت الجمعية الوطنية الفرنسية على هذا التحرر، وذلك بإصدار قرارات سنة ١٧٩٠م، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعيِّن هي رجال الكنيسة بدلا من البابا!!

ثم جاء القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية عام ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد..

وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعم دول أوروبا كلها، ليتقلص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم[2]..!!

هذا في أوروبا النصرانية..

لكن.. لماذا يقال هذا الكلام ولماذا يراد تطبيقه على الدين الإسلامي؟

هل كان ثمة صراعٌ قد حدث بين علماء الدين والشريعة وبين علماء الحياة؟!

هل حُورب علماء الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والسلاح والجغرافيا..؟ أم كُرِّموا وقُدِّموا على غيرهم؟!

لقد كان اتصاف المسلم بفضيلة العلم بشتى أنواعه كافيًا لتقديمه على غيره، ورفعه إلى مصافّ رجال الأمة وصُنَّاعها المبجلين، والمقربين إلى الخاصة وإلى العامة على حد سواء..

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لقد كان **عباس بن فرناس**[1] - على سبيل المثال - من علماء المسلمين الأفاضل في **الأندلس**، وهو صاحب سبقٍ في اختراعات كثيرة، لعل أشهرها أنه أول من قام بمحاولة للطيران في التاريخ.. ولهذا التفوق العلمي قرَّبه الخلفاء وعظموا قدره..

ولحاله هذا، ولِما وصل إليه من شهرة وحظوة لدى الأمراء، فقد كان له حسَّاد يتربصون به، وقد راحوا يتهمونه بالسحر والشعوذة، وأنه يقوم بأشياء غريبة وعجيبة في منزله، أو في معمله الاختباري إن صح التعبير، وذلك لأنه كان يشتغل بالكيمياء، وكان ينتج عن ذلك انبعاث أدخنة وتطاير أبخرة من منزله..

وقد استُدعي للمحاكمة في **قرطبة** - وكان الخليفة في ذلك الوقت هو **عبد الرحمن بن هشام الأموي** - وقيل له في ذلك أنك تفعل كذا وكذا، وتخلط أشياء بأشياء، وتقوم بغرائب وعجائب لم نعهدها، فقال في رده عليهم: أترون أني لو عجنت الدقيق بالماء فصيرته عجينًا، ثم أنضجت العجين خبزًا على النار، أأكون قد صنعت سحرًا؟ قالوا: لا؛ بل هذا مما علم الله الإنسان. فقال: وهذا ما أشتغل به في داري، أمزج الشيء بالشيء، وأستعين بالنار على ما أمزج، فيأتي مما أمزج شيء فيه منفعة للمسلمين وأحوالهم[2].

وكانوا قد أرادوا شاهدًا على صحة الدعوى، فكان الشاهد هو **عبد الرحمن بن هشام**، الخليفة الأموي نفسه.. وفي المحكمة وحين سمع الأقوال راح يُدلي بشهادته فقال: أشهد أنه قال لي إنه يفعل كذا وكذا (يريد أن كل هذه الأشياء يعملها ولها أصول عنده)، وقد صنع ما أنبأني به، فلم أجد فيه إلا منفعة للمسلمين، ولو علمت أنه سحر لكنت أول من حدّه!!

لقد أتوا بقائد الدولة وخليفة المسلمين إلى المحكمة ليشهد، ثم هو يشهد بالحق ولصالح العالِم، فكان أن حكم القاضي والفقهاء ببراءة ابن فرناس، وأثنوا عليه وحثوه على أن يستزيد من عمله وتجاربه، وحُفظت له بذلك مكانته[3]..

---

(١) أبو القاسم عباس بن فرناس، من موالي بني أمية، فيلسوف شاعر، له علم بالفلك، وأول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من اخترق الجو فقد حاول الطيران، فكسا نفسه الريش، ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، توفي سنة أربع وسبعين ومائتين. انظر الوافي بالوفيات للصفدي، ونفح الطيب للمقري.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب ص٢٠٣.

(٣) أمين يوسف وعلي حسين النبهان: أشهر محاكمات التاريخ بتصرف دار التراث بيروت ١٩٧٢.

ولنقارن ذلك بمحاكمة **كوبرنيكس** ومحاكمة **جاليليو** وغيرها مما عرضنا لها سالفًا، لتتبين أبعاد المُفارقة..

والأمثلة على توقير العلماء، وإنزالهم منزلتهم، وحفظ مكانتهم وقدرهم.. هي أكثر من أن تُحصى، ولعل ما يمكن أن نذكره هنا ما كان من حال عالم البصريات الأبرز في تاريخ الحضارة الإسلامية، **الحسن بن الهيثم**(١)، فقد كان أمراء عصره في كل أقطار العالم الإسلامي شغوفين بالعلم ورعاية العلماء والاهتمام بهم، الأمر الذي جعله يتنقل بحرية تامة في ربوع العالم الإسلامي بين مراكز الحضارة الإسلامية فيه، ينهل منها جميعها..

وكان **للحاكم بأمر الله** (الأمير الفاطمي، ت٤١١هـ) دوره المهم في تنمية علم المهندس البصري **الحسن بن الهيثم**، وذلك بعد أن سمع عنه وذاع صيته في **البصرة**، وخاصة لما علم قوله: «لو كنت بمصر لعملت فِي نيلها عملاً يحصل بِهِ النفع فِي كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عالٍ، وهو فِي طرف الإقليم المصري».

كان من أمر **الحاكم بأمر الله** أن دعا **الحسن بن الهيثم** للمجيء إلى **مصر**، على أن يُساعده ويقدم العون له والمال، للقيام بمشروع السد الذي يتحكم في مياه النيل كما قال..

وما إن جاء **ابن الهيثم إلى مصر**، حتى استقبله **الحاكم بأمر الله** في قصر الضيافة الملكي، وأمر بإنزاله وإكرامه، ثم سرعان ما تناقشا في أمر السد، وكان أن اقترح عليه الأمير أن يبدأ فيه..

ولما وصل **ابن الهيثم** إلى أرض الواقع، والموضع المعروف بالجنادل، قبلي مدينة **أسوان**، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، عاينه وباشره واختبره من جانبيه، وجد أن ما يبغيه هو فوق جهد الناس في أيامه.. فتراجع معتذرًا عن فكرته.

فابن الهيثم حين وصل إلى منطقة الجنادل جنوبي **مصر** (وهو نفس مكان السد العالي المقام حاليا) وعاين المكان، اكتشف استحالة تنفيذ فكرته في زمانه بوسائل وإمكانات عصره، فرجع إلى القاهرة معترفًا بفشله في تنفيذ فكرته بإقامة سد علي النيل يختزن المياه من أيام

---

(١) الحسن بن الهيثم، المسمى عند الغربيين «الهازن» ولد بالبصرة ودرس بها، وتفوق في علم البصريات ويقول عنه أرنولد في كتاب «تراث الإسلام»: إن علم البصريات وصل إلي الأوج بظهور ابن الهيثم، وابن الهيثم هو أول من قال بأن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه وأول من شرح تركيب العين ووضح أجزاءها بالرسوم.

الفيضان لتروى أرض مصر في أيام التحاريق.

والشاهد في ذلك مدى اهتمام الأمير الفاطمي بالعلماء، ومدى توقيره لهم، والذي ظهر من خلال دعوته **لابن الهيثم** للمجيء إلى مصر، ثم حسن استقباله له وإكرامه، ولم يكن ذلك إلا لعلم ابن الهيثم -رحمه الله-..

ويذكر التاريخ أيضًا أن **الخوارزمي**[1] انتقل من بلدته **خوارزم** (وكانت مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية) إلى **بغداد** عاصمة الخلافة، حيث «بيت الحكمة» ذلك المجمع العلمي الكبير الذي أقامه الخليفة **هارون الرشيد**، والذي بنى **المأمون** بجواره مرصدًا فلكيًا..

ولأن **الخوارزمي** كان بارزًا في علوم الفلك والجغرافيا، فقد اتصل بالخليفة **المأمون**، لما عرف عنه من حبٍ للعلم والعلماء، وخاصة أن المأمون كان بارعًا في هذين المجالين من العلوم..

وسرعان ما أحاطه **المأمون** بعناية خاصة وتكريم كبير، فولاه منصبًا كبيرًا في بيت الحكمة، ثم أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستزادة من علوم الآخرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

وفي سياق الحديث عن مرصد **المأمون**، فقد كان اهتمام **المأمون** بعلم الفلك غالبًا على اهتمامه بمجالات العلوم الأخرى، ولذلك أمر العلماء (ولنقارن ذلك بحال الكنيسة مع العلماء كما ذكرنا في هذا الشأن) أن يقيموا مرصدًا فلكيًا لقياس الكواكب ومعرفة أحوالها.. وقد تحدث صاعد الأندلسي عن اهتمام المأمون بعلم الفلك وجهوده في ذلك، فقال:

«ولما أفضت الخلافة إلى **عبد الله المأمون**، وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف علماء وقته على كتاب

---

(١) عاش محمد بن موسى الخوارزمي في بغداد فيما بين ١٦٤ـ ٢٣٥ هجرية (٧٨٠-٨٥٠م) وتوفي هناك، وبرز في عهد المأمون، ونبغ في الرياضيات والفلك، وطور الفكر الرياضي وذلك بإيجاد نظم لتحليل كل من معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية هندسية، لذا يعتبر الجبر والمقابلة للخوارزمي هو أول محاولة منظمة لتطوير علم الجبر على أسس علمية . انظر ابن النديم: الفهرست ص ٣٣٣ - إليان سيركيس: معجم المطبوعات ١/ ٨٤١ - أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٢٠ - علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص ١٤٨.

المجسطي (لبطليموس)، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه... جمع المأمون علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا بها أحوالها، كما صنع بطليموس ومن كان قبله، ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بمدينة الشماسية من بلاد دمشق من أرض الشام، سنة أربع عشرة ومائتين، فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها وخروج مركزها ووضع أوجهها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقي الكواكب من السيارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين (٨٣٣م)، فقيدوا ما انتهوا إليه، وسموه «المرصد المأموني»[١].

وفي طور اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء، فقد كانوا يمنحون من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي تشجع على تحصيل هذه العلوم بصورة هي أقرب إلى الخيال، وبصورة أكثر من غيرها في أي مجال آخر..

فكان المأمون أيضًا إذا ترجم عالمٌ من العلماء كتابًا من لغة غير العربية إلى اللغة العربية أعطاه وزن هذا الكتاب المترجَم ذهبًا، وبالطبع فليس في هذه العلوم المترجمة صلة بعلوم الشرع، إنما كانت من علوم اليونان أو الرومان أو الإغريق أو الهند، مما هي في الطب والرياضيات والهندسة وغيرها من علوم الحياة[٢]..

ولذلك فقد نشطت حركة الترجمة كثيرًا في ذلك الوقت، وعلى إثرها نُقل إلى المسلمين علوم هائلة.. فاستطاعوا أن يقيموا أروع حضارة عرفتها البشرية في تاريخها..

وبهذه المناسبة والحديث عن الترجمة، فإننا نُعرّج قليلا على حركة الترجمة في البلاد الإسلامية في عصرنا هذا، لنقارنه بما كانت عليه الحياة العلمية والحضارة الإسلامية بصفة عامة في عصر الخليفة المأمون..

فإن الإحصائيات الحديثة تشير إلى أن العالم العربي يُترجِم ثلاثة كتب سنويًا لكل مائة ألف مواطن، بينما على الجانب الآخر، فإن إسرائيل وحدها - على سبيل المثال - تترجم مائة كتاب سنويًا لكل مائة ألف مواطن!!

---

(١) صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٢٩٩.

(٢) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٤٤٢ بتصرف.

وهذا يوقفنا بعض الشيء على حقيقة الوضع العلمي المتردي الذي نعيشه الآن..

وفي هذا الشأن أيضًا أرسل المنصور والمأمون والمتوكل الرُّسلَ إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية لاجتلاب الكتب اليونانية التي أهملها أصحابها - على حد تعبير علي بن عبد الله الدفاع في روائع الحضارة العربية والإسلامية - ولم يعرفوا قيمتها.. فكان خلفاء المسلمين يرسلون أحيانا العلماء إلى أعدائهم أباطرة الروم ليشتروا منهم الكتب العلمية اليونانية، كما أن خلفاء بني أمية والعباس كانوا يقبلون المخطوطات والكتب العلمية من أساقفة النصارى والصابئة والمجوس وغيرهم بدلا من دفع الجزية[1]!!

أبلغ تكريم للعلم والعلماء، وأبلغ رسالة في الحرص عليه، والتشجيع له.. ذلك الذي كان يقوم به الخلفاء المسلمون..؟!

والحديث في هذه الأمثلة لا ينقطع.. ولم تكن هذه الأحداث عابرة في حياة الأمة الإسلامية، إنما كانت متكررة عبر قرون متتالية.. مما يؤكد على أنها لم تكن من قبيل المصادفة، أو نتيجة وجود خليفة معين أو حاكم بذاته يهتم بالعلوم..

فلقد كانت هذه العلوم سمة أصيلة من أهم سمات ومقومات الدولة الإسلامية في شتى مراحلها.. وهو ما حدا بجامعات مثل **قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة في الأندلس**، لأن تفتح أبوابها للراغبين في العلم من كل أنحاء أوروبا.. إذ لم يكن هناك جوٌّ علمي، ولا بيئة علمية إلا في هذه البقاع المسلمة..

ويقول **سارتون**: «حقق المسلمون - عباقرة الشرق - أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت معظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها، وأعتقد أننا لسنا في حاجة أن نبين منجزات المسلمين العلمية في الرياضيات

(١) انظر علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم، مؤسسة الرسالة - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م ص ٢٥.

والفيزياء وعلم الفلك والكيمياء والنبات والطب والجغرافيا»[1]..

ولنا أن نتساءل بعد:

لماذا يهرب كثيرٌ من المسلمين من القضايا العلمية الآن؟ ولماذا يُتَّهم الإسلام بالتخلف والجمود؟ ولماذا يُعلّق كثيرٌ من المتشائمين والعلمانيين الغربيين على أن هذه القواعد التي ذكرنا هي قواعد نظرية، لا مجال لها للتطبيق في مجال الحياة، وفي واقع الناس؟ ولماذا يرسخون في اعتقادنا أن الدين عكس العلم وأنه يضاده ويتنافى معه؟ وأن الإنسان إذا أراد أن يكون عالمًا حقًّا، فعليه أولاً أن يتخلص من قيود الدين؟!

ألا يثبت ذلك التشجيع المكثف على العلم، وذاك الحرص الشديد عليه الذي رأيناه من قِبل الخلفاء المسلمين على مدى عصورهم، وتلك المكانة السامقة والرفيعة للعلم والعلماء في الإسلام بصفة عامة، وعلى مدى تاريخهم الحضاري بصفة خاصة.. ألا يثبت ذلك أنه تشجيعٌ عملي واقعي، قابلٌ للتطبيق والتكرار؟!

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

***

(١) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١١٠، ١١١، نقلا عن سارتون: المدخل إلي تاريخ العلوم.

الفصل الخامس

نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية

في صورة تعبر عن جمع الحضارة الإسلامية بين علوم الشرع التي تحفظ الدين، وعلوم الحياة التي تُسيِّر الحياة وتعمِّر الأرض.. وذلك كله لرفعة الأمة واستغنائها عن غيرها، لتحقق أهليتها بأن تكون خير أمة أُخرجت للناس..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس.. فهذه أمثلة - مجرد أمثلة - ونماذج واقعية أخذت بأسباب العلم، وارتقت به في مدارج السماء؛ فأصبحت شعلة وهّاجة أضاءت سماء الإنسانية، وبدّدت ظلام القرون الوسطى، ونعرضها في أربعة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: علم الجرح والتعديل.

المبحث الثاني: علم الطب في الحضارة الإسلامية.

المبحث الثالث: علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية.

المبحث الرابع: علم البصريات في الحضارة الإسلامية.

***

المبحث الأول

علم الجرح والتعديل

لما كان الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها القرآن.. فقد عُني المسلمون بحفظه وفهمه في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، واستمر هذا الاهتمام عبر الأجيال المتتالية.

ولما كان من الأمور المعلومة بداهة أنه لا سبيل إلى معرفة ما جاء عن النبي ﷺ من أحاديث وأخبار إلا عن طريق الرواة والنقلة، الذين نقلوا أخباره جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، حتى دونت السنة في الكتب المعتمدة المعروفة.. فقد كان الاطلاع على أحوال هؤلاء الرواة والنقلة، وتتبع مسالكهم، وإدراك مقاصدهم وأغراضهم، ومعرفة مراتبهم وطبقاتهم، وتمييز ثِقاتهم من ضعافهم، هو الوسيلة الأهم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها..

وقد نتج عن هذا نشوء علم عظيم وضعت له القواعد، وأسست له الأسس والضوابط، فكان مقياسًا دقيقًا ضبطت به أحوال الرواة، من حيث التوثيق والتضعيف، والأخذ والرد، وذلك هو «**علم الجرح والتعديل**»، أو علم الرجال، أو علم ميزان أو معيار الرواة، **والذي لا نظير له عند أمة أخرى من أمم الأرض**..

وقد عُدَّ هذا العلم نصف علم الحديث؛ وكيف لا وهو ميزان رجال الحديث ومعيار الحكم عليهم، وهو الحارس للسنة من كل زيف ودخيل..؟!

والذي يطالع كتب الرجال والتراجم والجرح والتعديل، يقف مبهورًا أمام هذا العلم الذي لا يمكن أن يكون وضعه جاء صدفة أو تشهيًا، بل بُذِلت فيه جهود، وقُطِعت فيه فيافي وقفار، وفنيت فيه أزمان وأعمار، حتى بلغ قمة الحسن ومنتهى الجودة..

وبداية؛ فإن «**الجرح**» في اللغة يعني: التأثير في البدن بقطع بسلاح ونحوه، وقد استعير في المعنويات بمعنى التأثير في الخُلُق والدين بوصفٍ يناقضهما. وعلى هذا فهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي أو الطعن فيه بما يقتضي رد روايته.

أما «**التعديل**» فيعني في اللغة: التقويم والتسوية، واستعير أيضًا في المعنويات بمعنى

الثناء على الشخص بما يدل على دينه القويم وخلقه السوي. وهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي بما يقتضي قبول روايته.

وعلى هذا فعلم الجرح والتعديل النظري هو: القواعد التي تنبني عليها معرفة الرواة الذين تقبل رواياتهم أو ترد، ومراتبهم في ذلك. أما التطبيقي فهو: إنزال كل راوٍ منزلته التي يستحقها من القبول وعدمه[١].

والكلام في الرجال جرحًا وتعديلاً ثابت عن رسول الله ﷺ، وعن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وجُوِّز ذلك تورعًا وصونًا للشريعة من أن يدخل فيها ما ليس منها، ونصيحة لله ورسوله والمسلمين، وليس هو طعنًا في الناس، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة، والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال[٢]..

والحقيقة أن التجريح والتعديل لم يكن متاحًا لأي أحد؛ وذلك أن الأمر يتطلب من الأهلية والتمكن ما لا يمكن أن يصل إليه إلا القلة من جهابذة النقاد والمحدثين، الذين لديهم اطلاع واسع على الأخبار والمرويات وطرقها، ومعرفة تامة بأحوال الرواة ومقاصدهم وأغراضهم، والأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة في الوهم والخطأ، مع معرفة بأحوال الراوي وتاريخ ولادته، وبلده، وديانته وأمانته، وحفظه وسلوكه، وشيوخه وتلاميذه، ومقارنة مروياته بمرويات غيره، إلى غير ذلك..

وهي منزلة لا يصل إليها كل أحد، وليس أدلَّ على ذلك من أن رواة الأخبار كثيرون يعدون بالألوف، وأما النقاد الحاذقون فإنهم قليل لا يتجاوزون أصابع اليد في كل طبقة، وهؤلاء الأئمة الذين بلغوا هذه المرتبة لم يبلغوها إلا بعد استيفائهم للشروط التي تؤهلهم للتصدي لهذا الأمر.

وقد قام الأئمة بهذا الواجب حسبة لله، وصيانة لدينه، وحفاظًا على سنة نبيه، قال أبو بكر بن خلّاد ليحيى بن سعيد: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: لِمَ

---

(١) الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٦.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص٣٨.

لَمْ تذُبَّ الكذب عن حديثي؟»[1].

فلم يكن الحامل لهم على ذلك أهواء أو حظوظ النفس أو غيره، ولذلك لم ترهم يجاملون أحدًا حتى ولو أقرب الأقربين، فوجدنا منهم من يضعف والده، وقد سُئِل **علي بن المديني** - كما مرَّ بنا من قبل - عن أبيه؛ فقال: اسألوا غيري، فقالوا: سألناك، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: «هذا هو الدين، أبي ضعيف»[2]، وكان منهم من يُضعِّف ولده وأخاه، قال **أبو داود** صاحب السنن: «**ابني عبد الله** كذاب»، وقال **زيد بن أبي أنيسة**: «لا تأخذوا عن **أخي يحيى**»[3]..!!

وعلى هذا فإنه لابد من توافر **شروط معينة في الجارح والمعدِّل**، والتي من شأنها أن تجعل حكمه منصفًا كاشفًا عن حال الراوي..

ويمكن إجمال هذه الصفات أو تلك الشروط فيما يلي:

١) أن يتصف بالعلم والتقوى والورع والصدق؛ لأنه إن لم يكن بهذه الأخلاق فهو محتاج إلى من يعدله، فكيف يكون حاكمًا على غيره بالجرح والتعديل والحالة كما ذكر[4]؟!

٢) أن يكون عالمًا بأسباب الجرح والتعديل؛ لأنه إن لم يكن بهذه الصفة ربما جرح الراوي بما لا يقتضي جرحه، أو بأمر فيه خلاف قوي، وربما عدَّل الرجل استدلالاً ببعض مظاهره دون خلطة ومعرفة وسبر لأحواله[5].

٣) أن يكون عالمًا بتصاريف كلام العرب لا يضع اللفظ لغير معناه، ولا يجرح بنقله لفظًا هو غير جارح[6].

وهذا الجرح والتعديل في الرواة يثبت بواحد من طرق ثلاثة:

الأول: الاستفاضة والشهرة؛ فمن اشتهر بين أهل الحديث بعدالته، وشاع الثناء عليه، استغنى عن بينة شاهدة بعدالته، وهؤلاء مثل: الإمام مالك، وشعبة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع، وأحمد بن حنبل.. فمثل هؤلاء لا يُسأل عن

(١) الأبناسي: الشذا الفياح ٢/ ٧٤٠.
(٢) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.
(٣) السخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٥٥.
(٤) أبو الحسنات اللكنوي الهندي: الرفع والتكميل ص٦٧.
(٥) زين الدين العراقي: التقييد والأيضاح ١/ ١٤٢.
(٦) الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٢٧.

عدالتهم؛ لأن شهرتهم بالعدالة أقوى في النفس من شهادة الواحد والاثنين بعدالتهم[1].

وقد سُئِل الإمام **أحمد بن حنبل** عن إسحاق بن راهويه، فقال: مثل إسحاق يُسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين[2].

وحكم الجرح فيما سبق كالتعديل.

الثاني: أن ينص اثنان من أهل العلم على عدالته أو جرحه، وهذا باتفاق الجماهير من العلماء؛ قياسًا على الشهادة، حيث يشترط في تزكية الشاهد اثنان.

الثالث: أن ينص واحد من علماء الجرح والتعديل على عدالة ذلك الراوي أو جرحه، على الصحيح المختار الذي رجحه **الخطيب البغدادي** و**ابن الصلاح** وغيرهما، واستدلوا على ذلك بأن العدد لم يشترط في قبول الخبر، فإنَّ الحديث الغريب (أي الذي جاء من طريقٍ واحد) قد يكون صحيحًا، فإذا كان كذلك فلا يشترط في جرح الراوي أو تعديله أكثر من معدل أو جارح واحد[3].

وخالف بعض العلماء فقالوا: لا يثبت التعديل والجرح إلا باثنين؛ قياسًا على الجرح والتعديل في الشهادات[4].

وهناك شَرطان لقبول الجرح والتعديل:

الأول: أن يصدرا ممن استوفى شروط الجارح والمعدِّل التي سبق ذكرها؛ فإن اختلَّ بعض شروط الجارح والمعدل لم يقبل جرحه ولا تعديله، ولذلك صور منها:

١) أن يكون الجارح نفسه مجروحًا: ومثال ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في التهذيب في أحمد بن شبيب الحبطي البصري، بعد أن نقل توثيقه عن أبي حاتم، وأهل العراق، وابن حبان، قال: وقال أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث غير مرضي، قلت (ابن حجر): لم يلتفت أحدٌ إلى هذا القول، بل الأزدي غير مرضي[5].

٢) أن يكون الجارح من المتشددين الذين يجرحون الراوي بأدنى جرح: ومثال ذلك ما ذكره الإمام الذهبي في الميزان في محمد بن الفضل السدوسي شيخ الإمام البخاري، الملقب

---

(١) الأبناسي: الشذا الفياح ١/ ٢٣٥.

(٢) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢/ ٣٨٢.

(٣) السيوطي: تدريب الراوي ١/ ٣٠٨.

(٤) الشهرزوري: مقدمة ابن الصلاح ١/ ٦١.

(٥) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/ ٣١.

بعارم، بعد أن ذكر توثيق **الدارقطني** له، قال: قلت (**الذهبي**): فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بعد **النسائي** مثله، فأين هذا القول من قول **ابن حبان**... في عارم: «اختلط في آخر عمره، وتغير حديثه حتى كان لا يدري ما يحدث به، فوقع في حديثه المناكير الكثيرة، فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون، فإذا لم يعرف هذا من هذا تُرِك الكل ولا يحتج بشيء منها»، قلت (**الذهبي**): ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثًا منكرًا، فأين ما زعم؟[(١)]

الشرط الثاني: أن يكون الجرح مفسَّرًا، وأما التعديل فلا يشترط تفسيره، وسبب التفريق بينهما أن أسباب التعديل كثيرة يصعب حصرها؛ فإن ذلك يحوج المعدل إلى أن يقول: فعل كذا وكذا، فيذكر كل ما يجب عليه أن يفعله، ويقول: لم يكن يفعل كذا وكذا، فيعد كل ما يجب عليه أن يجتنبه وهذا أمر شاق جدًّا، وأما الجرح فإنه يثبت في الراوي ولو بخصلة واحدة مما يقتضي الجرح[(٢)].

وهناك سبب آخر للتفريق بينهما، وهو أن الناس اختلفوا في أسباب الجرح، فربما جرح بعضهم الراوي بما ليس بجارح عند التحقيق، فكان لابد من الاستفسار عن سبب الجرح لينظر، هل هو جرح أم لا، وليس الأمر كذلك في التعديل[(٣)].

هذا هو مذهب الجمهور، واختار **الخطيب البغدادي** قبول الجرح المجمل - أي الذي لم يفسر - إذا صدر من العالم بما يصير به الراوي مجروحًا؛ لأننا متى استفسرناه عن سبب الجرح فقد شككنا في علمه، فنقضنا ما بنينا عليه أمره من الرضا به والرجوع إليه[(٤)].

على أنه قد تتعارض أقوال أهل العلم في الراوي، فيوثقه - مثلاً - بعضهم ويجرحه آخرون.. و حينئذٍ لا يخلو الأمر من حالين:

أولاً: أن يمكن الجمع بين كلام الموثق وكلام الجارح في ذلك الراوي، وذلك بأن يحمل التوثيق على أمر خاص، والتجريح على أمر خاص آخر، ولذلك صور:

١) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن أهل بلده، والجرح له في روايته عن غير أهل بلده، وذلك مثل **إسماعيل بن عياش الحمصي**؛ فإنه إذا حدث عن الشاميين فحديثه عنهم جيد، وإذا حدث عن غيرهم فحديثه مضطرب.

---

(١) الإمام الذهبي: ميزان الاعتدال ٤/ ٨.

(٢) أبو الحسنات اللكنوي: الرفع والتكميل ص١١٧.

(٣) سراج الدين الأنصاري: المقنع ١/ ٢٤٩.

(٤) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص١٠٨.

٢) أن يكون التوثيق للراوي في وقت من عمره، والتجريح في وقت آخر من عمره، وذلك في حق الرواة المختلطين، فيؤخذ من حديث هؤلاء ما روي عنهم قبل أن يختلطوا، ويضعف من حديثهم ما روي عنهم بعد الاختلاط.

ومن أمثلة هذا النوع عطاء بن السائب، وسعيد بن أبي عروبة، وصالح بن نبهان مولى التوأمة، هذا فيما إذا استمر المختلط في التحديث بعد اختلاطه، فأما إن توقف عن التحديث أو حجب عنه الناس - كما في شأن جرير بن حازم وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي - فإن حديثه مقبول ولا يضره اختلاطه.

٣) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن بعض شيوخه، والجرح في روايته عن شيوخ معينين.

ومثال ذلك حماد بن سلمة؛ فإنه ثقة، وخاصة في روايته عن ثابت البناني، ولكن روايته عن قيس ابن سعد لا يحتج بها، قال الإمام أحمد: ضاع كتابه عنه، فكان يحدث من حفظه فيخطئ.

ومثل **هشام بن حسان الأزدي**؛ فإنه ثقة مشهور، لكن تُكُلِّم في روايته عن بعض شيوخه، قال يحيى بن معين: يُتَّقَى من حديثه عن عكرمة، وعن عطاء وعن الحسن البصري.

ثانيًا: أن يتعذر الجمع بين الجرح والتعديل، وهنا يقدم الجرح على التعديل؛ لأن المعدل يخبر عما ظهر له من حال ذلك الراوي، والجارح يخبر عن باطن خفي عن المعدِّل، فمعه زيادة علم، فيُقَدَّم قوله.

ولكنَّ ذلك بشروطٍ ثلاثة:

١) أن يكون الجرح مفسَّرًا.

٢) أن لا يكون الجارح متعصبًا على المجروح أو متعنتًا في جرحه.

٣) أن لا يبين المعدل أن الجرح قد انتفى عن ذلك الراوي بدليل صحيح، وذلك مثل أن يجرحه الجارح بأمر مفسق فيبين المعدل أنه قد تاب من ذلك العمل.

وبقي إذن أن نعلم أن علماء الحديث اصطلحوا على **ألفاظ معينة يصفون بها الرواة**؛ ليميزوا بها بين مراتب أحاديثهم من حيث القبول والرد، وهذه الألفاظ كما يلي:

أولاً: ألفاظ التوثيق:

١) أعلاها وصف الراوي بما يدل على المبالغة في التوثيق، وأصرح ذلك التعبير بأفعل،

كأوثق الناس، أو أثبت الناس، أو إليه المنتهى في التثبت.

٢) ثم ما كررت فيه صفة التوثيق لفظًا، كثقة ثقة، أو معنىً، كثقة حافظ، وثبت حجة، وثقة متقن.

٣) ثم ما انفرد فيه لفظ التوثيق، كثقة، أو ثبت، أو إمام، أو حجة. أو تعدد ولكن بمعنى المفرد، مثل: عدل حافظ، أو عدل ضابط.

٤) ثم ما قالوا فيه: لا بأس به، أو ليس به بأس - عند غير ابن معين - أو صدوق، أو خيار، وأما ابن معين فإنه قال: إذا قلت لك: ليس به بأس فهو ثقة.

٥) ثم ما قالوا فيه: محلُّه الصدق، أو إلى الصدق ما هو، أو شيخ، أو مقارب الحديث، أو صدوق له أوهام، أو صدوق يهم، أو صدوق إن شاء الله، أو أرجو أنه لا بأس به، أو ما أعلم به بأسًا، أو صويلح، أو صالح الحديث.

حكم هذه المراتب:

مَن قيل فيه من الرواة لفظ من ألفاظ المراتب الثلاث الأولى، فحديثه صحيح، وبعضه أصح من بعض، وأما أهل المرتبة الرابعة فحديثهم حسن، وأما أهل المرتبة الخامسة فلا يُحتَج بحديثهم، بل يُكتَب حديثهم للاعتبار، فإن وافقهم غيرهم قُبِلَ، وإلا رُدَّ.

ثانيًا: ألفاظ الجرح:

وهي على مراتب أيضًا:

١) فشرُّها الوصف بما دل على المبالغة في الجرح، وأصرح ذلك التعبير بأفعل، كقولهم: أكذب الناس، أو إليه المنتهى في الكذب، أو هو ركن الكذب.

٢) ودونها ما قيل فيه: وضَّاع، أو كذَّاب، أو يضع الحديث، أو يختلق الحديث، أو «لا شيء» عند الشافعي.

٣) ودونها ما قيل فيه: متهم بالكذب، أو بالوضع، أو يسرق الحديث، أو ساقط، أو هالك، أو ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو تركوه، أو فيه نظر، أو سكتوا عنه (عند البخاري في اللفظتين الأخيرتين فقط)، أو ليس بثقة.

٤) ودونها ما قيل فيه: ردُّوا حديثه، أو ضعيف جدًّا، أو واه بمرة، أو تالف، أو لا تحل

الرواية عنه، أو لا شيء، أو ليس بشيء عند غير **الشافعي**، أو منكر الحديث عند البخاري.

٥) ودونها ما قيل فيه: ضعيف، أو ضعفوه، أو منكر الحديث عند غير البخاري، أو مضطرب الحديث، أو لا يحتج به، أو واه.

٦) ودونها ما قيل فيه: فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بذلك، أو ليس بالقوي، أو ليس بحجة، أو ليس بالمتين، أو سيئ الحفظ، أو لين، أو تعرف وتنكر، أو ليس بالحافظ.

حكم هذه المراتب:

الحكم في المراتب الأربع الأولى أنه لا يُحتَج بواحد من أهلها، ولا يُستشهد به، ولا يُعتبر به؛ فأهل المرتبة الأولى والثانية حديثهم موضوع، وأهل الثالثة حديثهم متروك، وأهل الرابعة حديثهم ضعيف جدًّا.

وأما أهل المرتبة الخامسة والسادسة فيُكتَب حديثهم للاعتبار، ويرتقي إلى الحسن إذا تعددت طرقه، والله أعلم[1].

إنَّ هذه التفاصيل عن علم الجرح والتعديل، وقواعده، وضوابطه؛ لَتبين - بما لا يدع مجالاً للشك - مدى الجهد الذي بذله العلماء المسلمون من أجل توثيق السُّنَّة النبوية الشريفة، وأنهم ما تركوا سبيلاً للتيقن من ضبط صحة السُّنة إلا طرقوه؛ حيث أنشأوا هذا العلم إنشاءً؛ مما جعله قصرًا على الأمة الإسلامية، فلا توجد أمة تملك هذه الدقة في النقل عن نبيها، ولا هذه التراجم الكاملة لأكثر من نصف مليون راوٍ من الرواة، ولا التفرقة الدقيقة بين كل لفظٍ وآخر في الجرح والتعديل؛ بحيث لا تُتْرَك الأمور للآراء الشخصية، فكُلٌّ من الجرح والتعديل مضبوط بقواعد صارمة تحميه من اتباع الهوى، وتحافظ على المنهج العلمي في توثيق الرواة محافظةً بالغة، وهذا دليل على دقة ومكانة علماء المسلمين الذين دفعتهم غيرتهم وحميتهم، وحرصهم على اتباع الأمة الإسلامية للسُّنّة الصحيحة إلى ابتكار ذلك العلم والتنظير له بما ليس له في تاريخ البشرية العلمي نظير.

***

(١) إبراهيم بن علي آل كليب: مهمات علم الحديث.

المبحث الثاني
علم الطب في الحضارة الإسلامية

يُعدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار، حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين.

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبيَّة وقاية وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطبية النادرة، التي كان لها - بعد الله - الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتجاهًا آخر تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجد على ظهر الأرض وهو يهتدي - بإلهام ربه - إلى أنواع من التطبيب تتفق مع مستواه العقلي وتطوره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطب يُعرف بالطب (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) يذكر أن: «... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحي، وربما صح منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي...»[(١)].

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحث رسول الله ﷺ على التداوي فقال - كما روى أسامة بن شريك رضي الله عنه -: «**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ**»[(٢)]. وعُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل والتمر

(١) ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر ١/ ٦٥٠.

(٢) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، والحاكم (٨٢٠٦)، وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وقال الألباني: صحيح (٢٩٣٠) صحيح الجامع.

والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ «الطب النبوي».

غير أن المسلمين لم يقفوا عند حدود ذلك الطب النبوي (مع إيمانهم بنفعه وبركته)، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية - والطب أحدها - تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنَّى وُجدت، فنرى أطباء المسلمين يأخذون في التعرف على الطب اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباء المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلفات طبية، ولعل هذا يعتبر من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميز علماء الطب المسلمون بأنهم أول من عرف التخصص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون (الكحّالين)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (الحجّامون)، ومنهم المختصون في أمراض النساء وهكذا.

وكان من سمات هذا العصر إنشاء المستشفيات النظامية، وبروز الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب، وكانت عائلة **أبي الحكم الدمشقي** هي المسيطرة على هذه المهنة في العصر الأموي، وكان من هذه الشخصيات أيضًا: **تياذوق**، وقد كان قريبًا من **الحجاج بن يوسف الثقفي**، و**أحمد بن إبراهيم** الذي كان طبيب الخليفة الأموي **يزيد بن عبد الملك**[1].

وما كادت عجلة الأيام تدور في العصر العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطب، وصححوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يقفوا عند حد النقل والترجمة فقط وإنما واصلوا البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين..

وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازي -رحمه الله-، والذي يعتبر من أعظم علماء الطب في التاريخ قاطبة، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه، وسوف نفرد له حديثًا خاصًا بإذن الله في موضع آخر من هذا الكتاب.

كما تطوَّر عند المسلمين طب العيون (الكحالة) ولم يطاولهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٤٠٥-٤١٠.

قبلهم، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أتوا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شأوهم؛ فقد كانت مؤلفاتهم فيه الحجة الأولى خلال قرون طوال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلفين كادوا يعتبرون طب العيون طبًّا عربيًّا، ويقرِّر المؤرخون أن **علي بن عيسى الكحال** (ت ٤٠٠ هـ) كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برمتها، ومؤلفه (التذكرة) أعظم مؤلفاته[1].

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة **للرازي** و**ابن عيسى الكحال**، فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يعتبر من أعظم الجراحين في التاريخ -إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق- وهو **أبو القاسم الزهراوي** (ت ٤٠٣ هـ) الذي تمكن من اختراع أولى أدوات الجراحة كالمشرط والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، والتي من أهمها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة وتمكن من إيقاف النزف بالتخثير.

وقد كان **الزهراوي** هو الواضع الأول لعلم (المناظير الجراحية)، وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أول مخترع ومستخدم لمنظار المهبل.

ويعتبر كتاب **الزهراوي**: (التصريف لمن عجز عن التأليف) - والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي **جيراردو**[2] تحت اسم ALTASRIF - موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوروبا وهذا باعترافهم، (تتألف هذه الموسوعة من ثلاثين مجلدًا مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول في (الطب)، والثاني في (الكيمياء)، والثالث في (الجراحة والأدوات الجراحية). ويذهب مؤرخو الطب إلى أن **الزهراوي** كان أول من خص الجراحة بدراسة متميزة، وفصلها عن سائر الأمراض التي تعتري جسم الإنسان.

ولقد حلَّ مبحث **أبي القاسم الزهراوي** في الجراحة محل كتابات القدماء، وظل مبحثه هذا العمدة في فن الجراحة حتى القرن السادس عشر (أي لما يزيد على خمسة قرون من زمانه)، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية!!) كان

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢/ ٢٦٣.

(٢) جيراردو دا كريمونا (١١١٤ - ١١٨٧م) مستشرق إيطالي. مولده ووفاته في «كريمونا» من مدن إيطاليا الشمالية. أقام زمنًا في طليطلة (بالأندلس) فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة.

لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعده من الجراحين الغربيين، وكانت بالغة الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فن الجراحة في أوروبا في القرن السادس عشر، يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير **هالر**: «إن جميع الجراحين الأوروبيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث»(١).

وكانت قد برزت كذلك شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال **ابن سينا** (ت ٤٢٨ هـ)، الذي استطاع أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أول من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأول مرة طفيل (الإنكلستوما) وسماها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالم الإيطالي «**دوبيني**» بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أول من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي(٢).

كما كشف **ابن سينا** - لأول مرة أيضًا - طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًّا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض...»(٣) وهو ما أكده «**فان ليوتهوك**» في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن **ابن سينا** يعد أول من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتل مرتبة عالية في الطب الحديث؛ فقد وصف لأول مرة (التهاب السحايا الأولي) وفرّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) - وهو الالتهاب السحائي - وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدث أيضًا عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد،

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٩١.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٩٨.

والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها[1].

ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدة طرق لإيقاف النزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق، كما تحدث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح[2].

ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وأول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يُعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري[3].

وكان ابن سينا جرّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى[4] وشقّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف - بدقة - حالات النواسير البولية، إلى جانب أنه توصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكلى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها[5].

كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء مثل: الانسداد المهبلي والإسقاط، والأورام الليفية.

وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء، مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفًا من قبل، كما تعرض أيضًا للذكورة والأنوثة في الجنين

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٣، وانظر: فوزي طوقان: العلوم عند العرب ص١٧.

(٢) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١١٨.

(٣) حسن الشرقاوي: المسلمون علماء وحكماء ص١٦٠، مؤسسة مختار، الطبعة الأولى ١٩٧٨.

(٤) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٤٨.

(٥) انظر: ابن سينا: القانون ٣/ ١٦٥.

وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكده مؤخرًا العلم الحديث[1].

وإلى جانب كل ما سبق، كان ابن سينا على دراية واسعة بطب الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك...». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لتعويض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد[2].

ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطب، فقد حفل سجل الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الرواد الذين تتلمذت عليهم البشرية قرونًا طويلة وشهد بفضلهم وسبْقهم الأعداء قبل الأصدقاء؛ فكان منهم أيضًا **ابن النفيس** (ت ٦٨٧ هـ) الذي عارض نظرية **جالينوس** الذي كان يقول بوجود ثقب بين بطيني القلب الأيمن والأيسر، فصحح ابن النفيس هذا الخطأ، ومنه اكتشف الدورة الدموية الصغرى، حيث لاحظ من خلال دراسته لحركة الدم في القلب أن الدم الذي يصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب يكون مختلطًا بالهواء، وأن الدم الذي تلطّف (أي انخفضت درجة حرارته) في التجويف الأيمن ولا منفذ له من داخل القلب ليس أمامه سوى أن ينفذ إلى الرئة، وهكذا قرر أن: «انتقال الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخّنه وتصعّده من البطين الأيمن...». وينفي (ابن النفيس) أن يكون للدم مجرى آخر؛ فهو ليس خاضعًا لأي مدٍّ أو جزر، واتجاهه واحد.

وهكذا أثبت **ابن النفيس** أن اتجاه الدم إنما يكون على هذا النحو: يمر من التجويف الأيمن للقلب إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشريان الرئوي إلى التجويف الأيسر ، بل ويزيد على ذلك بأن يفصل القول في (الشريان الوريدي) الرئوي ويصفه بأنه ذو طبقتين؛ وذلك حتى يكون ما ينفذ من مسامه شديد الرقة، وأن شبهه

---

(١) انظر: ابن سينا: القانون ٢/ ٥٨٦.

(٢) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٢.

بالشريان جاء من كونه ينبض، ولما كان نبض العروق من خواص الشريان كان إلحاق هذا العرق الرئوي بالشرايين[1].

وهكذا قدم ابن النفيس وصفًا دقيقًا للدورة الدموية الصغرى، لم يُسبَق إليه.

المسلمون وابتكار المستشفيات

لا شك أن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى، ولعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أُسِّس أول مستشفي إسلامي في عهد الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك**، والذي حكم من سنة ٨٦ هـ إلى سنة ٩٦ هـ، وكان هذا المستشفى متخصصًا في الجذام[2]، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم، بينما أُنشِئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ (البيمارِسْتانات)، وكان منها **الثابت** ومنها **المتنقّل**، فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية - ولو صغيرة - بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال!!

وكانت المستشفيات المتنقّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال (وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان **محمود السلجوقي** - رحمه الله -، والذي حكم من سنة ٥١١ هـ إلى سنة ٥٢٥ هـ) وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية[3].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًّا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد، والذي أنشئ في سنة ٣٧١ هـ، والمستشفى النوري

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٤٧، ١٤٨. وانظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٠١. عمر فاروق الطباع: ابن النفيس قي تاريخ الطب العربي ص١٧٩-١٨٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٩.

(٣) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص٤٠٥.

بدمشق، والذي أنشئ في سنة ٥٤٩ هـ، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أُنشئ سنة ٦٨٣ هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى[1]!!

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كلّيات طب حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص (الأستاذ) يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمهم، ويدوّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضّح، ويجيب عن أسئلتهم، بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثم يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب.

ومما يذكر على سبيل المثال - لنعرف ضخامة هذه المكتبات - أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب!!

وكانت تُزرَع - إلى جوار المستشفيات - المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

أما الإجراءات التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة!!

---

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٢٨،٣٢٩.

قارن كل ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحد!! فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلا بوضع كمّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعةً على الأقل من الوفاة!! ولك أن تتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى[1]!!

وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: **المستشفى العضُدي**، الذي أنشأه **عضد الدولة ابن بويه** عام ٣٧١ هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا، تزايدوا بعد ذلك جدًّا، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعةً وعشرين ساعة يوميًّا.

ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: **المستشفى النوري الكبير** بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل **نور الدين محمود** الشهيد -رحمه الله- ، وذلك في سنة ٥٤٩ هـ، وكان من أجَلّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًّا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م) أي قرابة ثمانمائة سنة!!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: **المستشفى المنصوري الكبير**، الذي أنشأه الملك المنصور **سيف الدين قلاوون** -رحمه الله- في القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣ هـ، وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!!

ولا ننسى في هذا المضمار **مستشفى مراكش**، والذي أنشأه المنصور **أبو يوسف يعقوب** -رحمه الله-، ملك دولة الموحدين بالمغرب، والذي حكم من ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوى عالٍ جدًّا من حيث

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١١٦، ١١٧.

الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة[1].

لقد كان - بحق - درّة في جبين الأمة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك **المستشفيات المتخصصة**، التي لا تعالج إلا نوعًا معينًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث **ابن جبير**-رحمه الله- في رحلته التي قام بها في سنة ٥٨٠ هـ تقريبًا، أنه رأى في بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم[2].

منهج إسلامي فريد لدراسة الطب:

لم تأتِ تلك الإنجازات السابقة في مجالات الطب عند المسلمين بصورة عشوائية غير مدروسة، وإنما كان هناك منهج واضح قاد إلى هذا المستوى الراقي في البحث، وقاد إلى نتائج متميزة في هذا العلم المهم.

ولهذا المنهج الحضاري الراقي خصائص كثيرة، سنتعرف الآن على ثلاث منها قادت إلى هذا التميز الملموس:

الخاصية الأولى: الانفتاح على الغير:

كانت الحضارة الإسلامية منفتحة تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية على غيرها من الحضارات، ولم يكن هناك أي حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غير المسلمين، أو أن يعطي علماء المسلمين سواهم من غير المسلمين.

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠-١١٨.

(٢) المصدر السابق ص١٠١.

فكان العلماء المسلمون ينظرون إلى العلوم الحياتية كميراث إنساني عام تستفيد فيه كل أمة من تجارب الأمم الأخرى، ولم يكن الطب بمنأى عن هذه النظرة، بل كان من أهم العلوم التي اعتنى المسلمون فيها بالجمع والتطوير والابتكار؛ لأنه من أهم العلوم الإنسانية، بل إن كثيرًا من علماء المسلمين يعدون الطب هو أشرف العلوم الإنسانية بعد العلوم الشرعية؛ وذلك لحاجة الناس إليه، ولكونه يحفظ الروح، والعقل، والجسد، ومن ثم يحفظ الإنسان لأداء مهامه الشرعية والحياتية في الدنيا.

ولذلك نجد أن الطب من أوائل العلوم التي اهتم علماء المسلمين بالبحث فيها، عن طريق ترجمة أعمال السابقين من الأطباء من الحضارات المختلفة، وكانت أولى هذه المحاولات على يد **خالد بن يزيد الأموي** (ت ٨٥هـ) والذي اهتم بالطب والكيمياء، وبدأ يترجم الكتب اليونانية، وخاصة ما كان موجودًا منها في مكتبة الإسكندرية **بمصر**(١).

وفي عهد الخلافة العباسية تزايدت حركة الترجمة بشكل ملحوظ، وخاصة في عهد **هارون الرشيد** -رحمه الله-، ثم ابنه **المأمون** من بعده، وانفتح أطباء المسلمين انفتاحًا غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات؛ فترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية والسريانية في الطب، واطّلع المسلمون على كمٍّ هائل من التجارب، وبخاصة التجارب اليونانية القديمة(٢).

ولا نبالغ إذا ذكرنا أن الذي عرَّف الأوروبيين بتاريخ أجدادهم اليونان هم المسلمون؛ لأن كتب الأطباء اليونانيين والرومانيين كانت مهمَلة في الأديرة والكنائس وبعض القصور والمكتبات، فأخذت تلمع في سماء الدنيا أسماء لأطباء يونانيين لم تكن معروفة قبل ذلك، مثل: **أبقراط**، **وجالينوس**، وغيرهما.

ومن المهم هنا أن نلفت الأنظار إلى ثلاث نقاط مهمة في هذه الخاصية (خاصية الانفتاح على الغير):

النقطة الأولى: أن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة والنزاهة بحيث إنهم دائمًا كانوا ينسبون الفضل لأهله، وما ادَّعى طبيب مسلم اكتشافًا طبيًّا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٦٠.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١٢٢.

الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح.

ولك أن تستمع إلى كلام العلامة الإسلامي الطبيب المشهور **أبي بكر الرازي** صاحب كتاب الحاوي (من أعظم الكتب في تاريخ الطب) وهو يقول: «... ولقد جمعت في كتابي هذا جملاً وعيوناً من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (**أبقراط**) و(**جالينوس**) و(**أرماسوس**)... ومن دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين في أحكام الطب مثل (**بولس**) و(**آهرون**) و(**حنين بن إسحاق**) و(**يحيى بن ماسويه**)... وغيرهم»[(١)].

هذه الأمانة العلمية المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، وبخاصة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

أما النقطة الثانية فهي: أن أطباء المسلمين لم يقفوا أبدًا عند حد النقل والترجمة، وإنما أخذوا تدريجيًّا في تطوير ما نقلوه، ثم وصلوا إلى مرحلة الابتكار والتأليف، بل تناولوا ما نقلوه بالنقد والتحليل، ولم يكن هناك أدنى تردد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق والإضافة والحذف، وأحيانًا بالاعتراض الكامل على المحتوى، وذلك مثل ما فعله **ابن النفيس** -رحمه الله-، عندما رفض نظرية **جالينوس** كليةً في اتجاه سير الدم من القلب، وقاده هذا الاعتراض إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، فكان ذلك سبقًا علميًّا هائلاً[(٢)].

لقد كان الأطباء المسلمون علماء بحق، وكانوا يتميزون بعقليات مفكرة، وطاقات جبارة مما يسّر لهم قيادة البشرية لعدة قرون في هذا المجال المهم من مجالات العلوم.

والنقطة الثالثة هي: أن الأطباء المسلمين لم يجعلوا الطب حكرًا عليهم، حتى في زمان قوة دولتهم بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى؛ ليدلوا بدلوهم، وليسهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم؛ علم الطب.

فقد ظهرت أسماء نصرانية ويهودية مؤثرة في علم الطب مثل **قسطا بن لوقا البعلبكي**،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٧٠.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٤٧، ١٤٨.

وأبي النصر المسيحي، وهبة الله بن جميع الإسرائيلي، وغيرهم وغيرهم... لدرجة أنه كان هناك عائلاتٌ نصرانيةٌ كاملةٌ انصبَّ اهتمامها الأساسي على علم الطب؛ ولذلك تراها وقد برعت فيه وتبوأت مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية، وذلك مثل عائلة آل بختيشوع النصرانية، والتي ظلت تحترف الطب لثلاثة قرون كاملة، وكان لها مكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس، وكان من أشهر علمائهم جبرائيل بن بختيشوع، الطبيب الخاص لجعفر البرمكي (أحد كبار رجال الدولة في عهد هارون الرشيد -رحمه الله-)(١).

وتكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين، ومدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، وهو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا، من بينهم ثمانية مسلمون وخمسة يهود وأربعة من النصارى، وسامري واحد!!

وهكذا وشت الحضارة الإسلامية علم الطب - بكل تخصصاته وفروعه - بكل نافع ومفيد، واستطاعت أن تضيف المزيد إليه، وتترك بصماتها الواضحة عليه، بما يفيد المسلمين والبشرية جمعاء، فأثْرت الحضارة الإنسانية بصفة عامة في هذا الجانب، واستطاعت أن تكمل مسيرتها فيه من بعدما ارتكزت على السابقين.

وهذا ما يجب أن يكون عليه تعامل المسلمين مع العلوم الحياتية الآن بصفة عامة.

الخاصية الثانية: الاعتماد على التجريب والتطبيقات الواقعية:

كانت الخاصية الثانية التي ميزت المنهج الحضاري عند المسلمين في دراسة الطب هي اعتمادهم على التجربة والمشاهدة والفروض؛ بمعنى أنه لم يكن منهجًا فلسفيًّا نظريًّا بحتًا، وإنما اعتمد - وبشكل رئيسي - على التجارب العملية والتطبيقات الواقعية، وهذا يميزه كثيرًا عن المناهج الطبيعية اليونانية، والتي كانت في أغلبها فلسفات نظرية، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة!

فقد اعتمد الأطباء المسلمون المنهج التجريبي في علم الطب، وكانوا يقومون في ذلك بتجربة طرق مختلفة ومتعددة للعلاج، وملاحظة الفروق بين هذه الطرق، وتسجيل ذلك بعناية ودقة.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ١٤، ١٥.

واهتم الأطباء المسلمون بتسجيل الملاحظات اهتمامًا بالغًا؛ فكانوا يدوّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة، كما اهتموا بمحاولة تبرير هذه الملاحظات بما يستطيعون، أو محاولة ابتكار العلاج المناسب لكل حالة، وبذلك حدث المزج الرائع بين العلوم النظرية والعلوم العملية، واستفادت البشرية من جهود العلماء السابقين واللاحقين.

يقول **ابن سينا** العلامة الإسلامي المتميز: «تعهدت المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب العلاجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف..»[١].

ويمتعنا **الرازي** –رحمه الله– في هذا المجال بكلام في غاية النفاسة والفائدة، حيث يقول: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة، يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء...»[٢].

فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقف عند نظرياتهم، إلا أن التجربة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية – وإن كانت لمشاهير العلماء – وقبول التجربة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وانطلاقًا من هذا المنهج العظيم، وهو منهج الاعتماد على التجربة والملاحظة وافتراض الفروض، ومحاولة تطبيقها، لم يقبل الأطباء المسلمون بالأجهزة والأدوات القديمة التي استخدمها قدماء الأطباء اليونانيين والفارسيين، بل بدءوا يفكرون في أدوات جديدة، وابتكروا أنواعًا عدة، وجربوها، فما أثبت كفاءته منها استخدموه وطوّروه، حتى وضعوا بذلك أسسًا علمية لكثير من أدوات الجراحة والولادة وعلاج الأسنان، وعلاج كسور العظام، وصلت أحيانًا إلى حد الإبهار، وبخاصة إذا نظرنا إلى التوقيت المبكر الذي ظهرت فيه هذه الآلات، وإلى خلو العالم في ذلك الوقت من أي منافس في هذا المجال.

وليس أدل على ذلك من إنتاج الجرَّاح الإسلامي الفذ **أبي القاسم الزهراوي** الذي أبهر العالم – ولعدة قرون – بأدواته الجراحية التي ابتكرها واستعملها بنفسه، وسجلها في كتابه الرائع (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأصبحت هذه الآلات العبقرية هي النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٧٣. (٢) المصدر نفسه ١/ ٧٧، ٧٨.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن **الزهراوي** هو أول من ابتكر الآلة التي تستخدم في الحقن (الحقنة)، وكان يسميها (الزراقة)، ولا يخفى على لبيب إلى أي حد كانت الإضافة التي قدمتها تلك الآلة البسيطة في تركيبها، العبقرية في فكرتها، بالغة النفع، في علاج المرضى[1].

الخاصية الثالثة: الاهتمام بالضوابط الشرعية في العلاج:

وهذه هي الخاصية الثالثة الفريدة التي ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج؛ فكل مناهج الأرض في شتى العلوم تفكر وتبتكر وتنفذ دون ضابط شرعي، أو دليل إلهي على صحة أو بطلان عمل من الأعمال، لكن الطب الإسلامي تميز بأنه كان يستمد أصولاً ثوابت من القرآن والسنة ميّزته عن شتى المناهج الأخرى.

وليس معنى هذا أن القرآن والسنة وضعا التفاصيل الدقيقة لعلاج الأمراض؛ فلا نعالج مرضًا إلا بدليل! ولكن معناه أن هناك أطرًا عامة، وحدودًا خاصة وضعها الإسلام لتكون هاديًا للأطباء المسلمين، ولكافة العلماء وعموم الناس لكي ينجحوا في الوصول إلى الحق وإلى الخير والصلاح في كل فروع الحياة، ومن هذا المنطلق نفهم قوله ﷻ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فكان الأطباء المسلمون - على سبيل المثال - يحترمون القاعدة الشرعية الأصيلة التي رواها أبو الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[2]. ومن هنا لم يكن مقبولاً أبدًا عندهم أن يعالجوا مرضًا بخمرٍ أو نجاسة، أو بفعل منكر؛ فقد أغلق لهم هذا الحديث الشريف أبوابًا كثيرة من الشر؛ لأن الله ﷻ يعلم ما يُصلح عباده وما يُفسدهم.

ومثال ذلك أيضًا أن الأطباء المسلمين لم ينساقوا وراء ما كان شائعًا في زمانهم من أمور العلاج بالدجل والشعوذة، وإنها استخدموا الأسلوب العلمي الراقي في علاج الأمراض، وقادهم هذا إلى اكتشاف الكثير من الأمراض النفسية، ومعرفة طرق علاجها.

كذلك لم يستخدم المسلمون الكي في العلاج؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، فقد روى

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٧٦.

(٢) أبو داود: كتاب في الطب، باب في الأدوية المكروهة (٣٨٧٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٩٤٦٥).

ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»[1]. وبذلك أغلق الأطباء المسلمون هذه الصفحة من طرق العلاج، والتي أثبت الطب الحديث بعد ذلك أنها مجرد تسكين مؤقت، ليس له فائدة حقيقية!!

وإذا كان من مثال رابع، فهو عدم استخدامهم السحر في العلاج، مع إدراكهم أنه علم له أصول، ولكنهم علموا أنه منهيٌّ عنه شرعًا، بل إنه من الكبائر ومن الموبقات السبع، كما روى أبو هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْـمُوبِقَاتِ... وذكر منها: السِّحْرُ»[2].

وكان لاهتمام الأطباء المسلمين بالقرآن والسنة السبيل لإرشادهم إلى كثير من وسائل العلاج التي أثبت الطب الحديث كفاءتها، بل وإعجازها، وذلك مثل الاستشفاء بعسل النحل، وحبة البركة، والحجامة، وغير ذلك من أنواع العلاج التي حفِلت بها كتب السنة النبوية.

فهذه خصائص عظيمة وفريدة ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج، ومكنته من وضع أصول راسخة لهذا العلم العظيم، ويسرت لعلمائنا الأفذاذ أن يقودوا البشرية كلها لعدة قرون.

البعد الإنساني للطب عند المسلمين:

نريد بعد ما سبق أن نلفت النظر إلى بُعدٍ رائع آخر تميز به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم، ذلك، هو البعد الإنساني والذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامة، والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه، أيًا كان هذا الإنسان وأيًا كانت معاناته.

ولم يكن غريبًا على أطباء المسلمين أن يهتموا بالبعد الإنساني في تعاملهم مع المريض؛ لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد، فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدّئ من روعه، ويخفف عن آلامه الجسدية، فضلاً عن المعنوية.

فالتشريع الإسلامي يسعى إلى رفع الحرج عن المريض بكل وسيلة، ويخفف عنه الأعباء إلى أقصى درجة، فجعل للمريض رخصة الإفطار في رمضان، وإن عاقه اعتلال صحته عن

(١) البخاري: كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث (٥٣٥٦)، وابن ماجه (٣٤٩١)، وأحمد (٢٢٠٨).

(٢) البخاري: كتاب الوصايا، باب في قوله تعالى «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» (٢٦١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٦٣٧١)، وابن حبان (٥٥٦١).

الحج فلا حج عليه، وليس عليه إثم. كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه جالسًا أو نائمًا أو حتى بعينيه! والمريض الذي يضره الماء في الوضوء يتيمم، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمم لسبب أو آخر يصلي دون أي منهما، ويسمى فاقد الطهورين!!

حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله، رفع التشريع الإسلامي الحرج عن المريض، فلا يجاهد ولا إثم عليه، يقول ﷻ: ﴿**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾ [النور: ٦١].

بل إن التشريع الإسلامي لم يكتفِ برفع بعض التكليفات، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحض وبشدة على **الوقوف إلى جوار المريض**، ورفع روحه المعنوية إلى أقصى درجة؛ فجعل رسول الله ﷺ زيارة المريض وعيادته في بيته أو في المستشفى حقًّا له على المسلمين، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**.. وذكر منها: «**وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ**»(١). وجعل الجنة نصيبًا لمن عاد مريضًا، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً**»(٢).

وأمر رسول الله ﷺ أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتُطْمِعَهُ في الشفاء وفي طول العمر، فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى المَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي الْأَجَلِ** (أي ارفعوا من أمله في الشفاء وطول الأجل)؛ **فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يَطِيبُ بِنَفْسِ المَرِيضِ**»(٣).

بل إن رسول الله ﷺ يرتفع بروح المريض إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى**

(١) مسلم: كتاب السلام، باب حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٣٢)، وابن حبان (٢٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٢٥).

(٢) ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٣)، وقال الألباني: حسن (٦٣٨٧) صحيح الجامع.

(٣) الترمذي: كتاب الطب (٢٠٨٧) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (١٤٣٨)، وابن أبي شيبة (١٠٨٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٨.

الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[1]. ويقول فيما رواه أنس ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ** (أي بعينيه) **فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[2]..

وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كمًّا عاجزًا مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه.

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٠] فالإنسان بصفة عامة مُكرَّم، ولذلك نهتم برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلمًا، وقد زار رسول الله ﷺ غلامًا يهوديًّا عندما مرض[3]، وأفرد **البخاري** لذلك بابًا خاصًّا في صحيحه فقال: «باب عيادة المشرك».

هذا البعد الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان وليس على أنه «شيء لا إحساس له»، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائمًا على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى من يقف إلى جواره، وليست المساعدة طبية فقط، ولكن تتعدَّى ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

وبهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت **الخدمة الطبية** الراقية تقدم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا عربي أو غير عربي، ولا أبيض أو أسود، ولا حاكم أو محكوم، ولا مسلم أو غير مسلم.. ففي معظم الأحيان كان العلاج مجانيًّا للجميع.. وكان المرضى ينعمون بالمستوى نفسه من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

ولنطلع معًا على طرف من نظام المستشفيات الإسلامية، والذي يعطي انطباعًا عن البعد الإنساني الذي نقصده.

---

(١) البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في ثواب المرض (٥٣١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣).

(٢) البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره (٥٣٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥٨).

(٣) انظر البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠).

فبمجرد دخول المريض للمستشفى يُفحص أولاً بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفى، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يُقيد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثيابًا جديدة خاصة بالمستشفي، ويُدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته..

وبعد دخول المريض للمستشفى الإسلامي يُعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب، كما يوصف له الغذاء الموافق لصحته، وبالمقدار المفروض له.. ولم يكن يضيق أبدًا على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يقدم لهم أطايب الطعام، فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج.. كذلك لا يضيق عليهم أبدًا في كميات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة!

فإذا أصبح المريض في دَور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أُعطِيَ ثيابًا جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يعطى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة[1]!!

ولا تسلْ بعد عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه أو البحث عن وساطات أو شفاعات لينال ما يستحق من الاهتمام والعلاج.. فضلاً عن مدّ يده متسولاً ليتم علاجه!!

وما أروع توجيه **أبي بكر الرازي** لتلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم!! وأن يعالجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء!! وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك!! فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[2].

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠.

(٢) عبد المنعم صفو: تعليم الطب عند العرب، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم، دار الجامعة (حلب،١٩٨٠م) ص ٢٧٩.

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام.. وذلك من خلال المستشفيات المتنقلة التي أشرنا إليها سابقًا.. والتي كانت تجوب القرى والنجوع والجبال والمناطق النائية بصفة عامة، والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة - في مجال الرعاية الطبية - نظرة متساوية بغضّ النظر عن بيئاتهم ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدّت كل طبقات المجتمع السوية لتشمل نزلاء السجون ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يجدون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ ومن أبناء المجتمع على أي حال.. وما ينزل بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة إصلاحهم لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم..

وقد كتب الوزير **علي بن عيسى بن الجراح** إلى **سنان بن ثابت** رئيس أطباء بغداد:

«.. فكرت في أمرِ مَن في الحبوس (السجون) وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس.. ويعالجون فيها المرضى»[1]..

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمر على مر عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدفقة من قلوب أبناء الأمة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها..

ونقصد هنا نظام الأوقاف الخيرية وما كان يقوم به من دور في حُسن رعاية المرضى وإكرامهم.. فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين - بمن فيهم الحاكم نفسه - لتغطية كل احتياجات المستشفى بمرضاه وأطبائه ومفروشاته وأغذيته ونباتاته الطبية وأدويته.. إلى حد الإنفاق على طلاب الطب المتدربين في هذا المستشفى !!

ولعلَّ من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور **سيف الدين قلاوون** سنة ٦٨٣ هجرية، وأوقف عليه ما يغطي نفقاته سنويًا.. وقد سبقت الإشارة إليه آنفًا.

وفي صدد ذِكر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطب عند المسلمين

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص١٤٨.

لا بد أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكرة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع نفسية المريض.

فقد كان رِيع بعض الأوقاف يُخصص لتوظيف اثنين يمرّان بالمستشفيات يوميًّا فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يسمعه المريض دون أن يراهما.. يوحيان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعرف «**بوقف خداع المريض**»!!.. وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع[1]!!

ولم يكن ذلك البعد الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًّا يمارسه بعض الأطباء ولا كان مجرد حب شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامة.. بل كان سلوكًا عامًّا تتبناه سياسات الدولة وينتهجه أفراد الأمة حكامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.. ويُذكر هنا أن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية للمستشفي (المنصوري) بمراكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى[2].

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ كرامة المريض وتصون حياءه، وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته؛ فلا يجوز - مثلاً - كشف عورة المريض إلا لضرورة وبالقدر المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة وما إلى ذلك... كما لا يجوز أن يشهد فحص المريض أو المريضة شخص غير ذي صفة - وخاصة إذا كان من جنس مختلف - إلى جانب عدم جواز خلوة الطبيب بمريضة من النساء، إلا مع وجود ذي مَحْرم لها أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً.. كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء..

كذلك كان من الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى، أن راعى الشرع حقوق المريض في العلاج، بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس كذلك، وذلك إن لم يوجد البديل الكفء من نفس الجنس، والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، وذلك حتى لا يفوت على المريض - رجلاً كان أو امرأة - فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريض المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذر وجود من

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٢. (٢) المصدر السابق نفسه ص١١٦.

يستطيع علاجه من المسلمين، وذلك حفاظًا على صحة المريض وحياته..

كل هذه وغيرها ضوابط وآداب إسلامية تنقل مبدأً سماويًّا - كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] - من حيز النظريات المجردة إلى التطبيق الواقعي؛ لترتقي حياة الإنسان عن أنماط أخرى للحياة عند سائر الكائنات.. وسبحان الذي أنزل شرعًا بهذا التكامل!!

الطب الوقائي في الإسلام:

اهتم المنهج الإسلامي منذ بداية نزوله بتوعية المسلمين بكل ما فيه الخير لدينهم ودنياهم؛ فأمرهم بالعلم وحض عليه، ورغبهم في استخدام هذا العلم في إصلاح كل جوانب الحياة..

ومن أهم هذه المجالات التي أبدع فيها المنهج الإسلامي مجال الوقاية من الأمراض؛ فقد ظهر فيه بجلاء حرص الإسلام ليس فقط على الأمة الإسلامية، ولكن على عموم الإنسانية.. فإن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع فإنها لا تخصُّ دينًا دون دين ولا تختار عنصرًا دون عنصر، ولكنها تؤثر سلبًا على حياة العموم من الناس..

كيف أخذ الإسلام التدابير اللازمة، والإجراءات الدقيقة لمنع حدوث الأمراض أصلاً؟ وإن حدثت فكيف يمكن أن تُمنع من الانتشار؟!

لقد جاء الإسلام بمنهج معجز، فيه سلامة الجسد والنفس والمجتمع.. وكيف لا يكون معجزًا وقد جاء من عند رب العالمين؟!

ففي الوقت الذي كانت القذارة في كل شيء سمة مميزة لحياة الأوروبيين، حتى وصل الأمر إلى اعتبار أن الأوساخ التي تعلق بالجسم والملبس هي من البركة، ومن الأشياء التي تعطي القوة للأبدان!! حتى وصل الأمر إلى أن الإنسان كان لا يغتسل في العام كله إلا مرة أو مرتين[1]!!.. في هذا الوقت نزل المنهج الإسلامي في عمق الصحراء وبعيدًا عن حياة المدن والحضارات العملاقة.. يُرشد الناس إلى **الطهارة** ووجوب الغسل وإلى استحبابه..

فالغسل واجب عند الجنابة وعند الحيض وفي الحج وغير ذلك.. وهو مستحب في العيدين والإحرام وغيرهما، واختلف العلماء في وجوبه أو استحبابه يوم الجمعة، والغالب أنه مستحب.. قال رسول الله ﷺ كما روى أبو سعيد الخدري ﷺ: «**غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ**

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٤.

مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ»[1]..

بل إنه حدَّد للمسلم فترة زمنية قصوى للفارق بين الغسلين، فقال ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**»[2]..

ووصل بعض الفقهاء بأنواع الغسل المختلفة إلى سبعة عشر نوعًا من الغسل للدلالة على أهميته.. ودعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم، واهتم بالأعضاء التي تكثر فيها الأمراض أو يحتمل فيها حدوث الوسخ.. ففي طهارة الفم قال ﷺ: «**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ**»[3].. وقال ابن عباس ﷺ: «**لقد كُنَّا نُؤْمَر بالسواك، حتى ظننَّا أن سينزل به قرآن**»[4]..

ودعا رسول الله ﷺ إلى طهارة ونظافة الأماكن التي يُتَوَقَّع فيها العرق والأوساخ والميكروبات، بل جعل ذلك من سنن الفطرة.. فقد قال رسول الله ﷺ: «**خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ**»[5]..

ولك أن تتخيل مدى رقي هذا الدين الذي يأمر بهذه الآداب في هذا العمق من التاريخ، وفي هذا المكان في الصحراء، وفي هذه الظروف الصعبة التي نشأ فيها الإسلام..

وقد أمر رسول الله ﷺ أيضًا بالتنزُّه من قذارة البول والغائط، وشدَّد في ذلك حتى إنه مر على قبرين؛ فقال لأصحابه يحدثهم عن صاحبي هذين القبرين وذلك كما روى ابن عباس ﷺ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[6]..

---

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة (٨٤٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦)، وأبو داود (٣٤٤)، والنسائي (١٣٧٥).

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦)، ومسلم: كتاب الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٩)، وابن حبان (١٢٣٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، وأحمد (٧٨٤٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) ابن أبي شيبة (١٧٩٣).

(٥) البخاري: كتاب اللباس، باب قص الشارب (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة باب خصال الفطرة (٢٥٧)، وأبو داود (٤١٩٨)، والترمذي (٢٧٥٦)، والنسائي (١٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله (٢١٣)، ومسلم: كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢)، وأبو داود (٢٠)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٣١).

وفي غير الطهارة، فقد حضَّ الرسول الحكيم ﷺ المسلمين على حماية أنفسهم من آثار **الطعام الزائد عن الحاجة**، وحذرهم من آثار التخمة.. فقال: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[1]..

كما أمرهم بالحفاظ على نظافة الأطعمة والأشربة فقال ﷺ: «**غَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ**»[2].. وأوكوا بمعنى: سدُّوا فتحة الوعاء الذي به الشراب.

وقد ذهب التشريع الإسلامي إلى أبعد من ذلك، حين منع أتباعه من كل خبيث يؤدي إلى ضرر بالصحة الجسدية والنفسية ويضر كذلك بالمجتمع..

فحرَّم الإسلام الخمر وما يندرج في حكمها كالمخدرات.. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ**»[3]... وبذلك حمى المسلمين من الأضرار الصحية الخطيرة للخمور والمخدرات، كما حمى البشرية جميعًا من الآثار الضارة للمخمورين، سواءٌ نتيجة للحوادث أو للجريمة أو لغير ذلك من الآثار السيئة لغياب العقل..

والذي ذكرناه في الخمر ينطبق كذلك على تحريم الفواحش؛ فالإسلام حرم الزنا وكل العلاقات غير المشروعة.. وبذلك لم يحفظ فقط صحة المسلمين ونسلهم وأخلاقهم، بل كان لذلك مردود على المجتمع بكامله مسلمين وغير مسلمين..

ولا يخفى على أحد أن انتشار الأمراض الجنسية في البلاد الإسلامية أقل بكثير منه في البلاد غير الإسلامية، وما ذلك إلا لكون الإسلام يمنع هذه الموبقات..

وما أروع ما قاله ﷺ حين قال: «**لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**»[4].. ولا يخفى على

---

(١) ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والحاكم (٧٩٤٥)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح (٥٦٧٤) صحيح الجامع.

(٢) مسلم: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (٣٧٥٥).

(٣) البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (٢٣٩)، مسلم: كتاب الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر (٢٠٠٣)، وأبو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٨٦١)، والنسائي (٥٥٨٥).

(٤) ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠٠٩)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥)، وقال الألباني: صحيح (٢١٨٧) صحيح الترغيب والترهيب.

أحد أن أمراض الإيدز والإيبولا، وغيرها من الأمراض الجنسية القاتلة لم تكن معروفة قبل ذلك، ولم تظهر إلا بظهور الفاحشة في المجتمعات..

وحرَّم الإسلام أيضًا أكل الميتة؛ لما في ذلك من أضرار جسيمة بالصحة أثبتها الآن الطب الحديث..

ومما جعلني أشعر بالفخر الشديد وأنا في زيارة **لأمريكا**، أني وجدتهم يفتخرون بأنه إذا مات لهم طائر أو حيوان قبل الذبح فإنهم لا يأكلونه؛ لأنه يكون ضارًّا بالصحة، وهذا لم يكتشفوه إلا منذ أعوام قليلة، بينما **أوروبا** إلى الآن تأكل الميتة!! وهذا يجعل الأمريكان يفتخرون بمنهجهم الصحي على الأوروبيين!!

فقلت في نفسي وأمام الأمريكان وغيرهم: ما أروع ديننا الذي حرَّم علينا هذا الذي اكتشفتموه حديثًا، ولكنه حرَّم ذلك علينا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!.. فسبحان الذي يعلم السر وأخفى!!..

ولا أشك – من هذا المنطلق – في أن السجائر حرام، وأن الذي يتناولها آثم، فالدين الذي حرَّم على أتباعه الخبائث لا يمكن أن يحل لهم شرب السجائر بكل ما فيها من خبث وضرر؛ فإنها لم تترك عضوًا من أعضاء الجسم إلا وألحقت به ضررًا خطيرًا.. فعودة إلى الإسلام أيها المسلمون!!

ولم يهتم الإسلام فقط بصحة الجسد بل اهتم كذلك **بصحة النفس**.. فأمر بذكر الله ﷻ وجعل ذلك اطمئنانًا للقلب؛ فقال ﷻ: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]، وحض المسلمين على الرفق والرحمة، وحُسن الخُلق ولين الجانب وطيب الكلام وجعل في التبسم صدقة، وجعل في أدب المعاملات أجرًا، وشجع المسلمين على نسيان أخطاء الغير، وعلى العفو والمغفرة، وعظَّم لهم قيمة الرضا بما قسم الله ﷻ، وجعل لهم الجنة عوضًا عما أصابهم من مصائب إذا صبروا عليها..

ولا شك أن كل هذا يصب في تكوين صحة نفسية جيدة، ويسمو بالروح ويُطمْئِن القلب، ويرتفع بأخلاق المسلم وقيمه وأهدافه إلى درجات راقية لا يتخيلها غير المسلم، ولا شك أن معدل الأمراض النفسية من قلق واضطراب واكتئاب أعلى بكثير في بلاد الغرب منها في بلاد المسلمين، وليس أدل على ذلك من مراجعة نسب الانتحار هنا وهناك لتعلم قيمة الإسلام..

وانطلاقًا من حفاظ الإسلام على صحة الفرد والمجتمع، فإن الإسلام لم يحض فقط على الاهتمام بالجسد والنفس بل اهتم كذلك بما **يُلبس من ثياب**.. فالثياب النظيفة الجميلة تعود بالفائدة على صاحبها وعلى من يعيشون إلى جواره.. بل على من يراه وإن كان لا يعرفه..

ففي أول ما نزل من القرآن نجد قول الله ﷻ: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]، وما أروع أن يكون اهتمام الإسلام من أول يوم نزل فيه للبشر بظاهرهم كما يهتم بباطنهم، فهو يقرن التوحيد بنظافة الإنسان فيقول: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ واللفظ يحتمل ظاهر المعنى، وإن كانت له تأويلات أخرى..

كما أنَّ التشريع الإسلامي عدَّ الثوب نجسًا بمجرد وصول شيء من النجاسة إليه، كالبول والغائط والدم، ولا تصح الصلاة فيه إلا أن تزول النجاسة، حتى لو كانت النجاسة قليلة.. قال **أحمد بن حنبل** -رحمه الله- عن الثوب الذي أصابه بول أو غائط: «يعيد الصلاة من قليله وكثيره»، أي من قليل النجاسة أو كثيرها[1]..

كذلك ينجس الماء إذا وقع فيه من النجاسة ما يُغير لونه أو طعمه أو رائحته[2].. وكل ذلك يهدف إلى عدم استعمال شيء وصل إليه قذر أو وسخ..

ولا يهتم المسلم فقط بنظافة نفسه وثيابه، بل يجب أن يهتم **بنظافة البيئة** التي حوله.. وهذا بحث يحتاج إلى كثير تفصيل، ليس هذا موضعه..

وإذا كان عطاء الإسلام فيما يخصُّ الوقاية من الأمراض على هذا النحو من الرقي، فإنه لا يقف عاجزًا أمام الأمراض إذا حدثت.. فلا يكتفي فقط بالأمر بالتداوي، ولكن يحض - وبشدة - على منع انتشار الأمراض في المجتمع، فيما يُعرف بـ «**الحجر الصحي**»..

وإنَّ المرء ليقف مبهورًا أمام عظمة التوجيه النبوي الذي يحدُّ من انتشار الأمراض في المجتمع، حيث قال رسول الله ﷺ: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**»[3]؛ فهو بذلك يوضح لك أبسط وسائل الوقاية من الأمراض - وأنجحها في ذات الوقت - وهذا كله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!

(١) انظر مسائل الإمام أحمد ص٤١. وهذا رأي غيره أيضًا من العلماء والفقهاء.

(٢) ابن قدامة: المغني ١/ ٥٢.

(٣) البخاري: كتاب الطب، باب لا هامة (٥٤٣٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر (٢٢٢١)، وعبد الرزاق (١٩٥٠٧) عن أبي هريرة ﷺ.

ثم هو يختار أمراضًا خطيرة بعينها - عُلِم الآن على وجه اليقين أنها تنتقل بالعدوى - ويحذر منها تحذيرًا بيِّنًا ظاهرًا لا يحتمل التأويل؛ فتراه يقول - مثلاً - في أمر مرض الجُذام الخطير: «**فِرَّ مِنَ المجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ**»(١)..

ثم هو يضع أعظم قواعد الحجر الصحي بالنسبة للأوبئة الخطيرة كالطاعون فيقول: «**إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا**»(٢)..

وهذا هو قمة ما وصل إليه الطب الحديث في محاولة الحد من انتشار الأوبئة الخطيرة كالطاعون..

وأخيرًا.. فإن المنهج الإسلامي في الوقاية من الأمراض لكي يضمن الدقة في التطبيق، والحرص في أداء القواعد الصحية، فإنه يربط كل هذه القواعد برضا الله ﷻ، وبالزجر والمثوبة والجنة والنار؛ فليس الغرض فقط هو الحياة الدنيوية السعيدة - وإن كان هذا متحققًا إن شاء الله - ولكن الهدف أسمى من ذلك وأجلّ، وهو سعادة الآخرة..

فنجد مثلاً في تعظيم أمر السواك وطهارة الفم ونظافته أن الرسول ﷺ يقول: «**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**»(٣).. فهو لا يحقق نظافة وصحة فقط بل يحقق أجرًا ومثوبة!!

ونجده ﷺ يقول في أمر الوضوء والغسل.. وذلك كما روى أبو مالك الأشعري ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ**»(٤)، فجعل هذا الطهور وهذه النظافة نصف الإيمان..

ونجده يعطي أجرًا عظيمًا لمن ساهم في منع انتشار الطاعون، حتى يصل هذا الأجر إلى الشهادة في سبيل الله! فيقول لأُمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، عندما سألته عن الطاعون: «**إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ**»(٥)..

---

(١) أحمد (٩٧٢٠)، وابن أبي شيبة (٢٤٥٤٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٣٥٥٠)، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (٧٨٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والكهانة ونحوها (٢٢١٨)، وأحمد(٢١٨٧٦)، وابن حبان (٢٩١٢).

(٣) النسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك (٥)، وابن ماجه (٢٨٩)، وأحمد (٧)، والدارمي (٦٨٤)، وابن خزيمة (١٣٥)، وقال الألباني: صحيح(٣٦٩٥) صحيح الجامع، عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٤) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣)، والدارمي (٦٥٣).

(٥) البخاري: كتاب الطب، باب أجر الصابرين في الطاعون (٥٤٠٢)، وأحمد (٢٤٤٠٣).

المبحث الثالث
علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية

مع أن المسلمين لم يكونوا أول من درس علم الجغرافيا إلا أنهم - بلا جدال - كانوا أول من أبدع فيه، وسنتعرض في الصفحات القادمة - إن شاء الله - لحركة تطور علم الجغرافيا وإسهامات المسلمين فيه، كما سنتعرف أيضًا على بعض العلماء الأجلاء الذين أثْرَوا ذلك العلم بما لا يتخيل من إبداعات، وبخاصة عند النظر إلى الإمكانيات الضئيلة التي كانت متاحة لهم في أزمانهم..

وبداية؛ فإن كلمة (جغرافيا) يونانية الأصل، وهي تتكون من مقطعين هما: «جيو» (Geo) بمعنى: أرض.. و«غرافيا» (Grophia) وتعني: وصف.. ومن ثم جاء التعريف الاصطلاحي لعلم الجغرافيا معبرًا عن مقتضيات «وصف الأرض»؛ فهو: «علم يُتَعَرَّفُ منه أحوال الأقاليم (القارات) السبع، الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها... إلى غير ذلك من أحوال الربع المعمور».

وكلمة «الجغرافيا» حديثة بعض الشيء في الاستخدام العربي؛ حيث كان العرب والمسلمون يستعملون بدلاً منها مصطلحات مثل: صورة الأرض، أو قطع الأرض، أو خريطة العالم والأقاليم، أو علم المسالك والممالك، أو علم تقويم البلدان أو علم الطرق[1]..

ولم يكن ظهور علم الجغرافيا لدى المسلمين وليد صدفة، وإنما كانت هناك عوامل وأسباب عدة أسهمت في ظهوره ونمائه، نذكر منها ما يلي:

١- **انتشار الإسلام:** فقد اقترن الفكر الجغرافي لدى المسلمين بانتشار الإسلام في أنحاء شتى من العالم القديم في قاراته الثلاث، وترتب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلامي؛ مما أوجد حاجة ماسة لمعرفة وجمع معلومات متخصصة عن تلك البيئات.

٢- **التدبر في خلق الله:** حيث جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

---

(١) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٢١٢، ٢١٣، وكشف الظنون ١/ ٥٩٠.

﴿شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧] وهكذا..

ولقد تدبر رواد الجغرافيا المسلمون هذه النصوص المحفزة على النظر في عظمة خلق الأرض ومكوِّناتها؛ مما كان له أكبر الأثر في إثراء الدراسات الجغرافية في الحضارة الإسلامية.

٣- المتطلبات الشرعية: فقد اعتمدت جُل أركان الإسلام في أدائها على مواقيت زمنية ومكانية، وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنية والمكانية فقد كانت هناك ضرورة لأن يهتم علماء كل ولاية إسلامية بتوضيح هذه الأمور لعامة الناس..

فالصلاة تقام في أوقات زمنية محددة؛ ولذلك وضع علماء المسلمين في كل قطر إسلامي حدودًا زمنية لإقامة الصلاة.. وما تزال الأدوات التي تقاس بها مواعيد الصلاة موجودة في بعض المساجد القديمة، وتسمى بالساعات الشمسية، وكان الاعتناء بذلك ناتجًا عن أن دخول الوقت شرط لإقامة الصلاة، كما أن الصلاة تستقبل فيها جهة محددة وهي الكعبة في مكة، ولذلك وجب معرفة الاتجاهات الجغرافية لتحدد قبلة الصلاة في كل مدينة أو قرية..

ولم تختلف الحال كثيرًا في الصيام الذي حُدد أداؤه بحدود شهرية وحدود يومية.. وكذلك ارتبط الحج والعمرة بمواقيت مكانية للإحرام وهي مختلفة في أبعادها من مكة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة، وكان ضروريًّا معرفة تلك المواضع التي يتم إحرام الحجاج والمعتمرين منها حتى لا يترتب عند تجاوزها مخالفة شرعية تؤثر على صحة العبادة.. إلى جانب أن الحج يرتبط بميقات زمني محدد: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي التي تتركز حول شهر ذي الحجة؛ لأن الحج مرتبط بالوقوف بعرفة في يوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن فاته الوقوف بعرفة - كما هو معلوم - فقد فاته الحج، وهكذا..

٤- تفسير ما ورد من نصوص شرعية: فقد أسهمت بعض النصوص الشرعية التي وردت في السنة في تنشيط المعرفة الجغرافية في محاولة لتفسير تلك النصوص، من ذلك ما

رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**»(١).. وقول الرسول ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»(٢)، وقوله كذلك: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»(٣)..

فتلك النصوص وما شابهها أظهرت حاجة مُلِحَّة في بيان المقصود من ذلك؛ لتحقيق ما أمر به الرسول ﷺ، كما أوجدت وجهات نظر جغرافية في التحديد؛ فالنصوص السابقة مثلاً جعلت من تحديد جزيرة العرب محل اختلاف بين العلماء الجغرافيين، حتى إنه ورد فيه أربعة آراء، منها ما هو متسع كتحديد **ابن حوقل والإصطخري**، ومنها ما هو ضيق كتحديد **المقدسي والجيهاني**، وظهرت مصنفات مهمة مثل (صفة جزيرة العرب) **للهمداني**، و(بلاد العرب) **للحسن بن عبد الله الأصفهاني**.

٥- **الدعوة إلى الله وتعليم أمور الدين:** فبعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام سواءً في **مكة** أو **المدينة**؛ لما تتمتع به المدينتان من وجود كبار الصحابة والتابعين، وكانت تلك الرحلات الدعوية أو العلمية تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة، كما أن أساليب الدعوة في بيئةٍ ما لا يمكن أن تصلح في كل بيئة..

ومما أسهم في تيسير الاتصال الدعوي الموقع الجغرافي لموطن الرسالة، فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي أن موقعها الجغرافي كان وما يزال متوسطًا في العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذا أسهم بدور الوساطة التجارية من جانب وبدور الدعوة والبلاغ من جانب آخر.

---

(١) البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧) واللفظ له، وأحمد (٩٣٨٤).

(٢) الموطأ برواية يحيى الليثي: كتاب الجامع، باب في إجلاء اليهود عن المدينة (١٥٨٤)، وبرواية محمد بن الحسن (٨٧٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٣١).

(٣) أحمد (١٩٣٥)، والنسائي في سننه الكبرى (٥٨٥٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٦- **المتطلبات الإدارية والعسكرية**: نمت الدولة الإسلامية وبلغت حدودها من الصين شرقًا حتى الأندلس (إسبانيا) غربًا في غضون ثمانين سنة تقريبًا، وكان هذا النمو حصيلة فتوحات في ثلاث خلافات إسلامية (الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والخلافة العباسية). ويتطلب التوسع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسع.. منها:

إدارة المناطق: فعندما أصبح الأمر في معظم أصقاع العالم القديم تحت إمرة الخلافة الإسلامية كان من الأولويات التي اهتُمَّ بها الكيفية التي تتم بها إدارة المناطق بما يتفق مع الإمكانات البيئية والخصائص الاجتماعية لكل قطر، وكان الأمر يتم بدراسة التقارير الوصفية (الجغرافية) الأولية من قِبل الفاتحين لتحديد الطريقة المثلى لإدارة تلك الأقطار، وتعد تلك التقارير بمثابة النواة الأولى لتطور اتجاهات الدراسات الإقليمية.

الالتزامات المالية: نظَّم الدين الإسلامي جمع المال عبر أبواب متعددة؛ فجمع الزكاة يتعين على الموسرين من المسلمين، ويُقدَّر الخراج حسب مقدار غلَّة الأرض، وهو ما يختلف باختلاف البيئات التي بسط الإسلام تعاليمه السَّمْحة عليها، بينما تُؤخَذ الجزيةُ من أهل الذمة الداخلين في حمى الولاية الإسلامية، ومثال ذلك ما قام به المقدسي من تحديد للأقليات غير المسلمة في إطار الممالك الإسلامية.

تلبية احتياجات المناطق من المتطلبات المهمة: تقترن عمليات توفير الاحتياجات للمناطق بالمعرفة الجغرافية التي تحدد الأولوية في تقديم المتطلبات لسكان الولايات الإسلامية؛ فمثلاً بناء الطرق وتسهيلها من المتطلبات العامة التي تكفلت بها الخلافة، ومما روي من الاهتمام بذلك ما أناط **عمر بن الخطاب** ﷺ به نفسه بقوله: «**لو أن جملاً هلك ضياعًا بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب**»؟![1]

كما رغب معظم الخلفاء في معرفة الممالك التي أصبحت تحت إدارتهم، ومن ذلك ما قام به الخليفة **عمر بن عبد العزيز** ﷺ من الكتابة إلى واليه في **الأندلس** يطلب منه فيها موافاته بصفة **الأندلس** وأنهارها، وفي هذا بيان لأهمية الاتجاه الإقليمي للجغرافية في إدارة شئون

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٦٦.

الدولة، والتعرف على أحوالها والتخطيط لمستقبلها[1].

تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية: تميزت دولة الإسلام إبان نشأتها بالقوة والمنعة إلا أن ذلك لم يمنع من التفكير في الذود عن الأمة الإسلامية - التي يتربص بها أعداؤها حالة ضعفها، أو انشغال المسلمين عن الجهاد في سبيل الله - بإيجاد بعض النقاط التي تكون مراكز للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد تم اختيار بعض المعابر الأرضية (الثغور) بين ممالك الإسلام والممالك غير المسلمة نصرانية كانت أم لا دينية؛ لتكون مصدات لهجوم الأعداء، وكان اختيار هذه المعابر يأتي عبر معرفة جغرافية دقيقة بطبوغرافية المكان..

كما ابتكر القادة نقاط إمداد عسكرية شبه ثابتة - في حالة الحاجة إلى استنفار أكبر عدد ممكن من المسلمين للجهاد أو صد هجوم المعتدين - ببناء المدن الحربية في مواضع مختلفة.. وما **البصرة** و**الكوفة** و**القيروان** إلا نماذج للمدن الحربية؛ فقد اختير موقع مدينة **كالقيروان** بعناية من قِبل القائد المسلم **عقبة بن نافع** في الجزء الهامشي من المنطقة الرطبة، وعلى مقربة من المنطقة الجافة، وعند ملتقى طرق تتجه في جميع الاتجاهات مع اهتمام بوجود ينابيع مائية تكفل نمو المدينة، وفي هذا بيان لأهمية الموقع الجغرافي في الاتجاه العلمي للمتطلبات التي تحتاجها الدولة الإسلامية[2].

٧- الدوافع الاقتصادية: حقق التبادل التجاري تنشيطًا للمعرفة الجغرافية عند المسلمين قدر ما حققه انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم؛ فالتجارة هي الحرفة الرئيسية للمجتمعات العربية حيث ارتبطت مدن الصحراء بالمناطق الزراعية، وكوَّن تجار المسلمين بعد انتشار الإسلام خلفية واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقات تجارية، وجعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافيِّ؛ مما جعله يكتب عن مناطق لم يرها وإنما سمع عنها فقط من التجار، ولقد تعددت العلاقات التجارية التي كان من أبرزها تلك العلاقات مع الهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا وأوروبا، ولهذا العامل تأثير في بناء أساسيات

---

(١) عبد الستار الشيخ: عمر بن عبد العزيز ص٢٧١.

(٢) محمود شيت خطاب: قادة الفتح في المغرب العربي ١/ ١٠٢، ١٠٣.

الجغرافيا التجارية لدى العلماء المختصين.

كانت تلك هي أبرز الدوافع التي من أجلها اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا، ومن الجدير بالذكر أن هذا الاهتمام كان على مستوى الخلفاء والعلماء على حد سواء؛ فبينما أنفق الخلفاء بسخاء على الحركة العلمية، وقاموا بإنشاء صروح علمية هائلة كبيت الحكمة في بغداد، وعملوا على تنشيط حركة الترجمة للاستفادة من جهود الأمم السابقة... كرَّس العلماء حياتهم وفكرهم ووقتهم ومالهم لخدمة هذا العلم المهم، فظهر ما يعرف في التاريخ بالرحلات..

والرحلات هذه هي الأسفار الطويلة والقصيرة التي قام بها العلماء في كل أرجاء المعمورة لدراسة أحوال الأرض، وأدت بنجاح إلى تفوق الجغرافيا الوصفية، كما أسهمت في تطور الجغرافيا البلدانية (الإقليمية)، حيث كانت الرحلة هي المصدر العلمي لهذا النوع من الكتابات الجغرافية، وتمثل الرحلة الوجه المشرق للجغرافيا الإسلامية، ففي بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية لمعظم مناطق العالم الإسلامي، وقد اعتمد كبار الجغرافيين المسلمين على الرحلة في جمع معلوماتهم، أو التأكد مما سمعوه أو نقلوه، فزاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها، وألفوا كتبًا تحدثوا فيها عن رحلاتهم؛ عرف الناس من خلالها أجزاء كثيرة من العالم كانت مجهولة من قبل.

المسلمون وإنقاذ علم الجغرافيا:

لم يظهر علم الجغرافيا قديمًا كما هو اليوم، وهذا من طبائع كل العلوم؛ فلكل علم إرهاصات.. ثم تأتي البداية المشوشة التي يتداخل فيها مع غيره من العلوم.. إلى أن يأخذ بعد ذلك دوره في التشكل والتكوين، خاصة مع ظهور المتخصصين.

وفي معرض تناول انطلاق النهضة الجغرافية لدى المسلمين يجدر بنا في البداية ذكر الإسهامات التي سبقت الحضارة الإسلامية، والتي قدمها الرحَّالة الهنود أو علماء اليونان الذين استعان المسلمون بمجهوداتهم البحثية التي كانت شرارة لانطلاق ثورتهم الجغرافية المبدعة.

لقد كان اليونان – على سبيل المثال – يقطنون ضفاف بحر غنيّ بالملاجئ الطبيعية، فنشطوا من خلال تجارتهم وقربهم من البحر، وكان منهم المؤرخ «**هيرودوت**» الذي قام برحلات كبيرة في **برقة** و**مصر** و**فينيقية** و**بلاد بابل**، كما زار المستعمرات الإغريقية في ساحل

آسيا الصغرى الشمالي، وجزر بحر إيجة وصقلية وجنوب **إيطاليا**.. ويعتبر كتاب «التاريخ» الذي ألفه مختصَرًا للمعارف الجغرافية لدى الإغريق في أواسط القرن الخامس (ق. م)..

كما قدَّمت مؤلفات «**بطليموس**» و«**مارينوس**» البدايات للمسلمين؛ حيث اعتمد المسلمون في القرن (الثالث الهجري - التاسع الميلادي) لإرساء قواعد علمهم الجغرافي على كتاب «الجغرافيا» **لبطليموس**، وكان اعتمادهم عليه أساسيًّا.. إلى جانب كتاب «**مارينوس الصوري**» الذي يأتي في درجة تالية من الأهمية[1]..

وكانت تلك المؤلفات القديمة وصفية اهتم فيها هؤلاء العلماء بحساب درجات الطول والعرض، وأسَّست لاستخدام الجغرافيا الرياضية في رسم الخرائط.

فقد حدَّد **بطليموس** في كتابه العالَم المعروف لدى الأقدمين؛ فكان يمتد من جزر الخالدات (وهو الاسم العربي الذي كان يُطلق على جزر الكناري حاليًا في المحيط الأطلنطي) غربًا إلى الصين شرقًا، أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمالي **بريطانيا**، في حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة **السودان** والبحيرات الكبرى، وكان كتاب **بطليموس** مزودًا بـ ٢٧ خريطة، كانت إحداها تمد البحر المتوسط بحوالي ٢٠ درجة شرقًا؛ مما أدى بالتالي إلى استطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق[2].

ولم تكن استفادة المسلمين في هذا المضمار من اليونانيين فقط، بل حرصوا على الاطلاع على كل الميراث الجغرافي لشعوب العالم..

فقد قام المصريون القدامى في عهد (**سينفرو**) فرعون **مصر** برحلات عديدة بغية الاستكشاف، كما أرسلت **مصر** البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة **سيناء**، وتيسيرًا لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حُفِرَتْ قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر[3].

أما الكريتيون فهم شعب بحري ضاعت معظم معالم تاريخه من الذاكرة، ويظهر أن

---

(١) محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ص١١٩، ١٢٠. دار الخريجي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

(٢) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٣٢، ٣٣.

(٣) انظر: شريف محمد شريف: تطور الفكر الجغرافي، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا ص١٥-١٧.

نشاطهم في مضمار الملاحة كان سابقًا للفينيقيين.. وهم أقدم من ركب عرض البحر، ولم يتبق من تاريخهم سوى تجارتهم الواسعة مع مصر التي عَرفوا من خلالها سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كما عرفوا غربًا سواحل صقلية وإيطاليا الجنوبية دون أن يتجشموا مخاطر الابتعاد أكثر من ذلك.

أما الفينيقيون فقد تمت أول حملة اكتشافية على أيديهم، وقد جهزها فرعون مصر «نيخاوس» الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد بالسفن والمؤن، واستطاعت هذه الحملة عام (٦٦٥ ق.م) أن تدور حول أفريقيا، بعد أن انطلقت من البحر الأحمر، وعادت من طريق البحر الأبيض المتوسط.. وقد استغرقت هذه الرحلة مدة عامين.

وفي الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون قام القرطاجيون بإرسال القائد «**صفون**» لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية، فانطلق على رأس أسطول من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالإضافة إلى عدد من المهاجرين، وفي الوقت نفسه كان القائد «**هيميلكون**» يكتشف سواحل أوروبا الغربية ويتوغَّل في بحر الشمال.

كما اتسعت معارف الرومان الجغرافية؛ إذ إنهم توغلوا في الحبشة بعد دخولهم **مصر**، ووصلوا إلى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال، وقاموا ببعض الاستكشافات الجغرافية هناك، كما اكتشفوا جبل **كينيا** وجبل **كليمنجارو** أعلى قمم **أفريقيا**..

حتى جاء حين من الدهر أخذت فيه روح البحث العلمي في هذا المجال في الخمول حينما بدأ رجال الكنيسة من أمثال القديس «أمبرواز» (٣٣٠ - ٣٩٧م) يجهرون بأن دراسة الكون ووضع الأرض لن يفيد الإنسانية في تحقيق أملها في الحياة الآخرة..!!

وقد أدَّى ذلك إلى أن بدأ الكثيرون يعزفون عن الرغبة في المعرفة، ويعتبرون هذه الأمور ضربًا من السحر.. واستمر الحال هكذا في أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي؛ فقد عانى علماء مثل «**كوبرنيكوس**» (١٤٧٣ - ١٧٤٣) و«**جاليليو**» (١٥٦٤ - ١٦٤٢) - على نحو ما ذكرنا في الباب الأول - الكثير من المضايقات من رجال الكنيسة، والتي وصلت إلى حدِّ القتل والإحراق!![1]

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٢١ - ٣٣.

وحين جاء دور المسلمين، فإنهم لم يقفوا في تناولهم لعلم الجغرافيا موقف المطلع والمشاهد فقط لمؤلفات «**بطليموس**» أو «**مارينوس الصوري**» أو غيرهما.. وإنما تعاملوا مع الأمر بخطوات إيجابية، شأن الجغرافيا لديهم شأن باقي العلوم التي اطلعوا على إسهامات السابقين فيها، ومن ثم قدموا ما عندهم من إبداعات واختراعات..

وقد مرت الجغرافيا لدى المسلمين بالمراحل التالية:

١) ظهور الجغرافيا الأدبية:

كانت المحاولات الأولى في الجغرافيا عند المسلمين قد ظهرت بشكل متواضع جدًّا في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).. فقد تكوَّن بعدها بنصف قرن ما يُعرف بالجغرافيا الأدبية، وقبل القرن التاسع الميلادي لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بمعنى الكلمة، إنما كانت تظهر بين الحين والآخر معلومات جغرافية متفرقة ضمن كتب الأدب، حتى نشطت الترجمة واطلع المسلمون على أفكار «**بطليموس**» و«**مارينوس الصوري**»، وبدأت سلسلة الجغرافيا العلمية، التي سرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافيا الوصفية..

وفي أواخر القرن الثالث الهجري بدأ ما يُعرَف بالوجيزات الجغرافية في الظهور لمساعدة كتّاب الدواوين، وكان من أهم ما يمثل ذلك الكتاب الذي تصدى لدراسة مشهد الأرض الطبيعي بشكل خاص ويحمل عنوان: «كتاب المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م).. وتلا ذلك وجيزات جغرافية أخرى حتى أصبحت في متناول رجال الأدب ومن ثم عامة الناس، وكان منها: «كتاب البلدان» للجاحظ (١٥٩هـ/ ٢٥٥هـ)[(١)].

٢) ازدهار المؤلفات من النوع المبسط:

وكان التطور التالي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حيث بلغ الأدب الجغرافي ذروته وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع (المسالك والممالك)، أي بظهور المدرسة التقليدية للجغرافيين العرب التي كانت على صلة وثيقة «بأطلس الإسلام» الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب، أو علم الخُرُط..

كما حظي التبسيط الجغرافي بترحيب الجمهور الذي أقبل عليه بشغف، وتعددت مناهج

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٦٧ .

وصف الرحلات.. و يمكن القول إجمالاً: إن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية، حيث تعددت الأسفار الاستكشافية مما زاد من اتساع أفق الجغرافيين الوصفيين، وزادت مع ذلك معلوماتهم دقة ووضوحًا[١].

ففي عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١م) أرسل خليفة بغداد «المقتدر» بعثة إلى **بلغار الفولغان**، وعهد إلى «ابن فضلان» بكتابة تقرير عن أخلاق شعوب تلك المنطقة.. وقد ظل هذا الكتيب حتى القرن الثاني عشر الميلادي أفضل مصدر وثائقي يملكه المسلمون عن الروس وعن سكان بحر الخزر (قزوين)[٢].

٣) التطور الختامي للأنماط الجغرافية:

وكان ذلك في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والقرون التالية، ففي هذه الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية، والمؤلفات الكوزموغرافية التي تهتم بالكوزموغرافيا أو الجغرافيا الكونية، والمؤلفات الجغرافية العالمية، واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة مهمة أيام المماليك في مصر.. وكذلك كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين.

٤) الحقبة العثمانية:

وفيها بدأ الاحتكاك بالجغرافيا الأوروبية الحديثة والاكتشافات الجغرافية الكبرى.

٥) النهضة الجغرافية الحديثة:

وقد ابتدأت في مصر مع مطلع العصر الحديث، الذي اقترن برحيل الحملة الفرنسية وظهور أسرة **محمد علي**، فقد ظهرت عدة مؤلفات في الجغرافيا الرياضية والرحلات، ولا سيما في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين[٣].

لقد كانت رحلة علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية رحلة فريدة بكل المقاييس.. ابتدأت بإنقاذ ذلك العلم المهم من الاختناق بيد الكنيسة الأوروبية، والتي حرَّمت البحث فيه كما رأينا قبل قليل.. ثم لم تكتفِ بإنقاذه - وقد كان في طور طفولته - حتى تكفَّلت بتنميته،

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٥٩.

(٢) انظر مقدمة رحلة ابن فضلان.

(٣) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٦٠.

وضَخِّ دماء العافية العلمية في جسده من جديد..

وسنحاول فيما يلي - بإذن الله - الوقوف أمام بعض الإنجازات الإسلامية المبهرة في علم الجغرافيا.. بعد أن نتعرَّف على بعض معالم المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا..

المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا:

عرفت الدراسات الجغرافية عند المسلمين عدة مناهج، كان منها:

١- **المنهج الأدبي:** وقد كان ذا استقلالية فكرية، ويعتمد على الأسلوب الأدبي متأثرًا بروائع الشعر العربي أو المقالات النثرية.

وللمؤلَّفات التي اتخذت هذا المنهج - رغم قِلَّة عددها - قوة ورصانة علمية قلما تتوافر في غيرها من المؤلفات.. وقد كانت كتب أدب الرحلات من أوضح الأمثلة على هذا المنهج.

٢- **المنهج الرياضي:** وهو انعكاس للحاجة التي نمت حول القياسات الحسابية للطوالع التي بدأت عند العرب قبل الإسلام[(١)].

ولقد تطور المنهج الرياضي بعد ترجمة الكتب اليونانية ذات الصبغة الرياضية، مثل كتاب (المجسطي) لبطليموس، وأصبح لهذا المنهج كتب معروفة مثل: كتاب (القانون المسعودي) للبيروني (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ)، و(الزيج) للصابئ للبتاني (٢٤٤هـ - ٣١٧هـ)، وقد أعطى هذا المنهج للمصنفات الفلكية رصانة علمية؛ مما جعلها ذات مرجعية في الدراسات الحديثة، ويعد هذا المنهج أساسًا في تطور الاتجاه الرياضي (الفلكي).

٣- **المنهج الوصفي الإقليمي:** أصَّل جغرافيو المسلمين هذا المنهج وأبدعوا فيه، ووضعوا له الأطر العلمية، وجاء الإبداع في أدبيات هذا المنهج لأسباب عديدة، منها:

أ - الاتساع في كَمِّ المعلومات عن بقاع الأرض؛ مما جعل الاستفادة الفعلية منها لا تتحقق إلا في حالة وضع تصنيف لهذه المعلومات بشكل موضوعي.

ب - التجارب المتعاقبة حول الكتابة بمنهج إقليمي، والتي امتدت لأكثر من أربعة قرون، وكان من شأن ذلك الامتداد التجريبي أن حدث تطوير لهذا المنهج، وتم إدخال

---

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٥٥.

تعديلات في آليات الوصف.

ج - تعدُّد المدارس الإسلامية في أسلوب الكتابة الإقليمية بما يعرف بالمدرسة البطليموسية، والمدرسة البلخية؛ مما أحدث تنافسًا بينهما في قبول الطرح الجغرافي عند المتلقين.

د - تبني العديد من المصنفين لهذا المنهج، فقد كان أكثر الكتاب يُخضعون مصنفاتهم للأسلوب الوصفي المدعم بالمشاهدات والتحقيقات الميدانية.

هـ - وجود فائدة علمية وعملية للمعلومات المدونة وفق هذا المنهج؛ مما جعل أكثر الخلفاء والملوك يدعمون الاتجاه الإقليمي بتأليف عدد من المصنفات، فمثلاً قام «الشريف الإدريسي» (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ) بتأليف كتاب في تقويم البلدان لغليوم الأول (ملك هولندا) عنونه بـ«روضة الأنس ونزهة النفس».

وقد قام الجغرافيون الوصفيون والرحالة بوصف المدن بدقة، مركِّزين بذلك على تاريخها وأجوائها وأهم منتجاتها وتعاملاتها التجارية مع الآخرين، ومما جاء في ذلك:

أورد «**ابن حوقل**» (٢٩٤هـ - ٣٦٧هـ) في كتابه «صورة الأرض» وصفًا للمدن التي استعرضها في دراسته للأقاليم، وكان من تلك المدن مدينة (**الفسطاط**)، وقد وصفها بقوله: «**الفسطاط** مدينة كبيرة نحو ثلث **بغداد**، ومقدارها نحو فرسخ على نهاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام.. إلى ظاهر أنيق، وهواء رقيق، وبساتين نضرة، ومنتزهات على مرِّ الأيام خضرة... وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها، ومعظم بنيانهم بالطوب، وأكثر سفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان لصلاة الجمعة»[(١)].

ويتضح من وصف «**ابن حوقل**» السابق التركيز على تقدير مساحة **الفسطاط**، وإيراد بعض خصائص أسواقها، إلى جانب إبراز بعض المرافق والخدمات..

ومن الأمثلة المختصرة في وصف المدن ما ذكره في وصف مدينة (**الطائف**) التي مرَّ بها خلال رحلاته الطويلة التي استغرقت حوالي ثمانية وعشرين عامًا، حيث يقول: «والطائف

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٧، ١٣٨.

مدينة صغيرة... كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزيت، وهي طيبة الهـواء، وفواكـه مكـة وبُقولها منها وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل، ولـيس بالحجاز فيما علمته مكان أبرد من رأس هذا الجبل؛ ولذلك اعتدل هواء الطائف»(١)..

وهو بهذا الوصف يؤكد أثر الموضع الجغرافي على مناخ المدينة، كما أنه أعطى بيانًا لتوزيع القبائل وارتباط استقرارها بالمدن.

كما أبدع «**الشريف الإدريسي**» (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ) في وصـف المـدن في كتابـه (نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق)؛ فهو يُولي اهتمامًا كبيرًا لدراسة المدن.. ومما ذكره في ذلـك وصـفه الدقيق لمدينة (**قرطبة**) بقوله: «ومدينة **قرطبة** قاعدة بلاد الأندلس وأم مدنها... وهي في ذاتهـا مدنٌ خمس يتلو بعضها بعضًا، بين المدينة والمدينة سور حاجز.. وفي كل مدينة ما يكفيهـا مـن الأسواق والفنادق... ولا بلد أكبر اسمًا منها في بلاد الأندلس»(٢).

ومن الكتابات التي احتلت منزلة مرموقة في المنهج الوصفي للدراسـات الجغرافيـة، مـا أورده «ابن بطوطة» (٧٠٣هـ - ٧٧٩هـ) الرحَّالة المسلم الأكثـر شـهرة، في كتابـه المعـروف باسم (رحلة ابن بطوطة).. أو (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسـفار).. حيـث أبدع في وصف مشاهداته عبر رحلاته الطويلة.. وكـان ممـا قالـه في وصـف مدينـة (حمـاة): «إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفـائق، تحـف بها البساتين والجنات، عليها النـواعير كـالأفلاك الـدائرات، يشـقُّها النهـر العظـيم المسـمى بالعاصي، ولها ربض سمي بالمنصورة... فيها الأسواق الحافلة والحمامات الحسان»(٣).

٤- **المنهج التعليلي**: وقد اتصفت دراسات «ابن خلدون» (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ) بهذا الـنمط، على الرغم من وجود أعلام آخرين سبقوا ابن خلدون في هذا المضمار، ولكن ليس بالشمول والتطبيق أنفسهما؛ فمقدمة ابن خلدون الشهيرة لا تركز عـلى وصـف المـدن بالقـدر الـذي تحـاول فيـه تحديـد العوامل المقترنة بظروف مواقعها ونموها وأحجامها، مع تحديد لتعريف المدينة.. وهي كما يلي:

ظروف الموقع: بلغ عدد المدن التي أنشأها المسلمون خارج الجزيرة العربية ما يزيـد عـلى

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٩.

(٢) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢/ ٥٧٤.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص٢٨.

مائتي مدينة خلال حكم الخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين والعباسيين، ويعطي هذا الرقم -مع ما ذكر حول تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية، كأحد العوامل المرتبطة بالمتطلبات الإدارية والعسكرية - أهمية دراسة المواقع بشكل دقيق لتحديد المزايا التي يتمتع بها والعيوب التي ترتبط به.

ومن هذا المنطلق خصَّص «ابن خلدون» لهذا الأمر فصلاً فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة في جانبين:

أ - **دفع المضارّ**: ويكون ببناء أسوار للمدن، مع الحرص على الموضع الذي تحصل به المنعة الطبيعية، ويقول في هذا: «وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة؛ إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها».

ومن القضايا التي أُخذت في دفع المضار السلامة من الأمراض بأن يكون الموقع طيب الهواء بعيدًا عن الراكد من الماء؛ لما قد يسببه ركود الماء من انتشار الآفات وما يصاحبه من تفشٍّ للأمراض، وقد أعطى «ابن خلدون» أمثلة لبعض المواضع السيئة التي لم تختر بعناية مثل: مدينة قابس بالمغرب[١].

ب - **جلب المنافع**: ويراعى فيها توافر الماء بأن تكون المدينة على نهر جار أو بالقرب من عيون عذبة، كما يشترط لمثالية الموقع طيب المرعى للسائمة وقربه لما يترتب على بعده من حصول المشقة، ويراعى أيضًا توافر المزارع التي يتحصل بها قوت الناس، ويرى في اختيار المدن الساحلية الحصانة الطبيعية والبشرية، فقد ذكر أن «مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد... والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غِرَّةٍ للبيات (أي: مباغتة العدو) وسهل طروقها (غزوها) من الأساطيل البحرية»[٢].

نمو المدن: يخضع نمو المدن إلى مقومات تدفع به إلى الأمام، أو إلى معوقات تحد منه.. ولقد أورد «ابن خلدون» في الفصل الرابع من الكتاب الأول أن المدن عند نشأتها يمكن أن

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ص٢٨١.

تنمو بتوجيه من الدولة رغبة منها في اجتماع الأيدي، وهو يقول في هذا الشأن: «فلا بد من تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك.. ثم إذا بُنِيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعُمُرُ الدولة - حينئذٍ - عمرٌ لها، فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال بها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرانها، وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة، وينفسح ذراع المساحة كما هو واقع ببغداد وأمثالها»[1].

تصنيف المدن وتدرُّجها: أخذ المسلمون بمسألة اختلاف المدن في أحجامها، وهذا أوجد مصطلحات تختص بهذا الاختلاف فهناك البُلَيْدَة والبَلْدَة والبَلَد، وتم ربط أحجام المدن بالأسواق، فمثلاً أوضح «ابن خلدون» أنه متى ما كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل، وأن المصر كثير العمران يختص بالغلاء في أسعار حاجاته[2].

وبعد أن تعرَّفنا - من خلال الاستعراض الموجز السابق - على بعض ملامح المنهج الإسلامي لدراسة الجغرافيا.. ذلك المنهج الذي قاد إلى روائع من الإنجازات المبهرة التي غيَّرت مجرى النظر الجغرافي عبر تاريخ الإنسانية كله.. سنحاول في الصفحات القادمة - إن شاء الله - التوقف أمام بعض المعالم المبهرة لتلك الإنجازات الخالدة..

المسلمون وإثبات كروية الأرض:

بالرغم من أن «كروية الأرض» تُعدُّ الآن من الحقائق العلمية البديهية التي لا يشكُّ فيها أحد من الناس على اختلاف الأعمار والثقافات، حتى صار الصغار يدرسونها بالبراهين في مراحل تعليمهم المبكرة.. إلا أن هذه الحقيقة واجهت في عصور قديمة صعوبات بالغة حتى تستقر علميًّا في أذهان البشر..

وقد يأخذك العجب عندما تعلم أن هيئات دينية كبرى حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكفير من يؤمن بها من العلماء.. وربما بلغ

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٠١.

الأمر حدَّ التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب..!!

وظلَّ ذلك الوضع حتى جاء الإسلام بما يحمله من دعوة لتوسيع النظر في الكون، وتحرير العقل من الأوهام والخرافات، وإطلاق سراح البحث العلمي معتمدًا على التجريب والبرهان، ثم الوصول للحقائق بعد نقاش موضوعي حُرٍّ وهادئ؛ فأحيا ما كاد ينمحي من حقائق العلوم جميعًا (وكرويَّة الأرض إحداها)... وإليك التفاصيل..

كان الإغريق يعتقدون أن الأرض قرص دائري مسطح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، فها هو «**هكتاتيوس**» (سنة ٥٠٠ ق.م) والذي يعتبر أبا الجغرافيا الإغريقية يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير[١]..

وبالرغم من أن «**أفلاطون**» (سنة ٣٤٨ ق.م) أتى بأول نظرية عن كروية الأرض إلا أنه لم يلق التأييد الكافي ممن جاء بعده.. بل إن الدولة الرومانية رفضت هذه الفكرة، وكتب «**كوزماس**» (COSMAS) «أبو الجغرافيا الرومانية» في (سنة ٥٤٧ م): «إن العالم يشبه العجلة، وإن مياه المحيط حوله من كل الجهات..»[٢]..

وبلغ الأمر ذروته حين تبنَّت الكنيسة وآباؤها الأوائل (وعلى رأسهم «**الكتانشيوس**») هذه النظرية بشدة، وقالوا بأن الأرض مسطحة، وأن الجانب الآخر غير مأهول؛ وإلا سقط الناس في الفضاء[٣]!!

والمثير للعجب أن التعامل مع معارضي أمثال تلك النظريَّات كان يتَّسم بالضراوة البالغة؛ فكان المعارض يتعرض للتعذيب على الخازوق أو الحرق حيًّا بتهمة الهرطقة (التي تعني كنسيًّا: المروق عن الدين الصحيح)!!

بل كان علماء أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب: رأسه الجنة، وقدماه النار، وذراعاه: البحر الأبيض والبحر الأحمر.. وبيت المقدس (أورشليم) في موضع القلب!!!

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٥٨.
(٢) كتاب «كوزماس» Christian Geography Cosmography.
(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧،٣٩٨.

وقد كان من أشهر العلماء الأوروبيين الذين تبنّوا نظريّة كرويّة الأرض «**نيقولا كوبرنيكوس**» (١٤٧٣م – ١٥٤٣م) الذي توصّل إلى أن الأرض ليست مركز الكون.. إلا أنه لم يتجرأ على نشر كتابه إلا وهو على فراش الموت!! وظل كتاب «**كوبرنيكوس**» من الكتب المحرمة، واضطهدت الكنيسة كل من يؤيد اعتقاد «**كوبرنيكوس**» مثل «**برونو**» الذي أُعدم حرقًا، و«**جاليليو**» الذي أودع السجن حتى أُرغم على التنكر لنظرية «**كوبرنيكوس**» والتخلي عن آرائه، والانصياع للفكر الكنسي[1]!!!

ولما جاءت الحضارة الإسلامية، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنّتها.. وربما كان من أهم أسباب ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض..

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات: ٣٠] والدحية في اللغة هي الكرة.. كما أن هناك آيات تتحدث عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يحدث الليل والنهار.. فيقول تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ [الزمر: ٥].

ويعلّق الدكتور **زغلول النجار** على هذه الآية الأخيرة بقوله: «معنى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل: أي يُغشي كلَّ واحد منهما الآخرَ كأنه يَلُفُّه عليه، وهو وصف واضح الدلالة على كروية الأرض وعلى دورانها حول محورها أمام الشمس وذلك لأن كلاً من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر؛ ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما؛ ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وكلاهما ظرف زمان وليس جسمًا ماديًا يمكن أن يُكَوَّر بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه..».

ثم يؤكد الله تعالى هذا المعنى فيقول سبحانه: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾ [الرحمن:١٧] ويُقسم في موضع آخر: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾ [المعارج:٤٠] فهي آيات تشير بوضوح إلى أن الشمس عندما تشرق على مكان من الأرض، فهذا يعني أن هناك غروبًا في مكان آخر، أي أن المشارق والمغارب تتعاقب بسبب دوران

(١) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة ٣٠/ ٢٧٣.

الكرة الأرضية حول نفسها[1].

والغريب أنه مع أن «كرويَّة الأرض» شأن علمي كوني، إلا أننا سنرى في السطور القادمة نظرة علماء الشرع لهذه الحقيقة أيضًا، وكيفية اعتراضهم على منكريها.. مقارنة بما أشرنا إلى طرف منه آنفًا، مما كان يعانيه معتنقو المسيحية في أوروبا من آباء الكنيسة وسلطانها المطلق، عندما كان أحدهم - مهما أوتي من علم - يجهر بكرويَّة الأرض؛ لندرك الفارق الضخم بين مناخين:

صنع الإسلام أحدهما بروح مشجعة على العلم، محترِمة للعقل والنظر والتجريب والبرهان؛ فأقام حضارته العظيمة التي أحسنت الصلة - على نحو غير مسبوق - بين الدين والعلم.. حتى غدا كلاهما يدعو إلى صاحبه، ويرسخ أقدامه في القلوب والعقول جميعًا..

بينما اغتالت سُلطة الكنيسة – في المناخ الآخر – رُوحَ العلم اغتيالاً، حينما أدمنت اعتناق الأساطير، وحمْل الناس قسرًا على اعتناقها.. الأمر الذي أدَّى – في نهاية المطاف – إلى ما نرى عليه الغرب الآن من إقصاء كامل للكنيسة عن كل قضايا الحياة!!

وبالنسبة إلى نظرة علوم الشرع إلى كروية الأرض، فإن «ابن حزم» (ت٤٥٦هـ - ١٠٦٤م) ينقل في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) إجماع أئمة المسلمين على كروية الأرض، فيقول عنهم: «قالوا إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك.. وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحد منهم في دفعه كلمةٌ.. بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها.. قال الله ﷻ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾.. وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: (كَوْرِ العمامة..) وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض...»[2].

ولا بد أن نلاحظ هنا إلى أي مدى وصل ابن حزم –رحمه الله– في اعتراضه على مخالفيه في قضية بديهية كهذه.. إنه لم يَزِد على وصفهم بـ«العامَّة» دونما تكفير ولا أحكام بالقتل..

---

(١) الدكتور زغلول النجار: جريدة الأهرام بتاريخ ١٤/ ١/ ٢٠٠٢.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل ٢/ ٧٨.

لا سيَّما وهو أحد فقهاء عصره.. ولنقارن ذلك بما أشرنا إليه من مصادرة الكنيسة الأوروبية لآراء الآخرين معتمدة على سطوة النفوذ الديني والروحي!!

وهذا الإمام «**فخر الدين الرازي**» (ت ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م تقريبًا) يقول في تفسيره (مفاتيح الغيب) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ.. ﴾ [الرعد: ٣] يقول: «المدُّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يُشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه؛ لأن الأرض لو كانت أصغر حجمًا مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به... والكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح..»(١).

أما علماء الجغرافيا المسلمون فكان لهم شأن آخر في إثبات كروية الأرض..

فإنهم لم يكتفوا فقط في إثبات هذه الحقيقة العلمية بنفض ما علاها من أتربة الجهل والتعصب.. وإنما أيدوها بالمزيد من الأدلة والبراهين القاطعة التي يسَّرها الله لهم..

يقول «**ابن خرداذبة**» (ت ٢٧٢هـ - ٨٨٥م) في كتابه (المسالك والممالك): «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة.. موضحة كالمحة (المحة هي: صفار البيض) في جوف البيضة»(٢).

وكتب «**ابن رُستة**» (ت ٢٩٠هـ - ٩٠٣م) في كتابه (الأعلاق النفيسة): «إن الله ﷻ وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة أجوف دوَّارًا.. والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك»(٣).

وكتب «المسعودي» (ت ٣٤٦هـ - ٩٥٦م) في كتابه (التنبيه والإشراف) : «جعل الله ﷻ الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر..»(٤).

وقد ذكر «**الشريف الإدريسي**» (ت ٥٦٠هـ - ١١٦٦م) في كتابه (نزهة المشتاق) ما نصه:

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ١٩/ ١.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٤.

(٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨.

(٤) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص ٣١٩.

«.. وإن الأرض مدورة كتدوير الكرة، والماء لاصق بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًّا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة.. ووضعهما وضع متوسط، والنسيم يحيط بها (يقصد الغلاف الجوي) من جميع جهاتها..»[(١)].

ويُذكَر أن **الإدريسيَّ** لما أراد صُنع نموذج للأرض كان على شكل الكرة المجسمة[(٢)]..

ويقول «**القزويني**» (ت ٦٨٢هـ - ١٢٨٣م) في كتابه (عجائب المخلوقات): «الأرض كرة، والدليل على ذلك أن خسوف القمر إذا كان يُرى من بلدان مختلفة فإنه لا يُرى فيها كلها في وقت واحد بل في أوقات متعاقبة؛ لأن طلوع القمر وغروبه يكونان في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة. والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلها بإذن الله تعالى..».

ثم يفنِّد **القزويني** آراء علماء القرون الوسطى في أوروبا ورجال الكنيسة الذين يقولون: إن الأرض لو كانت كرة لسقط الناس في الجانب الآخر منها، أو كانت رءوسهم مقلوبة.. فيقول: «إن الإنسان في أي موضع يقف على سطح الأرض فرأسه أبدًا مما يلي السماء، ورجله أبدًا مما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من جانب السماء الذي أمامه بقدر ما كان قد خفي عنه من الجانب الآخر..»[(٣)].

والعجيب - بعد كل ما سبق - أن بعض الكتب والمراجع العربية ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبية أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كروية الأرض.. وأن هذه النظرية لم تعلن إلا بفضل «**كوبرنيكوس**» (١٤٧٣م - ١٥٤٣م)!!

وحَسبُك الآن مقارنة تاريخ وفاة **كوبرنيكوس** بأعوام وَفَيَات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟؟!

فقد أكد المسلمون - كما رأينا - وبتحفيز من كتاب ربهم وسنَّة نبيِّهم - إثبات تلك الحقيقة الجغرافية عظيمة الأهميَّة، وذلك بعدما عدت عليها - أو كادت - جهالات العصور المظلمة.. وقد رأينا كيف اتَّسم البحث العلمي في عصور حضارتنا الإسلامية بالحرية الكاملة

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٧.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٤٠٢، ٤٠٣. وزكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص٦٤.

(٣) القزويني: عجائب المخلوقات ص٣٥.

ونزاهة الحوار وتحكيم التجربة..

من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا:

حيثما شرَّقتَ أو غرَّبت في فروع علم الجغرافيا، فإنَّك - لا شكَّ - سترى بصمات العلماء المسلمين - الذين سعدت الدنيا بإنجازات حضارتهم - فيها واضحة جلية، وقد استقرت بديهيات العلوم المختلفة بحسن اعتمادهم على الله في توظيف طاقات العقول وإمكانات البحث والتجريب والمشاهدة..

وستتوقف بنا الصفحات القادمة أمام بعض الإنجازات المبهرة التي سبق إليها المسلمون في الجغرافيا، والتي تُشكِّل معالم فارقة في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني، القديم والحديث على حد سواء..

خطوط الطول وخطوط العرض:

يُعدُّ المسلمون أول من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقد وضعها العالم **أبو علي المراكشي** (ت ٦٦٠هـ - ١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدل المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة.. كما وضع **البيروني** قاعدة حسابية لتسطيح الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية[1].

قياس محيط الأرض:

كان أول من قام بمحاولة قياس أبعاد الكرة الأرضية الخليفة العباسي العالم **المأمون** (ت ٢١٨هـ - ٨٣٣م) فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا؛ فريق برئاسة «**سند بن علي**»، وفريق بقيادة «**علي بن عيسى الإسطرلابي**» (ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني **موسى ابن شاكر**، وهو ما ذكرناه في الفصل السابق) واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول (التي تبلغ ٣٦٠ خطَّ طول)..

ويحكي في ذلك **ابن خلكان** أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطحة، وركز في مكانٍ منها

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٤٥٩، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧.

وتدًا، واتخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدونها على الأوتاد(١)..

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٥٦,٦٦ ميل تقريبًا، والذي توصل إليه العلم المعاصر هو ٥٦,٩٣ ميل. وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٤٠٠ ميل، أي حوالي: ٤١,٢٤٨كم.

ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٤٠,٠٧٠ كم، يتضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جدير بالتقدير(٢)..

ثم جاء «**البيروني**» فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف.. بقياس الانخفاض الرأسي من (قلل الجبال) في الهند، فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون فأثنى عليهم(٣).

وفي ذلك يقول المستشرق «**نللينو**» - كما أشرنا سابقًا - في كتابه (علم الفلك عند العرب): إن قياس العرب للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجري كله مباشرة مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة وهذا الفريق الكبير من العلماء والمساحين العرب، فهو يعد من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية(٤)!!

دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها.. ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وهم «**علي بن عمر الكاتبي**» و«**قطب الدين الشيرازي**» من **الأندلس** و«**أبو الفرج علي**» من سوريا.. فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة..

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٢.

(٢) انظر في ذلك يوهانس فيلارز: كنوز علم الفلك، المتحف القومي الألماني - نورنبرج، ١٩٨٣ ص ٢٥ .

(٣) قدري طوقان: تراث العرب العلمي ص٦٣.

(٤) نللينو: علم الفلك عند العرب.

وعن هؤلاء العلماء يقول «سارتون»: إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن ١٣ لم تذهب سُدى، بل كانت أحد العوامل التي أثرت على أبحاث «كوبرنيكوس» في نظريته التي أعلنها سنة ١٥٤٣م[(١)].

علم الخرائط:

لا يُنكِر أحدٌ أن الغرب قد استفاد من مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا عامة أيَّما استفادة.. بل إن (أطلس الإسلام) أو الخرائط الإسلامية كانت في مقدمة مظاهر التأثير الإسلامي المباشر في الحضارة الغربية.

فقد تخطَّف (الغرب) مؤلَّف «الإدريسي» (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقاموا بطباعته طبعات كثيرة ومختلفة، حتى ظل هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا لدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون!!

صمم «الإدريسي» خريطته (انظر خريطة رقم ١) على الطريقة العربية في ذلك الوقت حيث بدأ بالجنوب في أعلى الخريطة ثم انتقل إلى الشمال في أسفلها.. وتتكون مخطوطة الخريطة من ٧٠ ورقة (٣٣ × ٢١سم) تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة.

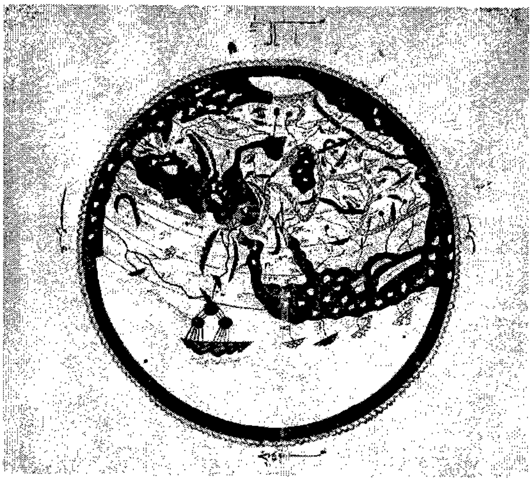

خريطة رقم (١)

خريطة الإدريسي

وقد قام العالم الألماني «كونراد ميلر» بنشر نسخة مُلَوَّنة منها سنة ١٩٢٨م بعد أن بذل مجهودًا خارقًا من أجل تجميع أجزائها المختلفة وترجمة الأسماء العربية إلى الألمانية.. ثم اهتمَّ المجمع العراقي بهذا الكتاب؛ فعمل باحثوه على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوا خريطة الإدريسي وطبعوها

(١) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٤٦.

سنة ١٩٥١م وهي بطول مترين وعرض متر واحد[١]..

تصحيح أخطاء السابقين:

بين أيدينا الآن شهادة لمؤرخ غربي مشهور هو «**جوستاف لوبون**» الذي ستؤكد كلماته ما سبق بخصوص تفوق المسلمين في مجال الخرائط.. إلى جانب أنها ستضيف إلى عظمة إسهامات المسلمين في الجغرافيا بُعدًا جديدًا بالغ الأهمية..

يقول «**جوستاف لوبون**»: «يكفي أن نشير إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عيَّنُوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينًا مضبوطًا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونًا كثيرة...»[٢].

فالروعة والإنجاز لا يتجسدان فقط في الجديد الذي قدَّمه الجغرافيون المسلمون للعالم.. وإنما يتجسد الإنجاز وتتجلَّى الروعة كذلك في التصويب والتعديل الذي عاد به عباقرة الجغرافيين المسلمين على التراث الجغرافي اليوناني.

لقد وقع «**بطليموس**» - على الرغم من براعته المعروفة - في العديد من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء:

أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط..

وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له..

وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة!!! وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي أفريقيا..

وبالغ في تحديد حجم جزيرة «**سيلان**»..

وأخطأ في وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشًا[٣]..

---

(١) قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٩٩.

(٢) محمود الشرقاوي: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية ص٩٧، نقلاً عن حضارة العرب.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص ٣٩٠- ٣٩٣.

وقد صحح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ولم يأخذ الغرب هذه التعديلات إلا عنهم.. ومن هنا يتجلّى دور المسلمين في إنقاذ الدراسات الجغرافيَّة من التشوُّهات العلمية والمنهجيَّة.. كما رأينا من قبل دورهم في إنقاذها من بطش السلطة الكنسيَّة الغاشم..

وقد بدأت تلك المسيرة التصحيحية منذ عهد الخليفة «**المأمون**» (ت ٢١٨هـ - ٨٣٣م)..

فقد أسدت الخريطة المأمونية (انظر خريطة رقم ٢) التي أمر علماء عصره بتنفيذها، إلى الحضارة الغربية فضلاً عظيمًا، رغم ضعف إمكانات المسلمين من حيث الأجهزة الجغرافية في ذلك العصر، وقام المسلمون بإدخال الكثير من التعديلات المهمة على خريطة بطليموس (انظر خريطة رقم ٣)، وحسَّنوها وأضافوا إليها الكثير من التصحيحات الجوهرية..

وقد أقبل الغرب على عطاء الجغرافيين المسلمين بشغف واهتمام بالغين؛ فلم يكن الأوروبيون حتى بداية القرن الخامس عشر يرجعون إلا إلى الجغرافيا الإسلامية كما يقرر «**كراتشكوفسكي**».. وقد ظلت الكارتوغرافيا الأوروبية (علم الخرائط) تعتمد على خريطة الإدريسي حتى قبيل القرن الخامس عشر الميلادي[(١)]..

وإجمالاً، فإنه منذ وقت **الإدريسي** ١١٥٠م إلى حوالي ١٤٥٠م استُمِدَّت الجغرافيا الأوروبية رأسًا من الجغرافيا الإسلامية.. إلا أن تحوُّلاً عنصريًّا أصاب الفكر الأوروبي فيما بين (١٤٥٠م) إلى (١٥٥٠م)، فنهضت حملة ضد المسلمين لا أساس لها من العلم، وأسفرت عن تحول الجغرافيين الأوروبيين إلى جغرافيا «**بطليموس**»!! ولما كان استمرار هذا الأمر غير منطقي فقد اضطُرَّ العلماء ثانيةً إلى هجر **بطليموس**[(٢)]..

والحقُّ أنَّ إسهامات المسلمين في الجغرافيا محيط واسع.. ربما بقدر سعة الآماد المذهلة التي بلغتها رحلات علمائهم الاستكشافية برًّا وبحرًا... وهو الجانب الذي ستحاول الصفحات القادمة الوقوف بنا أمامه..

---

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٤٠٥.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٤١١، ٤١٢.

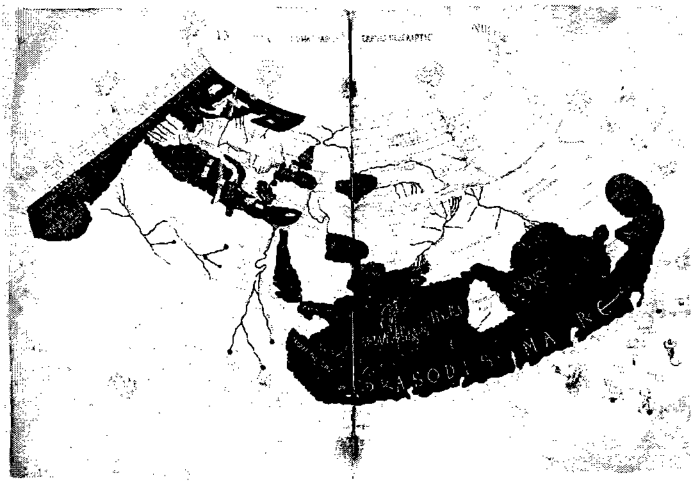

خريطة رقم (٢)
(خريطة بطليموس)

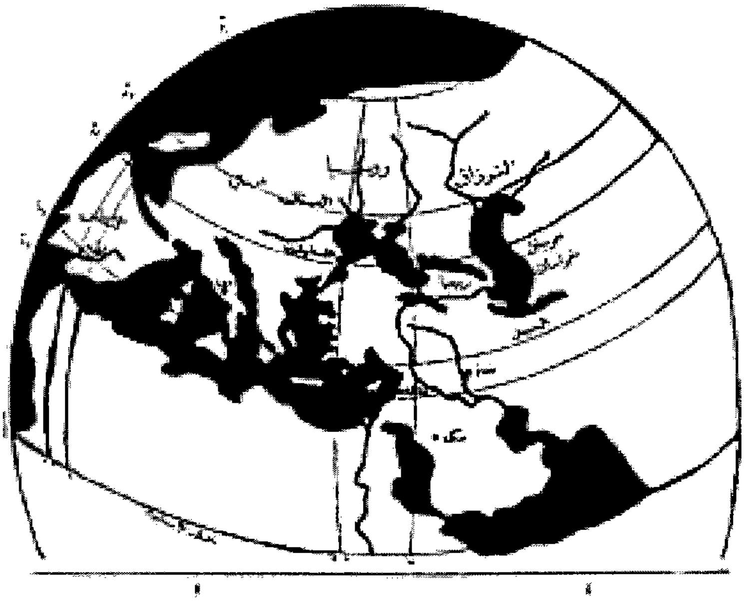

خريطة رقم (٣)
(الخريطة المأمونية)

المسلمون والكشوف الجغرافية:

لم تكن النهضة الجغرافية الإسلامية لتظهر لولا جهود مضنية - بعد توفيق الله ﷻ - قام بها العديد من العلماء الأفذاذ الذين مرَّ بنا نبأ بعضهم في صفحات سابقة..

ولم تكن جهود أولئك العلماء حبيسة الجدران، ولا أسيرة خيالات أو موروثات بالية.. بل كان السير في الأرض والضرب في مناكبها طولاً وعرضًا، والنظر عن قرب إلى طبائعها في شتى البقاع، وملامح الحياة المتباينة فوق كل شبر منها.. كان كل ذلك هو الطابع المميز للدراسات الجغرافية عند المسلمين..

ولا عجب؛ فالإسلام يُنفِّر أتباعه من التعويل على الظن الذي «لا يُغني من الحق شيئًا»، ويدعو في أكثر من موضع إلى الاعتماد على الحق والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وفيما يلي أهم اكتشافات جغرافيي المسلمين:

استكشاف القارات:

١) في آسيا:

كان أقصى ما يعرفه الإغريق عن شرقي آسيا هو منطقة سيراداريا (بأوزباكستان حاليًا).. وهي أقصى منطقةٍ وصل إليها «**الإسكندر الأكبر**» في فتوحاته (سنة ٣٢٣ ق.م)..

فلما جاء المسلمون تعدَّوْا هذه الحدود، وتمكنوا من عبور جبال (تيان شاه)، والتوغل مئات الأميال إلى الشرق منها، فوقعت كل مدن وسط آسيا **كبخارى** و**سمرقند** و**فرغانة** و**كشغر** (وهي إحدى الولايات الصينية) تحت نفوذهم منذ عام (٨٦هـ - ٧٠٥م).. وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق وبقي فيها حتى يومنا هذا، وكان الخلفاء يرسلون الوفود إلى ملوك الصين والتبت وسائر آسيا يدعونهم إلى الإسلام[١]..

وقد اكتشف المسلمون عن طريق أساطيلهم التجارية التي كانت تُبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون **بالصين** أن بحر الصين يتصل بالمحيط الهندي، كما اكتشفوا بحيرة (آرال) شمالي شرق قزوين، فوُضِعَتْ لأول مرة على الخرائط المأمونية في عهد **المأمون** باسم (بحيرة خوارزم)، وقد زار

---

(١) فهمي هويدي: الإسلام في الصين.

«البيروني» (ت٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) سيبيريا الشرقية، وكان أول من سَمَّى نهر أنجارا (الواقع شمال غرب بحيرة بيكال شرقيَّ سيبيريا).. كما أنه عاش في الهند قُرابة عشرين عامًا؛ فأبدع في وصفها بما لم يسبقه إليه أحد.. وذلك في كتابه (ما للهند من مقولة)[١].

٢) في أوروبا:

لقد عرف المسلمون أوروبا رغم تخلفها وخمولها الحضاري في ذلك الوقت؛ ففي عام (٣٠٨هـ - ٩٢١م) ذهب «ابن فضلان» رسولاً من قِبَل الخليفة العباسي «المقتدر» إلى بلاد البلغار في الفولجا (تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة الروس وعلى عاصمتهم التي تقع شرقي نهر الفولجا) كما وصف البيروني بلاد (الفرنج) وهم النرويج والإسكندنافيون، ووصف (بحر الثلج) وهو القطب الشمالي كما عرف المسلمون «بلاد الغال» وهي فرنسا[٢]..

وقد عُثِر حديثًا على عملات إسلامية في كل من روسيا وإسكندنافيا تعود إلى العصر العباسي!!

٣) في أفريقيا:

توقفت معلومات الإغريق والرومان في أفريقيا على البلاد الساحلية وحدها، أما قلب القارة السوداء فقد بقي غامضًا أمام العالم حتى وصله المسلمون كتجار أو رحَّالة أو سفراء.. فاستكشفوا القارة الغامضة، ونشروا الإسلام في السودان والسنغال والنيجر وغيرها.. وكانوا أول من اكتشف مدغشقر، وقد وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور..

ومما يُعد من إنجازات المسلمين السَبَّاقة أنهم أول من اكتشف منابع نهر النيل العظيمة قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون؛ فقد ذكر الرحالة البريطاني «ستانلي» أنه في رحلاته لاكتشاف منابع النيل قد وجد التجار العرب قد سبقوه وأن القبائل الأفريقية تدين بالإسلام!!

الاكتشافات البحرية:

يُعتبَر اكتشاف «**كريستوفر كولومبوس**» **لأمريكا** عام ١٤٩٢م، واكتشاف «**فاسكو دي جاما**» **لطريق الهند البحري** عام ١٤٩٧م من أكثر الكشوف الجغرافية تأثيرًا في مجرى التاريخ

---

(١) نفيس أحمد، ترجمة: فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص٤٤.

(٢) نفيس أحمد، ترجمة: فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص٤٤.

الإنساني.. وبالرغم من مرور ما يزيد على خمسمائة عام على هـذين الكشـفين إلا أن الجـدل لم يُحسَم بعد حول أسبقيتهما..

فهل كان «**كريستوفر كولومبوس**» ذلك البحار الإيطـالي هـو أول مكتشـف للسـواحل الأمريكية بالفعل؟؟

وما السِّرُّ وراء انطلاق رحلته من إسبانيا التي كانت قد فرغـت للتـوِّ مـن القضـاء عـلى الوجود الإسلامي في أراضيها؟

ألم يستفِد «**كولومبوس**» ومَنْ معه من آلاف الوثائق العلمية والخرائط الإسـلامية التـي وضـع الإسبان أيديهم عليها من ميراث الحضارة الإسلامية الطويل؛ فأحرقوا بعضها، واستولوا على البعض الآخر مما لم يظهر بعد ذلك إلا حديثًا في مكتبة الإسكوريال في مدريد..؟؟

وما حقيقـة الأهـداف التـي حركـت الكشـوف البحريـة الأوروبيـة عـلى نحـو كثيـف ومتزامن..؟؟!

إننا في السطور القادمة سنحاول - بإذن الله - إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر..

فمنذ أعلن المسلمون كروية الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكيـة والحسـابية بـدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بد من وجود جزر معمورة في الوجـه الآخـر مـن الكـرة الأرضية لم تُكتَشَف بعد، وقد بُنِيَت هذه النظرية على أنه لـيس مـن المعقـول أن يكـون أحـد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطي الماء الجانب الآخـر؛ لأنَّ هـذا سـيؤدي إلى اخـتلال توازن الأرض وانتظام دورانها[1]..

وقد كان «**البيروني**» أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بهـا في كتبـه، وبنـاءً عـلى هـذه النظريـة ابتدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسـلمين، ومـنهم «المسعودي» في كتابه (مروج الذهب) و«**الإدريسي**» في كتابه (نزهة المشتاق..) وغيرهما..

وأول إشارة في ذلك تقول: إن بحارًا عربيًّا أندلسيًّا اسـمه«**خشـخاش البحـري**» أبحـر بسفينته من «لشبونة» إلى الغرب في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) (سنة ٢٣٥هـ تقريبًـا -

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٩٦،٣٩٧.

٨٥٠م) وقد اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان أحضر منها الهدايا إلى حاكم الأندلس «عبد الرحمن الثاني» الذي كافأه بتعيينه أميرًا للبحرية الإسلامية.. وقد استُشهِد هذا الرجل في معركة بحرية مع قرصان (الفايكنج)[١].

أما الإشارة الثانية فتذكر أن جماعة من عرب المغرب الأفريقي قد خرجوا إلى بحر الظلمات نحو تلك الجزيرة، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولم يَعُدْ أحدٌ منهم ولم يسمع عنهم أي خبر!!

ثم يتلو ذلك قصة «الفتية المغرَّرين» الذين تحدَّث عنهم **المسعودي والإدريسي**، وتقول هذه القصة: إن ثمانية من الشباب العرب في مدينة لشبونة من عائلة واحدة من البحارة... قرروا المغامرة (في بحر الظلمات) بحثًا عن تلك الجزر التي هلك من سبقوهم دون خبر عنها.. وأن أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب (الفتية المغررين) نسبة إلى (الغُـرَّة) أي (المقدمة) وليس المغرورين نسبة إلى (الغرور) كما جاء في بعض المراجع، فمن ذلك ما ذكره «**المسعودي**» في كتابه (مروج الذهب) عن أخبار (من خاطر بنفسه في ركوبه - أي المحيط الأطلسي - ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا[٢]..

وعندما يورِد «**الإدريسي**» هذه القصة يذكر أن هؤلاء الفتية الثمانية عندما عادوا إلى الأندلس احتفي بهم أهل لشبونة، واستقبلوهم بالزينات والأفراح.. وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيه اسم (شارع الفتية المغرَّرين)، كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي.. ثم ظل هذا الاسم معروفًا بعد ذلك في لشبونة لمئات من السنين[٣].

كانت هذه صورة موجزة لما أورده جغرافيو **الأندلس** عن سبق العرب لاكتشاف **أمريكا**.. يعضدها ما ذكره العالم المؤرخ اللغوي «**الأب إنستاس الكرملي**» من أن العرب قد وصلوا **أمريكا** من لشبونة قبل «**كولومبوس**» بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في الأطلسي، فيقول: «سَبَقَ العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه، وإلى حركته من المكسيك إلى **إيرلندا** وبالعكس..»[٤].

---

(١)، (٢)، (٣) انظر: المسعودي: مروج الذهب ١/ ٤٥.

(٤) الأب انستاس الكرملي: عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، نشر هذا البحث في مجلة المقتطف عدد ١٠٦، وأشار إليه العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة ص٤٧.

على أن هناك إشارة تظهر في أقوال «كولومبوس» نفسه؛ حيث يذكر أنه كان يعتقد أولَ الأمر أن الهنود الحمر الذين رآهم في تلك الجزر لا بد أن يكونوا من سلالة العرب «الذين سبقوه..» كما قرأ في المخطوطات العربية.. وقد قامت (الجمعية الجغرافية البريطانية) بإنتاج مسلسل تليفزيوني وثائقي بعنوان (المكتشفون) وفيه حلقة مستقلة عن «كولومبوس» واكتشافاته، وهي تبين أنه قد اختار أحد رجاله الذين يعرفون اللغة العربية (لأنه من أصل عربي) وبعث معه برسالة إلى ملك الهنود الحمر كُتِبَتْ باللغة العربية يقول فيها: «يا صاحب الجلالة.. إن الملكة «إيزابيلا» ملكة إسبانيا وقشتالة تهديك السلام، وتطمع أن يكون بينها وبين بلادك علاقات صداقة.. إلخ»[1].

إلا أن أكثر تلك الإشارات إبهارًا وإثارة للدهشة هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني Kahle في مكتبة (طوب كابي سراي) بإسطنبول، ونشرها على العالم سنة ١٩٢٩م بعد تحقيق علمي دولي استمر عدة سنوات..

فقد حيَّرت هذه الخريطة (انظر خريطة رقم ٤) العلماء وأذهلت العالم.. وهي من تأليف جغرافي تركي مسلم هو «بيري ريس» واسمه الكامل «محيي الدين بن محمد الريس» (ت ١٥١٣م)، وكان أحد قادة البحرية في الأسطول التركي الذي كان سيد البحار في تلك الآونة.. وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدة خرائط مفردة؛ فهي تبين شرقي المحيط الأطلسي حيث السواحل الإسبانية والأفريقية الغربية... أما في غربي المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانيها وحيواناتها.. فضلاً عن سكانها الأصليين (الهنود الحمر) الذين يرسمهم عراةً وهو يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق «كراتشكوفسكي» في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) تعليلاً لهذه الخريطة أنه لا بد أن يكون «الريس» قد بناها على أساس خرائط «كولومبوس» التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة ١٤٩٩م، وأَسَرَ بعض سفنه[2]..

إلا أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها «كولومبوس»، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدموا تعليلاً بديلاً يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

(١) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ص ٤٧، دار الفكر العربي ١٩٩٨.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٢ النسخة العربية.

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي!!

إن أعجب ما في خرائط «بيري ريس» أنها عادت لتشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعية؛ فقد كان الاعتقاد الأول لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوروبا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي.. ولكنهم فوجئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط «محيي الدين الريس» أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوروه!!.. وأنها تطابق تمامًا صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة.

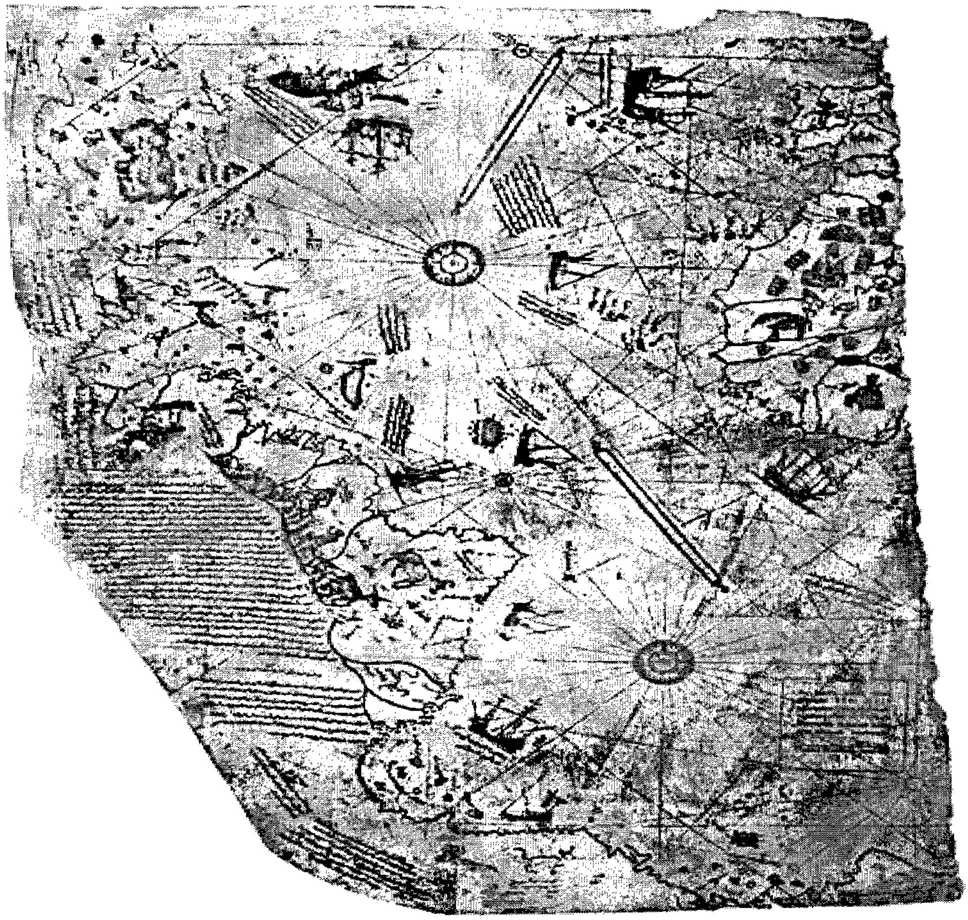

خريطة رقم (٤)
(خريطة بيري ريس للقارة الأمريكية)

وعلى أثر ذلك عكف فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكية على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًّا بعد تكبيرها عدة مرات، فكانت المفاجأة الثانية.. وهي أن «بيري ريس» قد وضع في خرائطه الـ السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين!!.. كما أنه و جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة ١٩٥٢م!! (انظر خريطة رقم ٥)[١].

يحكي الكاتب «إريك فون دانيكن» في كتابه[٢] «Chariots of the gods» أن خرائط «بيري ريس» سُلِّمت إلى الدكتور «ماليري آرلنجتون» أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية الذي قرَّر بعد حص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا.. ولكنه شكَّ في وجود خطأ أو عدم د في بعض الأماكن.. فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي الذين أظهرت دراساتهم ا رائط «بيري ريس» قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات (أي التضاريس) بدقة مذهلة؛ فتظ يها الجبال والأنهار والسهول وكأنما أُخِذَت من الفضاء الخارجي..!!

وفي سنة ١٩٥٧م عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحرية الأمريكية على مزيد من دراسة خرائط «الريس».. وبعد دراسات على أجهزة متطورة وجدوا أن صوره عن القارة السادسة Antarctica صحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة.. حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر!! فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام ١٩٥٢م.. فهي دائمًا مغطاة بطبقة سميكة من الثلوج بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus . .

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط، حيث اتضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضية من مركبة فضائية أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبية الجنوبية، وهي صور تغطي مسافة (خمسة آلاف ميل) فوجدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة «بيري ريس»[٣]!!

---

(١) إريك فون دانيكين: عربات الآلهة ص٢٩.

(٢) اسم الكتاب: عربات الآلهة، وهو يتحدَّث عن سفن الفضاء، ونقتبس المعلومات منه رغم اعتراضنا على اسمه؛ لأن الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها.

(٣) إريك فون دانيكن: عربات الآلهة ص٢٩.

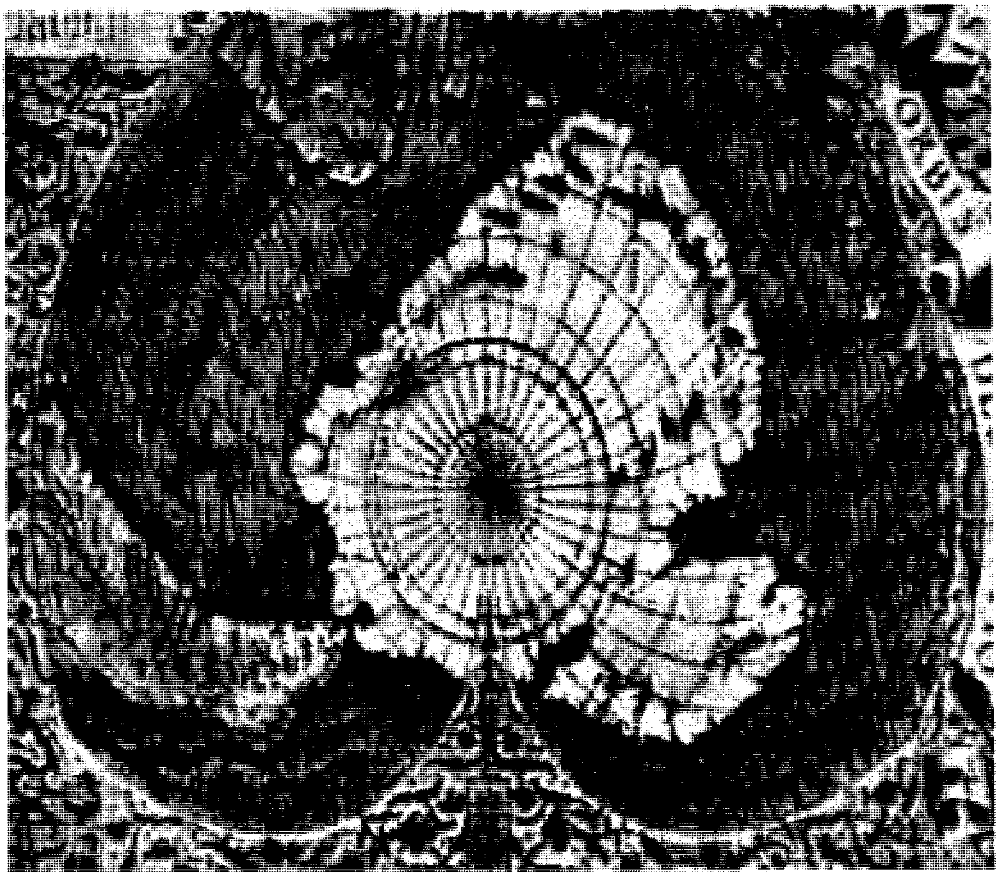

خريطة رقم (٥)

(خريطة بيري ريس للقارة القطبية الجنوبية)

فلكم هو مذهل تتبُّع جهود المسلمين في اكتشاف الأرض من حولهم!! وكم هو مُبهر تصفُّح ثمار تلك الجهود!!..

ويبقى أن نقرر - أخيرًا - أن استشعار خلافة الله في هذه الأرض لا بد أن يكون له أكبر الأثر في بعث تلك الحركة الهائلة للكشوف والرحلات الجغرافية، التي جابت أقطار المعمورة في تلك العصور البعيدة..

ولا بد - أيضًا - أن نقرر أن اهتداء المسلمين بكتاب ربهم قد كان له أكبر الأثر في هذا السير الفريد في جنبات الأرض.. حيث يقول سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

* * *

المبحث الرابع

علم البصريات في الحضارة الإسلامية

كغيره من العلوم التي ظهرت قبل المسلمين، كان لليونانيين وغيرهم من الشعوب القديمة اهتمام بعلم البصريات، وكان لهم فيه آثار طيبة اتكأ عليها المسلمون عند ممارستهم لهذا العلم، فقد نقلوا عن اليونان آراءهم في انكسار الضوء والمرايا المحرقة وغيرها، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد النقل بل توسعوا وأضافوا إضافات مبهرة من ابتكاراتهم، واستطاعوا أن يسطروا في علم البصريات تاريخًا مشرفًا.

ففي أول الأمر كانت البصريات الإغريقية تحوي رأيين متعارضين: الأول: هو الإدخال، أي دخول شيء ما يمثل الجسم إلى العينين. والثاني: الانبعاث، أي حدوث الرؤية (الإبصار) عندما تنبعث أشعة من العينين وتعترضها الأجسام المرئية.

وقد ظلت الحضارة الإغريقية تتناول البصريات بأخذٍ وردٍّ بين هذين الرأيين، وكانت مجهودات **أرسطو** تفتقر إلى تفصيل حتمي، وكذلك **إقليدس** رغم مجهوداته الملموسة، إلا أن نظرياته كانت مقصورة على تقديم شرح كامل للإبصار؛ لأنها أغفلت العناصر الفيزيائية والفسيولوجية والسيكولوجية للظواهر البصرية، حيث ذهب إلى أن العين تُحدث في الجسم الشفاف المتوسط بينها وبين المبصرات شعاعًا ينبعث منها، وأن الأشياء التي يقع عليها هذا الشعاع تُبْصَر، والتي لا يقع عليها لا تبصر، وأن الأشياء التي تبصر من زاوية كبيرة تُرى كبيرة، والتي تبصر من زاوية صغيرة ترى صغيرة.

أما **بطليموس** فرغم إبداعه في التوفيق بين التناول الهندسي والتناول الفيزيائي إلا أنه فشل في نهاية الأمر؛ لأن استخدامه كان مقصورًا على دعم استنتاجات سبق التوصل إليها فعلاً، بل إن معالجة النتائج التجريبية كانت تجري أحيانًا بجواز مروره لهذه الاستنتاجات.

وقد ظلت البحوث في علم البصريات تدور في هذا الفلك السابق دون تقدم أو رقي، وبقيت على ذلك حتى جاءت الحضارة الإسلامية فكان لإسهامات المسلمين في علم البصريات نسق آخر متطور وفريد؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكية وغيرهما، إذ إن ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

فقد جاء الفيلسوف **أبو يوسف الكندي** (١٨٥-٢٥٦ هـ/ ٨٠٥-٨٧٣م)، والذي يُعد من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة، فتناول الظواهر الضوئية وعالجها في كتابه الشهير «**علم المناظر**»، وكان ذلك أول كتاب عربي يعنى بعلم البصريات.

والكندي هذا هو **أبو يوسف يعقوب** بن **إسحاق**، يُعد - كما يصنفه الكثيرون - مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية وكان كمعظم علماء عصره موسوعيًّا، فهو رياضي وفيزيائي وفلكي، بالإضافة إلى كونه فيلسوفًا[١]!

وكانت بدايته مع أسرته الغنية في الكوفة، والذي كان والده واليًا عليها، وقد توفي وترك يعقوب صغيرًا مع إخوته ووالدته، فأتم حفظ القرآن الكريم والكثير من الحديث النبوي الشريف وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وكعادة طلاب العلم في عصره فقد قرر السفر بصحبة والدته إلى **البصرة** للاستزادة من العلم، ثم انتقل بعدها إلى **بغداد** ليزيد من ثقافته وعلمه، حيث كانت **بغداد** في العصر العباسي بحرًا زاخرًا بالعلوم المتنوعة المختلفة[٢].

كانت مكتبة «بيت الحكمة» التي أنشأها **هارون الرشيد** وازدهرت في عهد ابنه **المأمون** مقصده، وصار يُمضي أيامًا كاملةً فيها وهو يقرأ الكتب المترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية، إلا أن فضوله الزائد للمعرفة والعلم لم يتوقف عند حد قراءة الكتب المترجمة فقط، فبدأ بدراسة اللغتين السريانية واليونانية على يد أستاذين كانا يأتيان إلى منزله ليعلماه، وقد تمكن من إتقان هاتين اللغتين بعد فترة وجيزة، بعدها بدأ في تكوين فريق خاص به، وصار صاحب مدرسة ذات مكانة مهمة في الترجمة، وأنشأ في بيته مكتبة تضاهي في ضخامتها مكتبة الحكمة، فصار الناس يقصدون بيته للتعلم ومكتبته للمطالعة، وسارت شهرته في البلاد عندما كان عمره خمسةً وعشرين عامًا فقط، فدعاه الخليفة المأمون إليه وصارا صديقين منذ ذلك الحين[٣].

أما في البصريات فقد أخذ **الكندي** بنظرية الانبعاث الإغريقية، إلا أنه أضاف كذلك وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظام تصوري جديد يحل في نهاية

(١) مصطفى عبد الرازق: فيلسوف العرب ص١٨.
(٢) أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب ص٢٦.
(٣) رحاب العكاوي: الكندي أعظم الحكماء في تاريخ البشرية ص١٦ بتصرف.

الأمر محل نظرية الانبعاث، وكان لهذا الكتاب صدى في المحافل العلمية العربية، ثم الأوروبية خلال العصور الوسطى.

ثم من بعده جاء **أبو الحسن بن الهيثم** (٣٥٤- ٤٣٠هـ) والذي تُعد أعماله العلمية فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات وفزيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته - بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم - **روجر بيكون وفيتلو** وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبرة(١).

بدأ **ابن الهيثم** أولاً بمناقشة نظريات **إقليدس وبطليموس** في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامة، وخاصة إذا نفذ من جسم شفاف كالهواء والماء والذرات العالقة بالجو، فإنه ينعطف - أي ينكسر - عن استقامته(٢).

وقد بحث في (الانعكاس) وتبيان الزوايا المترتبة على ذلك، كما تطرق إلى شرح أن الأجرام السماوية تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوّه باستخدام الحجرة السوداء التي تعتبر أساس التصوير الفوتوغرافي(٣).

والكتاب الذي خلَّد اسم **ابن الهيثم** عبر القرون هو **«كتاب المناظر»**، ويوضح هذا الكتاب تصور البصريات كنظرية أولية في الإبصار، مختلفة جذريًا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي.

ولقد أدخل **ابن الهيثم** أيضًا منهجية جديدة على هذا التفسير لعملية الإبصار، وبهذا تمكن من صياغة مسائل كانت إمّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مُهمَلة من جانب فلاسفة يهدفون أساسًا إلى تفسير ماهية الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفية حدوث الإبصار.

---

(١) موقع إسلام أون لاين: ابن الهيثم عبقري في ثوب الجنون.

(٢) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٤.

(٣) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٤٨.

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكرة في علم الضوء، إلا أنه ظل مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قيض الله له من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، وكان من هؤلاء العالم العربي مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم **يُعَد واضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث!!**

يقول الأستاذ **مصطفى نظيف**: «لقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة، وأنشأ علمًا جديدًا أبطل فيه علم المناظر، الذي أنشأه اليونان، كما أنشأ علم الضوء الحديث، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر (نيوتن) في الميكانيكا، فإن عُدّ (نيوتن) بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فإن ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعد بحق **رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر**»[1].

وطالما كان على هذا القدر من المكانة والمنزلة، فإنا نخوض بعض الشيء في شخصيته، نتعرض فيها لحياته الشخصية، ثم حياته العلمية..

فهو المهندس البصري أبو علي الحسن بن الهيثم، من أصل عربي، لُقِّبَ ببطليموس الثاني، وجده الأعلى «الهيثم» أي «فرخ النسر»، وقد عُرِف ابن الهيثم عند الأوروبيين بـ (alhazen)، وهو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء ومؤسس علم البصريات، وأتقن الطب وصنف فيه لكنه لم يمارسه، وكان دائمًا يقول: «وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أني صّيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[2].

ولد في البصرة عام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م وعاش فيها حياته الأولى، وكان في طفولته عازفًا

(١) قدري طوقان: الخالدون العرب.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

عن اللهو مع أقرانه، مقبلاً على القراءة والاطلاع، كثير التساؤل، حيث اهتمَّ بتحصيل العلم والإلمام بما وصلت إليه الفلسفة والعلوم التعليمية، بل والعلوم الطبية أيضًا[1].

وعندما شبَّ ابن الهيثم اشتغل كموظف في الديوان الحكومي، إلا أنه عكف على مواصلة البحث والدراسة، فكان يقرأ الفلسفة ويشرح ويلخص ويختصر فيها من كتب اليونان ما أحاط فكره بتصوره وصنف في ذلك فروعًا كثيرة، وقد اشتغل بنسخ الكتب فيما بعد، وسار على طريق العلماء، فسافر في طلب العلم، فذهب إلى بغداد والشام ومصر، وتنقّل بين أرجاء الدولة الإسلامية.

ولقد كان في كل أحواله زاهدًا عن الدنيا مقبلاً على التحصيل والدراسة، يصفه ابن أبي أصيبعة فيقول: «كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفننًا في العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد»[2].

ومما يُذكَر في ذلك أنه وهو بالشام عند أحد أمرائها فأعجب به وأراد أن يغمره بالأموال، فقال ابن الهيثم: «يكفيني قوت يوم وتكفيني جارية وخادم، فما زاد على قوت يوم إن أمسكتُه كنتُ خازنَك، وإن أنفقتُه كنتُ وكيلك، وإذا اشتغلتُ بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي؟!»[3].

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصَّص في طب الكحالة (طب العيون)، وكان أهل بغداد يقصدونه للسؤال في عدة علوم، برغم أن المدينة كانت زاخرة بصفوة من كبار علماء العصر.

وقد تعرضنا لموقفه مع الحاكم بأمر الله الفاطمي، عندما استدعاه الأخير للقيام بمشروع على النيل يحجب الفيضان بعدما سمع مقولته: «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص»[4]، وكيف أنه اعتذر بعد أن أدرك صعوبة

---

(١) ابن القفطي: أخبار الحكماء ص١١٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٧٢.

(٣) البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص١٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٧٤.

أو استحالة إقامة المشروع بإمكانات عصره..

ثم وهو في مصر اتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكنًا، ومن مهنة نسخ بعض الكتب العالمية موردًا لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متمكنًا من عدة لغات، ولكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتزق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، منها: كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك، فكان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا معاودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته(١).

ابن الهيثم.. والمنهج العلمي:

اعتمد ابن الهيثم في بحوثه على منهجين هما: منهج الاستقراء، ومنهج الاستنباط، وفي الحالين كان يعتمد على التجربة والملاحظة، وكان همه من وراء البحث هو الوصول إلى الحقيقة التي تثلج صدره، وقد حدد الرجل هدفه من بحوثه، وهو إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياته وبعد مماته(٢).

وكان ابن الهيثم يرى أن تضارب الآراء هو الطريق الوحيد لظهور الحقيقة، وقد جعل من التجربة العملية منهاجًا ثابتًا في إثبات صحة أو خطأ النتائج العقلية أو الفرضيات العلمية، وبعد ذلك يحاول التعبير عن النتيجة الصحيحة بصياغة رياضية دقيقة.

ويتضح منهج ابن الهيثم في البحث إجمالاً من مقدمة كتابه (المناظر)؛ فقد بين فيه بإيجاز الطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتبعها في بحوثه، يقول ابن الهيثم: «.. ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء»(٣).

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر عند المسلمين ص١٤٥ بتصرف.

(٣) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص٦٢.

فقد أخذ ابن الهيثم في بحوثه بالاستقراء والقياس، وعُنِيَ في البعض منها بالتمثيل، وهي عناصر البحوث العلمية العصرية، وابن الهيثم في هذا كله لم يسبق فرنسيس بيكون إلى طريقته الاستقرائية فحسب، بل سما عليه سموًّا كبيرًا، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا، وإن لم يُعنَ كما عُنِيَ بيكون بالتفلسف النظري، فهذا المنهج يتسم بالحيوية والتكامل؛ إذ يجد فيه رجل العلم ما يرتاح له من أساليب وطرق تسهل له عمله، ويجد فيه الفيلسوف صاحب النظر المجرد ما يثلج صدره ويقيه جمحات عقله[1].

يقول أحمد أمين: «وأهم ما امتاز به (ابن الهيثم) معرفة نظريات الرياضة، ومن أهم مميزاته تطبيق علمه على العمل»[2].

وفوق ذلك فقد كان ابن الهيثم يتحلى بروح علمية سامقة؛ إذ قرر أن الحقائق العلمية غير ثابتة، وأنها ليست غايات ينتهي إليها العلم، بل كثيرًا ما يعتريها التبديل والتغيير، وهو يؤمل ويرجو رجاء العالم المتواضع الوصول إلى الحقيقة فيقول: «.. ولعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدر ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات»[3]!!

وهكذا يتضح أن منهج ابن الهيثم في العلم يلتقي مع المنهج العلمي الحديث وأربى عليه باعتبار سبقه الزمني.

تقول زيجريد هونكه: «والواقع أن روجر بيكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دافنشي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والذي حققه ابن الهيثم لم يكن إلا علم الطبيعة الحديث، بفضل التأمل النظري والتجربة الدقيقة»[4].

وعلى هذا المنهج سار ابن الهيثم في كل مؤلفاته وتصانيفه، وقد كان غزير التأليف متدفق الإنتاج في شتى أنواع المعرفة، فطرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات

---

(١) عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص٦٢.

(٤) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٤٨، ١٤٩.

والرياضيات، مستحدثًا أنماطًا جديدة من الفكر العلمي الأصيل، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يربو على مائتي مؤلف (٢٣٧ مخطوطة ورسالة في مختلف فروع العلم والمعرفة).

وفي البصريات وحدها أَلَّفَ ابن الهيثم ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب قد فُقد فيما فقد من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمته مكتبات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم «المناظر» الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظل المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية(١).

ولا يعرف العالم من مؤلفات ابن الهيثم حاليًا سوى خمسين كتابًا لم يبق منها في القاهرة سوى ثلاثة فقط، حيث تسرب العديد من كتبه الأخرى إلى أوروبا أثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء الحروب الصليبية.

وإلى جانب البصريات فقد كانت له مساهماته في الهندسة، وله فيها ثمانية وخمسون مؤلفًا، تضم آراءه وبراهينه المبتكرة لمسائل تواترت عن إقليدس وأرشميدس بدون برهان، أو في حاجة إلى شرح وإثبات، ويوجد في مكتبات العالم في القاهرة ولندن وباريس وإستانبول أكثر من واحد وعشرين مخطوطًا لابن الهيثم في هذا التخصص، وفي الحساب والجبر والمقابلة ألّف ما لا يقل عن عشرة كتب، لا يوجد منها سوى مخطوطات قليلة في مكتبة عاطف بتركيا منها: حساب المعاملات، واستخراج مسألة عددية.

وفي الفلك أبدع ابن الهيثم وأسهم فيه بفاعلية حتى أُطلق عليه «بطليموس الثاني»، ولم يصلنا من تراث ابن الهيثم في الفلكيات إلا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفًا، تحدث فيها عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها وكيفية رؤيتها وغير ذلك(٢).

كما أن له في الطب كتابين: أحدهما في «تقويم الصناعة الطبية» ضمّنه خلاصة ثلاثين كتابًا قرأها لجالينوس، والآخر «مقالة في الرد على أبي الفرج عبد الله بن الطيب» لإبطال رأيه الذي يخالف فيه رأي جالينوس، وله أيضًا رسالة في تشريح العين وكيفية الإبصار(٣).

---

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٣.

(٢) رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص٧٢.

(٣) الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٣١٨.

ابن الهيثم.. وعلم الضوء الحديث:

كان لاكتشافات ابن الهيثم تأثير كبير على التراث الفكري الإنساني، أما ما يهمنا في تخصصه العلمي فهو كتابه (المناظر)؛ إذ كان ثورة في عالم البصريات، فابن الهيثم لم يتبن نظريات بطليموس ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان بطليموس - كما ذكرنا - يزعم أن الرؤية تتم بواسطة أشعَّة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنى العلماء اللاحقون هذه النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظرية في كتابه «المناظر»، وبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجانس.

وقد أثبت ذلك بقوله في كتاب المناظر: «إمّا أن يكون (أي الشعاع) جسمًا أو لا، فإن كان جسمًا فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض ولم ينقص من البصر شيء، وهذا محال في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة، وإن لم يكن جسمًا فهو لا يحس هو نفسه بالبصر، فالإحساس ليس إلا للأجسام ذات الحياة..» [1].

ثم بعد مناقشة مثل هذه الآراء وغيرها يدلي برأيه (في الفصل السادس من المقالة الأولى) فيقول: «فلنحرِّر الآن ما استقرَّ من جميع ما ذكرناه فنقول: إن البصر يُحِسُّ بالضوء واللون اللذين في سطح المبصَر من الصورة التي تمتد من الضوء واللون اللذين في سطح المبصَر في الجسم المشِفّ المتوسط بين البصر والمبصَر، وليس البصر شيئًا من صور المبصَرات إلا من سموت الخطوط المستقيمة التي تتوهم ممتدة بين المبصَر ومركز البصر فقط، وإذا قد تحرَّر ذلك وتبين مع هذه الحال أن هذا المعنى ممكن وغير ممتنع فإنا نحرر الآن الدعوى..» [2].

كذلك برهن ابن الهيثم رياضيًا وهندسيًا علي كيفية النظر بالعينين معًا إلى الأشياء في آنٍ واحد دون أن يحدث ازدواج في الرؤية برؤية الشيء شيئين، وعلَّل ابن الهيثم ذلك بأن صورتي

---

(١) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١٣٣.

(٢) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١١٩.

الشيء المرئي تتطابقان على شبكية العينين، وقد وضع ابن الهيثم بهذه البرهنة وذلك التعليل الأساس الأول لما يعرف الآن باسم الاستريسكوب.

وكان ابن الهيثم أول من درس العين دراسة علمية، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته (انظر شكل رقم ٣)، ومن هذه الأسماء : القرنية (Cornea) ، والشبكية (Retina) ، والسائل الزجاجي (Vitrous Humour) ، والسائل المائي (Aqueous Humour) .

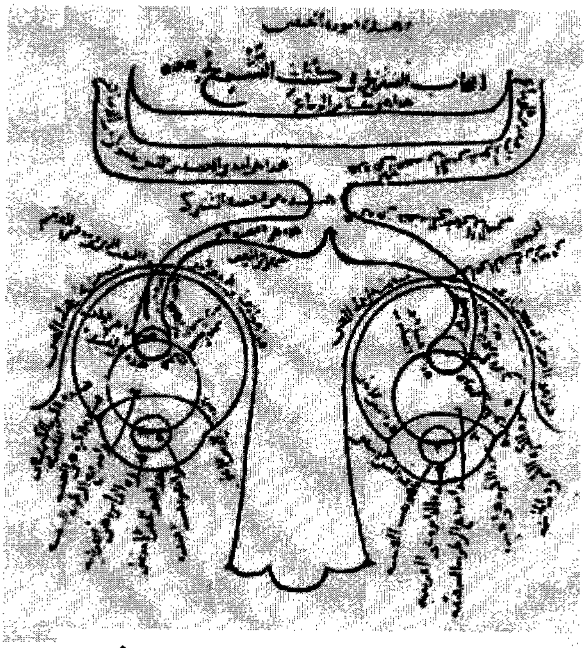

شكل رقم (١٥) تشريح العين عند ابن الهيثم

ومن أهم إنجازاته كذلك في هذا المجال - كما يتضح من كتابه «المناظر» - ما يلي:

- أنه أول من أجرى تجارب بواسطة آلة الثقب أو البيت المظلم أو الخزانة المظلمة واكتشف منها أن صورة الشيء تظهر مقلوبة داخل هذه الخزانة، فمهد بهذا الطريق إلى ابتكار آلة التصوير، وبهذه الفكرة وتلك التجارب سبق ابن الهيثم العالمين الإيطاليين «ليوناردو دافنشي» و«دي لا بورتا» بخمسة قرون[١].

- وضع ابن الهيثم ولأول مرة قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلَّل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء والزجاج والهواء، فسبق ابن الهيثم بما قاله العالم الإنجليزي نيوتن[٢].

- قام بتعريف الضوء بصورة قريبة مما نعرفه اليوم، وذلك بأنه جسم مادي لطيف يتألف

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٤.

(٢) السابق نفسه ص٣٠٣.

من أشعة لها أطوال وعروض. وناقش خصائصه، وقام بتعريف الانعكاس، وحدد بصورة قاطعة أن زاوية السقوط تساوي زاوية انعكاس الضوء في المرايا[١].

• كان أول من قال بأن للضوء سرعة محددة يمكن قياسها[٢].

• حدَّدَ اتجاه انكسار الضوء عند انتقاله من وسط إلى وسط أقل أو أكثر كثافة من الأول، فيكون الانكسار (الانعطاف في لفظه) مبتعدًا أو مقتربًا من العمود المقام على المستوى الفاصل بين الوسطين[٣].

• وكما تقول الموسوعة العلمية «سارتون»: فابن الهيثم يعتبر أول مخترع للكاميرات، وهي ما يُسمَّى عمليًّا: (Camera obscura)[٤].

• عرض لصور الانعكاس من على السطوح المختلفة، وهو ما عُرف باسم مسألة ابن الهيثم، وفيها تعامل ابن الهيثم مع معادلة من الدرجة الرابعة، وذلك لتحديد مكان نقطة الانعكاس لكافة أشكال الأسطح[٥].

ومن يطَّلع على كتاب المناظر والموضوعات التي تتعلق بالضوء وما إليه، يخرج بأن ابن الهيثم قد طبع علم الضوء بطابع جديد لم يسبق إليه، وقد ألف هذا الكتاب عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م، وفيه استثمر عبقريته الرياضية، وخبرته الطبية، وتجاربه العلمية، فتوصل فيه إلى نتائج وضعته على قمة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسسين لعلوم غيّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال[٦].

وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيء كثير يستحق أن ينحني العلماء أمامه إجلالاً واحترامًا؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين بأخلاطها المائية وجسمها البللوري

---

(١) عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ص٩١.
(٢) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١١٧.
(٣) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١٠٠.
(٤) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.
(٥) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١١٨.
(٦) رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص٨٤ وما بعدها.

وقرنيتها وشبكيتها وغرفتها المظلمة.

كما يتضح لنا أن ابن الهيثم جعل علم الضوء يتخذ صبغة جديدة، وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، حتى أصبح أثره في علم الضوء يشبه تأثير نيوتن العام في علم الميكانيكا، فكانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم متفرقة لا يربطها رابط، فأعاد البحث فيها من جديد، واتجه في بحثه وجهة لم يسبقه إليها أحد من قبله، فأصلح الأخطاء وأتم النقص، وابتكر المستحدث من البحوث، وأضاف الجديد من الكشوف، واستطاع أن يؤلف من ذلك كله وحدة مترابطة الأجزاء، وأقام الأساس الذي انبنى عليه صرح علم الضوء.

يقول الدكتور **محمد يونس الحملاوي**: «لقد حفر ابن الهيثم مكانه في سجل تقدم البشرية بحروفٍ من نور حين درس واستوعب ونقد وفنَّد المسلمات التي عاشت عند رواد علم المناظر من أمثال إقليدس وبطليموس وغيرهما.. لقد أضاف الكثير لعلم الضوء حين قال بوجود سرعة للضوء، وحدد أن هذه السرعة متناهية، ولكنها كبيرة جدًّا لدرجة تبدو في بعض الأحيان لا متناهية، وبرهن على ذلك معتمدًا على الأجهزة التي ابتكرها. لقد اخترع ابن الهيثم وصنع بيديه العديد من الأجهزة الفلكية والطبيعية في مجال تجاربه، وبهذا يكون ابن الهيثم قد سبق كُلاًّ من **ديكارت** و**نيوتن**، كما سبق ابن الهيثم **أينشتاين** حينما بيَّن أن سرعة الضوء محدودة، ورغم هذا يتعلم طلابنا تلكم الحقائق عن أي طريق وعن كل طريق إلا عن أصله العربي الأصيل، وعن كل العلماء إلا عن علماء أمتهم!!».

ثم.. وبعد رحلة علمية حافلة بالإنجازات التي أفادت البشرية، وساعدت على قيام النهضة الأوروبية الحديثة.. وبعد تأثير دام أثره إلى اليوم.. وفي القاهرة، وفي سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩م.. رحل ابن الهيثم -رحمه الله- عن دنيا الناس والطبيعة، وترك أعماله القيمة تنبئ عنه، وتستمد منها الحضارة الإنسانية النور والمعرفة[1].

والحقيقة أن ابن الهيثم لم يكن وحده في هذه الحلبة، فقد أتى من بعده علماء مسلمون أفذاذ اقتفوا أثره وساروا على دربه، بل وقدموه للعالم بعد أن لم يكن قد لمع نجمه!!

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص١٢٢.

علم الضوء بعد ابن الهيثم:

كان **البيروني** (٣٦٢ - ٤٤١هـ) ثالث ثلاثة - بعد **ابن سينا** و**ابن الهيثم** - ازدهرت بهم الحضارة العربية الإسلامية في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ويذهب بعض مؤرخي العلوم مثل الألماني **إدوارد سخاو** (ت ١٣٤٨هـ- ١٩٣٠م) إلى أنَّ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ[١].

ومثل **ابن الهيثم** وغيره الكثير من العلماء المسلمين الذين اتصفوا بأنهم موسوعيون، فإن البيروني يكاد يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة[٢]، وفي مجال الطبيعيات اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد، وتناول في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وغيرها، وتناولت أبحاثه أيضًا علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته.

وفيما يختص بسريان **الضوء** فقد فطن **البيروني** إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت[٣]، واتفق مع **ابن الهيثم** و**ابن سينا** في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس[٤]، كما يقرِّر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء.

أما الرجل الثاني في موضوعنا هذا فهو كمال الدين أبو الحسن الفارسي، وهو رياضي وعالم فيزياء، ولد بمدينة شيراز في بيت اشتهر بالعلم، وتلقى مبادئ علم الطب عن أبيه، وتتلمذ على يد العالم قطب الدين الشيرازي أشهر علماء المسلمين في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وصار كمال الدين الفارسي يسترشد بقطب الدين الشيرازي في دراسته، ويعرض عليه

---

(١) المجلد التذكاري للبيروني ص٢٨٢، طبع بكلكتا- الهند ١٩٥١.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١١٤،١١٥.

(٣) حسن نافعة، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام ٢/ ١٩٣.

(٤) قدري طوقان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٣.

ما يواجهه من مشاكل علمية، واتصل بالعالم نصير الدين الطوسي الفلكي الرياضي المشهور.

وقد عُني كمال الدين الفارسي بالرياضة، وبدراسة علم الضوء، وكان يُسمى في ذلك العصر بـ «علم المناظر»، وانصرفت عنايته بصفة خاصة إلى ما يتعلق بكيفية إدراك صور المبصَرات بالانعطاف، ولم يجد في كتاب إقليدس في المناظر، ولا في كتب الفلاسفة بغيته في موضوع الانعطاف، فذهب إلى أستاذه نصير الدين الطوسي يسأله عن رأيه في هذا الموضوع[1].

أرشد نصير الدين الطوسي تلميذه كمال الدين الفارسي إلى كتاب «المناظر» للعالم **ابن الهيثم** وهو في مجلدين كان قد رآه بخزائن الكتب بفارس، وأعطاه نسخة من هذا الكتاب بخط **ابن الهيثم** نفسه، فاهتم به ودرسه جيدًا، وكان كمال الدين الفارسي قد وجد قبل حصوله على هذا الكتاب أقوالاً في الانعطاف تدل على جهل بهذه الظاهرة، وكانت هذه الأقوال ما زالت تتردد في بعض كتب الحكمة، وكان قد مضى على بحوث **ابن الهيثم** وبحوثه في الضوء والانعطاف ما يقرب من ثلاثمائة عام، ولم تكن بحوث **ابن الهيثم** قد عَمَّ تداولها في الأوساط العلمية بالعالم الإسلامي في القرون الثلاثة التالية له بسبب ظروف الفتن الداخلية ومحنة التتار والحروب الصليبية.

وكان من أهم إنجازات كمال الدين الفارسي دراسته لكيفية انعكاس الضوء والإبصار في كرة مشفة واحدة، وفي كرتين مشفتين، وقد أوضح كمال الدين الفارسي بعض مظاهر الخداع البصري، حين صبغ وجه حجر الطاحون بعدة ألوان وأداره بسرعة فوجد أنه لا يظهر إلا لون واحد لامتزاج الألوان، وبذلك يكون قد سبق أسطوانة نيوتن (١٦٤٢ -١٧٢٧م) بعدة قرون.

وقد طوَّر كمال الدين الفارسي نظرية قوس قزح، ووضع لها الشكل النهائي في التراث العربي العلمي ليعلِّل فيها أمرين، الأول: الهيئة التي يظهر عليها قوس قزح في السماء كقوس أو كقوسين متحدي المركز، والثاني: الألوان وترتيبها في كل من القوسين، وقد أضاف الفارسي بنظريته إضافة علمية جديدة لعلم الضوء لم يسبقه إليها ابن الهيثم وسبق بنظريته هذه بحوث ديكارت ونيوتن عن قوس قزح، واستطاع كمال الدين التوصل إلى تفسير جديد لظاهرة قوسي قزح مداها أن قوس قزح الأول ناتج عن انكسارين للضوء وانعكاس واحد، وأن القوس الثاني ناتج عن انكسارين وانعكاسين وبرهن على تحديد انكسار ضوء الشمس خلال قطرات المطر، وهو الانكسار الذي

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ١٤٠، ١٤١.

يحدث ظاهرة قوس قزح عن طريق تمرير شعاع من خلال كرة زجاجية.

وكمال الدين الفارسي هو أول مَن تكلم عن نظرية الضوء الموجية، وله اهتمامات ببعض الظواهر الفلكية مثل: الشفق، والسمت، ودائرة البروج.

ومن أهم مصنفات كمال الدين الفارسي: تنقيح المناظر لذوي الإبصار والبصائر، والهالة وقوس قزح، ومقال: رسالة في أمر الشفق، وله في الرياضيات كتب: أساس القواعد في أصول الفوائد، وهو شرح لكتاب ابن الخوام البغدادي المسمى: الفوائد البهية في القواعد الحسابية، وله كتاب: تذكرة الأحباب في بيان المتحاب وهو في الأعداد المتحابة.

«المناظر».. وعلماء الغرب:

ذكرنا سابقًا أن كمال الدين الفارسي هو الذي عُني ببحوث ابن الهيثم في البصريات ودرسها دراسة وافية، وكان قد ألف في ذلك كتابه المعروف «تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر»، وعن طريق هذا الكتاب عرفت أوروبا الكثير عن ابن الهيثم وأعماله وجهوده في علم الضوء بعد أن لم تكن قد ذاعت بعد؛ حيث نشر هذا الكتاب مترجمًا في مدينة بال بسويسرا سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢)، وإن كان قد سبق نشره قبل اختراع الطباعة من قبل «جيرار دي كريمونا» أشهر المترجمين في إسبانيا، الذي اهتم بإنشاء أضخم مجموعة فلكية سنة (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) عن العلماء العرب، وهذه الكتب استفادت منها إسبانيا والبرتغال في رحلاتها البحرية في المحيط الأطلنطي بفضل الأزياج الفلكية (الجداول الفلكية) والمعلومات الرياضية التي خلفها العلماء العرب.

وعن طريق هذه الترجمات لأعمال ابن الهيثم تأثَّر روجر بيكون وجون بيكام وفيتلو في بحوثهم، فكتاب جون بيكام الموسوم بالمنظور ليس إلا اقتباسًا ناقصًا من كتاب ابن الهيثم في البصريات، وأما كتاب فيتلو الذي ألفه سنة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) فمأخوذ في قسم كبير منه عن ابن الهيثم، ولا يتجاوز النتائج التي وصل إليها.

وكان كتاب «المناظر» معينًا للعديد من العلماء الحقيقيين وغيرهم، فقبل أكثر من خمسة قرون ترجم الإيطالي جيرادي كيرمونا هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وما زالت مكتبة الفاتيكان تحتفظ بنسخة من تلك الترجمة حتى الآن، وتلقف علماء الغرب كتاب «المناظر» ليستفيدوا منه في علوم

الضوء والرياضيات، ولينسب البعض إلى أنفسهم بعض الآراء التي جاءت فيه.

ومن بين من نسب لنفسه بعض ما جاء في الكتاب في القرن السابع عشر الميلادي الألماني «كبلر»، كما أن عالم البصريات فيتلو البولوني في كتابه «الذخيرة» نسب لنفسه الكثير مما قاله ابن الهيثم؛ مما حدا بالعالم دي لابورتا أن يقول: «لقد أخطأ فيتلو فيما نقله عن الهازن (ابن الهيثم كما يطلق عليه الأوروبيون) وكان كالقرد المقلد، ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجعًا لأهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى»(١).

لقد سبق ابن الهيثم كلاً من فيتلو وكبلر في وضع أساس علم البصريات ورغم ذلك ما زلنا نشير إلى كليهما على أنهما واضعا أساس علم البصريات في كتبنا!!

ومهما يكن من أمر، فقد حاز ابن الهيثم إعجاب كثير من المنصفين الغربيين، حتى وصفه جورج سارتون - وهو من كبار مؤرخي العلم - بقوله: «هو أعظم عالم فيزيائي مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور»(٢).

ووصفه أرنولد في كتاب « تراث الإسلام» يقول عنه: «إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم»(٣).

وقد سحرت بحوث ابن الهيثم في الضوء «ماكس مايرهوف» وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول: «إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات»(٤).

أما دائرة المعارف البريطانية فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

وتقول زيغريد هونكه الألمانية: «كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر معلمي العرب في بلاد الغرب أثرًا وتأثيرًا..».

وتقول أيضًا: «لقد كان تأثير هذا العربي (ابن الهيثم) النابغة على بلاد الغرب عظيم

---

(١) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية ١/ ٣ نقلاً عن تعليق هيئة تحرير
JOURNAK OF AMERICAN ORIENTAL SOCIETY VOL IV P.1859.

(٢) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.

(٣) أرنولد: تراث الإسلام.

(٤) قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٧.

الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه، فعلى أساس كتاب المناظر **لابن الهيثم** نشأ كل ما يتعلق بالبصريات ابتداء من الإنكليزي (**روجر بيكون**) حتى الألماني (**فيتلو**)، وأما **ليوناردو دافنشي** الإيطالي مخترع آلة (التصوير الثقب) أو الآلة المعتمة ومخترع المضخة والمخرط وأول طائرة - ادعاءً - فقد كان متأثرًا تأثيرًا مباشرًا بالعرب، وأوحت إليه آثار **ابن الهيثم** أفكارًا كثيرة، وعندما قام (**كبلر**) في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تمكن (جاليليو) بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير كان ظل **ابن الهيثم** الكبير يجثم خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حلها **ابن الهيثم** بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة مبرهنًا بهذا عن تضلعه البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المحرقة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تسمى «بالمسألة الهيثمية» نسبة إلى **ابن الهيثم** نفسه»[(١)].

ويقول د. **تشالرز جروسي** (متخصص في فسيولوجيا الأعصاب والجوانب العصبية والنفسية للإبصار) بعد دراسة قيمة في كتاب المناظر: «والخلاصة الأساسية التي يمكننا الخروج بها هي أن هذا الرجل المرموق يستحق منا دراسة أعمق، فمع أن العمل الفريد الذي قام به **ابن الهيثم** في دمج الفيزياء والرياضيات ووظائف الأعضاء في نظرية جديدة عن الإبصار قد احتل مكانة تاريخية، إلا أن نظرياته عن سيكولوجية الإدراك وآثارها ستظل مجالاً خصبًا ومهمًا للبحث والدراسة»[(٢)].

وأخيرا كانت هذه الحقيقة.. يقول العالم الرياضي الفرنسي «**شارل أبرنون** »(١٨٨٠م): «إن بحوث **ابن الهيثم** في ميدان المناظر تُعَدُّ أصل معارفنا في علم الضوء»[(٣)].

***

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٥٠.

(٢) تشالرز جروسي: آراء ابن الهيثم في العين والمخ واستيعابها، موقع ويكيبيديا الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%8A%D9%88%D9%86..

(٣) موقع مهارات النجاح الرابط
http://www.sst5.com/inde.php?lang=0&CODE=02&id=.1455.

الفصل السادس

آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية

١ - شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز

«كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة (الإسلام هو المدنية)»[١].

٢ - شهادة العلامة بريفولت

«ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثِّرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدَّموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدين بوجوده ذاته... ولم يكن بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يَملَّ قطّ من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق[٢].. ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًّا من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوّة العالمية»[٣].

٣- شهادة المفكر ليوبولد فايس

«لسنا نبالغ إذا قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشَّن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[٤].

«نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحَسْبُ

---

(١) عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص٨٤.

(٢) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧١٠ نقلاً عن رويلت بريفولت: بناء الإنسانية.

(٣) أنور الجندي: أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال ص١٦.

(٤) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص٤٠.

المسلمين أنهم كانوا مثالاً للكمال البشري، بينما كنّا مثالاً للهمجية»[1]

٤ - شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس

«أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قُطِعَت يدُه ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي».

«حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مائتي سنة، وعمق ذلك التقدم- أمرًا يدعو إلى الذهول حقًّا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحوٍ من ألفٍ وخمسمائة سنة لكي تُنشِئ ما يمكن أن يُدعَى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولِّ كلٌّ من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًا على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية»[2].

٥ - شهادة المسيو سيديو

«لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوروبا من تحجُّر العقل، وشلِّ التفكير، وجدب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرِقوا أحياءً! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دينٌ بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام»[3].

«لقد دِيسَت بالأقدام تلك المدنيةُ العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يومًا للحياة»[4].

٦ - شهادة العلاّمة جورج سارتون

«المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالةً وعمقًا، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراءٍ

(١) عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص٨٤.
(٢) روم لاندو: الإسلام والعرب ص٩، ٢٤٦.
(٣) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨٣.
(٤) محمد الغزالي: ظلام من الغرب ص١٤٠.

لغة العلم للجنس البشري»[1].

٧- شهادة الدكتورة لويجي رينالدي

«لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا؛ لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم»[2].

٨- شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين

«أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجودًا بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل»[3].

٩- شهادة آلبر شامدرور

«لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلاً، والعلم مرشدًا واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مائة عام أيضًا، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه، وآثار مجده وفخاره»[4].

١٠- شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسلر

«في غضون خمسمائة سنة ما بين ٧٠٠ و ١٢٠٠م ساد الإسلام على العالم بقوة حضارته وعلمه .. فكان المقاتل العربي في القرن الحادي عشر مزودًا بالقوس والقذافة قبل الغربيين بمائتي عام وكانت القذافة تستعمل لغرضين فهي لم تكن تسمح بإطلاق عدة أسهم فحسب، بل كانت قادرة على قذفها لمسافة بعيدة ، ومنها ما كان يطلق من على منصات إطلاق ثقيلة . ثم كان العرب أول من صنع البارود بعد ذلك بنصف قرن»[5].

١١- شهادة رينان

«ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديد؟ إن فترات

---

(١) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١١٠،١١١.

(٢) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٧/ ١٤١.

(٣) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٩.

(٤) استيفن هو كينج: مبادئ السياسة العالمية ص٢٥، نقلاً عن حمراء غرناطة لآلبر شامدرور.

(٥) جاك رسلر: كتاب الحضارة العربية.

الازدهار والانحدار مرَّت على جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة»[1].

١٢ - شهادة غوستاف لوبون

«إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًّا سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه... إن أوروبا مَدينة للعرب بحضارتها... وإن العرب هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين... فهم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً...»[2].

١٣ - شهادة جلين ليونارد

«يجب أن تكون حالة أوروبا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكرٍ أبديٍّ بدلاً من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوروبا لم تعترف إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم، بالدَّيْن العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت المجتمع الأوروبي وحفظته من الانحطاط، ولم نعترف - ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية - بأنه لولا التهذيب الإسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل»[3].

١٤ - شهادة كارادي فو

«إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق (للتحرُّر) من أحابيل البربرية وأغلالها،

(١) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٨/ ١٧٣.

(٢) انظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٦،٢٧٦،٤٣٠،٥٦٦.

(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص٨٢.

ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا، كانت مراكش والشرق الأوسط محطَّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق»[1].

١٥ - شهادة زيغريد هونكه

«إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لَفَريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟ إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفكِّكة شعبًا عظيمًا، آخت بينه العقيدة، وبهذا الروح القوي الفتي شقَّ العربُ طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه!! أوَليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟! والواقع أن روجر بيكون أو جاليليو أو دافنشي ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي .. إنما السبّاقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجئوا في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدَّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهَّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم. وإنَّ كل مستشفى، وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكاري للعبقرية العربية.

وقد بقي الطب الغربي قرونًا عديدةً نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تختفِ من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلَّت محفوظة يسرق منها السارقون ما أحبُّوا أن يسرقوا»[2].

١٦ - شهادة بلسنر

«لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر».

«لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب،

(١) كاردادي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» ص٥٦٤.

(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ١٤٨، ٢٦٩، ٣١٥، ٣٥٤.

فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التي عمت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة، وأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدَّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم..»[1].

١٧ - شهادة يبدي تومبسون

«إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك. ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كانت أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»[2].

١٨ - شهادة أوسلر

«إن ابن سينا مكّن علماء الغرب من الشروع في الثورة العلمية، التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر»[3].

١٩ - شهادة جوان فرينيه

«وإذا نحن تحرَّينا الدقة نجد أن أصول التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المعقَّدة في تقسيم الميراث، ويُعَدُّ الخوارزمي أول رياضي مسلم، ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما ندين له باللفظ الإسباني «غوارزمي» الذي يعني الترقيم (أي الأعداد ومنازلها والصفر)، وكان الجبر هو الميدان الثاني الذي عمل فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعًا لأية دراسة منهجية جادة»[4].

(١) بلسنر: العلوم الطبيعية والطب دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف «شاخت» و«بوزورث» ص٧٩، ٨١.

(2) Yhompsonj\J\W\The Medioval Library N.Y. Hafner Piblishing Company 1967 P263.

(٣) شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية ص١٢٣.

(٤) جوان فرينيه: الرياضيات والفلك والبصريات دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف «شاخت» و«بوزورث» القسم الثالث ص١٦٨.

٢٠- شهادة براند تراند جون

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنيةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراحٍ أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة»[١].

٢١- شهادة دوبير

«ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض؛ فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى، وقرَّب إليه العلماء، وبالَغ في الحفاوة بهم. وقد كانت جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يَغْدون على بلاد المسلمين ليُعالَجوا فيها»[٢].

٢٢- شهادة نيكلسون

«وما المكتَشَفات اليوم لَتُحسَب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون به للرُّوّاد العرب الذين كانوا مشعلاً وضّاءً في القرون الوسطى ولا سيما في أوروبا»[٣].

٢٣- شهادة وايدمان

«إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدًا، وطبَّقوها على حالات كثيرة ومختلفة، ثم أنشئوا من ذلك نظريات جديدة وبحوث مبتكرة، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدماتٍ لا تقلُّ عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن، وفراداي، ورُنتجن»[٤].

٢٤- شهادة كمستون

«إنَّه لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ، لكفاهم خدمة وفخرًا. لقد رفع

---

(١) براند تراند جون: إسبانيا والبرتغال دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» ص٢٧.

(٢) دوبير: المنازعة بين العلم.

(٣) قدري طوقان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص٦.

(٤) المصدر السابق نفسه ص١٠.

العرب شأن الطب ولهم الفضل في جعل الجراحة قسمًا منفصلاً عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها، وفي الترخيص الشرعي لممارسة الطب»[1].

٢٥- الباحث الألماني الدكتور بير بورمان

«إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليّة في كل شئون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان (الطب الإسلامي في القرون الوسطى)». وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة «**إيميلي سافاج سميث**» على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى»، وأضاف: «إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحًا إسلاميًّا كبيرًا مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»[2].

٢٦- شهادة ي. هل

«من تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتّماس، ولم يكن في استطاعة بيورباخ ورجيوناس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب وما أسهموا به في ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبُّوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوادسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدم العرب هذا العلم أيضًا في تصميم مجاري المياه»[3].

---

(١) قدري طوقان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص١٢.

(٢) حوار له بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧.

(٣) ي. هل: الحضارة العربية ص١٠٨، تعريب الدكتور إبراهيم العدوي.

٢٧- شهادة جوستاف إ. فون جرونيباوم

«كان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقًّا، حتى لقد كتب رسالة موضوعها «أن مهرة الأطباء أنفسهم لا يستطيعون شفاء جميع الأمراض»[١].

٢٨- شهادة مايرهوف

«كان تفوق المسلمين العلمي والمادي في الشطر الأعظم من العصر الوسيط معترَفًا به غير منكور إلى حدٍّ بعيد. ثم يتناقص ذلك التفوق قرب نهاية ذلك العصر بدخول الشرق في دور الركود الذهني والاضمحلال الاقتصادي، على حين تنهض أوروبا وتتماسك وقد نبهها إلى حد كبير اطِّراد إلمامها بالعلوم الإسلامية»[٢].

٢٩- شهادة تشرش

«يعود الفضل للعرب إذ إنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقرباذينات[٣]، ويغلب على الظن أنه لولا العرب لما وصل الطب الأوروبي إلى ما هو عليه الآن»[٤].

٣٠- شهادة تومبسون

«إنَّ انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثُّر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلَّفات المسلمين في حقل العلوم، ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك.. إنَّ ولادة العلم في الغرب، ربما كان أمجد قسم، وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»[٥].

٣١- شهادة ماكس فانتيجو

«كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوروبا، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوروبيين بالعالم الإسلامي

---

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام ص٤٢٤، ترجمة عبد العزيز توفيق.

(٢) انظر تراث الإسلام ص٣٥٣.

(٣) الأقراباذين: فارسية تعني فن تركيب الدواء.

(٤) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٨٨.

(5) Thompson the mediaeval n. y. hafner piblishing combany page263.

عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»[1].

٣٢- شهادة الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو»

«إنهم - الغرب - آباء العلم الحديث وإنَّ بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية فيما عدا قرطبة عاصمة إسبانيا العربية «الأندلس»، وإنه كان لا بُدَّ من وجود ابن الهيثم والحسن والكِندي وابن سينا والخوارزمي والبيروني لكي يظهر عند الغرب «جاليليو، وكبلر، وكوبرنيق، ونيوتن»[2].

٣٣- شهادة الأمير البريطاني تشارلز

«إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة»[3].

٣٤- شهادة الموسوعة البريطانية

«والحق أن كثيرًا من أسماء الأدوية وكثيرًا من مركباتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة - فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال - قد بدأه العرب»[4].

٣٥- شهادة البروفسور هوكينج

«إن الشغف بالعلم والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها العرب، وهي التي تمد عبقريتهم بالقوة المبدعة الخلاقة، يعشقون الحرية ويتطلعون دومًا إلى المثل العليا بدون تعصب ولا تزمت، ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدَّرت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة والشجاعة الفكرية الخابية سوف تنطلق من عقالها، وتتحرر من أسرها ليعودوا سريعًا لاحتلال مكانتهم على الأرض»، ويضيف: «والدليل على قولي هو ما كان من انطلاق العرب في نهضتهم الأولى وما تركوا للأجيال من

---

(١) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام ١٩٥٣م. انظر شوقي أبو خليل، هاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوروبية ص١٢٥.

(٢) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم.

(٣) محاضرة «الإسلام والغرب» والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣.

(٤) الموسوعة البريطانية ١٨/ ٤٦ الطبعة الحادية عشرة.

تراث علمي، وآثار خالدة، وهذا ما يزعمون فعله في العصر الحاضر..»[(١)].

٣٦- شهادة الدكتور كمبل

«إن أوروبا كانت من عصر شارلمان حتى تأسيس مدرسة (سالرنو) الطبية (العرب هم الذين أسسوها)، قد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط، وإن شعوبها لم تكن لتقارن بالهمج الأسطوريين الذين عاشوا في أدنى حدود المدنية، وأنها كانت كلها حتى الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢٧٢م) باستثناء إسبانيا وإيطاليا (وكانتا تحت النفوذ العربي الإسلامي) في حالة همجية تامة»[(٢)].

٣٧- شهادة أندرو ديكسون وايت

«إن املة المجانين في العالم الإسلامي منذ عصر عمر وما بعده كانت أرحم بكثير من الوضع الذي ساد طول العالم المسيحي وعرضه مدة ثمانيةَ عشرَ قرنًا من الزمان، كان المجانين يُعتَبَرون خلالها ممسو ين تقمصتهم الشياطين، ومن ثمَّةَ تعرَّضوا لأقصى ضروب التنكيل والوحشية».

ويقول أيضًا: «إن الراهب جون هوارد لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرُّهبان والرَّحالة الأوروبيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفَّروا كثيرًا من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرَ هؤلاء لها مثيلاً في أراضي أوروبا المسيحية. والحق أن المسلمين هم الذين نبهوا إلى ضرورة بذل الجهود التي بدأت في أوروبا ابتداء من القرن الثامن عشر لمعاملة المجانين معاملة رحيمة»[(٣)].

٣٨- شهادة سميث

«إن البيروني كان ألمع أهل زمانه في الرياضيات، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم»[(٤)].

---

(١) استيفن هو كينج: مبادئ السياسة العالمية ص ٢٥.

(2) D. Campbell: ARABIAN Medicine Vol 1/107,108.

(٣) انظر:

A. D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol.123/11.

(٤) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٣١١، نقلاً عن سميث: تاريخ الرياضيات الجزء الأول.

٣٩- شهادة سنجر

«نستطيع أن نستبين بوضوح الحالة الراهنة في ذلك العصر بأن نستجمع الصورة الحقيقية من وثائق مختلفة، تدل على أن طالب العلم الأوروبي، المشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة»(١).

٤٠- شهادة جون هرمان راندال

«وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية، وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزًا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي»(٢).

***

(١) Ch. Singer: Medieval Contribution to modern Civlization P.124.

(٢) جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث ١/ ٣٣١.

الباب الثاني: صناعة العلمـــــاء

قد يبدو غريبًا عنوان هذا الباب، وقد يبدو أشد غرابةً عند من يتواضع كثيرًا فيجعل همَّه وطموحه فقط أن يصبح طالب علم، أو - كما يقول بعضهم - «طُويلب علم»..!!

ولا شك أن مثل هذه الهمة هي همة قاصرة، وهي همة تعجز في أن تلحق - بالمرة - بركب العلماء.. وأولى بصاحبها وأجدر أن يقف مع نفسه وقفة أخرى، يجدد العزم، ويعقد العهد قبل أن تتفلت من يده الأيام، ويندم ولات حين مناص!

يقول المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ ... فلا تقْنعْ بما دُون النُّجومِ
فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

لذا لا يصلح لك إلا أن تكون عالمًا.. وليس فقط من طلاب العلم..

ولا شك أن ذلك يتطلب نوعًا خاصًا من الإعداد.. فيتطلب خطة بعينها، ويتطلب حياة خاصة، وأيضًا حالة نفسية معينة.. أو قل: يتطلب ذلك منهجًا في الحياة جديدًا، فتصبح لك طريقة تفكير خاصة، وطريقة ترتيب وقت تناسب هذه الحياة الخاصة، بل وطريقة نوم وأكل مختلفة عن بقية الناس.. إنها حياة إنسان يُربَّى ليُغيِّر لا ليتغير، ويؤثِّر لا ليتأثر.. إنها حياة مختلفة حقًّا!!

ومثل هذه الحياة الجديدة.. نقف على أبعادها وأطوارها، من خلال هذا الباب في فصوله الخمسة التالية.

الفصل الأول: منزلة العلماء.

الفصل الثاني: جهاد العلماء.

الفصل الثالث: أوقات العلماء.

الفصل الرابع: أخلاق العلماء.

الفصل الخامس: تنشئة العلماء.

الفصل الأول

مَنْزِلَةُ الْعُلَمَــــاءِ

تُثمَّن الأشياء وتُقدَّر بحسب قيمتها، ومن ثم تكون الأولويات في تحصيلها.. ولولا ذلك لاختلط الغث بالسمين والحابل بالنابل، وما عُرف طعمٌ للحياة..

وقد علمنا في الباب الأول قيمة العلم في الميزان الإسلامي، وعرفنا أهميته، وكيف أن حياة الناس لا تستقيم إلا به، وكيف كان صفةً لازمةً للأنبياء عليهم السلام..

وكان من رحمة الله ﷻ أنه لم يرفع العلم بذهاب الأنبياء، وإنما جعل الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يورِّثُوا علمهم هذا قبل أن يموتوا إلى طائفة معينة من البشر، أوكل إليها مهمة تعليم الناس، والقيام بالدور الذي كان يقوم به الأنبياء في حياتهم.. ولكن دون وحيٍ ودونما عصمة..

وهذه الطائفة من البشر هي «**العلماء**»..

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إلى الجنةِ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الماءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(1).

ففي نهاية هذا الحديث وضح رسولنا الكريم ﷺ أن الأنبياء لم يتركوا خلفهم مالاً ولا مُلكًا، وإنما تركوا العلم وهذه هي أعظم تركة ومن أخذها فقد فاز حقًّا.. يقول الله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٦٣)، والدارمي (٣٤٢)، وابن حبان (٨٨)، وقال الألباني: صحيح (٦٢٩٧) صحيح الجامع.

وفضلاً عن ذلك فالحديث يبين فضل العلم ومنزلة العلماء؛ فالملائكة تضع أجنحتها لمن يبدءون طريق العلم؛ تواضعًا وتعظيمًا وتكريمًا وتبجيلاً لهم.. وكفى بذلك شرفًا ومنزلة..!!

ويخص رسول الله ﷺ طائفة العلماء - وليس طلاب العلم - بمزية خاصة، وهي أنه يستغفر لهم من في السماوات ومن في الأرض، بل يصل الأمر إلى أن تستغفر له الحيوانات أيضًا، بل حتى تلك التي تسبح في جوف الماء..!!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط، بل إنه ﷺ يُفضِّل ذلك العالِم ويرفع منزلته ومكانته على العابد لله ﷻ!! وقد جعل المقارنة بينهما في ذلك تمامًا كما يكون القمر ليلة البدر - كما ورد ذلك في رواية أخرى - مع غيره من النجوم، وذلك في إشارة إلى أن نور القمر يحجب نور الكواكب الأخرى ويُغطِّي عليها، مهما كثُر نورها بكثرة أعدادها..!!

ألا ترى أن الأمر جد عظيم..؟!

ومع كون هذه المقارنة عظيمة في حق العلماء، إلا أن هناك مقارنة أعظم منها، ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهليِّ ؓ قال: «ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَابِدٌ، وَالْآخَرُ: عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحوت لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخيْرَ**»[1].

ففي هذا الحديث الشريف يُقارن رسول الله ﷺ بين العالم والعابد، فيشبه ذلك بالفارق بين منزلة الرسول ﷺ ومنزلة أقل المسلمين، أي أن الفجوة التي بينه ﷺ وبين أدنى المسلمين، تشبه تلك التي بين العالم والعابد..!!

وفي ذلك من الفضل والشرف والمنزلة الرفيعة العالية ما فيه..

فلم يقارن ﷺ بين نفسه وبين أحد العظماء - مثلاً - في الإسلام، رغم أن مثل هذه المقارنة هي عظيمة أيضًا؛ إذ البون شاسع بين رسول الله ﷺ وبين أي إنسان آخر ولكن لعظم المفارقة هنا وبيان الفضل، فهو يقارن بين نفسه ﷺ وبين أدنى المسلمين..!!

ولعل البعض قد يستغرب من كون هذه المنزلة العالية للعالم إنما هي فوق منزلة العابد..

---

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥)، وقال الألباني: صحيح (٤٢١٣) صحيح الجامع.

ولعل هذا العجب يزول إذا علمت أن العابد الذي يعبد الله على غير علم يَضل ويُضل.. وقد كان كفار مكة أنفسهم يعترفون لله بالعبودية ولكنها عبودية على غير علم، فكان أن كفروا وضلوا، يقول تعالى يصف حالهم وهم يتحدثون عن الأصنام: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

كما أن العابد إذا كانت عبادته لله على ظنٍّ فاسدٍ، فإن عبادته هذه لا تُقبل، ويكون بذلك من الخاسرين.. قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

ويروي الدارمي أن **عمر بن عبد العزيز** ﷺ كتب إلى أهل المدينة: «إنه من تعبد بغير علمٍ، كان ما يُفسد أكثر مما يصلح»[(١)].

بل إن من الفقهاء في الإسلام من رفع درجة العلماء فوق درجة المجاهدين في سبيل الله وليس فقط العُبَّاد!! يقول الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** ﷺ، وهو من علماء الصحابة الأفذاذ: «والذي نفسي بيده، ليودَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء؛ لما يرون من كرامتهم»[(٢)] أي من كرامة العلماء.

ويقول العلامة التابعي **الحسن البصري** – رحمه الله–: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء!!»[(٣)].

وإن كان البعض قد يستغرب هذا الكلام، إلا أن حجته قوية..

فالجهاد لا يُعرف فضله أساسًا إلا بالعلم، وعليه فلن يجاهد إلا من «علم» قيمة الجهاد ودرجة المجاهد، كما لن تُعرف شروط الجهاد ومشروعيته إلا بالعلم، ولن يُعرف فرض العين من فرض الكفاية فيه إلا بالعلم.. ومن ثم فقد يترك «من لا يعلم» فرضًا ويقيم نافلة، وهذا لا يجوز كما أنه قد يتعدى في جهاده الحدود المشروعة، أو يقاتل من لا يجوز قتاله.. وهذا كله لا يجوز.

(١) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤٩.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٨.

(٣) المصدر السابق.

وهكذا، فالعلم هو الذي يحدد مشروعية الجهاد وحدوده.. وبغير العلماء الصادقين لن يوجد مجاهدون على حق..

بل قد يأثم المسلم بجهاده بغير علم!!

وما فتنة الخوارج بخافية على أحد..

فالخوارج كانوا يعبدون الله ﷻ ويقيمون الفرائض ويجاهدون في سبيل الله.. وذلك كله على غير هدى من الله ولا علم، فكان أن خرجوا من الدين بالكلية، بينما هم يحسبون أنفسهم على أفضل درجات العبادة والجهاد..!!

ولما همَّ **عمر بن الخطاب** ﷺ أن يقتل أحدهم - كما يروي أبو سعيد الخدري ﷺ - قال له رسول الله ﷺ قال: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(1)..

فكانت آفتهم الرئيسية أنهم اجتهدوا بغير علم، فأدى بهم ذلك إلى أن يجاهدوا على باطل.. حتى كان أحد زعمائهم، وهو **عبد الرحمن بن ملجم** كان يظن تمام الظن أنه تقرب إلى الله ﷻ بقتل أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وزوج بنت رسول الله ﷺ، والمبشر بالجنة مرارًا، **عليّ بن أبي طالب** ﷺ!!

وكان هذا اعتقادًا راسخًا عند كل الخوارج، حتى إنك لتجد **عمران بن قحطان** (أحد شعراء الخوارج المتأخرين) يقول واصفًا هذه الطعنة اللئيمة التي قُتل بها **علي بن أبي طالب** ﷺ:

يا ضربةً مـن تقـيٍّ مـا أراد بهـا ... إلا ليبلُغ من ذي العرش رِضـوانًا
إنـي لأذكـره حينًـا فأحسـبه ... أوْفَـى البريَّـة عنـد الله ميزانًـا

كل ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ في حقه يوم خيبر - كما يروي سلمة بن الأكوع ﷺ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ قَالَ: يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ**»(2)..

---

(1) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤)، وابن حبان (٦٧٤١)، وعبد الرزاق (١٨٦٤٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٦٤٧٩).

(2) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (٢٨٤٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٢٤٠٦)، وابن حبان (٦٩٣٢).

وحين كان الغد كان هذا الرجل هو علي بن أبي طالب ﷺ..

ولم يقع **عبد الرحمن بن ملجم** (القاتل) في هذه الكارثة إلا بفقد العلم..

يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ولكم عانت الأمة الإسلامية من بعض المتحمسين للدين، المشتاقين للجهاد ولكن بغير علم.. وقد أدى بهم حالهم هذا إلى أن يجتهدوا اجتهادات خاطئة ويحكموا أحكامًا جائرة فكانت النتيجة تكفير المجتمعات المسلمة واستباحة دماء الأبرياء والاستهانة بكل الحرمات والقتل والسفك والظلم والبطش باسم الجهاد والدعوة والتضحية!! والإسلام من ذلك كله براء..

ولأجل ذلك، ومن فقهٍ لمنزلة العلماء وقيمة العلم مقارنة بغيره، يقول **كعب الأحبار** -رحمه الله- موضحًا الحقيقة: «طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله ﷻ»[(١)]..

وهو ما أكده **أبو الدرداء** ﷺ حين قال: «من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه»[(٢)]..

وترى سفيان بن عيينة ﷺ، وهو من التابعين يقول أيضًا: «من طلب العلم فقد بايع الله ﷻ»[(٣)]..

ولذلك فإن الله ﷻ رفع قدر العلماء وعظم قيمتهم.. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد فقه الصحابة والتابعون والصالحون من هذه الأمة الكريمة هذا القدر، فعظموا علماءهم ورفعوا من قدرهم وحفظوا لهم مكانتهم.. ولم يعتبروا في ذلك بعرقٍ ولا نسبٍ ولا جنسٍ ولا عمرٍ ولا منصب.. إنما اعتبروا فقط بالعلم.. فكان **معاذ بن جبل** ﷺ على صِغر سنه معظمًا جدًّا بين الصحابة، حتى إنهم كانوا لا يرفعون أعينهم في عينه حياءً منه وتعظيمًا له ﷺ.. هذا مع أنه مات وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه عُظِّم بالعلم الذي كان يحويه في صدره ﷺ..

---

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء ٥/ ٣٧٧.

(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٧١.

(٣) المصدر السابق ١/ ٧١.

يقول رسولنا الكريم ﷺ في حقه - كما يروي أنس بن مالك ﷺ-: «وَأَعْلَمُهُمْ بالحلالِ والحرامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»[1]..

ومن هنا نستطيع فهم الموقف الذي حكاه لنا **أبو مسلم الخولاني** ﷺ (من التابعين)، وفيه يصور مدى احترام وتعظيم الصحابة **لمعاذ بن جبل** ﷺ مع حداثة سنه..

يقول **أبو مسلم الخولاني**: «أَتَيْتُ مَسْجِدَ أَهْلِ دِمَشْقَ فَإِذَا حَلْقَةٌ فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَى الْفَتَى فَتًى شَابٌّ - وفي رواية أخرى: ولا يصدرون إلا عن رأيه - قَالَ: قُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»[2].

فقد وصف **أبو مسلم** الصحابةَ الذين هم حول **معاذ** ﷺ بأنهم «كهول»، أي شيوخ كبار في السن، ورغم ذلك - وكما جاء في الحديث - فكانوا يرجعون فيما يختلفون فيه وفيما لا يُدركون له حلاً إلى معاذٍ وهو يومئذ فتًى شاب.. ولم يكن ذلك إلا لعلمه وفقهه ﷺ..

وقد جاء في رواية أن هؤلاء الأصحاب كانوا نحوًا من ثلاثين كهلاً من الصحابة[3]!!

ويؤكد معنى تقديم العلماء على غيرهم بصرف النظر عن مناصبهم ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، وهو أن **نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحارث لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ - وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ** - فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: **ابْنَ أَبْزَى**. قَالَ: وَمَنِ **ابْنُ أَبْزَى**؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ موالينا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ **عُمَرُ**: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: **إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[4].

وفي مثل ذلك ما روي أن **زيد بن ثابت** ﷺ صلى على جنازة فقُرِّبت إليه بغلته ليركبها فجاء **ابن عباس** ﷺ فأخذ بركابه، فقال **زيد**: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ.

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٤)، وأحمد (١٤٠٢٢)، وابن حبان (٧١٣٧)، والطيالسي (٢٠٩٦)، وقال الألباني: صحيح (١٢٢٤) السلسلة الصحيحة.

(٢) أحمد (٢٢١١٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح.

(٣) انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠.

(٤) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٧)، أبو القاسم الطبراني: مسند الشاميين (٢٩٩٩).

فقال **ابن عباس**: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبَّل **زيد بن ثابت** ﷺ يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ[1].

فعبد الله بن عباس ﷺ يرفع من قدر **زيد بن ثابت** ﷺ ويوقِّره ويقدِّمه ويمسك له دابته رغم صغر سنه.. وليس ذلك لشيءٍ إلا لعلمه وفقهه، وكان هذا عموم حال الصحابة رضوان الله عليهم وعهدهم مع العلماء..

يقول **علي بن أبي طالب** ﷺ: «إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرًّا، ولا تغتابن أحدًا عنده، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته»[2].

وقال علي ﷺ أيضًا: «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة (أي: ثغرة) لا يسدها إلا خلفٌ منه»[3].

وقال أيضًا منشدًا:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقدر كل امرئٍ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففزْ بعلمٍ تعشْ حيًّا به أبدًا ... الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

بل يذكر **الغزالي** – رحمه الله– في الإحياء أن حق المعلم أعظم من حق الوالدين؛ لأن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، فهو معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[4]..

ثم يقرر **الغزالي** – بعد أن أورد قول **ابن المبارك** حين سُئل: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد – فيقول: «ولم يجعل غير العالم من الناس؛ لأن الخاصية التي

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٣٠، المتقي الهندي: كنز العمال ١٣/ ٣٧٠.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٥١.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٧.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٥٥.

يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم»[1].

ويروي عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف عالمنا**»[2] أي يعرف لعالمنا حقه..

وفي قصة **موسى** عليه السلام مع **الخضر** كان غاية توقير العلماء وإجلالهم، فمع كون **موسى** عليه السلام أعلى قدرًا وأعظم مكانة؛ كونه ليس نبيًّا فقط، بل من أولي العزم من الرسل، إلا أنه قال **للخضر** موقرًا مبجِّلاً: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ**﴾!

فهو يصرح بأنه سيتبع الخضر، وسبب الاتباع هو العلم: ﴿**عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦]، ثم هو يستأذن منه، ويسترضيه ويستسمحه.. لا لشيء إلا للعلم الذي رفع من قدر الخضر وجعل له هيبة واحترامًا وإجلالاً..

ويقول **الزهري** - رحمه الله - (وهو من التابعين العظماء) مقررًا: «كنت آتي باب **عروة بن الزبير** - رحمه الله - (وهو أيضًا من التابعين) فأجلس بالباب ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالاً له»[3]!!

وفي سبيل التربية على ذلك يقول **الحسن بن علي** ﷺ لابنه ناصحًا ومرشدًا: «يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثًا - وإن طال - حتى يُسمِّك».

وعلى هذا ظلت مكانة العلماء محفوظة ومرموقة في الأمة الإسلامية وظل قدرهم مرفوعًا فوق غيرهم من المسلمين..

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول **البخاري** - رحمه الله - ليعلمهم حديث رسول

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٧.

(٢) أحمد (٢٢٨٠٧) واللفظ له، والحاكم (٤٢١)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (١٠١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) سنن الدارمي (٥٦٩).

الله ﷺ، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره!!

يقول **الشافعي** – رحمه الله-:

وإن صغير القوم إن كان عالمًا كبيرٌ إذا ردت إليه المحافل

ولم يكن هذا التقدير من جانب العامة فقط، بل كان أيضًا من قبل الأمراء وأصحاب السلطان، فكانوا ينزلون العلماء منازلهم ويرفعونهم قدرهم، ولذلك عزَّت أمتهم، وسادت غيرها من الأمم..

ففي أحد مواسم الحج جاء أمير المؤمنين **سليمان بن عبد الملك** – رحمه الله- إلى الحج هو واثنان من أبنائه الأمراء، فاحتاجوا إلى إجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالحج، ولم يجدوا لذلك أفضل من العلامة **عطاء بن أبي رباح**[1] – رحمه الله-، فذهبوا إليه وهو يصلي، فانتظروا إلى جواره حتى انتهى من صلاته، فبدءوا يسألونه وهو يجيبهم في وضع الصلاة لا يلتفت إليهم، وهم يقبلون بهذا الوضع لأنهم يحتاجون إلى العلم، وبعد انتهاء الأسئلة انصرفوا، ثم جمع أمير المؤمنين **سليمان بن عبد الملك** – رحمه الله- ولديه وقال لهما: «يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود»[2]!!

وكان **عطاء بن أبي رباح** – رحمه الله- (من التابعين) عبدًا أسود لامرأة من مكة..!!

وصدق قول الشاعر:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له والجهل يهدم بيت العزِّ والشرفِ

وكان **المأمون** قد وكل **الفراء** يلقن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد **الفراء** أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل **الفراء** يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا فقدماها، فرفع ذلك الخبر إلى المأمون، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين– قال: بل من إذا نهض

(١) نشأ عطاء بن أبي رباح بمكة، وكان عبدًا أسود لامرأة، وكان أنفه كأنه باقلاة، وكان بنو أمية يأمرون في الحاج صائحًا يصيح: لا يُفتِي الناس إلا عطاء بن أبي رباح. ويقول عنه الأوزاعي: ما رأيت أحدا أخشع لله من عطاء، ومات بمكة عام ١١٥ وعمره ٨٨ سنة. صفة الصفوة ٢/ ٢١٢– ٢١٤.

(٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢١٢.

تقاتل على تقديم نعليه وَلِيَّا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها. فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبًا وألزمتك ذنبًا، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبيَّن عن جوهرهما، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم..

وإن جواب المأمون هذا ليعكس نظرة الإسلام والأمة الإسلامية كلها آنذاك إلى العلم والعلماء، وما كانوا عليه رعاة ورعية من العناية والاهتمام والتعظيم والإجلال للعلم وأهله..

فكان العالِم حقًّا أعز الناس، وهذه هي الدرجة والمنزلة التي قررها الصالحون لعلماء الأمة وحفظوها لهم وأنزلوهم إياها.. وقد علموا أنهم مصابيح الدُّجى التي يُهتدى بها، وهو الأمر الذي أورثهم عزًّا ومجدًا وتقدمًا وحضارة ورفعة..!!

فإن أردت - أخي في الله - أن تصبح عالمًا، فلا بد لك أولاً أن تعرف منزلة ما تطلب، ومكانة ما تهفو إليه نفسك؛ فليس في الدنيا أعز ممن ورث الأنبياء، واستغفر له أهل الأرض والسماء!!

***

الفصل الثاني

جِهَـــادُ الْعُلَمَـــاءِ

لما كان العلم أشرف النعم، وأعلى المنازل والرتب.. ولما كان كذلك ميراث الأنبياء، وكان الطريق المؤهل إلى الجنة.. فلابد أن يكون تحصيله بمجهودٍ عظيم، وتضحيةٍ ثمينة؛ وكيف لا والمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يُعبَر إليها إلا على جسرٍ من التعب؟!

وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى أن سلوك طريق الآخرة بصفة عامة صعبٌ، وأن تحصيل الآخرة متعسرٌ لا يحصل إلا بسعي حثيث، فقال - كما روى أبو هريرة ﷺ - : «**أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غالية، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجنةُ**»(١).

وفي هذا السياق روى الإمام مسلم في صحيحه عن يحيى بن أبي كثير ﷺ أنه قال: «لاَ يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»(٢)..

ويقول الإمام النووي في وصفه لطالب العلم: ينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلاً ونهارًا، وسفرًا وحضرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر الضرورة، لأكل ونوم قدرًا لابد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثمَّ فوتها(٣)!!

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٠)، والحاكم (٧٨٥١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٧٧، وقال الألباني: صحيح حديث (٦٢٢٢) صحيح الجامع.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلاة (٦١٢)، والسؤال عن إدخال الإمام مسلم هذه الحكاية عن يحيى مع أنه لا يذكر في كتابه الا أحاديث النبي ﷺ محضة مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة، فكيف أدخلها بينها؟ حكى القاضي عياض رحمه الله عن بعض الأئمة أنه قال: سببه أن مسلما رحمه الله أعجبه حسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمر وكثرة فوائدها وتلخيص مقاصدها وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام وغيرها ولا نعلم أحدا شاركه فيها، فلما رأى ذلك أراد أن ينبه من رغب في تحصيل الرتبة التي ينال بها معرفة مثل هذا، فقال: طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم. هذا شرح ما حكاه القاضي. شرح النووي ٥/ ١١٤.

(٣) النووي: التبيان في آداب حملة القرآن ١/ ١٣.

ويقول ابن القيم- رحمه الله-: وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية[1]..

ويؤكد على ذلك ابن الجوزي فيقول: «تأملت عجبًا، وهو أن كل شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله، فإنَّ العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة..».

وهو الذي قال أيضًا: قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة ولا أقدر على شرائها؛ لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس[2]!!

ولما رأى أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- جهده ومثابرته سأله قائلاً: إلى متى تستمر في طلب العلم، وقد أصبحت إمامًا للمسلمين وعالمًا كبيرًا؟! فقال له: «مع المحبرة إلى المقبرة»[3]!!

ومعنى ذلك أنه سيستمر في طلب العلم إلى أن يموت ويدخل القبر، رغم أنه لم يكن في عصره من هو أحفظ منه لحديث رسول الله ﷺ، حتى إنهم لَقَّبوه: «إمام السنة وفقيه المحدثين».

وهو الذي قال عنه ابن رافع: رأيت أحمد بن حنبل بمكة بعد رجوعه من اليمن وقد تشقَّقت رجلاه وأبلغ إليه التعب، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما أخلقني أن لا أرحل بعدها في حديث. قال: ثم بلغني أنه صار إلى أبي اليمان بعد اليمن، أي إلى حمص[4]!!

وقد خرج الإمام أحمد إلى طرسوس ماشيًا على قدميه لعجزه عن النفقة في السفر..[5]!!

وهو الذي قال: لو كان عندي خمسون درهمًا لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري (كان إمامًا في الرواية)، فخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي..[6]!!

---

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٨.

(٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٢٦٦.

(٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص٣٩٩.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥/ ٢٦٧.

(٥) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ١/ ٤٤٧.

(٦) المصدر السابق ١/ ٤٤٧.

يقول الشافعي - رحمه الله-: «حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه والصبر على كل عارضٍ دون طلبه وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصًا واستنباطًا، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه»[1].

ويقول الإمام ابن هشام النحوي:

ومن يصطبرْ للعلم يظفرْ بنيلِهِ ... ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ

وقال النظَّام: العلم شيءٌ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك؛ فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر[2]..

وصدق حوط بن رئاب الأسدي[3] حين قال:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلُغ المجد حتى تلعق الصبرَا

ولأجل ذلك حرص الفاهمون الصادقون على تحصيل العلم والسعي في طلبه، بصورة قد يتعجب لها الكثيرون ممن لم يدركوا بعد قيمة العلم وثمراته.. بل بصورة تُهوِّن على من يعرفها كلَّ شدة، وتجعلهم يبذلون أنفسهم طواعية في سبيل تحصيله..

وفي ذلك فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ (هو أوس بن خوليّ) فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عوالي المدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليوم مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ..»[4].

أما عبد الله بن عباس ﷺ، فقد قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا فُلاَنُ، هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُمُ اليومَ كَثِيرٌ. فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إليكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَرَى؟! فَتَرَكَ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ،

(١) بدر الدين بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم ص٢٧.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٦/ ٩٧.

(٣) حوط بن رئاب الأسدي، المشتهر بأبي المهوش: شاعر مخضرم، عاش واشتهر في الجاهلية وأدرك الاسلام. شعره قليل متفرق. الأعلام ٢/ ٢٨٩.

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب التناوب في العلم (٨٩)، وابن حبان (٤١٨٧).

فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لاَ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ.

قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ؛ فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي»[1]!!

ولما فُتحت البلاد آثر ابن عباس ظمأ الهواجر في دروب المدينة ومسالكها على الظلال الوارفة في بساتين الشام وسواد العراق من أجل طلب العلم هذا، وقد قال ﷺ: «لما فُتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا وأقبلت على عمر بن الخطاب ﷺ»[2]!!

ولمثله أنشد أبو القاسم الجزي[3]:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد	وإن مرادي صحة وفراغْ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغًا	يكون به لي للجنان بلاغْ
وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى	وحسبي من الدنيا الغرور بلاغْ
فما الفوز إلا في النعيم مؤبَّدٍ	به العيش رغد والشراب يساغْ

ثم يخبر ﷺ عن دأبه في طلب العلم فيقول: «كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقيل عند بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يُوقَظ لي لمكاني من رسول الله ﷺ، لكنني أكره أن أُمِلَّه»!!

ويزيد وضوحًا فيقول: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا إلا سُرَّ بإتياني، لقربي من رسول الله ﷺ، فجعلت أسأل أُبيَّ بن كعب ﷺ وكان من الراسخين في العلم، عما نزل بالقرآن في المدينة، فقال: نزل بها سبعٌ وعشرون سورة، وسائرها بمكة»[4].

وقد قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟!

---

(١) الدارمي: باب الرحلة في طلب العلم (٥٧٠)، والحاكم (٣٦٣) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: مسند البزار ١/ ٣١١.

(٣) هو محمد بن أحمد بن يوسف بن جزي، الكلبي، أبو القاسم، من أهل غرناطة، وذوي الأصالة والنباهة فيها، ولد سنة ٦٩٣، ومات وهو يحرض الناس يوم الكائنة بطريف سنة ٧٤١ هـ. انظر نفح الطيب ٥/ ٥١٤ – ٤١٦ والأبيات أيضًا في هذا المصدر.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧١.

فردَّ عليهم وقال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب[1]!!

ولننظر إلى **الشافعي** - رحمه الله- كيف يتحدث عن نفسه في طلب العلم حين يقول: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ (**لمالك رحمه الله**) وأنا ابن عشر سنين»[2]..!!

وقد تكون هذه طفولة صعبة بالنسبة للكثيرين، لكنها في النهاية أنتجت وولدت رجلاً مثل **الشافعي**، الذي نفع الله ﷻ بعلمه الأمة، ليس في زمانه فقط، ولكن فيما تلا ذلك من أزمان أيضًا..

يقول **الشافعي** - رحمه الله-: «فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أشتري به قراطيس (أوراق يكتب عليها)، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمة..»[3].

ولما كبُر **الشافعي** قليلاً، وكان بين العاشرة والثالثة عشرة، احتاج إلى المزيد من الورق ليكتب عليه ما يتعلمه، ولم يكن له مال يشتري به الأوراق، فكان يذهب إلى الديوان يستوهب «الظهور» (وهي الأوراق المستعملة من ناحية واحدة فقط، يطلبها ليستنفع بالناحية الأخرى) فيأخذها ليكتب على ظهرها[4]!!

كل هذه المعاناة ليُحصِّل العلم..

قال **ابن أبي حاتم**: سمعت **المزني** يقول: قيل **للشافعي**: كيف شهوتك للعلم؟ قال: «أسمع بالحرف (أي بالكلمة) مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم بها تنعمت به الأذنان»، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: «حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال». قيل له: فكيف طلبك له؟ قال: «طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره»!!

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٨١.

(٢) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦٦.

(٣) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢٤٩، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥١/ ٢٨٢ .

(٤) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦١.

وصدق الشافعي - رحمه الله-.. إذ لولا هذا الطلب وذاك الحرص ما كان **الشافعي**..

فليس من فراغ أن يصبح الإنسان إمامًا يُقتدى به في العالمين.. قال **ابن تيمية**: «إنَّما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين»[1]!!

ويقول ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم، يعلمنا الدعاء النافع حقًا: ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

ففي تفسير هذه الآية يقول **ابن عباس** ﷺ: أي: اجعلنا أئمة يقتدى بنا في الخير[2].. وذلك - لا شك - لا يتأتى إلا بمجهود مضن، وتضحيات غالية عزيزة.. ومن طلب العلا سهر الليالي!!

وكما لم يمنع الفقر ولا ضيق ذات اليد من أن يصير **الشافعيُّ** الشافعيَّ، فلم يمنع ذلك أيضًا من أن يكون **سفيان الثوري** - رحمه الله- فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة: «الثوري سيد المسلمين»[3]، وقال فيه **الأوزاعي**: «لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[4]..!!

ويصور ذلك بنفسه فيقول: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب، لابد لي من معيشة. ورأيت العلم يدرس (أي: يذهب ويندثر) فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية.. يعني أن يكفيه أمر الرزق!! وكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيض له أُمًّا صالحة، قد تكفلت بالإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها..

قالت أمه له: «يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[5]..!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[6]..!!

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٨.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٣٩.

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٤) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠.

(٦) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

وهكذا كانت كفاية الله له..

فلم يكن من غرابةٍ بعدُ أن يتبوأ **سفيان الثوري** السيادة في العلم، والإمامة في الدين، وكيف وقد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الصالحة، وتغذَّى من فضائلها وتقواها..؟!

ولم يكن العلماء يكتفون بطلب العلم في بلادهم، ولكن كانوا يطلبونه في أصقاع العالم المختلفة، ولهم في ذلك حكايات أشبه بالأساطير؛ إذ تراهم يقطعون آلاف الأميال من أجل الدرس والتحصيل.. ويكفي أن نعرف فقط وسائلهم في ذلك الوقت، لندرك حجم المعاناة والمخاطرة التي كانوا يتعرضون لها في هذا الطريق..

فهذا **جابر بن عبد الله** ﷺ يرحل مسيرة شهر إلى **عبد الله بن أنيس** ﷺ في طلب حديث واحد، يقول **جابر**: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فابتعت بعيرًا، فشددتُ إليه رحلي شهرًا، حتى قدمت **الشام**، فإذا **عبد الله بن أنيس**، فبعثت إليه أنَّ **جابرًا** بالباب فرجع الرسول فقال: **جابر بن عبد الله**؟! فقلت: نعم. فخرج فاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت.. فذكر الحديث[1].

وبعد سماع الحديث عاد جابر إلى **المدينة** مباشرة؛ إذ لم يكن له بغية في **الشام** غير هذا الحديث الواحد!!

وقد رحل **أبو أيوب الأنصاري** كذلك من **المدينة** إلى **عقبة بن عامر بن عبس الجهني** في **مصر** ليروي عنه حديثًا واحدًا، فقدم مصر، ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها، فسمع منه الحديث ثم ركب راحلته وقفل إلى **المدينة** راجعًا[2]!!

ويقول **أبو حاتم الرازي** - رحمه الله- (من العلماء الجهابذة النُّقاد، من الطبقة الرابعة، من أهل **الري**) قاصًّا أمر رحلته العجيبة: أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادة على ألف فرسخ (أي نحو خمسة آلاف كيلو متر، والفرسخ هو ثلاثة أميال، أو ٥٥٤٤ مترًا!!)، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما سرت أنا من **الكوفة** إلى **بغداد** فما لا أحصي كم مرة، ومن **مكة** إلى **المدينة** مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة **سلا** - وذلك في **المغرب الأقصى** - إلى **مصر** ماشيًا، ومن **مصر** إلى الرملة ماشيًا، ومن **الرملة** إلى **بيت المقدس**،

---

(١) البخاري: الأدب المفرد (٩٧٠)، أحمد (١٦٠٨٥)، والحاكم (٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(٢) أحمد (١٧٤٩٠)، وعبد الرزاق (١٨٩٣٦)، وابن أبي شيبة (١٣٧٢٩).

ومن **الرملة** إلى **عسقلان**، ومن **الرملة** إلى طبرية، ومن **طبرية** إلى **دمشق**، ومن **دمشق** إلى **حمص**، ومن **حمص** إلى **أنطاكية**، ومن **أنطاكية** إلى **طرسوس**، ثمَّ رجعت من **طرسوس** إلى **حمص**، وكان بَقِي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثمَّ خرجت من **حمص** إلى **بيسان**، ومن **بيسان** إلى **الرقة**، ومن **الرقة** ركبت الفرات إلى **بغداد**، وخرجت قبل خروجي إلى **الشام** من **واسط** إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، هذا سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين!! وخرجت المرة الثانية، وكان سني في هذه الرحلة سبعًا وأربعين سنة[1]!!

وكان **أسد بن الفرات** - **رحمه الله**-، وهو الفقيه المالكي العظيم الذي دوّن مذهب الإمام مالك - **رحمه الله**-، والذي كان يعمل قاضيًا **للقيروان** ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفتح **جزيرة صقلية** حيث استشهد هناك سنة ٢١٣هـ، كان هذا العلامة الفقيه القاضي المجاهد يحكي عن نفسه وكيف طلب العلم فيقول:

إنه ذهب إلى **المدينة** فتعلم على يد الإمام **مالك** - **رحمه الله**- ثم رحل إلى **العراق** فسمع من أصحاب **أبي حنيفة** - **رحمه الله**-، وبالذات محمد بن الحسن الشيباني وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل ما يريد ولا أن يتعلم ما يشتهي فذكر ذلك للإمام الجليل **محمد بن الحسن** وقال له: «إني غريب قليل النفقة والسماع منك نزر (أي قليل لشدة الزحام)، والطلبة عندك كثير فما حيلتي؟».

فقال له العلامة الجليل المتجرد **محمد بن الحسن** - **رحمه الله**-: اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيت عندي وأسمعك!!

قال **أسد بن الفرات** - **رحمه الله**-: «كنت أبيت عنده وينزل إليَّ ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعست ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبه؛ فكان ذلك دأبه ودأبي حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه».

فانظر **رحمك الله** إلى همة العالمين الجليلين، وانظر كيف فرَّغ **محمد بن الحسن** من وقته لأسد بن الفرات.. وذلك لأنه يعلم أنه سينشر هذا العلم في بلاد لن يستطيع **محمد بن الحسن** الوصول إليها، ومن ثم فهو أولى من غيره بتفريغ مزيد من الوقت له..

---

(١) أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ١/ ٣٦٠، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ١٠.

ثم انظر إلى همة **أسد بن الفرات** - رحمه الله-، الذي كان يكفيه أنه تعلم على يد الإمام **مالك** - رحمه الله-.. لكنه طالب العلم الذي لا يرتوي ولا يشبع أبدًا، فيظل يطلب العلم مادام فيه نبض الحياة..!!

روى الدارمي بسندٍ صحيح غير أنه مرسل، عن طاووس بن كيسان - رحمه الله- أنه قال: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: «مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، وَكُلُّ طَالِبِ عِلْمٍ غَرْثَانُ (أَي: جائع، أو: لا يكتفي ويطلب المزيد) إِلَى عِلْمٍ»[1].

فلم تكن أجسادهم لأجل ذلك تقوى على ملامسة الفراش؛ كون هذا يمنعهم من تحصيل العلم!!

ولقد كان **البخاري** - رحمه الله- يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره ثم يطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى كان يتعدد منه ذلك قريبًا من عشرين مرة[2]..!!

وهو الذي قال عنه **عمر بن حفص الأشقر**: إنهم فقدوا **البخاري** أيامًا من كتابة الحديث **بالبصرة**، قال: فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان! وقد نفد ما عنده، ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم، حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث[3]!!

وذلك الجهد العظيم يُصوره **فخر الدين محمد الساعاتي**، أحد جهابذة الطب في تاريخ الإسلام، حين يصف معاناته في تحصيل الطب فيقول:

يحسدني قومي على صنعتي ... لأنني بينهم فارس
سهرت في ليلي واستنعسوا ... لن يستوي الدارس والناعس[4]

ويصوره أيضًا ابن رشد، حين نعلم أنه لم يدع النظر في الكتب إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة

---

(١) الدارمي: باب من هاب الفتية مخافة السقط (٢٨٥)، وقال حسين سلم أسد محقق سنن الدارمي: إسناده صحيح.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٥.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤/ ١٦٢.

زواجه..[1]!! وكان من نتيجة ذلك أنه صنف وشرح وهذب أكثر من عشرة آلاف ورقة..!! وكان يُفزع إلى فتياه في الطب كما يُفزع إلى فُتياه في الفقه، مع الحظ الوافر في الإعراب والآداب والحكمة..!!

أما **الجاحظ** والذي أُغرم بالمطالعة إغرامًا شديدًا، حتى إنه لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته.. فكان من حرصه على طلب العلم وجهاده في ذلك، أنه كان يستأجر حوانيت الورَّاقين في البصرة الزاخرة بشتى الرسائل والمدونات في العلوم المختلفة، ويعتكف فيها للدرس والمطالعة[2]..!!

وفي مثل ذلك يحكي الإمام **أحمد بن حنبل** - رحمه الله- عن طفولته فيقول: «كنت ربما أردت البكور في الحديث (أي الخروج من بيته مبكرًا لكي يجد مكانًا مناسبًا في درس الحديث) فتأخذ أمي بثيابي حتى يؤذِّن الناس، أو حتى يصبحوا»[3]!!

فهو يحاول الخروج لطلب الحديث والعلم قبل صلاة الفجر، لكن أمه تخشى عليه، فتستبقيه حتى يكون الأذان..!!

بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا كثيرًا ما يهملون أهم ضرورات الحياة لأجل العلم، يفضلونه في ذلك على أنفسهم، وقد ذكر **الذهبي** في سيره عن **عبد الرحمن بن أبي حاتم** أنه قال: كنا **بمصر** سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسمٌ لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة. قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكًا أعجبنا، فاشتريناه، فلمّا صِرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنّا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه. ثم قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسد»[4]!!

وهذا **ابن الجوزي** يقول: لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو.

وقال: كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء. فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا

---

(١) انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٤٢٣٩ (٢) انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١٩٣١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٠٦. (٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦.

ترى إلا لـذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سـماعي لحـديث رسـول الله ﷺ، وأحواله وآدابه، وأصحابه وتابعيهم[1]..

بل انظر إلى حال من كان غنيًا منهم.. فهذا **يحيى بن معين** - رحمه الله- (مـن كبـار علـماء الجرح والتعديل)، وقد خلف له أبواه ألف ألف درهم، فأنفقهـا كلهـا في تحصـيل الحـديث، حتى لم يبق له نعل يلبس[2]..!!

بل انظر إلى من يُعرض عليه المال منهم، وكيف كان زهدهم فيه..

فهذا **ابن الهيثم** - رحمه الله-، والمعروف عند الأوروبيين بـ (الهازن Alhazen)، وهو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء، وهو مؤسس علم البصريات، وله في ذلـك الاكتشافات المذهلة، والتي عليها قامت النظريات العلمية الحديثة، ومـن المسـتحيل أن تجـد كتابًا أو مرجعًا في علم البصريات لا يُشار فيه إلى ابن الهيثم، وخاصـة كتابـه «المنـاظر» الـذي كان ثورة حقيقية في عالم البصريات!!

فقد كان **ابن الهيثم** يعيش حياة مادية متعسرة، ولأن الأمراء والخلفاء - كما ذكرنا من قبل - كانوا يقدرون العلم والعلماء، فقد أُعجب به أحد أمراء الشـام حـين كـان عنـده، وأراد أن يغمره بالأموال، فرفض ابن الهيثم واكتفى بقوت يومه وبخدمة جارية وخادم[3]..؟!!

فإلى هذا الحد كان **ابن الهيثم** خائفًا أن يُلهيه المال الفائض عن حاجة يومه عن الاشـتغال بالعلم.. فالقضية عنده: مَنْ للعلم إن لم أكن أنا له..؟!

ولهذا كان هو **ابن الهيثم**..

ولقد قال يومًا مبيِّنًا منهجه في الحياة بصفة عامة، وفي قضية العلم عنـده بصـفة خاصـة: «وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذلٌ جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخِّيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها: إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي. والآخر: أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويُتقنه فكري من تلـك

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٢٣١.
(٢) المزي: تهذيب الكمال ٣١/ ٥٤٧ .
(٣) البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص١٦.

العلوم. والثالث: أني صّيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[1]..!!

وفي ظروف غير الفقر والمال قد تكون أشد وأصعب منهما.. كان المجهود أيضًا فوق العادة، فلم يستسلم علماء الأمة للأمر الواقع، ولم يكسلوا أو يتوانوا، بل برعوا حتى وهم تحت أغلال القيود..!!

فكان **الطوسي**[2] ذا مكانة عالية ودرجة رفيعة عند خلفاء العباسيين لنباهته وحدة ذكائه، ولهذا فإن أحد وزراء البلاط أضمر له الغدر حسدًا، وأرسل إلى حاكم **قهستان** (من أعمال نيسابور) يتهمه زورًا وبهتانًا، مما دفع به إلى السجن في إحدى القلاع، وقد كان من نتيجة سجنه أن أنجز في خلال اعتقاله معظم مصنفاته في الفلك والرياضيات، وهي التي كانت سبب ذيوع صيته وشهرته وبروز اسمه بين عباقرة الإسلام في جميع الأنحاء!!

وهذا **سيد قطب**[3] - رحمه الله-، يكتب «الظلال» وهو من أشهر التفاسير الحديثة- والذي قلَّ أن تجد مكتبة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي تخلو منه، سواء بالعربية أو بغيرها - كتب معظم هذا التفسير العظيم خلال فترة سجنه!!

وقبله كان أيضًا العالم الجليل **ابن تيمية** الذي صنَّف مؤلفات عدة في فترة سجنه، منها - على سبيل المثال - كتاب في التفسير في أربعة مجلدات!!

ثم عجيبٌ جدًّا أن ترى من يسجن نفسه ويتغرب متعمدًا، لينقطع إلى العلم والدراسة والتأليف..!!

ففي جنوب **قسنطينة** في قلعة ابن سلامة **بالجزائر** ينقطع **ابن خلدون** أربع سنوات كاملة للكتابة، وقد أنجز في هذه المدة مقدمته الشهيرة «**مقدمة ابن خلدون**»، والتي خلدت اسمه في التاريخ، وكيف لا وقد وضع فيها قواعد تفسير التاريخ، فضلاً عن أسس علم الاجتماع

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

(٢) ظهر الطوسي في القرن السادس الهجري، وكان أحد حكماء الإسلام المرموقين، كرمه الخلفاء العباسيون لمكانته في العلم، وجعله هولاكو من مستشاريه الطبيين العلميين، واستطاع أن يبني مرصدًا في بغداد، وكذلك استطاع إنشاء مكتبة كبيرة. انظر الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٠.

(٣) سيد قطب (١٩٠٦م - ١٩٦٦م): كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له إسهامات مجيدة في قضايا الأدب والفكر الإسلامي والدعوة، فقد أعانه الله على إكمال تحفته الخالدة «في ظلال القرآن» رغم المصاعب التي مرَّ بها في حياته.. كما ألَّف إلى جانب الظلال: هذا الدين- خصائص التصور الإسلامي- المستقبل لهذا الدين.. وغيرها.

الحديث، سابقًا في ذلك **دوركايم** وغيره من الغربيين..!!

وعن مقدمته تلك يقول: «وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها»[(١)].

وقد كان له من العمر آنذاك ثلاث وأربعون سنة، وكانت المدة منذ خروجه من بلده الأندلس وإلى رجوعه إليها خمسًا وعشرين سنة!!

ورحل **ابن البيطار** (من كبار علماء النبات المسلمين ٦٤٦هـ) إلى أقطار العالم الإسلامي، في سبيل طلب العلم وتحصيله، وقد زار أيضًا **اليونان** وبلاد الروم في طريقه إلى المشرق، وبذلك فقد أخذ عن المسلمين كما أخذ عن اليونان والرومان، وفي بلاد اليونان لقي مهتمين بعلم النبات فاستفاد منهم، كما رافقهم لدراسة النبات في مواضعه.. وفي المغرب قام بالعمل نفسه[(٢)]..

ويقول **ابن أبي أُصَيْبعة** أنه شاهده في دمشق، ورافقه لمعاينة النبات في مواضعه، كما قرأ عليه ابن البيطار تفسيره لأسماء أدوية ديسقوريدس[(٣)]..

وكان **ابن البيطار** يصحب أستاذه العشاب الشهير **ابن الرومية** إلى الريف، فيعاينان النبات معًا..

وهذه قصة عجيبة للإمام الجليل «**بقي بن مخلد الأندلسي**[(٤)]»- رحمه الله- (ت ٢٧٦هـ)، والذي سأل عن العلم فدلوه على بغداد حيث الإمام **أحمد بن حنبل** - رحمه الله- فسافر ماشيًا من **الأندلس** في أقصي غرب بلاد المسلمين إلى **بغداد**[(٥)]!!

يحكي عن نفسه فيقول: «لما قربت من **بغداد** اتصل بي خبر المحنة التي دارت على **أحمد بن حنبل**، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه (كان **أحمد بن حنبل** قد حُبِس في بيته، وجُعل

---

(١) ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر ٧/ ٤٤.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ٦٩٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٥٠٠.

(٤) بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الحافظ أحد علماء الأندلس، ذو رحلة واسعة، صنف المسند والتفسير وغيرهما، وكان ورعًا فاضلاً زاهدًا مجاب الدعوة. توفي بالأندلس سنة ست وسبعين ومائتين. تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٤.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٧.

تحت المراقبة ورهن الإقامة الجبرية)، فأغممت بذلك غمًا شديدًا، فاحتللت الموضع، فلم أعرج على شيءٍ بعد إنزالي متاعي في بيت أكتريه (أستأجره) في بعض الفنادق أن أتيت المسجد الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الخلق وأسمع ما يتذاكرونه.

فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يكشف عن الرجال، فيُضعِّف ويُقوِّي، فقلت: من هذا؟ لمن كان قربي، فقال: هذا **يحيى بن معين**، فرأيت فرجة قد تفرَّجت قربه، فقمت إليه فقلت: أبا زكريا رحمك الله، غريبٌ نائي الدار، أردت السؤال فلا تستخفَّني. فقال لي: قل. فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث، فبعضًا زكَّي، وبعضًا جرَّح.

فسألته في آخر السؤال عن **هشام بن عمَّار**، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه، فقال: **أبو الوليد هشام بن عمار** صاحب الصلاة، دمشقي ثقةٌ وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كِبرٌ، وتقلَّد كبرًا ما ضرَّه شيئًا لخيره وفضله. فصاح أهل الحلقة: يكفيك - رحمة الله عليك - غيرك له سؤال!

فقلت وأنا واقف على قدمي: أكشفك عن رجلٍ واحد: **أحمد بن حنبل**؟!

فنظر إلى كالمتعجب وقال لي: ومثلنا نحن نَكْشف عن **أحمد بن حنبل**؟! ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

فخرجت أستدلُّ على منزل **أحمد بن حنبل** فدُلِلت عليه، فقرعت بابه فخرج إليَّ وفتح الباب، فنظر رجلاً لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله، رجلٌ غريبٌ، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومُقيِّد سُنَّة (أي جامع حديث)، ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال: ادخُل الأسطوان (يعني: الممر إلى داخل الدار) ولا يقع عليك عين.

فدخلت، فقال لي: وأين موضعك؟! قلت: المغرب الأقصى.

فقال لي: إفريقية؟ قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية، بلدي **الأندلس**.

قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيءٌ أحب إليَّ من أن أُحسن عون مثلك على مطلبه، غير أنِّي في حيني هذا مُمتحنٌ بما لعلَّه قد بلغك.

فقلت: بلى قد بلغني وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال (في هيئة متسوِّل)، فأقول عند الباب ما يقولونه، فتخرج إلى هذا

الموضع، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية.

فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الحِلق، ولا عند المحدثين.

فقلت: لك شرطك.

فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة، وأجعل ورقي ودواتي في كمي، ثمَّ آتي بابه فأصيح: الأجر - رحمك الله - والسُّؤَّال هناك كذلك، فيخرج إليَّ ويُغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر.

فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له (الخليفة **المأمون** ومن بعده **المعتصم** وكذا **الواثق**)، وولي بعده من كان على مذهب السنة (الخليفة **المتوكل**)، فظهر **أحمد** وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه(١)..!!

وقد كان من نتيجة هذا المجهود الشاق الذي بذله بقي بن مخلد، ونتيجة ذلك التحايل في سبيل طلب العلم والصبر على تداعياته، أنه - **رحمه الله** - رجع إلى **الأندلس** فملأها علمًا، وقد عمل مسنده المشهور في أحاديث رسول الله ﷺ، «**مسند بقي بن مخلد**»، والذي يُعد من أعظم كتب المسانيد، يصفه **طاهر بن عبد العزيز الأندلسي** فيقول: حملت معي جزءًا من مسند **بقي بن مخلد** إلى المشرق، فأريته **محمد بن إسماعيل الصائغ**، فقال: ما اغترف هذا إلا من بحر، وعجب من كثرة علمه(٢).

وعن قدر الجهد المبذول في هذا المسند يقول الإمام **أبو محمد بن حزم الظاهري - رحمه الله** -: «ومسند **بقي** روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه، واحتفاله فيه، وجَوْدة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً، ليس فيهم عشرة ضعفاء»(٣)!!

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق ١٣/ ٢٩١.

وهذا المسند يقع في نحو ٢٠٠ جزء، وفيه (٩٦٩ , ٣٠) حديثًا، بزيادة (٩٦٩) حديثًا على مسند شيخه الإمام **أحمد**..!!

وحول شخصيته ومنهجه في مؤلفاته وبحوثه يقول **الذهبي**: وكان إمامًا مجتهدًا صالحًا، ربانيًا صادقًا مخلصًا، رأسًا في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، يفتي بالأثر، ولا يقلد أحدًا[1].

أما العجيب والمحزن فهو أن مسند **بقي بن مخلد** هذا يُعد مفقودًا الآن، وإن كان **المباركفوري** قد نقل في تحفة الأحوذي أنه موجود في مكتبة **برلين بألمانيا**.

غير أن بقيًّا كان له مصنفات أخرى على قدر كبير أيضًا من الأهمية والتفرد، يقول **ابن حزم**: وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين فمن دونهم، الذي قد أربى فيه على مصنف **ابن أبي شيبة** وعلى مصنف **عبد الرزاق** وعلى مصنف **سعيد بن منصور**... حتى قال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان ذا خاصة من **أحمد بن حنبل** وجاريًا في مضمار **البخاري ومسلم والنسائي**[2].

أما عن تفسيره فيقول **ابن حزم**: أقطع أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل تفسير بقي، لا تفسير **محمد بن جرير**، ولا غيره[3]..!!

وفوق ذلك كانت له هذه المنقبة العجيبة أيضًا، يقول **الذهبي**: ومن مناقبه أنه كان من كبار المجاهدين في سبيل الله، يقال: شهد سبعين غزوة..!!

فهل يمكن أن تتخيل مقدار عمله وجهده، ثم أجره إن شاء الله؟!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ولم يكن **بقي بن مخلد** - رحمه الله-، هو الوحيد صاحب الرحلة الطويلة للبحث عن العلم، ولكن هناك الكثير والكثير ممن قضوا جلّ حياتهم سعيًا وراء العلم.. وكان من هؤلاء العظماء الإمام الجليل شعبة بن الحجاج..

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٦.

(٢) انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٨ .

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٤٤٣، السيوطي: طبقات المفسرين ص٣٠، الأدنروي: طبقات المفسرين ص٣٧.

فقد روى **الخطيب البغدادي** في كتابه «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» تلك الرحلة التي قام بها هذا الإمام العظيم من أجل التدقيق في حديث واحد، حتى يقف على علته!!

يقول **الخطيب البغدادي**: كان جماعة من السلف قعودًا على باب الإمام **شعبة**، يتذاكرون، فقال أحدهم: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عنْ عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر، قال: كنا نتناوب رعاية الإبل على عهد رسول الله ﷺ، فجئت ذات يوم والنبي ﷺ جالس وحوله أصحابه، فسمعته يقول: «من توضأ، فأحسن الوضوء، ثم دخل المسجد، فصلى ركعتين واستغفر الله، غفر الله له». فقلت: بَخٍ بَخٍ! فجذبني رجل من خلفي. فالتفت، فإذا هو **عمر بن الخطاب**. فقال: الذي قال قبل أحسن! فقلت: وما قبل؟! قال: قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قيل له: ادخل من أي أبواب الجنة شئت».

واتفق أن استمع الإمام **شعبة** إلى هذا الحديث، فخرج إلى هؤلاء الرهط وعنّفهم على تهاونهم في عدم تحري الدقة عند رواية هذا الحديث، لوجود علة في سند الرواية: (إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة)! وأوضح أنه قد سمع أبو إسحاق يروي هذا الحديث، فذهب للتأكد من صحة هذه الرواية، فسأله عمن حدّثه بهذا الحديث فقال له **أبو إسحاق**: حدثني **عبد الله بن عطاء**، عن عقبة، فألح شعبة بن الحجاج على أبي إسحاق في السؤال: «هل سمع **عبد الله بن عطاء من عقبة**»؟! لأن سماع المحدثين من بعضهم يعتبر شرطًا للقبول بصحة الحديث.

ولما لم يتيقن **شعبة بن الحجاج** من ذلك، قرر أن عليه الذهاب إلى **عبد الله بن عطاء بمكة** لسؤاله عن هذا الحديث، فبدأ في التجهز لهذه الرحلة، ثم توجه من البصرة إلى **مكة**، وكان موسم الحج قد بدأ، ولكن لم يكن قصد **شعبة** الحج، وإنما كان همه معرفة صحة هذا الحديث، فلما لقي **عبد الله بن عطاء**، سأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره أنه سمعه من **سعد بن إبراهيم**! أي صحت شكوك **شعبة بن الحجاج** بأن **عبد الله بن عطاء** لم يسمع هذا الحديث من **عقبة بن عامر** مباشرة. وهنا كان على **شعبة** البحث مرة أخرى!!

ولم يكن هذا الشخص الذي سماه **عبد الله بن عطاء** ممن ذهبوا للحج في هذا العام، بل كان في بلده **بالمدينة المنورة**، فرحل **شعبة بن الحجاج** ثانية إلى المدينة، ولقي هذا الرجل، وسأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره بأنه سمع هذا الحديث من رجل آخر يقطن في البصرة، وهنا شك **شعبة** في الأمر، ولكنه أراد أن يكمله للنهاية، فرجع إلى البصرة، فلقي الرجل الذي

سُمي له. وسأل شعبة هذا الرجل عن ذلك الحديث، فأخبره أنه سمعه من أحد الضعفاء!

وهنا أيقن **شعبة بن الحجاج** بضعف هذا الحديث، وقال: لو صح لي مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ كان أحب إلي من أهلي ومالي ومن الناس أجمعين[1]!!

فيالها من همم!! يطوف بلدانًا شتى، ويدخل مدائن عدة، وتمضي به الأزمان، وينفق الأموال العظام.. من أجل الوقوف على صحة حديث واحد..!!

وبمثل هذا الجهد العظيم في الرحلة، فقد كان الصادقون من أهل هذه الأمة أيضًا يتسابقون لحجز الأماكن لحضور مجالس العلم.. يقول **جعفر بن درستويه** (من كبار المحدثين): «كنا نأخذ المجلس في مجلس **علي بن المديني** - رحمه الله- (وهو من علماء الجرح والتعديل) وقت العصر لمجلس غد بعد الفجر فنقعد طول الليل؛ مخافة أن لا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه»[2]!!

وفي ذلك يقول **وهب بن مُنَبِّه** - رحمه الله- (وهو من التابعين): «مجلس يتنازع فيه العلم أحب إليَّ من قدره صلاة لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره »[3].

ولأجل ذلك كانوا لا يتركون موطنًا فيه علم إلا طرقوه وحصَّلوا منه، يقول **مكحول** ﷺ (وهو من التابعين): «أعتقت **بمصر** فلم أدع بها علمًا إلا حويته فيما أرى ثم أتيت **العراق**، ثم أتيت **المدينة** فلم أدع بهما علمًا إلا حويت عليه فيما أرى ثم أتيت **الشام فغربلتها**»[4]!!

وتلك هي الطبيعة المتعطشة دائمًا التي تكون عليها نفسُ طالب العلم وهمته، يقول **الحسن البصري** - رحمه الله-: «منهومان لا يشبعان: منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها»[5].

ولعله أخذ هذا المعنى من **عبد الله بن مسعود** ﷺ حيث يقول: «منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضا للرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ

---

(١) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ١/ ٤٠٠.

(٢) أبو سعد التميمي السمعاني: أدب الإملاء ١/ ١١٢.

(٣) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٢٥). (٤) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٨/ ٤٧٠.

(٥) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٣١).

اسْتَغْنَى﴾، قَالَ: وَقَالَ الآخَرُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

وليس أقل من أن صاحب مثل هذه النفس كان إذا فاته شيءٌ من العلم، نزل به الهم والحزن، وأصابه المرض..!!

فقد ذكروا حديثًا لشعبة لم يسمعه، فجعل يقول: «واحزناه!!». وكان يقول: «إنِّي لأذكر الحديث يفوتني فأمرض[2]»!!

ولأجل ذلك كله لم يكن العلماء فقط هم الذين يطلبون العلم ويبحثون عنه، بل سبقهم إلى تلك الفضيلة الأنبياء أيضًا، مع علو قدرهم، وسمو منزلتهم..

وفي صورة توضح ذلك، فقد روى أُبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنْ الْمِكْتَلِ، ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنْ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

وقد أشعره الله بالتعب ليتوقف ويكتشف ضياع الحوت، ومن ثم يستطيع الوصول إلى من وُصف له بأنه سيُعلِّمه، ويعني ذلك أن الله ﷻ لما اطلع على الإخلاص في قلبه، وظهر على إثر ذلك رغبته الحقيقية في التعلم، فقد يسَّر الله له الوصول إلى ما كان يبغيه، ووفقه إلى طريق العلم..

---

(١) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٣٢) والآيات من سورة العلق ٥،٦، وسورة فاطر٢٨.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٧/ ١٥٥ .

وهكذا كل من أراد أن يتعلم بصدق، فإن الله يُيسِّر له وسائل التعليم..

ويتابع رسول الله ﷺ القصة فيقول:

فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ. فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا﴾؟

قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ!

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ..»[1].

ثم كان من أمرهما ما كان في سورة الكهف من أحداث..

وما يمكن أن نضيفه هنا، هو أن هذا الجهد العظيم المبذول في تعلم العلم وتحصيله - كما رأينا سابقًا - رغم كل المعوقات والصعوبات التي قد تعتري الطريق - لم يكن ذلك الجهد مقصورًا على العلماء المسلمين فقط، بل شاركهم في ذلك كل من نبغ وتفوق في أي من مجالات العلوم الأخرى من كل أمم الأرض؛ إذ هي سنة كونية وقاعدة مطردة..

فمن بذر لابد أن يرى الثمر، وعلى قدر البذل والجهد، لابد أن يكون العطاء..

وعليه، فكما نبغ علماء مسلمون وذاع صيتهم وشهرتهم في مجال علمهم، نتيجة ما بذلوه من مجهود، وما صبروا عليه من مشاق وتضحيات.. فقد نبغ أيضًا علماء غير مسلمين في مجال علومهم، نتيجة طبيعية وحتمية لما مروا به أيضًا في رحلتهم العلمية الخاصة بهم..

---

(١) البخاري: كتاب العلم: باب إذا سئل العالم أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩)، وأحمد (٢١١٥٥)، وابن حبان (٦٢٢٠). والآيات من سورة الكهف من ٦١-٦٨.

فهذا **توماس أديسون** مخترع المصباح الكهربائي.. كان من دأبه الكد والعمل ودونها انقطاع طيلة الأربع والعشرين ساعة على مدار اليوم، يختلس منها فقط فترات وجيزة للراحة، ليعود على إثرها للبحث والعمل من جديد، وكان يكتفي في طعامه بالوجبات السريعة في المعمل..!!

وفي سنة ١٨٨٦م استطاع أن يؤسس مصنع «منلوبارك» الشهير بمدينة «نيوجيرسي»، حيث تلاحقت منه اختراعاته الغزيرة!!

وقد بقي في معمله الذي اتخذ منه بيتًا ومصنعًا أربعة أيام متصلة، رافضًا الخروج منه قبل تحقيق اختراعه، وكان يردد: «**إما النجاح أو أن أموت**»..

ولما توفي في الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٣١م، كان هذا العبقري قد سجَّل رسميًا ١٥٠٠ اختراع!!

ولما سُئِل عن سر هذا الإنجاز الجبّار أجاب: «إن المثابرة والكد والصبر أساس النجاح.. وإن نسبة الوحي والإلهام هي ١٪، و ٩٩٪ عرق جبين»..

وهذا **أنطوان لافوازييه**[١] مكتشف الأوكسجين.. انقطع كلية عن اللهو والمرح مع أقرانه، وعاش منهمكًا في الدراسة والعلم، حتى تدهورت صحته بسبب ذلك، وأُصيب بتوعك في معدته، الأمر الذي فرض عليه العيش على الحليب لعدة أشهر، حتى نصحه أحد أصدقائه بالتقليل من الإجهاد الفكري، والزيادة في النشاط البدني!!

ورغم ذلك فقد شغل ثلاث وظائف، هي: عضوية المجمع العلمي، وعضوية المزرعة، ومدير دار الأسلحة.. ولم يمنعه ذلك كله من القيام باختباراته العلمية، وقد خصص لها ٦ ساعات يوميًّا!!

أما العالم **نيوتن**[٢].. فقد ضرب أروع الأمثلة في تحمل الفقر، وضيق العيش، وشظف الحياة.. فقد رأت أمه أن تبعده عن الدراسة بعد وفاة أبيه، وذلك ليعتني لها بالأرض

(١) ولد لافوازييه في باريس ١٧٤٣م، عمل بالمحاماة كوالده ونال جائزة لابتكاره في طريقة إنارة شوارع باريس إلا أنه كان يعشق البحث فقاده ذلك لأن يكون أبا الكيمياء الحديثة، وهو أول من تعرف على الأوكسجين، ورغم عبقريته إلا أن مصيره كان الإعدام بعد قيام الثورة الفرنسية.

(٢) ولد السير إسحاق نيوتن ١٦٤٢م في بلدة وولثروب البريطانية، وظهرت عليه براعة ميكانيكية فصنع أدوات آلية من تصميمه مثل طائرة ورقية ومزولة وساعة مائية، واكتشف قانون الجاذبية، وقانون الجذب العام، ومن مؤلفاته «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية»، وتوفي عام ١٧٢٧م.

والحرث، كما كان يفعل أبوه من قبل!!

وبالفعل تخلى مُكرهًا عن الدراسة..!!

ولأجل ذلك، وفي سبيل كسر ذلك الطوق الذي قيَّده عن إتمام تعليمه، كان يختلي بكتبه كلما سنحت له الفرصة، ولما كانت تأمره أمه بمرافقة الخادم إلى السوق، كان يستجيب لها حتى إذا ما أشرف على المدينة خلا إلى كتابه وطلب من الخادم أن يقوم بمهام الشراء بمفرده!!

وهكذا يمضي الخادم لشأنه، ويبقى **نيوتن** مستلقيًا على العشب يحل إحدى المسائل الحسابية في استغراق كلي، ريثما يعود الخادم من السوق، فيرجعا معًا إلى المزرعة..

أما العالم الفرنسي المشهور **لويس باستير**(١)، فقد افتقده الناس ليلة زفافه، ولما بحثوا عنه وجدوه في مختبره يجري بعض التجارب!!!

هذه هي أحوال العلماء في جهادهم من أجل العلم، ومن أجل تحصيله.. ولا يظنن أحدٌ أنه بعيدٌ عن تحصيل مثل هذه الدرجات التي حصَّلها هؤلاء السابقون، ويتحجج في ذلك بأن جهله عريض، أو أن حصيلته قليلة، أو أن بضاعته في ذلك مزجاة!!

فالأمر فقط كما روى معاوية ﷺ بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس، تعلموا، إنما العلم بالتعلم، وإنما الفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**»(٢).

ولا ريب أن الأمة التي يكون أتباعها على هذه الدرجة من معرفة قيمة العلم، ومن الحرص عليه، والرغبة الشديدة فيه.. لابد أن تكون أمة رائدة سائدة قائدة..

ولاشك أن الذي يتخلى عن هذه الحمية العلمية، يقود أمته ونفسه من قبل إلى الانقياد، بل ويقودهما إلى مواطن الهلاك ومصارع السوء..

***

---

(١) لويس باستير ولد في عام ١٨٢٢ في مدينة دول في فرنسا، ابتدع طريقة للقاح ضد مرض الكلب، واستطاع اكتشاف طريقة اللاهوائية وهي استطاعة بعض الكائنات على العيش دون أوكسجين أو هواء، وهو أول من عرف البكتريا والجراثيم وعرف التعامل معها وتوفي عام ١٨٩٥.

(٢) الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣)، وقال الألباني: حسن لغيره. صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٦.

الفصل الثالث

أَوْقَاتُ الْعُلَمَـــــاءُ

صناعة العلماء تبدأ من حرصهم على احترام الوقت كركيزة إسلامية وقيمة حضارية كبرى، وهي الحقيقة التي لم يغفلها الإسلام أبدًا، فكان أن اهتم اهتمامًا كبيرًا بالوقت، وحث أتباعه على استثماره والمحافظة عليه، وذلك فيما ينفع دينهم ودنياهم..

فلعظم الوقت وأهميته الكبرى أقسم الله ﷻ به في كتابه الكريم في أكثر من موضع، فأقسم سبحانه بالفجر، والضحى، والليل، والعصر.. ولم يقسم الله ﷻ إلا بغالٍ وعزيزٍ ونفيس..

وإنه إذا كانت النظرية الغربية ترى أن الوقت هو المال، فإن النظرية الإسلامية ترى أن هذه القيمة بخسٌ لحقِّ الوقت؛ إذ هو أغلى من أن يُقدَّر بمال، ولذلك كان الوقت في منظومتها هو الحياة..

فالوقت باهظ الثمن؛ إذ هو الحياة بعينها، وما حياة الإنسان إلا ذلك الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة..

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول **ابن القيم** - رحمه الله-:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أستفد هدى ... ولم أكتسب علمًا فما هو من عمري[1]

ولم يكن عجيبًا أن أحدهم حين مرّ بقومٍ وهم في ملهى أو في مقهى جالسون، أخذ يتألم! ولما قيل له في ذلك قال: والله آسف، وأتمنى لو أن الأوقات تشترى كما تشترى البضاعة لاشترينا من هؤلاء أوقاتهم..!!

وفي ذلك يقول **الحسن البصري** - رحمه الله-: «أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم»[2]!!

وإنه - وللأسف - لم يدرك الكثيرون هذه الحقيقة، ولم يفقهوا كون «الوقت» من أعظم

---

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٢ .

(٢) أنور بن سعيد البيلاوي: الوقت بين حرص السلف وتفريط الخلف ص١٠.

وأكبر نعم الله ﷻ على الإنسان، فغبنوه وقدَّروه بأقل من ثمنه، ففرطوا في استهلاكه والانتفاع بكل لحظة فيه.. فقد روى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[1]!!

ولذلك يقول **ابن مسعود** ﷺ: «ما ندمت على شيءٍ ندمي على يومٍ غربت شمسه؛ نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي».

وإنه لما كان لعلماء الإسلام مهمة شريفة، وغاية نبيلة - على نحو ما وضحنا سابقًا - فضلا عن معرفتهم تلك القيمة الغالية للوقت.. فقد كان لهم تعاملهم الخاص معه، وبمعنى آخر: كان لهم تعاملهم الخاص مع أنفاسهم التي تُعد عليهم.. وذاك الذي أورثهم حضارة عريقة الجذور، استطاعت أن تؤتي أُكلها علمًا وعزًا ومجدًا، لم يعرف التاريخ لمثلها نظيرًا!!

وفي تجسيد عملي، وفي صورة واقعية تبين تثمين ذلك الوقت وكيفية إدارته في واقع علماء المسلمين، يقول الإمام **أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي**: إني لا يحل لي أن أُضيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد ما كنت أجده وأنا ابن عشرين[2].

ثم ترى العجب حين تراه يُكمل فيقول: وأنا أقصر بغاية جهدي وقت أكلي حتى أختار سفَّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه[3]!!

وقال **موسى بن إسماعيل التَّبُوذَكِي**: لو قلت لكم إني ما رأيت **حماد بن سلمة** ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يحدِّث أو يقرأ أو يُسبِّح أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك[4].

بل إن الإمام **سُليم بن أيوب الرازي** (أحد كبار أئمة المذهب الشافعي ت ٤٤٧هـ) كان

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٠٤٩)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، وأحمد (٣٢٠٧)، والحاكم (٧٨٤٥).

(٢) أبو الفضل العسقلاني: لسان الميزان ٤/ ٢٤٣.

(٣) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٠٨.

(٤) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٧/ ٢٦٥.

يحاسب نفسه على الأنفاس أن تضيع دون إفادة فقد حكى عنه **أبو الفرج غيث بن علي التنوخي الصوري** قال: وحُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة إما ينسخ أو يُدرِّس أو يقرأ وينسخ شيئًا كثيرًا. ولقد حدثني عنه شيخنا **أبو الفرج الإسفرايني** (أحد تلامذته) أنه نزل يومًا إلى داره ورجع فقال: «وقد قرأت جزءًا في طريقي»!!

قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: أنه رأى سُلَيًا حَفِيَ عليه القلم (أي: لم يعد صالحًا للكتابة) فإلى أن قَطَّهُ (أي: براه وأصلحه) جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه؛ لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ[1]!!

وهذا **محمد بن سلاَم البِيْكَنْدي** شيخ البخاري (ت ٢٢٧هـ) كان في حال الطلب جالسًا في مجلس الإملاء والشيخ يحدِّث ويُمْلي، فانكسر قلم **محمد بن سلام** فأمر أن ينادى: قلم بدينار.. فتطايرت إليه الأقلام[2].

وذلك لئلا ينشغل ولو برهة عن الدرس والتحصيل؛ فالمال يعوّض، أما الوقت والتحصيل فهيهات هيهات أن يرجع..!!

ومن هذه المشكاة، كان **الخليل بن أحمد الفراهيدي** يقول: أثقل الساعات عليَّ: ساعة آكل فيها[3]!!!

ويحكي ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء فيقول: حكى لنا القاضي **شمس الدين الخوئي** عن الشيخ **فخر الدين بن الخطيب** أنه قال: والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز[4]!!

وحكى أيضًا **القاضي عياض** في ترتيب المدارك عن ابن المكوى القرطبي[5]، وكان قد حبب إليه الدرس مدة عمره لا يفتر عنه ليله ونهاره، فقال:

---

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٦٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٢٩.

(٣) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص٨٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ١٣٠.

(٥) هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوى، مولى بني أمية.

ذكر أن صديقًا له قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره وبابه مفتوح، فجلس منتظره، وأبطأ عليه، فأوصى إليه، فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب!! فتنبّه حينئذٍ له وسلَّم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه!! فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟! فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[1].

وعن مكانته يقول **ابن عفيف**: إليه انتهت رئاسة العلم بالأندلس، حتى صار بمثابة يحيى ابن يحيى في زمانه، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفذت الأحكام برأيه، فحكم على الحاكم، وبعُد صيته بالأندلس، وكان - رحمه الله- من ذوي المتانة في دينه والصلابة في رأيه والبعد عن هوى نفسه، لا يداهن السلطان، ولا يدع صدعه بالحق، كان البعيد والقريب عنده في الحق سواء[2]!!

فلأجل ذلك الحرص الشديد على الوقت في الدراسة وتحصيل العلم، لم تكن تضيع منهم برهة سُدى.. ومن ثم فإنك تراهم يقتنصون ما أُسمِّيه بـ «**الفراغات البينية**»، وهي التي تكون بين عمل وآخر، بل ويجعلون من أعمال حياتهم الضرورية - مثل أوقات الأكل، ودخول الخلاء، والذهاب إلى عمل ما - يجعلون منها أوقاتًا للدرس والعلم أيضًا!!

فقد ذكر **الحافظ الذهبي** في ترجمة **أبي حاتم الرازي** أنه قال: قال لي **أبو زرعة** (يعني الرازي): ما رأيت أحدًا أحرص على طلب العلم منك، فقلت له: إن عبد الرحمن ابني لحريص. فقال: من أشبه أباه فما ظلم.

قال **الرَّمَّام** (وهو أحمد بن علي، أحد رجال إسناد الخبر): فسألت عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السماع له وسؤالاته لأبيه فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء فأقرأ عليه[3]!!

فكانت ثمرة تلك المحافظة العجيبة على الزمن، والحرص الشديد على طلب العلم هذا - كانت ثمرته نتاجًا علميًا كبيرًا، منه: كتاب «الجرح والتعديل» في تسع مجلدات، وهو من أهم الكتب النفيسة الحافلة الرائدة في هذا العلم، وكتاب «التفسير» في عدة مجلدات، وكتاب

---

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٤/ ٦٣٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٨٨.

«المسند» في ألف جزء!!

وهذا **عبد الرحمن بن تيمية** يحكي عن أبيه فيقول: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول: اقرأ لي هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع[1]!!

وعلى هذا النحو أيضًا قال **عمّار بن رجاء**: سمعت **عبيد بن يعيش** يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث[2]!!

بل إن **داود الطائي** كان يستفّ الفتيت، ويقول: بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[3]!!

وحكى **القطب اليونيني** عن **الإمام النووي** - رحمه الله- أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل - على هذا الوجه - ست سنين[4]!!

وبالإمكان أن أذكر هنا تجربة شخصية مررت بها ونفعتني كثيرًا، من خلال استغلال تلك المسافات البينية، أو الأوقات المهدرة بين العمل والآخر..

فحين كنت في **أمريكا**، ولما كانت المسافات التي نقطعها يوميًا بالسيارة للوصول إلى العمل طويلة جدًّا، فقد حرصت على أن أستغل ذلك الوقت وأستفيد منه قدر الطاقة، وقمت على إثر ذلك بإعداد برنامج عملي تفصيلي لسماع محاضرات علمية في أثناء ركوب السيارة، واستطعت سماع مكتبة كبيرة وقيمة من الأشرطة المسموعة التي في المسجد، والتي هي عندي وعند أصدقائي، وكانت لشيوخ وعلماء من بلدان إسلامية شتى، فأضافت إليَّ علومًا ما تخيلتُ أن أحوزها.. وكل ذلك في وقت قد يُهدَر دونها تقدير!!

مع العلم بأن استماعي هذا لم يكن بطريقة عشوائية، وإنما كان وفق برنامج مدروس ومتكامل، يضيف المعلومة إلى المعلومة، والموضوع إلى الموضوع، وهكذا..

فماذا لو خصص كل منا «شريطًا» إسلاميًا - مثلاً - وجعله معه أثناء سفره - وخاصة

(١) أبو عبد الله الزرعي: روضة المحبين ١/ ٧٠.

(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ١٧٨.

(٣) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٤٨٩.

(٤) السخاوي: ترجمة النووي ص١١،١٢.

وكلنا يمر بتجربة السفر والتنقل والترحال - واستطاع أن يستفيد من سماعه في السيارة التي يستقلها، أو يستفيد ويفيد منه الآخرين، إذا كان يستقل مواصلات عامة؟!!

إن الأمر جدٌّ هيِّن.. وما عليك إلا أن تعرف قيمة ما عزمت عليه.. ولا إخال أنك لم تعرفه الآن!!

وليس الأمر في ذلك مقتصرًا فقط على أوقات السفر، فهناك أيضًا أوقات الانتظار، سواء كان ذلك لقضاء عمل معين أو مصلحة خاصة.. وما أكثر ذلك في حياتنا!! فهناك - مثلاً - عيادات الأطباء.. وهناك مكاتب المحاماة.. وهناك انتظار المحاضرات.. وغيرها الكثير من الفراغات الوقتية الهائلة!!

فمن الممكن في ذلك تخصيص كتاب لقراءته والاستفادة منه، أو حَمل المصحف للحفظ فيه أو قراءة الورد اليومي، وذلك في مثل كل هذه الأمور.. ويكفي في ذلك ألا تجعل وقتًا يمر عليك دون فائدة!!

وقد حكي عن **أبي بكر بن الخياط النحوي** - رحمه الله- أنه كان يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق!! وكان ربما سقط في جرف، أو خبطته دابة لسبب ذلك[(1)]!!

وأما **الفتح بن خاقان** (استوزره المتوكل واتخذه أخًا له) فكان يحمل الكتاب في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل لحاجة أو ليصلي، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه[(2)].

أما حالهم في سهر الليل، فكان له شأنٌ آخر..

فكان **محمد بن الحسن الشيباني** - رحمه الله- لا ينام الليل، وكان عنده الماء يزيل نومه به، وكان يقول: إن النوم من الحرارة لابد من دفعه بالماء البارد[(3)]!!

وذكر ابن اللباد أن **محمد بن عبدوس** صلَّى الصبح بوضوء العتمة (العشاء) ثلاثين سنة، خمس عشرة من دراسة، وخمس عشرة من عبادة[(4)]!!

(١) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص٧٧.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص١٦٩.

(٣) طاشكبري: مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١/ ٢٣.

(٤) القاضي عياض: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ١/ ٢٣٥.

ويحكي أحد أصحاب الإمام مالك، وهو **عبد الرحمن بن قاسم**؛ فيقول: كنت آتي **مالكًا** غلسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح الصدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدتُ مرة عتبته فغلبتني عيني فنِمت، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك (ظنت أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه وتردده عليه) قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسعٌ وأربعون سنة قلَّما صلَّى الصبح إلا بوضوء العتمة[1]!!

وإذا نظرنا إلى حالهم مع أقرانهم ومحيطهم ودروسهم فإنك ترى العجب العجاب..

وقد كان العلامة الكبير **أبو المعالي محمود شكري الألوسي البغدادي الحفيد**، يمتاز بالجد الشديد والحرص على الوقت، فكان لا يثنيه عن دروسه شدة الحر، ولا قرص برد الشتاء، وكثيرًا ما تعرَّض تلاميذه بسبب تأخرهم عن الدرس إلى النقد والتعنيف..

قال عنه تلميذه العلامة **بهجة الأثري**: أذكر أنني انقطعت عن حضور درسه في يوم مزعج، شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل؛ ظنًا مني أنه لا يحضر المدرسة، فلمّا شخصت في اليوم الثاني إلى الدرس، صار ينشد بلهجة الغضبان: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد.. [2]!!

ولهذا قال بعضهم: «من أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرضٍ أدّاه، أو مجدٍ أصّله، أو حمدٍ حصّله، أو خيرٍ أسّسَه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عَقَّ يومه وظلم نفسه».

وعليه فلا نعجب حين نسمع بعد ذلك عن وفرة حفظهم وسعة تحصيلهم..

فلا نعجب - مثلاً - حين نعلم أن **النووي** وهو في أول طلبه للعلم، كان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا!!

فكان يقرأ درسين في «الوسيط»، وثالثًا في «المهذب»، ورابعًا في الجمع بين الصحيحين، وخامسًا في «صحيح مسلم»، ودرسًا في «اللُّمع» لابن جني في النحو، ودرسًا في «إصلاح المنطق»

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٠.

(٢) من مقدمة الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدوري: لكتاب إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد للآلوسي محمود الحفيد ص١٥.

لابن السكيت في اللغة، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، تارة في «اللمع» لابن إسحاق، وتارة في «المنتخب» للفخر للرازي، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين[1]!!

قال النووي: وكنت أُعلّق جميع ما يتعلق بها من شرح مُشْكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه[2]!!

وفي مثل ذلك ما ذكره الذهبي في تاريخه عن **إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري** الضرير، فيقول في ترجمته: سمع عليه الخطيب البغدادي بمكة صحيح البخاري بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين، كان يبتدئ بالقراءة وقت المغرب ويختم عند صلاة الفجر، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر!!

وقد علق **الذهبي** على ذلك بقوله: وهذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه[3]!!

وقد قرأ **الفيروز آبادي** (صاحب القاموس المحيط) صحيح مسلم في ثلاثة أيام وهو بدمشق.

وذكر الحافظ **السخاوي** في حق شيخه **ابن حجر** قال: وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجلَّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي، فإنه قرأ صحيح البخاري في أربعين ساعة رملية، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وقرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس، وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ صحيح البخاري في عشرة مجالس كل مجلس منها أربع ساعات.

ثم قال **السخاوي**: وأسرع شيء وقع له (أي **لابن حجر**) أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الكبير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر!! قال: وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة[4]!!

كما لا نعجب بعد ذلك أيضًا أن يصبح لهم باع عريض في شتى أصناف العلوم..

وفي صورة تعبر عن ذلك، وتُجسِّد قيمة الوقت عندهم، وكيفية تحصيلهم للعلوم، وتبين

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) السخاوي: فتح المغيث ٢/ ٥٢.

(٤) انظر سيد العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة ١/ ٥٥٧، ٥٥٨، نقلاً عن الضوء اللامع للسخاوي.

أيضًا سعة اطلاعهم ووفرة تصنيفاتهم.. ما يقصه صاحب طبقات الأطباء عن ابن سينا، حيث يحكي عن نفسه فيقول:

أحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضى مني العجب... ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي، وكان من علماء الفلسفة، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق، وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره، ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية، قال لي النائلي: تولَّ قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها عليّ لأبين لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب، وأخذت أحل ذلك الكتاب، فكم من شكل ما عَرَفَه إلى وقت ما عرضته عليه أفهمته إياه (أي أنه بدأ يشرح لأستاذه)!!

ثم فارقني النائلي متوجهًا إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تنفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون عليَّ علم الطب، وتعهدت المرضى فانفتح عليَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة!!

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهورًا، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، ورتبتها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة.

وكلما كنت أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع،

وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسر المتعسر!!

وكنت أرجع بالليل إلى داري، وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليَّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام!!

وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني!!

... حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة»، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه!!

وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم، معتقدٌ أن لا فائدة من هذا العلم، فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص، أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاجٌ إلى ثمنه.

واشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظًا على ظهر القلب، وفرحت بذلك، وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء؛ شكرًا لله تعالى[1]!!

أعتقد أن معنى استغلال الوقت واستثماره قد وضح لنا من خلال التعرف على قصة ابن سينا، وطريقته في تلقي العلوم والبحث عنها، وهي ليست طريقة خاصة بابن سينا وحده، ولكنها الطريقة الأصيلة التي يحرص عليها أي عالم يريد أن يصل إلى الإبداع!

وغير ابن سينا، كان هناك **الشافعي** أيضًا..

فقد ذكر **ابن خلكان** أن أحد علماء الأنساب في **العراق** تحدث مع **الشافعي** في هذا العلم (علم الأنساب)، فوجده من كبار العلماء فيه، فلما طال بينهما الحديث، قال له **الشافعي**: مثلي

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء٣/ ٧١-٧٤.

ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا عن أنساب الرجال من قبل آبائهم، فتعال نتحدث عن أنسابهم من قبل أمهاتهم[1]!!

ثم يذكر أنه لقيه طلبة الطب في الفسطاط، فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم درسًا يأخذون فيه عنه علوم الطب، فأشار إلى الفقهاء واقفين ينتظرونه في ظل جدار جامع عمرو بن العاص فقال: وهل ترك لي هؤلاء من الوقت ما أتفرغ به لكم؟[2]!!

ولما قدم **الشافعي** الفسطاط كان يجالسه أرباب الحلق، **عبد الله بن الحكم** ونظراؤه، وكان حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل **مصر** من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح بجامع عمرو، فيجيئه أهل القرآن ويسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه عن معانيه وتفسيره؛ فإذا ارتفعت الشمس قاموا، واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة؛ فإذا ارتفع النهار تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقترب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله في الفسطاط[3]!!

وقال **الربيع**: أقام **الشافعي** ها هنا في الفسطاط أربع سنين، فأملى ألفًا وخمسين ورقة، كلها في أربع سنين، وكان مع ذلك عليلاً شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب، حتى يملأ سراويله وخفه (يعنى من البواسير) [4]!!

وتراه يحكي عن نفسه فيما رواه عنه **عمرو بن سواد** قال: قال لي **الشافعي**: ولدت **بعسقلان**، فلما أتت عليَّ سنتان حملتني أمي إلى **مكة**، وكانت نهمتي في شيئين: الرمي، وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى إني أصيب من عشرةٍ عشرة، وسكت عن العلم، فقلت: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي[5]!!

وليس لنا بعد ذلك أن نعجب أيضًا من حالهم وهم على فراش الموت.. إذ تراهم يطلبون العلم حتى آخر لحظات حياتهم..

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٥.

(٢) ابن أبي حاتم الرازي: آداب الشافعي ومناقبه ص٣٢٤.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/ ٣٠٤.

(٤) البيهقي: المناقب ٢/ ٢٨٩،٢٩٠.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء ٩/ ٧٧، وأبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦٢.

فقد روى المعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة **أبي جعفر الطبري** - رحمه الله- قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذُكر له هذا الدعاء عن **جعفر بن محمد**، فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحالة؟! فقال: ينبغي للإنسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات[1]!!

و عن **فرقد** (إمام مسجد البصرة) أنهم دخلوا على **سفيان الثوري** في مرض موته، فحدثه رجل بحديثٍ فأعجبه، فضرب **سفيان** بيده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحًا فكتبه، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: إنه حسن؛ إن بقيت فقد سمعت حسنًا، وإن مت فقد كتبت حسنًا[2]!!

ويروي القاضي **إبراهيم بن الجراح الكوفي** موقفًا جميلاً لأستاذه الإمام **أبي يوسف القاضي**، والإمام أبو يوسف هو **يعقوب بن إبراهيم الأنصاري**، صاحب **أبي حنيفة** وتلميذه وناشر علمه ومذهبه، وقاضي الخلفاء العباسيين الثلاثة: **المهدي والهادي والرشيد**، وأول من دُعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، **ت ١٨٢ هـ**، يقول القاضي إبراهيم: مرض أبو يوسف فأتيته أعوده، فوجدته مُغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا **إبراهيم**، ما تقول في مسألةٍ؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو بها ناج! ثم قال: يا **إبراهيم**، أيما أفضل في رمي الجمار - أي في مناسك الحج - أن يرميها ماشيًا أو راكبًا؟ قلت: راكبًا، قال: **أخطأت**، قلت: ماشيًا، قال **أخطأت**، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك!! قال: أما من كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا.

قال: ثم قمت من عنده، فما بلغت باب الدار حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات ﷺ[3]!!

ويروي الفقيه **أبو الحسن علي بن عيسى** - رحمه الله- أنه دخل على **أبي الريحان البيروني** - رحمه الله- وهو في لحظات حياته الأخيرة وقد حشرجت نفسه، وكادت أن تخرج، فقال البيروني وهو في هذه الحالة من حالات الاحتضار: كيف قلت لي يومًا في مسألة الجِدَّات التي تكون من قبل الأم؟!

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ١٩٩.	(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء ٧/ ٦٤.

(٣) ابن معظم شاه الكشميري: العرف الشذي للكشميري ٢/ ٣٥٨. المحقق محمود أحمد شاكر.

يسأله عن مسألة من مسائل الميراث!!

فيقول الفقيه **أبو الحسن**: فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟!

قال لي: يا هذا، أُوَدِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا لي من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها[1]؟!

فهو يريد أن يتعلم الأمر قبل أن يموت، لا لشيءٍ إلا لمجرد العلم، وذلك أنه يعلم فضل ومزية تلك المكانة والمنزلة.. فأعاد عليه الفقيه **أبو الحسن** شرح المسألة وعلَّمه وحفَّظه، ثم قال: «وخرجت من عنده، وأنا في الطريق سمعت الصراخ»[2]!!

لقد مات **أبو الريحان البيروني - رحمه الله-** بعد دقائق من تعلمه المسألة..!!

وقد يتخيل البعض أن هذه مبالغات من هؤلاء العلماء، وأن الحرص على الوقت إلى هذه الصورة قد يكون تكلفًا.. لكن الذي ينظر إلى إنتاج هؤلاء العلماء يدرك بوضوح أهمية استغلال كل لحظة من لحظات الحياة، وخاصة أن التراث الذي تركوه ما زلنا ننتفع به إلى ساعتنا هذه، وقد يبقى خالدًا إلى يوم القيامة!

قال **الخطيب البغدادي**: سمعت **علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي**، يحكي أن **محمد ابن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ عن ثلاث وثمانين سنة) مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة[3]!!

أي أنه - **رحمه الله**- كتب في حياته ما يزيد على نصف مليون ورقة!!

ولا يتأتى أبدًا هذا الإنتاج الغزير بدون حرص أكيد على كل لحظات الحياة مهما دقت!

يقول الأستاذ **محمد كرد على** في ترجمة **الطبري**: وما أُثِر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة[4]!!

ولعل عجب القارئ يزداد ويزداد إذا علم أن الإمام الطبري لم يكن منتجًا في مجال واحد فقط، بل في عدة مجالات في آنٍ واحد، فله التصانيف العظيمة في التفسير، وكذلك في التاريخ،

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٠٧٠.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/ ١٨١، ١٨٢.

(٣) السيوطي: طبقات المفسرين ١/ ٨٢.

(٤) محمد كرد علي: كنوز الأجداد ١٢٣.

هذا غير تميزه الملحوظ في الفقه، حيث يعد صاحب مدرسة فقهية خاصة به!!

وغير **الطبري** فقد بلغ **الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي** الذي يقول فيه **الإمام ابن تيمية**: «إنه من أذكياء العالم»[(1)]، بلغ في محافظته على الزمن مبلغًا أثمر أكبر كتاب عُرِفَ في الدنيا، وهو كتاب «الفنون»، وقد جاء في ثمانمائة مجلد!!

قال الحافظ **ابن رجب الحنبلي** في ترجمته: وأكبر تصانيفه كتاب «الفنون»، وهو كتاب كبير جدًّا، فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ والتفسير والفقه، والأصول، والنحو، واللغة والشعر والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له وخواطره، ونتائج فكره، قيدها فيه[(2)].

وهذا هو **الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي** تلميذ **ابن عقيل** (ت ٥٩٧هـ) أحد أعلام الأئمة الذين يُقتدى بهم في حرصهم على الزمن، ها هو يتحدث عن نفسه يصف إنتاجه – كما يقول أبو المظفر -: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني[(3)].

أما مقدار ما ألَّف وصنف، فنترك ابن تيمية يحدثنا عنه:

يقول **الإمام ابن تيمية** –رحمه الله– في «أجوبته المصرية» «كان الشيخ **أبو الفرج** مفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره».

ويقول **الحافظ الذهبي**: «وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل، ولم يدع **ابن الجوزي** فنًا من الفنون إلا وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلدًا، ومنها ما هو في رسالة قصيرة»[(4)].

ولعلنا نفهم سر هذا الإنتاج العجيب عندما ننظر إلى تقديره – **رحمه الله**– للوقت وقيمته..

يقول **الموفق عبد اللطيف**– فيما نقله عنه الذهبي-: إنه كان «لا يضيع من زمانه شيئًا»[(5)].

ويقول **ابن الجوزي** نفسه – **رحمه الله**– : لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده

(١) ابن تيمية: درء التعارض ٤/ ١٣٣.

(٢) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٠٧-١٠٨.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ٢٥٨٢.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٤٢٦٥.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٦.

الناس من كثرة الزيارة، ويسمون لك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش من الوحدة، خصوصًا في أيام التهاني والسلام، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرت من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب. فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي[(١)].

لقد عرف ابن الجوزي - رحمه الله- مهمته في الحياة، فما ضيع لحظة في عمل يلهيه عن مهمته!

وعلى سنن من سبق، مشي رئيس الطب في زمانه : **ابن النفيس**- رحمه الله- ويقول عنه الإمام **تاج السبكي**:«وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد **ابن سينا** مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من **ابن سينا**».هذا الطبيب الرائد صنف كتابًا في الطب سماه «الشامل» يقول فيه **تاج السبكي**: «قيل: لو تم لكان ثلاثمائة مجلدة، تم منه ثمانون مجلدة ، وكان فيما يذكر يملي تصانيفه من ذهنه»[(٢)]. فكيف تم له ذلك؟

كان - رحمه الله- إذا أراد التصنيف، تُوضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف، إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلم وحفي، رمى به وتناول غيره لئلاّ يضيع عليه الزمان في بري القلم[(٣)]..

ودخل ذات مرة إلى الحمام، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمّام (موضع نزع

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر ١/ ٢٢٥.
(٢) القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ١١٥.
(٣) انظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص١٥٧، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار.

الثياب وخلعها) واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله[1]..!!

إن ما ذكرناه هنا من أمثلة لتقدير العلماء لقيمة الوقت ما هو إلا غيضٌ من فيض، وإن النظر في حياة هؤلاء العظماء ليعكس اهتمامًا - قد يبدو لنا متكلفًا - لهذه القيمة الغالية: الوقت، ولعل بعض الناس يرى أن الأمر أهون من ذلك، وأن الحياة فيها متع كثيرة، تحتاج أن يفرغ لها وقت وأوقات.. لكن العالمين ببواطن الأمور، والناظرين إلى حقيقة الأشياء، والفاهمين لقصر الدنيا وحقيقة الآخرة.. هؤلاء يعتبرون الأنفاس معدودة، فضلاً عن الساعات والأيام، ولله در الحسن البصري ﷺ إذ يقول: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، إذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل»[2]!!

فما أنت - يا عبد الله - إلا بضع لحظات.. فإما نفعٌ لك وللبشرية، وإما ضياعٌ وهلاكٌ وخسران!!

«والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[3]..

وأسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

* * *

---

(١) انظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص١٥٧، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار.

(٢) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٣٨٢.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن شداد بن أوس مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ (٢٤٥٩)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٧١٦٤)، والحاكم (٧٦٣٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الفصل الرابع

أَخْلاقُ الْعُلَمَاء

مرّ بنا في الفصول الثلاثة السابقة أمورٌ لا غنى عنها في تكوين العلماء.. وأول هذه الأمور هو إدراك قيمة الوقت ومنزلة العلماء، أما الأمر الثاني فهو التيقن أن ذلك لن يَتَأَتَّى إلا ببذل الغالي والنفيس، وصرف الجهد كل الجهد في سبيل ذلك، وأما الأمر الثالث والأخير فهو إدراك قيمة الوقت والحرص على كل دقيقة من دقائق الحياة..

وإذا كنا قد وقفنا على ذلك، فلنعلم أن مثل هذه الأمور وتلك الخلال ليست خاصة بالمسلمين وحدهم، وإنما يشترك فيها ويتساوى في تحصيلها العالم المسلم وغير المسلم، وهي تصلح للعالِم التقي كما تصلح للعالِم الفاجر.. فالجميع في الجَمْع بينها سواء..

وبالنظر إلى رسالة الإسلام، ودور هذا الدين العظيم في إصلاح الأرض كلها، وفي نفع العالمين، كل العالمين، كان لزامًا على العالِم المسلم أن يكون مختلفًا عن غيره، متميزًا بها لا يقدر غيره على التميّز به..

ولا يكون ذلك في جانب الجهد أو التحصيل فقط، فهذا - كما ذكرنا - أمر مشترك بين عموم العلماء، ولكن يكون - وفي المقام الأول - في جانب الأخلاق والقيم..

إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم قدوة المجتمع، وهم بناة الأمة وقائدو التغيير والإصلاح، لذا كان لزامًا عليهم أن يكون لهم أخلاق خاصة، يتفرّدون بها عن عموم الخلق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين..

إن هذا يعني أن هناك أخلاقًا معينة وصفات خاصة، لابد أن يتحلَّى بها العالم المسلم، ولابد أن تصطبغ بها حياته وتكون غالبة عليه.. ومنذ بداية الطريق..

وفي ذلك فإنا نكتفي بما يمكن أن يكون هو الأساس وليس الكل؛ إذ الأمر أكبر من أن يحويه هذا الفصل، ويكفي أن أخلاق العالِم تُمثِّل في حد ذاتها أخلاق الإسلام..

وعليه؛ فإن أهم ما يجب على العالم أن يتصف به من أخلاق.. ما يلي:

أولاً: الإخلاص:

وهو حجر الزاوية في القضية برُمَّتها.. وهو الخطوة الأولى في طريق تحصيل العلم.. إذ هو الميزان الحساس الذي به يُقوَّم ويوزن عِلْمنا، بل أعمالنا كلها.. وبه نصعد إلى أعلى الدرجات والمنازل، ومن غيره نهوي - كما سُنبين - إلى أسفل الدَّرِكَات وأَحطِّ الرُّتب..!!

إنه الإخلاص..

إنه السر الدفين المخبوء داخل قلب المرء، والذي لا يَطَّلِعُ عليه غير من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور..

فتُرى..

لماذا نتعلم هذا العلم..؟!

وأيُّ شيء نبغي من وراء تحصيله..؟!

وبالأحرى: لماذا نُريد أن نكون علماء..؟!

هل هذا لأجل الله عز وجل، وطمعًا في جنته، وخوفًا من ناره؟!

أم أنه لأجل التكسب وجني المال..؟! أو لأجل التفاخر والتباهي، والرفعة في دار الدنيا، والمنزلة العالية في قلوب الخلق..؟!

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لنعي جيدًا ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**».

فهذا الشهيد الذي مات في وسط المعركة، والذي جَادَ بنفسه التي هي أغلى ما يملك.. يُجَرُّ على وجهه حتى يُلْقَى في النار!!

لقد اطَّلَع على باطنه الذي يعلم السر وأخفى، وعَلِمَ أنه إنما كان يُقاتل ليرتقي أرفع الدرجات في أعين الناس، كان يُقاتل ليتحدث الناس عنه بأنه جريء مِقْدام.. وقد تحقق طلبه وبُغيته، وتحدَّث الناس عنه بذلك، ليأخذ نصيبه في دار الدنيا، ومن ثم فليس له نصيب في

الآخرة.. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا عن أوّل الثلاثة الذين هم أول من يُقضى عليهم يوم القيامة، وأما الثاني فهو:

«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وهذا الرجل الثاني، الذي يُحْكم عليه ضمن أول من يحكم عليهم يوم القيامة، هو بيت القصيد في بحثنا، وهو موضوع دراستنا..

وهو لم يكن عالمًا وحسب، وإنما كان عالمًا مُتَفَاعلاً ومؤثرًا في مجتمعه، تعلَّم العلم، ثم راح يبذل جهده ووقته وعرقه ليعلمه الناس.. ثم هو يُجرُّ على وجهه حتى يُلقى في النار!!

ولا عجب؛ إنه كمال العدل.. فلم يكن في ذلك كله يطلب وجه الله ﷻ.. لقد انطوى قلبه على مكنون من الأهداف الشخصية والمصالح الخاصة في دار الدنيا.. لقد أراد أن يُشار إليه بالبنان، وأراد أن يكون حديث الناس في مجالسهم وسمرهم، وأراد أن يُعلم أنه الأعلم، وأنه الأقرأ..

وكل هذا قد حَدَث!!

حَدَث ونال ما تمنى، وتَكَلَّم الناس كما أراد، وتحقق حلمه الذي كان يسعى إليه.. فكان هذا هو أجره ونصيبه، وقد أخذه كاملاً كما أراده هو.. فليس العدل إذن أن يأخذه مرة ثانية.. ومن ثم فليس لك في الآخرة نصيب!!

أما الرجل الثالث، فكان أيضًا على شاكلتهم في مقصده ومراده، فنال أيضًا درجتهم، وجُرَّ على وجهه في النار، يقول رسول الله ﷺ عنه يصفه:

«وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

والقضية جِدُّ خطيرة، والموضوع ليس بالهيِّن!!

فمع وجود الكافرين، ومع وجود المنافقين، ومع وجود أصحاب الكبائر والمعاصي، ومع وجود من اقترف من الموبقات ما اقترف.. مع وجود كل هؤلاء يقضي رب العالمين سبحانه أول ما يقضي على هذه الطوائف الثلاث، والتي كانت في حياتها مِلْء سمع الدنيا وبصرها!!

وإن ذلك ليوقفنا على حقيقة مهمة وقاعدة خطيرة، وهي أن الأعمال التي ليس فيها إخلاص، والتي لم يُرَدْ بها وجه الله تعالى، هي أعمال محبطة، وهي أعمال لا وزن لها ولا قيمة.. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إليكَ وَإلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥].

ومن ثم كان الإخلاص أول خطوة في طريق العلماء، وإنا وإن علمنا ذلك، فإن الحصول عليه - كما العلم - هو مطلب غالٍ وعزيز، وليس يحصل بين يوم وليلة، وإنما يحتاج الأمر فيه إلى مجاهدة شاقة على طول طريق العلم، بل وعلى طول طريق الحياة!!

فالنفس تتغيَّر بين الحين والآخر، والقلب يَتَقَلَّبُ بين الفينة والثانية، ومن الممكن أن ينوي الإنسان نيةً صالحة لله ﷻ في أول عمل ما، ثم ومع مرور الوقت، وأثناء أداء نفس العمل، يأتيه - مثلاً - من يُثني عليه فيه، أو من يعظمه بسببه، أو غيره.. فيجد نفسه وقد تغيرت عليه نيته وتبدلت؛ فينظر وقد ارتاحت نفسه لذلك الثناء وهذا المديح واستكانت إليه.. وهذا بعينه هو المحظور الذي وقع فيه!!

يقول **سفيان الثوري** ؓ: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي؛ لأنها تنقلب عليَّ»[(١)].

وقد قيل **ليحيى بن معاذ** ؓ: متى يكون العبد مخلصًا؟ فقال: إذا صار خُلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

وقال **يوسف بن الحسين**: أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر[(٢)]!!

---

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٣.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٧.

ومن ثم فالأمر يحتاج إلى طول متابعة، وعظيم مجاهدة..

يقول **أبو يوسف** صاحب أبي حنيفة: «يا قوم، أَرِيدوا بعلمكم الله؛ فإني لم أجلس مجلسًا قَطّ أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح[1]».

وإن ذلك ليتأكد في الحديث الذي رواه ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ**»[2].

وكان **المطرِّف بن عبد الله** يقول في دعائه: «اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أريد به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت»[3]!

فليست القضية إذن في فضائل الأعمال، إنما هي منهج حياة!!

وقد روى ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال محذرًا: «**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليه، فَهُوَ فِي النَّارِ**»[4].

فرسول الله ﷺ يذم في ذلك من أراد بعلمه أن يجادل ضعاف العقول، يريد تكبرًا عليهم، أو من يتيه بعلمه أمام العلماء يفاخرهم به، أو من يريد بعلمه الجاه والمكانة بين الناس، وصرف وجوه عوامهم إليه.. فكل ذلك نهايته إلى النار!!

وقد اجتمع **الفضيل بن عياض** و**سفيان الثوري** يومًا، فجلسا يتذاكران شيئًا من الرقائق، فرقَّ كل واحد منهما وبكى، فقال **سفيان الثوري** - رحمه الله-: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقال **الفضيل بن عياض**: «ولكني أخاف - يا أبا عبد الله - ألا يكون أضرُ علينا.. ألست تخلصتَ إلى أحسن حديثك وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتزينتُ لك وتزينتَ لي؟! فبكى **سفيان الثوري** - رحمه الله- وقال: «أحييتني أحياك الله»[5]!!

---

(١) النووي: بستان العارفين ص٨٢.

(٢) الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٥) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢٥٨) واللفظ له.

(٣) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٧.

(٤) الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣) واللفظ له، والدارمي (٣٧٣)، وقال الألباني: حسن (٦٣٨٢) صحيح الجامع.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٩.

وكان الإمام **الشافعي** - رحمه الله- يقول: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم يُنسب إليَّ منه شيء»[(١)]!!

وهذا الإخلاص هو الذي دفعه إلى قبول الحق أيًا كان قائله، يقول في ذلك: «ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، وددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه»[(٢)]..

وخرج **أيوب السختياني** مرة في سفر فتبعه أناس كثير، فقال: «لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره، لخشيت المقت من الله ﷻ»[(٣)]!!

حفظه الإخلاص وصِدق النية من العُجْب بنفسه بسبب علمه، وخاصة وهو في مثل هذه الحالة، والناس حوله مُشَيِّعون وله مُعظِّمون..

وعليه فإن الإخلاص هو أول الطريق في منهج العلماء الربانيين..

والأمر كما ذكرنا في البداية ليس مجرد وقفة مع النفس في لحظة من اللحظات، أو في يوم من الأيام، وإنما هو منهج حياة، فيه مراجعة دائمة، ومراقبة مستمرة، والموفَّق من وفقه الله عز وجل.

ثانيًا: الزهد في الدنيا:

يأتي الزهد في الدنيا نتيجة طبيعية وحتمية للإخلاص عند العلماء؛ فإذا لم يكن العالم مخلصًا في علمه لله تعالى، متجردًا فيه عن إغراءات الدنيا وزخارفها، لن يكون بإمكانه تحقيق خُلق وفضيلة الزهد فيها، وما لم يحقق الزهد فيها فلن يكون علمه خالصًا لوجه الله تعالى..

وأعني فيما أعني هنا.. ألا نطلب الدنيا بعلمنا..

وهذه حقيقة يقع فيها الكثيرون، وخاصة وأن أغلب العلوم الآن - وبالأخص العلوم الحياتية - تُعَد من مصادر الدخل الأساسية للفرد.. وقد يكثر المال بسبب التفوق في هذه العلوم، فيفتن به وينسى قضيته، وتتبدل نيته!!

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «**فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،**

---

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٢٣.

(٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢٥١.

(٣) أبو بكر القرشي: التواضع والخمول ١/ ٨٤.

فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

أمرٌ جدٌّ خطير أن نسعى لتحصيل العلم ونتعلم - أيًّا كانت العلوم - من أجل المال.. وأخطر منه أن يفتح الله ﷻ أبواب الرزق الواسعة على العالم فتنة له، فيقع فيها، فتراه لا يَعُدْ يصرف علمه إلا في الوجه الذي يأتي فقط بمال!!

وهذه - وللأسف - حقيقة مشاهدة، ومن دعاة في الدين وعلماء!!

فقد كان أحد من أعرفهم إمامًا في مسجد في دولة غربية، وكان يأخذ راتبًا على هذه الإمامة، ولما انفصم العقد الذي كان بينه وبين إدارة المسجد، وجدته وقد قرَّر أن يظل بالبلد يعمل بأي عمل آخر ولو كان بعيدًا تمامًا عن مجال الدعوة والدين، فالمهم عنده هو الاستمرار في تحصيل المال والثروة..

ورغم أن بيته كان قريبًا من المسجد الذي كان يعمل إمامًا له، إلا أنه لم يعُدْ يأتي إلى الصلاة.. لقد ذهب الراتب، فذهبت الدعوة، بل وذهبت صلاة الجماعة!!

أما الغريب، فهو أن هذا الشيخ بعينه هو الذي قَصَّ عليَّ قبل ذلك - متندرًا أحوال العلماء والدعاة الذين يقومون بمثل ذلك -فحكى لي في أَسًى - أن أحدهم - وكان إمامًا أيضًا - إذا جاء يوم إجازة الأسبوع، كان لا ينزل إلى المسجد يُصلِّي، رغم أن بيته فوق المسجد تمامًا..!!

وقد مرَّت الأيام، ووقع هو فيما وقع فيه صاحبه.. والمؤمن لا يأمن على نفسه الفتنة أبدًا، ونسأل الله الثبات..

ومثل هذه الصورة نراها أيضًا في غير أئمة المساجد.. فحين كنت في الأردن وجدت من يشكو إليَّ أن إحدى الإذاعات طلبت من أحد الدعاة البارزين أن يُلقي حديثًا فيها، لتعليم الناس ونشر العلم وغيره.. فوافق على أن يُدفع له أولاً مبلغٌ وقدره كذا..!!

لقد أُتيحت له الفرصة لنشر العلم، والدعوة إلى الخير، والقيام بمهمة الأنبياء، وتهيأت له الأسباب لتبليغ الجمع الغفير.. إلا أنه غلبته الدنيا، فصار يعمل ويُعلِّم لأجلها، ولم يَعُدْ

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٧٩١)، ومسلم: في أوائل كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١) والترمذي (٢٤٦٢)، وابن ماجه (٣٩٩٧)، وأحمد (١٧٢٧٣).

بحسبانه نفع الأمة، أو العمل على نهضتها، أو المشاركة في حل أزماتها.. فوق أنه أصلاً قد حُرم أجر هذه المهمة؛ كون ما طلبه من مالٍ وأجر لم يكن بمقدورهم!!

إننا إزاء هذه الأزمات والفتن لابد أن نعود إلى الأصول، وأن نقف وقفات طويلة أمام القدوات الحقيقية في هذا الشأن، ألا وهم الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.. فهم القدوة في الدعوة، وهم القدوة في العلم..

إننا حين نراجع قصصهم في القرآن الكريم، نجد أنهم في دعوتهم وعلمهم دائمًا ما يقرنون ذلك بقولهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقولهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [هود: ٢٩]. وقولهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]. وقولهم: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]. وقولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وهذه الآية الأخيرة تكررت في سورة الشعراء على لسان خمسة أنبياء، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، على الترتيب!!

بل إن الله ﷻ قد خص نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة[1]..

وعليه فإن ربط العالم علمه، أو ربط دعوته بالمال.. فهو ليس على الطريق السويِّ، وأن علمه هذا ودعوته تلك يصبحان وبالاً عليه يوم القيامة..

وقد جاء أن أحد الأمراء قصد ابن الهيثم ليتعلَّم عليه، فخشي أن يُضيع وقته معه سُدَى، فأراد أن يختبر حبه للعلم فطلب منه أن يدفع مائة دينار في كل شهر، فبذل الأمير المال وبعد

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٧.

أن تعلَّم على ابن الهيثم ثلاث سنين وأراد الانصراف، صحبه الأستاذ العظيم مودِّعًا ومعه كل ما أخذه من المال، وكان قد حفظه له فأعطاه إياه، وقال له: أنت أحوج لهذا المال مني عند عودتك إلى بلادك، وإني قد جرَّبتك بهذه الأجرة، فلمّا علمتُ أنه لا خَطَرَ ولا مَوقِعَ للمال عندك في طلب العلم بذلت مجهودي في تعليمك وإرشادك، **واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير**».

وقد يتساءل أحدهم: هل لا يمكن الجمع بين العلم والدنيا؟ أو بمعنى آخر: هل يظل محكومًا على العلماء بالفقر..؟!

والحقيقة أن هذه القضية ليست معضلة، وهي ليست في حسبان العلماء الحقيقيين بالمرة؛ إذ أنهم يدركون جيدًا أن ما كان من رزقهم فلن يفوتهم، وهم يعلمون أن الرزق يطلب الإنسان كما يطلبه الإنسان تمامًا، فكلاهما يبحث عن الآخر، وهكذا فما قُدِّر لنا من رزق لا يمكن الزيادة عليه، تمامًا كما لا يمكن الانتقاص منه، بعز عزيز أو بذل ذليل..

ومن ثم فإن العالم يطلب العلم ويتعلمه وينشره، وقد يكون ذلك العلم - كما ذكرنا - هو مصدر رزقه، فإذا جاءه من وراء ذلك مال وفير، كان ذلك نعمة من الله ﷻ تستحق الشكر والامتنان، فضلاً عن تأدية حقه.. وإذا جاءه قليل، صبر وحمد الله، واحتسب الأجر عنده.. فلا يشغل باله بهذه القضية إطلاقًا..

لكن أن يصرفَ حياته، ويُكرِّس علمه وعمله لأجل الدنيا وجمع المال، ويكون ذلك مقصده وديدنه.. فهذا غير ممكن لمن أراد أن يكون عالمًا ربانيًّا يبغي الأجر عند الله، ويقتفي أثر الأنبياء، قدوته عليهم السلام..

إن الدنيا إذا أصبحت هدفًا، فلا شك أن الفتنة عظيمة..

والشيطان يوهم الإنسان أحيانًا أنه يجب أن يمتلك الدنيا لينفقها في سبيل الله.. فإذا جاءت الدنيا فُتن فيها الإنسان على الأغلب، إلا ما رحم الله وقليل ما هم..

إننا يجب أن نراجع مناهج سلفنا وعلمائنا لنعرف الطريقة المثلى في التعامل مع قضية الدنيا والمال.

فهدف عثمان بن عفان أو أبي بكر الصديق، أو عبد الرحمن بن عوف، أو طلحة بن عبيد

الله، أو **سعد بن عبادة**.. أو غيرهم من أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن أبدًا جمع المال ثم إنفاقه في سبيل الله.. وإنما جاءهم المال بعمل لم يستنزف كل أوقاتهم وغالب حياتهم، فأنفقوه في سبيل الله، وكان منهم من تخلّى عن ماله وتركه بالكلية من أجل الدعوة والرسالة!!

يقول **يونس بن ميسرة**: «ليس الزهد بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك»[١]..

ثم إنك لا تضمن أبدًا أنه إذا أتتك الدنيا وجاءك المال الوفير ألا تُفتن به، وكيف تضمن أن تراعي فيه حق الله، فضلاً على أن تنفقه كله أو بعضه في سبيل الله..؟!

وما أكثر من وقع في ذلك.. يقول رسول الله ﷺ محذرًا في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا..**»[٢].

وفضلاً عن الزهد في الدنيا، فإن على العالم ومن يسلك طريق العلم أن يترفع عن الدنايا، ويتحرز عن الشبهات والمكروهات..

يقول **الشافعي** - رحمه الله -:

أَمَـتُّ مَطَـامعي فَأَرحـتُ نَفسـي ... فـإنَّ الـنَّفس مَـا طَمِعَـت تهـونُ
وأحييـتُ القنـوعَ وكـان ميتًـا ... ففـي إحيائـه عِـرْضٌ مَصـون

وليس معنى هذا أن ينعزل العلماء عن الدنيا، ويتركوا الاختراع والابتكار الذي يأتي بصورة طبيعية بمال أو ثروة؛ فإننا نُريد سبقًا في العلوم، وامتلاكًا للقدرات العلمية والعسكرية والحضارية التي تكفل لأمتنا مكانة سابقة في العالمين.. لكن المقصود هو هدف العلماء وغايتهم.. أهو تقدم الأمة ورفعتها، أم هو المال وبريقه؟!

إن القضية ليست قضية هامشية في حياة العلماء.. فالثروة الحقيقية التي يمتلكها العالم

---

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ٢٨٩.

(٢) مسلم: كتاب التوبة والدعاء والذكر والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة (٢٧٤٢)، والترمذي (٢١٩١)، والحاكم (٨٥٤٣).

تكمن في عقله وفي فكره، ولا يجب أبدًا للعالم أن يهبط بثروته هذه إلى سفاسف الدنيا ومغريات العوام.. فليس سهلاً أن تكون قائدًا وقدوة، وليس يسيرًا أن تكون وارثًا للأنبياء!!

ثالثًا: العلم النافع:

لم يكن على المسلم - وخاصة العالم - إلا أن تكون حياته مُورِقة مُثْمِرة، وعليه فلا يجب أن يُضيِّع عمره في فراغ، كما لا يجب أن يكون عمله عبثًا.. بل لابد أن يكون كل عمله، وكل وقته وجهده فيما ينفعه وينفع الآخرين في الدنيا والآخرة..

ومن ثم فإنك لا تكاد تجد رسول الله ﷺ ذكر العلم أو حَثَّ عليه، إلا وأضاف إليه صفة «النفع»..

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلَاثَةٍ** (أي: ثلاثة أشياء، وفي الترمذي: ثلاث): **إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

وروى زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(٢).

وعليه فقد كان رسول الله ﷺ يحُضُّ على العلم النافع ويحُثُث عليه فيقول: «**سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا**»(٣)..

ومن هنا قَسَمَ العلماءُ العلومَ إلى ثلاثة أنواع:

١) علم نافع: ينفع الإنسان ويفيد البشرية في دينهم ودنياهم..

٢) علم ضار: يضر الإنسان في دينه، أو دنياه..

---

(١) مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، وأحمد (٨٨٣١)، وأبو يعلى (٦٤٥٧).

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢)، والنسائي (٥٤٧٠)، وابن ماجه (٢٥٠)، وأحمد (١٣٦٩٩)، وابن حبان (٨٣).

(٣) ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه النبي ﷺ (٣٨٤٣)، وأبو يعلى (١٩٢٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٧١٢)، وعبد بن حميد (١٠٩٣)، وقال الألباني: حسن (٣٦٣٥) صحيح الجامع.

٣) علم لا هو بالنافع ولا هو بالضار: فهو يُعدُّ ضارًا؛ لأنه أضاع الأعمار وبدَّد الأوقات..

وقد فقه الصحابة ﭫ هذا الأمر جيدًا، وكانوا حريصين تمام الحرص على قضية العلم النافع، وكيف يُطلب ويُحصَّل..

ففي قصة الدجال - على سبيل المثال - ذكر رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة صفاته وعلاماته، وعدَّدها، وكانت كل صفة من صفاته غريبة في حد ذاتها، تسترعي انتباه المتطلعين وتستثيرهم للسؤال عنها، ومعرفتها على وجه الحقيقة واليقين..

إلا أن كل ذلك لم يدفعهم إلى السؤال عن تفاصيل أكثر ، ولكن عندما ذكر رسول الله ﷺ مدة مُكُوثِه في الأرض وهي: «**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ..**».

قال الصحابة: «يَا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ اليومُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: **لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**»[1]!!

إنها وفقط قضية العلم النافع.. يريدون أن يتعلموا ما يُعينهم على العمل، ولا يكترثون بالبحث عن قضايا لا ينبني عليها عمل، بل كل اهتمامهم ما ينفع دنياهم وآخرتهم.

لقد زرع رسول الله ﷺ في صحابته هذا النهج القويم في البحث عن النافع من العلوم، لذلك حين جاءه أعرابي ليسأله: «**مَتَى السَّاعَةُ؟**» قال له مباشرة: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**»[2]..

فهو بذلك نقله من طور النظريات، وما لا ينبني عليه كثير عمل، إلى طور العمل، والعمل النافع الذي ينفعه في الآخرة..

هذا هو العلم النافع الذي يؤتي ثمارًا وفيرة في الدنيا والآخرة..

ومثل هذا الكلام يقال أيضًا على العلوم الحياتية، فقد أدرك أبناء **موسى بن شاكر** حقيقة

---

(١) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته (٢٩٣٧)، وأبو داود (٤٣٢١)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، وأحمد (١٧٦٦٦)، وكل عن النواس بن سمعان الكلابي ﭬ.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٤٨٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩)، وأحمد (١٢٧١٥).

هذا العلم النافع جيدًا، وهم أول وأشهر فريق علمي جماعي في التاريخ، ذاع صيتهم في علوم الرياضيات والفلك والعلوم التطبيقية والتقنية، وكانوا من علماء القرن الثالث الهجري.. لقد أدرك هذا الفريق العظيم قيمة أن يكون العلم نافعًا، فاستفادوا من علمهم وأفادوا منه المسلمين، بل والبشرية جمعاء..

ففي كتابهم «الحِيَل» استحدثوا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة، مثل المعالف الخاصة لحيوانات ذات أحجام معينة، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب، وعمل خزانات للحمامات، وآلات لتعيين كثافة السوائل، وآلات تثبت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات.

وكان من جملة أعمالهم أيضًا عمل سراج إذا وضع في الريح العاصف لا ينطفئ، وعمل سراج يخرج الفتيلة لنفسه ويصب الزيت لنفسه، وكل من يراه يظن أن النار لا تأكل من الزيت ولا من الفتيلة شيئًا البتّة، وأيضًا عمل نافورة يفور منها الماء مدة من الزمان كهيئة الترس، ومدة متماثلة كهيئة القناة، وكذلك لا تزال دهرها تتبدل!!

وكتابهم السابق يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي، مع شروح تفصيلية ورسوم توضيحية لطرائق التركيب والتشغيل، وكان استخدامهم للصمامات التي تعمل تلقائيًا، وللأنظمة التي تعمل بعد زمن معين، وغير ذلك مما من شأنه يحصل فيه التحكم الآلي، من أهم الإنجازات في تاريخ العلم والتقنية بشكل عام.

وقد كان لكل هذه الأفكار الإبداعية - كما يقول **أحمد فؤاد باشا** - أثرٌ كبير في دفع مسيرة تقنية «الحيل النافعة» أو الهندسة الميكانيكية قُدُمًا؛ حيث تميزت تصاميمها بالخيال الخصب والتوصيف الدقيق والمنهجية التجريبية الرائدة[1].

ولعل الإنسان يُدرك قيمة بحوث أبناء موسى بن شاكر عندما يرى القواعد النظرية الكثيرة التي أَلَّفَهَا الإغريق لكنهم لم يُسقِطوها على الواقع، وبالتالي لم يستفيدوا منها، ولم تستفِد كذلك البشرية..

أما العلم الذي لا ينبني عليه عمل، فلا منفعة منه، ولا طائل من ورائه، وما هو إلا

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠، ٣١.

مضيعة للوقت.. ومثال ذلك من يبحث في طول سفينة **نوح** ﷺ.. أو في نوع الشجرة التي أكل منها **آدم** ﷺ.. أو المدة التي قضاها قابيل حاملاً هابيل حتى يدفنه.. وغيرها كثير!!

ولو كان العلم بهذه الأشياء فيه منفعة أو فائدة من قريب أو من بعيد، لذكرها لنا سبحانه وتعالى، أو قصَّها علينا رسوله ﷺ..

وأما العلم الضار، فقد عدّد **ابن رجب** طائفة منه فقال: أصعب ذلك ما أُحدث من الكلام في أفعال الله تعالى من قضائه وقدره؛ فكذب بذلك من كذب وزعم أنه نزّه الله بذلك عن الظلم!

وأصعب منه ما أُحدث بعد ترجمة فلسفة اليونان، وذلك من الكلام أيضًا في ذات الله وصفاته، مما سكت عنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون..

وقد تجلت مظاهر هذا العلم في كتابات بعض الصوفية، الذين كتبوا كتابات لا تُفهم بحال، ولا تدفع أبدًا إلى خيرٍ أو صلاح!!

ومن أمثلة هذا قول بعضهم عن الألف والباء في البسملة: **«الألف في التحقيق لسان حل «النقطة» في فوت كنهها، والباء لسان حل تفصيلها، وقلم خطها في تشكيلها، ومبدأ بسطها في تنزيلها»**..!!

وأنا على يقين أن كاتب هذا الكلام لا يفقه معناه فضلا عن قارئه!!

وقد قال **الذهبي** - رحمه الله- في سياق ذكر التصوّف الفلسفيِّ والقول بوحدةِ الوُجود: «والله لأن يعيشَ المسلمُ جاهلاً خلفَ البقر، لا يعرف من العلم شيئًا سِوى سُورةٍ من القرآن يصلِّي بها الصلواتِ، ويؤمن بالله واليوم الآخر، خيرٌ له بكثيرٍ من هذا العِرْفان وهذه الحقائقِ! ولو قرأ مائة كتابٍ أو عَمِلَ مائةَ خَلْوَة!»(1).

ومن أمثلة ذلك العلم الضار أيضًا علوم الفن والرقص وما يلحق بهما.. والعجيب في ذلك أن تجد حكومات مسلمة تخصص مدارس للرقص بأنواعه، وتنفق عليها من أموال المسلمين، بل وترعى الفرق الراقصة، وتنسبها إلى القومية، وتعطي الجوائز القيمة لمن أبدع في

---

(١) الذهبي: لسان الميزان ٥/ ٣١٢.

أغنية أو لحن، واصفة إيّضاه بأنه من رهبان الفن وعلماء الموسيقى!!

ومثلهم من ظل يتعلم ويبذل جهده ووقته وعمره كي يضيف وترًا إلى العود!!

ومن أمثلة هذا العلم الضار كذلك علوم التنجيم، وعلوم السحر..

وبالجملة فالعلم الضار هو العلم الذي يضر بالإنسان والبشرية، سواء كان هذا الضرر دنيويًا أو أخرويًا..

فإذا كان لا ينبغي للمسلم أن يَصرف أوقاته في علم لا يترتب عليه نفع له أو للمسلمين في الدين أو الدنيا.. فما البال وما الخطب بمن يصرف أوقاته فيما يضر بالمسلمين!!

رابعًا: العمل بما علِم:

ما دام هناك إخلاص، وما دام هناك علم نافع ينبني عليه عمل.. إذن لابد أن يكون هناك استثمارٌ لهذا العلم.. وهو العمل به!

يقول **أبو الدرداء** ﷺ: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك يا رب، فيقول: «**ما عَمِلْتَ فيما عَلِمْت**»[(١)]؟!

وذكر **الخطيب البغدادي** بسنده قال: كان **إسماعيل بن إبراهيم بن جارية** يقول: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»[(٢)]..

ولفهم تلك القضية، فماذا يعني كونك - مثلاً - عندك من الأدلة على فضل صلاة الفجر، أو الصلاة في جماعة، والأهمية الكبيرة والثواب العظيم عليهما، والوعيد الشديد لمن يتخلف عنهما.. ثم تتخلف أنت..؟!

إن مثل ذلك العلم يكون حجة على الإنسان، لا حجة له.. وقس على ذلك كل العلوم، سواء في علوم الشريعة أو في علوم الحياة..

ومن هذه الوجهة، فقد قسم رسول الله ﷺ الناس إلى أربعة أصناف، وذلك بحسب العلم والمال الذي عندهم.. فهناك من أنعم الله عليهم بالعلم والمال، وهناك من حرمهم الله

(١) أبو محمد المنذري: الترغيب والترهيب ١/ ٧٤.

(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٥٨.

العلم والمال، وهناك من أعطاهم العلم ومنعهم المال، وهناك من رزقهم المال ومنعهم العلم..

فقد روى أبو كبش الأنماري - رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ**».

ذلك أن العلم عنده ضَبْطُ حركة المال، فجعله يتحكم فيه تحكمًا شرعيًا.. فتراه يأتي به من جهة حلال، وتراه ينفقه في الوجه الذي أحله الله، وفوق ذلك فهو لا ينسى حق ذلك العلم عليه، من جهة نشره وتعليمه وتدريسه..

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وما أعظم تلك المثوبة وذلك الجزاء العظيم، الذي هو متوقف فقط على الإخلاص والنية الصالحة!! وما أعظم الحسنات التي من الممكن أن يكتسبها الذي حرم المال وهو يبغي الإنفاق..!!

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

فحرمان العلم مع وجود المال، جعله لا يعرف وجوه الحلال والحرام في الإتيان به، أو صَرْفِه وضَبْطِ حركته، فتراه يتصرف فيه من تلقاء نفسه، فيتخبّط فيه مُعربدًا مَيْمَنةً وميسرةً، فيمسك تارة شُحًّا وحرصًا، وينفق أخرى فخرًا وسمعة ورياء..

وهكذا، فإن أكثر الأغنياء يفتنون.. يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو ذر ﷺ: «**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ** (في المال) **هُمُ الْأَقَلُّونَ** (في الحسنات) **يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ..**»(1).

فقليلٌ جدًّا من يُؤتى المال فيثبت، ويتصرف فيه بما ينبغي أن يكون..

أما الصنف الرابع:

---

(1) البخاري: كتاب الاستقراض والديون والحجر والتفليس، باب أداء الديون (٢٢٥٨)، مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة (٩٤)، وأحمد (٢١٣٨٥)، وابن حبان (١٧٠).

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»(١).

وإن هذا الصنف من الناس - والله - لمسكين.. فهو ليس لديه كثير مال، ولم يتعلم العلم ولم يطلبه، ورغم ذلك تراه يتمنى أن لو كان عنده مال، لعمل فيه - ليس بالتعلم، أو بإنفاقه في طرق الخير وفي مصارفه الشرعية، وإنما - بعمل ذلك الرجل العاصي، الذي ينفق ماله في معصية الله ﷻ، والذي يتكبر بماله ويتطاول به على الناس..!!

وقد وقع عليه وزر نيته..!!

وفي عدم العمل بالعلم يروي أسامة بن زيد ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أليس كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»(٢).

ويروي أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ»(٣).

وقال الحسن: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ كَانَتْ لَهُ فَجَعَلَهَا فِي الآخِرَةِ. قَالَ: وَقَالَ أَيْضًا: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ وَتَخَشُّعِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَصَلَاتِهِ وَزُهْدِهِ»(٤).

وفي أمثلة عمليّة وحيَّة على أحوال علماء الأمة في العمل بالعلم، فإن المروزي يقول: قال

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (١٨٠٦٠)، وقال الألباني: صحيح: (٣٠٢٤) صحيح الجامع.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

(٣) أحمد (١٣٤٤٥)، وابن حبان (٥٣)، والطبراني في الأوسط (٨٢٢٣)، وقال الألباني: صحيح (٢٩١) السلسلة الصحيحة.

(٤) الدارمي: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله (٣٨٥).

الإمام أحمد: ما كتبت عن النبي ﷺ حديثًا إلا وعملت به، (في مسند الإمام أحمد حوالي ٤٠,٠٠٠ حديث) حتى مر بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت[1]!!

بل إنه -رحمه الله- استأذن زوجته في أن يتخذ أَمَةً فأذنت له، فاشترى جارية بثمن يسير وسماها ريحانة؛ استنانًا بالرسول ﷺ!!

وهذا الحسن البصري -رحمه الله-، جاءه الرقيق يومًا وطلبوا منه أن يكلم الناس في خطبة الجمعة عن فضل عتق الرقاب؛ إذ كان الناس وقتئذٍ يَقبلون منه ما لا يقبلون من العلماء.. فقام الحسن في الجمعة الأولى فلم يتكلم في هذا، وفي الثانية لم يتكلم أيضًا، وفي الجمعة الثالثة تكلم فأحسن في فضل عتق الرقاب، وكان أن خرج الناس من المسجد فأعتقوا من كان عندهم من الرقيق..

وحينها جاء الرقيق المحررون لوجه الله تعالى يشكرون الحسن ويقولون: أبطأت علينا ثلاث جمع، فقال: لقد انتظرت حتى رزقني الله مالاً، فاشتريت عبدًا وأعتقته لوجه الله تعالى؛ حتى لا آمر الناس بما لم أفعل..!!

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قَطّ إلا عملت به، ولو مرةً واحدةً»[2]..

ويقول أبو رافع: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: سَجَدْتُ بِهَا خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»[3].

وفي العلوم الحياتية، فإن الصينيين كانوا قد اخترعوا البوصلة، إلا أنهم كانوا يستخدمونها في السحر والخرافات، وحينما وصلت لأيدي المسلمين، كانوا هم أول من استخدمها في الملاحة البحرية، وفي تحديد القبلة في الصلاة.. وبدأوا يطورونها كي

---

(١) الذهبي: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، إعداد محمد بن موسى الشريف ٢/ ٩٢٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٢

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في صلاة العشاء (٧٣٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة (٥٧٨)، وأبو داود (١٤٠٨).

تؤدي فوائد عملية للناس..

وقد مرَّ بنا سعي ابن الهيثم لتطبيق فكرته لبناء سدٍّ على النيل يحمي مصر من مياه الفيضان..

وهو الذي أنكر نظرية إقليدس وبطليموس في علم البصريات، والتي تقول بأن العين هي التي ترسل أشعتها على الأشياء، وأثبت بتجاربه العملية أن العكس هو الصحيح[1]..

أما الجزري -رحمه الله- (من علماء الهندسة الميكانيكية المعدودين) فقد طلب منه الخليفة أن يصنع آلة تغنيه عن الخدم كلّما رغب في الوضوء للصلاة، فصنع له الجزري آلة على هيئة غلام منتصب القامة، وفي يده إبريق ماء، وفي اليد الأخرى منشفة، وعلى عمامته يقف طائر، فإذا حان وقت الصلاة يصفر الطائر، ثم يتقدم الخادم نحو سيده ويصب الماء من الإبريق بمقدار معين، فإذا انتهى من وضوئه يقدم له المنشفة ثم يعود إلى مكانه، والعصفور يغرِّد[2]!!

وهكذا، كان للعلم الذي تعلمه العلماء المسلمون، سواء الشرعي أو الحياتي، تطبيق عملي في حياتهم اليومية، واستثمار حي وحقيقي له..

خامسًا: الرحمة:

من الأخلاق التي لابد أن يتصف بها العلماء أيضًا الرحمة..

فكثيرًا ما يضع العالِم حواجز كثيرة بينه وبين عموم الناس إذا لم يكن متصفًا بهذا الخلق العظيم: خلق الرحمة.. والناس عادةً تَنْفِرُ من الإنسان غليظ الطباع، قاسي المشاعر؛ ولذلك قد يحوي عقل العالِم علمًا هائلاً لكنه لا يستطيع أن يُفيد الخلق به؛ لأنَّ قلبه ما حوى رحمةً ولا شفقة!!

لذلك على العالم أن يتعلَّم الرحمة تمامًا كما يتعلَّم العلم، ويباشر هذه الرحمة مع عباد الله تمامًا كما يباشر تجاربه وقواعده وأصوله العلمية.

ومن هنا نفهم لماذا قدّم الله عز وجل صفة الرحمة عنده سبحانه وتعالى على صفة العلم؛ فقال: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ**

---

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٤.

(٢) محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام ٥/ ٢٣٧.

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

فالملائكة يصفونه سبحانه بأنه وسع كل شيء رحمة وعلمًا.. وقد قدَّموا قبل طلبهم وسؤالهم ودعائهم سبحانه للذين آمنوا - قدَّموا قبل ذلك رحمته ﷻ ولم يقدموا علمه.. في صورة إنما توحي باستئناسهم وارتياحهم وحاجتهم لهذه الرحمة أولاً..

بل إنه سبحانه قال يصف العبد الصالح الذي وُصِفَ بالعلم، والذي أُرْسِلَ إليه موسى عليه السلام كي يتعلم منه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦].

فقد رزقه الله الرحمة أولاً وزوّده بها، وذلك كي ييسر له التعامل مع الناس، ثم علَّمه ﷻ من علمه بعد ذلك..

وهذا بعينه ما بدا واضحًا في بقية أحداث القصة في الآيات التي جاءت بعد ذلك، وكيف عامل العبد الصالح موسى عليه السلام، وكيف صبر على أسئلته التي أثارها رغم تعهداته..

ومن أوضح الأمثلة العملية على ذلك، ما جسده رسول الله ﷺ بنفسه في حياته، فكان نعم المعلِّم هو ونعم المربي هو، ونعم القدوة هو ﷺ..

وانظر إلى تجسيد الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه لهذه الرحمة في التعليم، وذلك حين يصف سلوك رسول الله ﷺ معه؛ فيقول: «بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: «يَرْحَمُكَ اللهُ»، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: **إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ.**

قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: **فَلَا تَأْتِهِمْ**. قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قَالَ: **ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي**

صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ..»[١].

ولعلنا نلحظ بوضوح في هذا الموقف أن رحمة رسول الله ﷺ لم تمرَّ هكذا دون أن يلتفت إليها معاوية ﷺ أو ينتبه إليها، لقد علّق عليها، وذكر أنها من أجلّ صفات المعلِّم وأحسنها.. ثم لعلّنا نلحظ أيضًا أن هذه الرحمة هي التي شّجّعت معاوية على أن يتقدم بأسئلة أخرى ليستفيد ويستزيد.. ولو كان أسلوب المعلِّم غليظًا لامتنع السائل خشية التعرُّض للغلظة أو القسوة.

وإنَّ العجب بعد ذلك أن تجد علماء يستعملون هذه الغلظة في معاملتهم ودعوتهم، الأمر الذي ينفر الناس منهم، ويصدهم عن دعوتهم، فضلاً عن الاقتداء بهم..

وقد حدث قريب من هذا في عهد رسول الله ﷺ، فكان له معه موقف..

فقد روى أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي - وَالله - لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا! قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَذَا الْحَاجَةِ»[٢].

وإن مثل ذلك الخلق يتطلبه المعلِّم في كل مكان وكل مجال.. فيتطلبه الأب في البيت، والمدرس في المدرسة، والأستاذ في الجامعة، والطبيب في المستشفى أو العيادة.. ويتطلبه بصفة خاصة الداعية والمربي في كل أحواله ومقاماته..

سادسًا: توريث العلم:

نَقْلُ العلم هو أعظم استثمار له.. فبه قد وصل إلينا، وبه أيضًا يصل إلى غيرنا.. وإن أعظم الأعمال هي تلك التي لم يقتصر نفعها على صاحبها، وإنما التي يَتَعَدَّى نفعها إلى الآخرين..

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (٥٣٧)، والنسائي (١٢١٨)، وأبو داود (٩٣٠)، وأحمد (٢٣٨١٣).

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود (٦٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٤٦٦)، والدارمي (١٢٥٩)، وابن خزيمة (١٦٠٥)، وابن حبان (٢١٣٧)، والطبراني في الكبير (٥٦٠)، وابن أبي شيبة (٤٦٥٧).

ونقل العلم وبيانه للناس هو أعظم حق له على العلماء الربانيين.. فبه يتعلم الجاهل، ويَرْشُدُ الضال.. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران: ١٨٧].

ومن هنا فإن من أهم أخلاق العالم أيضًا هو أن ينفع بعلمه الآخرين، فينقله لهم ويورثه إياهم.. لتعم الفائدة، ويعود النفع على الأمة بأثرها..

وذلك الأمر قد فقهه جيدًا أبو هريرة ﷺ فيقول: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: «أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ»، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى..﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحِيمُ﴾ وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»[(١)].

وعن فضل ذلك ومكانته، يروي زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[(٢)].

وفي صورة رائعة، توضِّحُ فضل من يعلِّم العلم على غيره، فإن رسول الله ﷺ يضربُ المثل فيقول: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[(٣)].

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب حفظ العلم (١١٨)، وأبو داود (١٢٦١).

(٢) أبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (٤١٥٧)، والدارمي (٢٩)، وقال الألباني: صحيح (٤٠٤) السلسلة الصحيحة.

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم (٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢)، وأحمد (١٩٥٨٨)، وابن حبان (٤).

ومن هنا تراه ﷺ يحضُّ على تعليم الغير، فيقول في حِجة الوداع في خطبته الجامعة، عن أبي بَكْرة ﷺ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ**»(١).

وروى عثمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٢).

وفي شرحه يقول **ابن حجر**: والذي يُعلِّم غيره يحصل له النفع المُتعدِّي، بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمُعلِّم غيره يستلزم أن يكون تعلمه وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفعٍ مُتعدٍّ... ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمِّلٌ لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾(٣).

ويقول **معاذ بن جبل** ﷺ: «.. وتعليمه من لا يعلمه صدقة..»(٤).

ويقول **جابر بن عبد الله**: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره؛ فإن كاتم ذلك العلم ككاتم ما أُنزل على رسول الله ﷺ»(٥)!!

وهو يريد أنه إذا جاء زمان يلعن فيه الناس أوائل هذه الأمة، أي الصحابة -رضي الله عنهم-، فمن كان عنده علم في الدفاع عنهم فليظهره، وإلا فإن من يكتمه كمن يكتم ما أُنزل على رسول الله ﷺ.. وكلاهما أمر عظيم!!

ومن هنا كان التحذير الشديد من كتمان العلم عمن يسأل عنه..

فقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»(٦)!!

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع (٧٦)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وابن ماجه (٢٣٣).

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٤٧٣٩)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧).

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٧٦، والآية من سورة فصلت: ٣٣.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ١١.

(٥) الطبراني في الأوسط: (٤٣٠)

(٦) أبو داود: كتاب العلم: باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٤)، وأحمد (٧٥٦١)، والحاكم (٣٤٥)، وقال: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح (٦٢٨٤) صحيح الجامع.

ولعلَّنا ندرك بعد ذلك سبب انتشار علم الإمام مالك، حتى صار له مذهبٌ فقهيٌّ خاصٌّ به، وعدم انتشار علم الإمام **الليث بن سعد** - **رحمه الله**-، وقد كان فقيه عصره وإمامه البارز..!!

وتظهر الحقيقة في أنَّ الإمام **مالك** - **رحمه الله**- كان له من التلاميذ الذين يبلِّغون عنه، وينشرون علمه، في حين لم يجد الإمام **الليث** من يحمل مذهبه حتى يعُمَّ وينتشر.. وقد أشار إلى هذه الحقيقة **الإمام الشافعي** - **رحمه الله**- حين قال: «**الليث بن سعد** أفقه من **مالك**، إلا أن أصحابه لم يقوموا به»[1].

وبذلك أيضًا استفادت الدنيا من علم **الرازي** - **رحمه الله**-.. فقد كانت له مدرسة في تعليم الطب؛ فكان يؤلف الكتب، ويجري التجارب والأبحاث مع طلبة العلم، وكان يقوم بجولة معهم للاطمئنان على المرضى.. فورَّث - **رحمه الله**- العلم، واستفادت منه ليست أمة الإسلام فحسب، وإنما البشرية جمعاء..!!

وفي العلوم الحياتية أيضًا، فقد أهدى **أبو نصر بن عراق** (وهو من علماء القرن الرابع الهجري، وله مصنفات في الآلات الفلكية والمثلثات) أكثر كتبه ورسائله إلى **أبي ريحان البيروني**، وقد اعترف له البيروني بفضله، فكان يلقبه بـ «أستاذي»[2]!!

أما **الجلدكي** (وهو من علماء القرن الثامن الهجري)، والذي اشتهر بسعة اطلاعه وتبحره في علم الكيمياء، فكان مُحِبًّا لنشر هذا العلم بين الناس؛ ولذلك كانت داره مفتوحة أمام طلاب المعرفة، وصدره واسعًا لإجابة من يستفتيه في مسألة من مسائل الكيمياء، أو أي فرع من فروع المعرفة[3]..

سابعًا: الأمانة العلمية:

لعلنا يجب أن نقف كثيرًا أمام أهم صفتين اتصف بهما رسول الله ﷺ حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة ويتعلَّم العلم، وهما صفتا: الصدق والأمانة؛ إذ عُرِف بهما في مجتمعه، مما كان له أبلغ الأثر بعد ذلك في نجاحه في توصيل علمه ودعوته للناس..

---

(١) ابن حيان الأنصاري: طبقات المحدثين بأصبهان ١/ ٤٠٦.

(٢) هداية العارفين ص٦٩٨.

(٣) رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام ٤/ ٥٠-٥٥.

وإن القلب ليحزن حقيقةً عندما يرى أن هذا الخلق قد افتُقِد كثيرًا في زماننا هذا.. فتجد من يسرق الصفحات ولا ينسبها إلى أصحابها، بل تجد من يسرق الكتب كاملة ويحصل بها على درجات الترقية في الجامعات الأكاديمية، ودون أي رادع إيماني أو إلزام خلقي يصدُّه عن ذلك..!!

وهذه الآفة من أخطر الأخلاق وأخبثها..

ولأجل ذلك فقد كان علماء المسلمين في كل علومهم، سواء كان علمًا شرعيًّا أو حياتيًّا - كانوا حريصين أشد الحرص على تحري الدقة والأمانة العلمية فيما ينقلونه عن غيرهم، حتى ولو كان النقل عن مجهولين، وكان ذلك واضحًا في كل كتبهم وتصانيفهم..

من هذا مثلاً ما يقوله ابن الأثير في مقدمة كتابه (الكامل) بعد أن يذكر السبب الذي من أجله كان كتابه هذا: «ولا أقولُ إني أتيتُ على جميع الحوادث المتعلّقة بالتاريخ؛ فإنَّ من هو بالموصل لابد أن يشذَّ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمَّله عَلِمَ صحّة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبريّ؛ إذ هو الكتاب المعوّل عند الكافة عليه، والمرجوعُ عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أُخِلّ بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كلّ رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربّما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدتُ أتمّ الروايات، فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقًا واحدًا على ما تراه.

فلمّا فرغتُ منه وأخذتُ غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعتُ كلّ شيء منها موضعه..»[1].

وترى المقريزي في مقدمة كتابه (المواعظ والاعتبار) يذكر أنه سلك في كتابه هذا ثلاثة أنحاء، وهي:

«النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخه العلم وجِلَّة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٧، ٨.

الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم؛ فإني أعزو كل نقلٍ إلى الكتاب الذي نقلته منه؛ لأخلص من عهدته، وأبرأ من جريرته، فكثيرًا ممن ضمني وإياه العصر، واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ، وجهل مقالات الناس، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه، ولا يحتاج في الشريعة إليه، وحسب العالم أنْ يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه.

وأما الرواية عمن أدركت من الجِلَّة والمشايخ؛ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدّثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته، وقلّ ما يتفق مثل ذلك.

وأمّا ما شاهدته؛ فإني أرجو أن أكون - ولله الحمد - غير متهم ولا ظنين..»[1].

وهذا **أبو كامل المصري**، من علماء القرن الثالث الهجري، والذي كان يُلقب بأستاذ الجبر، وقد صنف فيه كتابه المعروف بـ (الكامل بالجبر).. فقد ذكر في هذا الكتاب أيضًا أنه إنما هو تكملة لما وصل إليه أستاذه محمد بن موسى الخوارزمي عن الجبر والمقابلة[2]..!!

بل إن **أبناء موسى بن شاكر** - الذين ذكرناهم سابقًا - كان لهم مع الأمانة العلمية شأن عجيب..

فتراهم في أشهر كتبهم، وهو «الحِيَل»، يوضحون ما ليس من عملهم، وما قد يخفى على كثير من أمتهم فيقولون: «فكل ما وصفْنا في كتابنا فإنه من عَمَلنا، إلا معرفة المحيط من القطر؛ فإنه من عمل أرشميدس، وإلا معرفة وضع مقدارين بين مقدارين لتتوالى على نسبة واحدة؛ فإنه من عمل مانا لاوس»[3]!!

وأعجب من ذلك أن ترى العالم المسلم يشهد على أبيه؛ التزامًا بنهج رسول الله ﷺ..!!

فقد ذكر ابن حبان أن **علي بن المديني** سُئِل عن أبيه فقال: اسألوا غيري.

فقالوا: سألناك.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار مقدمة الكتاب.

(٢) الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص١٩٩.

(٣) انظر: بنو موسى: كتاب معرفة مساحة الأشكال ص ١٧، ٢٥.

فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: هذا هو الدين، «أبي» ضعيف[1]!!

دفعته الأمانة العلمية إلى أن يعترف بالحق، فيُضعِّف أباه؛ حتى لا يُؤخذ عنه ما قد يُسيء إلى العلم، أو إلى الدين بصفة عامة..

وفي الحديث عن الأمانة العلمية، فإن ذلك يجُرُّنا إلى أمر أعظم من مجرد سرقة الأفكار أو الكتب، وهو التظاهر بالمعرفة العلمية.. أو قل إنه: الفتوى بغير علم!!

وذلك ليس في العلوم الشرعية فقط، بل في كل مجالات العلوم، قلَّ شأنها أو عظم، حتى لَيتسع فيشمل المسئول في الشارع، والمستشار في الزواج، والطبيب في مستشفاه، والقاضي في محكمته.. وأخطر من هذا كله: الفتوى في الدين!!

وفي مثل ذلك روى البخاري وابن حبان - واللفظ له - عن مسروق - رحمه الله- أنه قال: «بينما رجل يُحدِّث في كندة قال: يجيء دخان يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام. قال: ففزعنا، فأتيت ابن مسعود، قال: وكان متكئًا، فغضب، فجلس، وقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم شيئًا فليقل: «الله أعلم»؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «لا أعلم»؛ فإن الله جل وعلا قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2].

فهذا الرجل يروي عن أحداث يوم القيامة ما لا علم له به، ولم يأتِ في آية قرآنية أو حديث شريف؛ مما أثار غضب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ؛ فطفق يعلِّم السامعين أهمية توقف المسلم عند ما يعلمه، وأهمية قول: لا أعلم.

وهذه هي القاعدة العريضة التي لابد أن يحتكم إليها كل إنسان، فمن كان عالمًا قال بعلمه، ومن لم يكن عالمًا لا ينبغي له أن يعطي الناس شيئًا هو فاقده؛ ذلك أن من أفتى بغير علم ضلَّ وهلك.!!

وقد روى الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عمر أنه قال: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسُنّة ماضية، ولا أدري»[3].

---

(١) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، باب الم غلبت الروم في أدنى الأرض (٤٤٩٦)، وابن حبان (٦٥٨٥)، والآية من سورة ص: ٨٦.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٢٣.

ولا غرو.. فقد انتفت يومًا «لا أدري»، فحدثت الحادثة، ووقعت الكارثة.. وقتِل صحابي بسبب فقدها!!

يقول جابر ﷺ: «خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ. فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ؛ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ** (أي: الجهل أو: التحير في الكلام) **السُّؤَالُ؛ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ، أَوْ يَعْصِبَ** - شَكَّ مُوسَى - **عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**»[1].

إنَّ كثيرًا من الناس يستحيون من ذكر كلمة «لا أعلم»، وكأنه على الإنسان أن يعلم علوم الدنيا والدين جميعًا!! وما أبلغ الدرس الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ، وهو يجيب أحيانًا عن بعض الأسئلة بقوله: «لا أدري»، مع كونه أعلم الخلق، وسيد البشر، وخير الرسل..

يروي جبير بن مطعم ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟

قَالَ: فَقَالَ: «**لَا أَدْرِي**».

فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ قَالَ: «**يَا جِبْرِيلُ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟**»

قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي ﷻ.

فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ ﷺ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقُلْتُ: «لَا أَدْرِي»، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «أَسْوَاقُهَا»[2].

وليس هذا هو الموقف الوحيد في حياته ﷺ؛ فقد سُئِل عن أهل الكهف، وسُئِل عن الساعة، وكذلك عن الرُّوح، وسُئِل عن ذي القرنين.. ولم يُجب عن كل ذلك حتى نزل عليه

---

(١) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (٣٣٦)، والدارقطني (٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠١٦) صحيح أبي داود (٣٢٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) أحمد (١٦٧٩٠)، والحاكم (٢١٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح، وأبو يعلى (٧٤٠٣)، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

الوحي بالإجابة، وهو في ذلك غير ناظرٍ ولا عابئٍ بما كان يقوله المشركون حين يتأخّر الوحي بها[1]!!

وقد وعى الصحابة ﷺ الدرس، وتعلموا منه ﷺ كلمة «**لا أعلم**»، وصارت لهم منهجًا في الحياة.. والأمثلة على ذلك في كتب السنن أكثر من أن تُحصَر، فمنها ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[2].

فلم يُفتوا ﷺ بغير علم، ولم يتطوع أحدٌ منهم بتبسيط المسألة، أو باقتراح إجابة.. بل إنهم شَفَعُوا «**الله ورسوله أعلم**» بسؤال يوضح لهم الصورة أكثر مما علموه عنها!!

ويقول الشعبي: «كان أبو بكر يقول: أي سماء تُظِلُّني وأي أرض تُقِلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[3]!!

وعلى هذا النهج سار علماء الأمة من بعدهم..

يقول **ابن القيم** في (إعلام الموقعين): «وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويَوَدّ كل واحدٍ منهم أن يكفيه إياها غيرُه، فإذا رأى أنها قد تعيّنت عليه بذل اجتهاده في معرفة حُكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى»[4].

ويقول عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ: «أدركت عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم رجلٌ يسأل عن شيء إلا وَدَّ أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث حديثًا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه»[5].

وهذه قصة رائعة يرويها أبو عياش ﷺ توضح نفور علماء الصحابة والتابعين من الفتوى إلا عند الاضطرار.. يروي أبو عياش أنه كان جالسًا عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر

---

(١) انظر البخاري: كتاب العلم، باب وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١٢٥)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (٢٧٩٤).

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، وابن حبان (٥٧٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧١٩).

(٣) ابن أبي شيبة: (٣٠١٠٣).

(٤) ابن القيم: إعلام الموقعين ١/ ٣٣.

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٤.

فجاءهما محمد بن إياس بن البُكَيْر؛ فقال: إن رجلاً من أهل البادية طلق امرأته ثلاثًا؛ فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول؛ فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة، فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي ﷺ، ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبْت فسألتهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة. فقال أبو هريرة: الواحدة تُبِينُها، والثلاث تُحرِّمُها حتى تنكح زوجًا غيره[(١)].

ويقول ابن عباس: إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون[(٢)].

وقال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه[(٣)]!!

ويقول حذيفة: إنما يُفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: من يعلم ما نُسِخ من القرآن، أو أميرٌ لا يجد بدًا، أو أحمق متكلف. قال: وكان ابن سيرين يقول: فلست بواحد من هذين، ولا أحب أن أكون الثالث[(٤)]!!

ويقول النووي عن عطاء بن السائب التابعي: «أدركتُ أقوامًا يسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم وهو يرعد»[(٥)]!!

وعن الهيثم بن جميل قال: شَهِدْتُ مالكًا سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري»[(٦)]!!

وعن مالك أيضًا: أنه ربما كان يُسأل عن خمسين مسألة فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف خَلاَصُه، ثم يجيب»[(٧)].

وسُئِل عن مسألة فقال: «لا أدري»، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال:

---

(١) الموطأ، رواية يحيى الليثي ٢/ ٥٧١.

(٢) ابن القيم: إعلام الموقعين ١/ ٣٤.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٥.

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٥.

(٥) النووي: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي مقدمة الكتاب.

(٦) القاضي عياض: ترتيب المدارك ١/ ١٤٤.

(٧) انظر: الشهرزوري: أدب المفتي والمستفتي ص٧٩ - ٨٠، القاسمي: الفتوى في الإسلام ص٤٥.

«ليس في العلم شيء خفيف»(١).

وقال حماد بن زيد: «سُئِل أيوب عن شيء فقال: لم يبلغني فيه شيء. فقيل له: فقل فيه برأيك. فقال: لا يبلغه رأيي»(٢)!!

وهذا ابن النفيس شيخ الطب في زمانه، ومكتشف الدورة الدموية الصغرى، تقدم إليه أحد المرضى، وسأله عن علاج لورمٍ في يده، فلمّا فحصه قال في تواضع: «أعرف صفة الورم، وأتفهَّم أسبابه، ولكنني لا أعرف له علاجًا؛ فالتمسه عند غيري»(٣).

ثامنًا: العزة:

لم يرث الأنبياء غير العلماء، وإذا كانت رتبة النبوة أعلا المراتب وأشرف المنازل عند الله ﷻ.. فإنه لا يليها في المرتبة والمنزلة غير تلك التي ورثتها.. ولقد قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالعلماء أعزّاء بالعلم الذي هو إرث الأنبياء.. فلا يَخضعون ولا يذِلُّون ولا يُهانون؛ إذ إنهم لا يريدون من دنيا الناس شيئًا؛ حكامًا كانوا أو محكومين..!!

وهكذا، فلا يضيرهم كيد المستكبرين، ولا ظلم المستبدين، ولا بريق أموال المزهوين..

ويستوي في ذلك الأمر أن يكونوا أغنياء أو فقراء.. فإنهم يعلمون قوله ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»(٤).

ومصداق ذلك ما ذكره ابن عبد البر من أن الحَجَّاج سأل خالد بن صفوان: مَنْ سيد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن (الحسن البصري). فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟! فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشراف أهل البصرة إلا يروم الوصول إلى حلقته؛ ليستمع قوله ويكتب علمه.

---

(١) النووي: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، مقدمة الكتاب.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٢٤٧.

(٣) انظر في ذلك صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ج٢ ص ١٧٥ .

(٤) البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٦٠٨١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، وابن ماجه (٤١٣٧)، وأحمد (٧٥٤٦)، وابن حبان (٦٧٩)، وكلٌّ عن أبي هريرة ﵁.

فقال الحجاج: هذا - والله - السُّؤْدد!!

وتلك العزة التي هي في الغنى، صورها **الشافعي** - **رحمه الله**- حين قال منشدًا:

أمطري لؤلـؤًا جبال سـرنديب ... وفيضـــي آبـــار تبريـــز تـــبرًا

أنا إن عشت لست أعـدم قوتًـا ... وإذا مـــت لســـت أعـــدم قـــبرًا

همــتي همــة الملــوك ونفســـي ... نفـــس حـــر تـــرى المذلــة كفــرًا

وإذا ما قنعت بـالقوت عُمـري ... فلمــاذا أهــاب زيـدًا وعمـــرًا؟!

وجسّدها **أبو حازم التابعي** - **رحمه الله**- حين دخل على الخليفة الأموي **سليمان بن عبد الملك**؛ ورأى منه الأخير عزته وقوته في الحق؛ فقال له يطلب صحبته:

هل لك أن تصحبنا، وتصيب منا ونصيب منك؟ قال: كلا. قال: ولم؟ قال: إني أخاف أن أَرْكَنَ إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا يكون لي منه نصير. قال: يا أبا حازم، ارفع إليَّ حاجتك. قال: نعم، تُدخلني الجنة، وتُخرجني من النار. قال: ليس ذاك إليَّ. قال: فما لي حاجة سواها[1].

وذكر **السيوطي** أيضًا في حسن المحاضرة أن السلطان **الصالح إسماعيل** استعان بالصليبيين وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ **عز الدين بن عبد السلام**، وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ **جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي**، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية. فأرسل السلطان إلى الشيخ **عز الدين** - وهو في الطريق - رسولاً يتلطف به في العودة إلى دمشق، فاجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئًا إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير!!

فقال الشيخ له: يا مسكين، ما أرضاه يُقبِّل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده! يا قوم، أنتم في وادٍ وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم[2].

وفي مواقف أخرى له أيضًا يقول **الباجي**: خرج السلطان أيوب في يوم العيد في أُبَّهة الملك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ **العز بن عبد السلام**، وناداه: يا

---

(١) سنن الدارمي (٦٤٧)، وأبو نعيم: حلية الأولياء ٣/ ٢٣٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ١٦٢.

أيوب، ما حُجَّتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّئ لك مُلك مصر ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

فقال العز: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون -!!

قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال العز: أنت من الذين يقولون: «إنا وجدنا آباءنا على أمة»؟!

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

فسأله الباجي: أما خفته؟

قال العز: والله يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقِط[1]!!

والأمثلة في ذلك جِدُّ كثيرة.. وكلها تجسد وضْع العلماء الصحيح بين الناس، وكيف أنهم هم القادة لا المقودون، وأنهم هم الموجِّهون لا الموجَّهون..

تاسعًا: التواضع:

طالما كانت العزة من شيم العلماء وأخلاقهم، فكان لابد أن يأتي التواضع تاجًا يزين رؤوسهم..

وكما أن العزة لا تعني الغرور أو الكبر، فكذلك التواضع لا يعنى التَّذَلُّل أو التَّزَلُّف.. وإنما يعني أن يُنصف العالِمُ غيره من نفسه، وأن يقف عند حدود علمه لا يتجاوزه، وألا يتدخل فيما ليس هو من اختصاصه.. كما أن منه أن يَعِيَ جيدًا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].. وهذا هو المعني بخلق التواضع عند العلماء..

إن العالم المتواضع يُدْرِك أن بضاعته في العلم قليلة مهما زادت، وبسيطة مهما عظمت، وليس أدل على ذلك من موقف واحد من أعظم علماء الأرض، وهو الخضر ؛ إذ يُقدِّر علمه بالقياس إلى علم الله ﷻ بقولٍ عجيب..

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية ٨/ ٢١١.

لقد جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة التي كانت تُقِلُّ موسى والخضر عليهما السلام، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: «يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ..»(١)!!

وهذا الشعور الدائم بالقلة والبساطة هو الذي يورث التواضع في القلب..

وهو ما عناه **الشافعي** حين قال:

كلَّما أدَّبني الدهر ... أراني نقص عقلي

أو أراني ازددتُ علمًا ... زادني علمًا بجهلي!

وهو أيضًا ما أدركه **الفخر الرازي**، إمام علم الكلام والفلسفة والعقيدة في عصره، وصاحب التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) حين قال في أخريات حياته:

العلم للرحمن جلَّ جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغمُ

ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلمُ!

وذلك الشعور هو ما يدفع العالم الربّاني إلى أن يعرف قدر نفسه وقدر غيره.. فلا ينتقص من غيره، ولا يتعالى هو عليهم.. وفي ذات الوقت لا يزهو بنفسه، ولا يأخذه العجب أو الغرور بما عنده، وما حصله..

وقد قال رسول الله ﷺ: «**يظهر الإسلام حتى يختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أفقه منا؟ من أعلم منا؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أولئك منكم من هذه الأمة، فأولئك هم وقود النار**»(٢).

وذلك شأن العلماء المغرورين، والذي إن دلَّ حالهم على شيء فإنما يدل على جهلهم وقلة علمهم؛ إذ لو كانوا يعلمون، لعلموا أنهم ما حصَّلوا كثيرًا، بل ولا قليلاً!!

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٢٢٠)، الترمذي (٣١٤٩)، وابن حبان (٦٢٢٠).

(٢) الطبراني في الأوسط ٦/ ٢٢١، والبزار (٢٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار موثقون.

وقد ضرب الإمام **مالك بن أنس** - رحمه الله- أروع الأمثلة في تجسيد خلق التواضع عند العلماء؛ فقد روى **ابن عبد البر** عنه أنه قال: لما حجَّ **أبو جعفر المنصور** دعاني فدخلتُ عليه فحدثته، وسألني فأجبته فقال:

إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها - يعني الموطأ - فينسخ نسخًا ثم أبعث إلى كل مصر (قطر أو بلد) من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يَتعدَّون إلى غيره، ويَدَعُون ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث؛ فإني رأيتُ أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورَوَوا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف الناس: أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فَدَعِ الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد لأنفسهم.

فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به. قال الراوي بعد نهاية القصة: «وهذا غاية في الإنصاف لمن فَهِم»[(١)]!!

ورُوِيَ أيضًا عن **عبد الرحمن بن القاسم** أنه قال **لمالك**: ما أعلم أحدًا أعلمَ بالبيوع من أهل مصر. فقال له **مالك**: وبم ذلك؟ قال: بك. فقال: أنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بي[(٢)]؟!

وهكذا يكون العالم المتواضع.. وهكذا تكون مواقفه وردود فعله..

يروي أبو هريرة ؓ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[(٣)].

وفي التحذير من الضِّدِّ، قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[(٤)].

---

(١) الموطأ - رواية محمد بن الحسن ١/ ٣٣.

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٣).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٨٩٩٦)، ومالك برواية محمد بن الحسن (١٨١٧).

(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي (١٩٩٨)، وابن ماجه (٥٩)، وأحمد (٣٧٨٩).

وقال رسول الله ﷺ أيضًا: «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[1].

عاشرًا: العمل في فريق، والبداية من حيث انتهى الآخرون:

إذا قام العالم بكل ما سبق من أعمال، واتصف بكل ما سبق من خِلال، فلا شك أنه يكون عالمًا متميزًا جليلاً.. لكن هذا لا يكفي لتنمية وتطوير حركة العلم، ولا لرِفعة ونهضة الأمة، إنما يحتاج العلم وتحتاج الأمة إلى تضافر الجهود، وتفاعل الطاقات.. ولا يكون هذا إلا حين يضع العالِم يده في يد غيره من العلماء.. وكذلك بأن ينظر بصورة عملية وجدية في جهود السابقين والمعاصرين من أقرانه في العلم.

ووَضْعُ اليد في يد الآخرين هو ما يمكن أن نسميه «العمل في فريق»، وهذا ولا شك يحقق أهدافًا مهمة، مثل: الإبداع، وسرعة الإنجاز، وزيادة الإنتاج، ودقة الإتقان، وبروز الكفاءة العالية.. كما أنه يُساعد على إيجاد روح التطوير، وصناعة مادة التقدم والحضارة..

وذلك كله يفتقده العمل الفردي، والذي تقوم عليه - للأسف - كثيرٌ من المؤسسات في الأمة الإسلامية، كما رأينا قبل ذلك في عرضنا لتسجيل براءات الاختراع بالنسبة للشركات والمؤسسات.. إذ لم يوجد بين الشركات الكثيرة التي سجَّلت براءات اختراع شركة واحدة إسلامية، وكانت براءات الاختراع عندنا - على قِلَّتِها - إنما هي من نصيب الأفراد فقط!!

وقد أدرك علماء المسلمين في تاريخنا تلك القيمة، فأثْروا الحياة العلمية في جميع المجالات، واستطاعوا أن يصنعوا نهضة الأمة وحضارتها..

وقد تجلَّت قيمة «العمل في فريق» - على سبيل المثال - في ظهور مذهب الإمام **أبي حنيفة النعمان - رحمه الله-**؛ فقد كان أبو حنيفة يحضُرُ - كعادة العلماء المسلمين في تحصيلهم للعلم - حلقة **حماد بن أبي سليمان**، وبعد موت شيخه **حماد** آلت رياسة الحلقة إليه، وقد التف حوله تلاميذه ينهلون من غزير علمه..

إلا أنَّ **أبا حنيفة** كانت له طريقة خاصة حين تطرح المسائل والقضايا المختلفة في حلقته؛ فلم

---

(١) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٨٧٢).

يكن يتصدى لها هو في البداية، وإنما كان يطرحها على تلاميذه أو فريقه - إن جاز التعبير - أولاً، ثم يُدلي كل منهم برأيه فيها، ويقوم أبو حنيفة بجمع كل هذه الآراء ومناقشتها، ثم يصوِّب أخيرًا ما ارتآه صوابًا.. ليحصل الإبداع والإثراء، ومن ثَمَّ الوصول إلى أفضل الحلول..

ولم يكن هذا خاصًّا فقط بالعلوم الشرعية، إنما وجدناه كذلك في العلوم الحياتية.. ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما تمَّ في زمان الخليفة العباسي العالم المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)؛ حيث قام العلماء بأوّضل محاولة لقياس أبعاد الكرة الأرضية.. والذي يهمنا هنا هو أنه قام بذلك عن طريق فريقين من العلماء - سيأتي تفصيل ذلك لاحقًا إن شاء الله- وكان أحد هذين الفريقين: «**بنو موسى بن شاكر**»!!

وفي ذلك يقول المستشرق (نللينو): «إن قياس العرب (المسلمين) للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجرِيَ كله مباشرة، مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة **وهذا الفريق الكبير من العلماء والمسَّاحين العرب**؛ فهو يُعدُّ من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية»[1].

أما بنو **موسى بن شاكر** - وقد مرَّ بنا قبل ذلك حديث عنهم - فكانوا وحدهم فريقًا متكاملاً، ولا نكون مغالين إذا قلنا بأنهم أول فريق علمي ظهر في العالم!! وفي كتابهم المشهور «الحِيَل» في علم الهندسة والميكانيكا، اتضحت روح الفريق بشكل مباشر، وتجسَّد فيه مبدأ العمل الجماعي القائم على المشاركة والتعاون، حتى إنه ليصادفك كثيرًا عبارات مثل: «نريد أن نجد..»، «وذلك ما أردناه..»، كما تجد أن أغلب أفعال المضارعة هي مثل: «نبين»، «نقول»، «نريد».. وهكذا..

إننا لا نشك في أن هذه الجماعية هي التي كانت سببًا في نبوغهم وتقديمهم للأمة وللبشرية ما لم يضارعهم فيه أحدٌ في زمانهم، يقول عنهم ابن خِلِّكَان: «.. الإخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم حِيَل بني موسى، وهم مشهورون بها.. وكانت لهم همة عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وأتعبوا أنفسهم في شأنها، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم، وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة..»[2]!!

---

(١) نللينو: علم الفلك عند العرب.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٦١.

ومن عجائب الحكمة التي ظهرت أيضًا بفضل التعاون والعمل في فريق، ما كان بين ابن رشد وابن زهر (أبي مروان بن زهر)..

فحين ألَّف ابن رشد كتابه «الكُلِّيات»، والتي تعود شهرته في الطب إليه، وقد جمع فيه النظريات العامة لعلم الطب، والمبادئ الأساسية لعلم الأمراض - حين ألَّف كتابه هذا، رأى أنه في حاجة إلى كتاب آخر يُكَمِّله، ويكون مقصورًا على الجزئيات؛ لتكون جملة كتابيهما - كما يذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء - ككتاب كامل في صناعة الطب.. ومن ثَمَّ قصد ابنُ رشد أبا زهر (الطبيب الأندلسي الشهير) وكانت بينهما مودة، ورجاه أن يقوم بهذه المهمة..

وقد تم له ما أراد، وألف ابن زهر أهم كتبه وهو: «التيسير في المداواة والتدبير» وهو موسوعة طبية عظيمة، وفيه تظهر براعة ابن زهر وتضلُّعه في الصناعة الطبية!!

ولذلك تجد ابن رشد يقول في آخر كتابه «الكليات»: «فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عَرَض عَرَضٍ من الأعراض الداخلة على عضو من الأعضاء، وهذا وإن لم يكن ضروريًا لأنه منطوٍ بالقوة فيما سلف من الأقاويل الكُلية ففيه تتميمٌ ما وارتياض؛ لأنَّا ننزل فيها إلى علاجات الأمراض بحسب عُضْوٍ عضوٍ، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش (الكتب)، حتى نجمع في أقاويلنا هذه إلى الأشياء الكلية الأمور الجزئية؛ فإن هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها إلى الأمور الجزئية ما أمكن، إلا أنا نؤخِّر هذا إلى وقت نكون فيه أشد فراغًا لعنايتنا في هذا الوقت بما يهم من غير ذلك، فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء، وأحب أن ينظر بعد ذلك إلى الكنانيش، فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقَّب بـ«التيسير» الذي ألَّفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر، وهذا الكتاب سألته أنا إيَّاه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً إلى خروجه..» (1).

ومن هنا تظهر قيمة العمل الجماعي في الوقوف على ما هو أهم ومطلوب، ومن ثم تكميل النقص، وإثراء العلم.. وتقدم الأمة!!

وغير «العمل في فريق» هناك أيضًا خاصية مهمة في ضمان خروج العمل في أفضل صورة ممكنة، وهي خاصية «البدء من حيث انتهى الآخرون».. فكل حضارة معتبرة لم تبدأ أبدًا من

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣١٩، ٣٢٠.

الصفر، وإنما تبدأ من حيث انتهى سابقوها.. ولو بدأت كل حضارة في مضمار العلوم من الصفر لما ازدهرت أي حضارة، ولما وصلت حضارة اليوم إلى ما وصلت إليه من هذا التقدم العلمي المذهل..

وقد ارتكز المسلمون في نهضتهم على الحضارات التي سبقتهم، من فرعونية وإغريقية ويونانية وفارسية، واستطاعوا بعد ذلك أن يواصلوا العطاء والتقدم الذي ابتدأه من سبقهم، وقد قَدَّموا في ذلك للإنسانية - وللنهضة الأوروبية بصفة خاصة - أجل ما يمكن أن تفخر به!!

وعلى هذا فإن ما نريده اليوم هو أن نبدأ من حيث انتهى أو من حيث يقف سابقونا؛ إذ هي سنة قيام الأمم والحضارات، واللاحق في ذلك يبني على السابق..

فإذا كانت شركة سنجر الأمريكية - على سبيل المثال - لم تخترع ماكينة الخياطة، فإنها أضافت إليها تطوير الحركة الميكانيكية بالرجل بدلاً من اليد، واستطاع **سنجر** بذلك أن يحقق نجاحًا باهرًا في تسويق وبيع الماكينات، وفي ذات الوقت إفادة الإنسانية وتقدم الحضارة!!

وأمّا في العلوم الشرعية فلا تعتمد حضارتنا أبدًا على حضارات أخرى؛ فديننا مكتمل وشرعنا تامّ، قال تعالى: ﴿**اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]... ومع ذلك ففي مجال التصنيف والتأليف يمكن أن يكمل عالم جهود علماء سابقين، وبذلك تستفيد الأمة، وتكتمل العلوم.

وقد قام الإمام **النووي** -رحمه الله - على سبيل المثال - بالبدء في تصنيف كتاب (المجموع شرح المهذَّب)، ولكنه مات ولم يتمّه؛ فجاء الإمام **السبكي** -رحمه الله -، وابتدأ في إكمال الشرح، ومات أيضًا قبل أن يتمه؛ فجاء الشيخ **محمد نجيب المطيعي** -رحمه الله -، وأكمل ما بدأه الشيخان من عمل..

ولو حاول كل واحد ممن أَتوا بعد الإمام **النووي** أن يُصَنِّف شرحًا خاصًّا به.. فترى كم كان يضيع من الزمان، وكم كان يضيع من علم لعالم مثل النووي، وكم كان يضيع من استفادة يستطيع اللاحقون أن يبنوا عليها..؟!

ومثلما فعل هؤلاء فعل أيضًا جلال الدين السيوطي في تفسير القرآن المسمَّى بـ «**تفسير الجلالين**»، وهذه التسمية جاءت نسبة إلى مؤلِّفيه الجليلين: جلال الدين المحلِّي، وجلال الدين

السيوطي؛ وهو من التفاسير القيِّمة المفيدة، التي لاقت انتشارًا واسعًا بين المسلمين..

فقد بدأ الإمام جلال الدين المحلِّي –رحمه الله –، وهو من العلماء البارزين في القرن الثامن الهجري، بتأليف هذا التفسير من سورة الكهف، وانتهى به إلى سورة الناس، وعندما شرع في تفسير سورة الفاتحة وما بعدها وافته المنيَّة.. فجاء الإمام السيوطي من بعده، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، فشرع في تكميله، واستطاع أن يتمه إلى نهاية سورة الإسراء.

وبهذا العمل اكتمل هذا التفسير العظيم، والذي كان له من القبول والنفع الكثير، وبه حُفِظ علمٌ من الضياع، كما حُفظ وقتٌ ثمينٌ من أن يُهدر..

وغنيٌّ عن البيان أنه لكي يقبل عالمٌ أن يتعاون مع الآخرين ويأخذ منهم ويعطي لهم، لا بد أن يكون متواضعًا متجردًا، لا يبغي نفعًا شخصيًّا ولا مصلحة ذاتية.. ولو توفَّر لدينا هذا النوع من العلماء، فهذه – واللهِ – هي أولى خطوات الرِّيادة!!

***

الفصل الخامس

تَنْشِئَةُ الْعُلَمَاءِ

نسعد كثيرًا، ويأخذنا الإعجاب والفخر كل مأخذ، حين نسمع عن عالمٍ عظيم نبغ في مجال من مجالات العلوم المختلفة، ويزداد الإعجاب والفرح حين يكون هذا العالم مسلمًا ملتزمًا بتعاليم دينه، يبغي الصلاح ونفْع الأمة.. والعجيب أن هذا الشعور وذاك الإحساس أحيانًا لا يتخطَّى حاجز النظرة العابرة واللحظة الآنية، تلك التي تنظر فقط إلى الأمور في نهايتها، وإلى الثمار في أوج نضجها، وليس إلى النَّبْت من أول غرسه وكيف نبَت!!

وإنه لحريٌّ بنا - ونحن نبغي العلم ورفعة الأمة - أن نقف على ذاك النبت منذ بدايته.. كيف ينمو؟ وكيف ينشأ؟ وما هي السبل التي من شأنها أن تخرج لنا هذه الثمرة الطيبة؟ وهي: «العلماء»!!

وإذا كنا قد ذكرنا في هذا الصدد جهد العالم نفسه، وأهمية الإرادة ووجود الاستعداد عنده.. فإنا نرى أن هذا الجهد يُثمر بصورة أكبر إذا ما توافرت وتضافرت عدَّة عوامل أخرى، نجملها في النقاط التالية:

أولاً: دور الأسرة في تنشئة العلماء:

يقع الواجب الأكبر في إخراج العلماء وتنشئتهم على عاتق قطبي الأسرة: الأب والأم؛ فهما المظلة الحقيقية التي يخرج من تحت عباءتها العلماء، وهما البلد الذي يخرج نباته كما يُسقى ويُغذَّى.. يقول تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

والأبوان غالبًا ما يحددان وجهة الطفل ومصيره، وقد ذكر رسولنا ﷺ هذا الأمر في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ فقال: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوَ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾»**[1].

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٧١)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤٨٠٣).

وقد فقه كثيرٌ من الآباء المسلمين تلك الحقيقة، فبذلوا جهدهم ليوفروا لأبنائهم تلك البيئة الصالحة التي تساعدهم على أن يكونوا علماء.. فكان منهم - على سبيل المثال - من يستقدم لأبنائه علماء مشهورين لتعليمهم وهم صغار، وكانوا يختارون من هؤلاء العلماء المشهورين من يجمعون - في الغالب - بين أكثر من علم!!

وكان من ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر (حاكم بغداد في أيام المتوكل العباسي، وتوفي سنة ٢٥٣هـ) اختار لتعليم ابنه طاهر العالِمَ النحوي اللغوي أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، بل إن هذا الأب أفرد لذلك العالم الذي استقدمه لتعليم ابنه دارًا في داره ليقيم فيها هو وتلميذه، وكان يتغدَّى معه، هذا غير إجرائه له مرتبًا معلومًا في الشهر(١)!!

ومثله فعل الخليفة المأمون حين وكَّل الفرَّاء (من أئمة الكوفيين أيضًا، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، تُوُفِّي سنة ٢٠٧هـ) بتعليم ابنيه في داره على نحو ما مرَّ بنا، والطريف في ذلك - كما ذكرنا أيضًا - أن ابني المأمون هذين، اللذين تربَّيا على العلم وحفظ مكانة العلماء، تنازعا ذات يومٍ على تقديم نعل الفرَّاء إليه!! ولما علم المأمون بذلك بادر بسؤاله: مَنْ أعزُّ الناس؟ فأجابه الفراء بأنه ما يعرف أعزَّ من أمير المؤمنين، فقال له المأمون: بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! ثم أخبره بأن ما فعلاه رفع من قدرهما، وكشف عن جوهرهما(٢)!!

وهذا عتبة بن أبي سفيان يأتي بمؤدِّبٍ لولده، ويقول له: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإنَّ عيونهم معقودة بك؛ فالحَسَن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركت، علِّمهم كتاب الله، ولا تملهم فيكرهوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، ورَوِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أَعَفَّه، ولا تخرجهم من بابٍ من العلم إلى غيره حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسير الحكماء،

---

(١) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ج١ ص ٣٢٨.

(٢) راجع القصة في الكتاب، وانظرها أيضًا في وفيات الأعيان ٦/ ١٧٩.

واستزدني بآدابهم أزِدْك، ولا تتكلنَّ على عذر مني؛ فقد اتكلت على كفاية منك»[1].

ومثل هذا لَيَعكِس حرص الآباء على تنشئة أبنائهم التنشئة العلمية السليمة، وحرصهم على رعايتهم وتربيتهم منذ صغرهم ليكونوا علماء الغد ورجالاته..

ولقد كان من وسائل هؤلاء الآباء أيضًا في تنشئة أبنائهم ليصبحوا علماء ما كان من تشجيعهم لهم، واحتفائهم بهم، وتقديمهم الغالي والنفيس ليرغبوا أطفالهم في العلم، كما كان منه أيضًا إكرام معلميهم.

فكان عبد الملك بن مروان يُرغِّب بنيه، ويقول لهم: «يا بَنِيَّ، تعلَّموا العلم؛ فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً»[2].

وحدَّث النضر بن الحارث؛ فقال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: «يا بُنيَّ، اطلب الحديث، فكلَّما سمعتَ حديثًا وحفظتَه فلك درهم. فطلبتُ الحديث على هذا»[3].

وهذا أبو القاسم بن الوزير الخاقاني يحتفل بدخول ابنه الكُتَّاب، فكان مما فعله أنه دعا من القوّاد والرؤساء جماعةً بلغوا ثلاثين فردًا، وأمر الداعي بإعطاء المُعلِّم ألف دينار! وأكرم الناس وأكلوا[4].

وحتى لا يُظَنُّ أن الأمر خاصٌّ بالخلفاء أو الأمراء أو المشهورين من العلماء فقط، فهذا والد ابن سينا، وكان شخصًا لم يُعرَف عنه أنه اشتُهِرَ بعلم أو رياسة، أحضر لولده ابن سينا - مع نبوغه وعبقريته الفذَّة منذ صغره - عالِمَ الفلسفة المشهور أبا عبد الله النائلي، وأنزله داره؛ بغية أن يعلِّم ولده ابن سينا[5].

وهذا أيضًا الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ) يحدِّث عن نفسه فيقول: حفِظتُ القرآن ولي سبع سنين، وصلَّيت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا

(١) انظر تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٧٢ - ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/ ٢٣٤.

(٢) انظر ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٤٢.

(٣) انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص ١٦٥.

(٤) انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٣٢٩.

(٥) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٧١.

في التاسعة[1]!! والشاهد هنا: كيف وصل إلى هذه الرتبة العَلِيّة والدرجة الرفيعة تلك؟!

والإجابة في ذلك تكمن في قوله وهو يحكي دور والده: رأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مخلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه، وقصَّ رؤياه على المعَبِّر؛ فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، وذبَّ عن شريعته. **فحرص أبي على معونتي على طلب العلم**، وأنا حينئذٍ صبيٌّ صغير[2]!

ولا نعجب بعدُ أن نرى الطبري وهو يحدث عن نفسه وهو بصدد تفسير القرآن العظيم الذي ألَّفه، والمسمّى (**جامع البيان في تأويل القرآن**)، والذي يقع في أكثر من عشرين جزءًا كبيرًا؛ فيقول: «حدثتني نفسي به وأنا صبي»[3]!! أي منذ أن شجعه والده، وأعانه على طلب العلم، وحببه له، حتى غدا - رحمه الله- شيخ المفسرين والمحدِّثين والمؤرِّخين، والمجتهد العظيم.

وفي عصرنا، كان والد المودودي الهندي هو مُعلِّمَه الأول؛ حتى إنه علَّمَهُ - كما سيأتي - اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وغيرها، وقد حكى ابنه عن ذلك فقال عن والده: «لقد أحسن تربيتي، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي؛ وكان يأخذني معه دائمًا عند رفاقه، وكُلُّهُم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلتْ إليَّ من مجالستهم العادات الفاضلة الحسنة»[4].

وبصفة عامة فإن من أهم واجبات الآباء أن يُعظِّموا عند الأبناء قيمة العلم، ويرفعوا عندهم قيمة المعلمين والمدرسين، وإلاّ يصبح كلام المعلم للطفل هباءً منثورًا.. ومن أروع ما جاء في ذلك ما كان من حال أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك هو واثنان من أبنائه الأمراء - كما مرَّ بنا - مع العالم الجليل عطاء بن أبي رباح العبد الأسود؛ حيث قال سليمان لولديه: «يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذُلّنا بين يدي هذا العبد الأسود»[5]!!

(١) انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٩.

(٢) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٦٢.

(٤) مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول ١٤٠٠هـ ص ٨٤.

(٥) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢١٢.

وهكذا يكون دور الآباء مع الأبناء في سبيل تخريج وتنشئة العلماء.. أما دور الأم في ذلك؛ فهو أعظم عملٍ يمكنها القيام به، وكيف لا وقد اجتمع لها من وسائل تربية الأبناء وقضاء أغلب الأوقات معهم ما لم يجتمع للأب؟ فهي أقرب الناس لقلوب أبنائها، وأحرص الناس على منفعتهم، ولو جعلت القضية قضيتها، والمهمة مهمتها لخرج لنا جيل نفاخر به العالمين.. فالأم مدرسة حقيقية، شريطة أن تضع مصالح الأمة وهموم المسلمين نصب عينيها.

وصدق حافظ إبراهيم(١) إذ يقول:

الأُمُّ مَدرَسَةٌ إِذا أَعدَدتَها ... أَعدَدتَ شَعبًا طَيِّبَ الأَعراقِ
الأُمُّ رَوضٌ إِن تَعَهَّدَهُ الحَيا ... بِالرِّيِّ أَورَقَ أَيَّما إِيراقِ
الأُمُّ أُستاذُ الأَساتِذَةِ الأُلى ... شَغَلَت مَآثِرُهُم مَدى الآفاقِ

وجسَّد ذلك معروف الرصافي(٢)؛ فقال:

ولم أرَ للخلائق من محلّ ... يهذّبها كحِضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تُقاس حسنًا ... بأخلاق النساء الوالدات

وليت الأمهات يكتشفن مواهب أبنائهن قبل أن تمر السنوات وتضيع فيما لا فائدة فيه.. ولنا عبرة في النَّوار بنت مالك -رضي الله عنها- أم زيد بن ثابت ﷺ..

لقد كان زيد بن ثابت طفلاً صغيرًا، واشتاقت نفسه للجهاد وهو بعدُ ابن ثلاثة عشر عامًا، وحين حاول أن يخرج للحرب في بدر، ردَّه رسولُ الله ﷺ بسبب صغر سنه.. وعندها رجع إلى البيت يبكي بسبب عدم مشاركته المسلمين في الجهاد، ولما رأته أمه على هذه الحالة لم

---

(١) هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٨ - ١٣٥١هـ/ ١٨٧١ - ١٩٣٢م)، شاعر مصر ومدون أحداثها نيفًا وربعًا من القرن. وُلِدَ في ديروط، ونشأ يتيمًا، وتوفي بالقاهرة. نظم الشعر في أثناء الدراسة، واشتُهِرَ حتى لُقِّب بشاعر النيل. له: ديوان حافظ، والبؤساء، وليالي سطيح، وكتيب في الاقتصاد وغيرها. انظر الأعلام ٦/ ٧٦.

(٢) هو معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافي (١٢٩٤ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٧ - ١٩٤٥م)، شاعر العراق في عصره، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وُلِدَ ببغداد، ونشأ بها في الرصافة، وتوفي في الأعظمية ببغداد. له كتب منها: ديوان الرصافي، ودفع الهجنة، ومحاضرات في الأدب العربي، وغيرها الكثير. انظر الأعلام ٧/ ٢٦٨.

تطيب خاطره بكلمات وكفى، فإنها كانت تدرك بعمق مواهبه وإمكاناته؛ فلفتت نظره إليها وقالت له: إن لم يكن باستطاعتك أن تجاهد بالسيف والدرع كما يفعل المجاهدون في المعركة، فباستطاعتك أن تخدم رسول الله ﷺ والإسلام بالعلم الذي عندك!!

لقد كانت القراءة والكتابة مَزِية لدى زيد ﷺ، فوق أنه يحفظ الكثير من آيات القرآن الكريم.. وهذا مجال يتفوق فيه على غيره.. وهكذا استطاعت الأم الواعية الفاهمة أن تفتح لصغيرها بابًا آخر، بعد ما أُغلقَ أمامه باب الجهاد مؤقتًا.

وحين ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وعرضت عليه إمكانات ولدها، وما يمتلكه في غير مجال الجهاد والحرب، اختبره ﷺ وسمع منه، ولما علم قدراته وطاقاته قال له: «**اذهب فتعلَّم لغة اليهود؛ فإني - والله - ما آمنهم على كتابي**»[1]..

فذهب زيد وتعلم لغة اليهود في أقل من سبع عشرة ليلة!! ولعله كان عنده بعض الخلفية عنها، واستطاع خلال الأيام السبعة عشر أن يُتم تعلمها وإتقانها..

وبعد ذلك جعله رسول الله ﷺ من كَتَبة الوحي، وكفاه شرفًا بذلك.. حتى إنه بعد وفاة رسول الله ﷺ أوكل إليه أبو بكر الصديق ﷺ مهمة جمع القرآن، وكان عمره وقتئذٍ ثلاثًا وعشرين سنة!!

فلكم نبغ ذلك الطفل!! ولكم أفاد الأمة الإسلامية!! وكان ذلك ثمرة أمٍّ مسلمة استطاعت أن تهب الأمة أعظم ثروة.. فتُرى إذن: كم يكون أجرها ومكافأتها عند الله؟!

وقبل أمِّ زيد بن ثابت - والأمثلة جد كثيرة - كانت هند بنت عتبة، أم الصحابي والخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ.. فقد قيل لها ومعاوية ما زال طفلاً صغيرًا: «إن عاش معاوية ساد قومه»، فردَّت هي من فورها وكلها ثقة وحزم: «ثكِلْتُه إن لم يسُدْ إلا قومه»[2]!!

وقد كان لها ما عزمت وأرادت، حيث صار خليفة للمسلمين، ومؤسس الدولة الأموية، صاحبة التاريخ العظيم والمآثر الجليلة في الإسلام..

(١) أبو داود (٣٦٤٥)، وأحمد (٢١٦٥٨)، والحاكم (٢٥٢)، وانظر أيضًا: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٥٩٣ - والمزي: تهذيب الكمال ١٠/ ٢٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١١٨.

وغير أُولاء الأمهات الجليلات، كانت هناك أيضًا أم «ربيعة الرأي»[1]، شيخ الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، لتقوم هي على تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينار.. ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: «لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها»، فقالت له: فأيهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟! فقال: لا - والله - بل هذا. فقالت: أنفقت المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعته[2]!!

وإنَّا لَنَعجَبُ حين نعلم أنَّ سفيان الثوري - رحمه الله-فقيه العرب ومحدثهم، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة[3]: «الثوري سيد المسلمين»[4]، وقال فيه الأوزاعي[5]: «لم يبقَ من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[6] - كان وراءه أمٌّ صالحة، تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها!!

يصوِّر ذلك هو بنفسه فيقول: «لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: يا ربِّ، لا بد لي من معيشة. ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر)؛ فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية»، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أمه

(١) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم، أبو عثمان المدني المعروف بربيعة الرأي، يقول ابن حجر عنه: ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦ هجرية على الصحيح. انظر تقريب التهذيب ص ٢٠٧ - تاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠ - الباجي: التعديل والتجريح ٢/ ٥٧٣ .

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣) هو زائدة بن قدامة الثقفي، أبو الصَّلت الكوفي، من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي: ثقة حجة صاحب سنة، توفي غازيًا بالروم سنة ١٦١ . انظر الكاشف ١/ ٤٠٠ - تقريب التهذيب ص ٢١٣ .

(٤) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٥) هو أبو عمرو الأوزاعي، واسمه عبد الرحمن بن عمرو، والأوزاع بطن من همدان، ولد سنة ٨٨هـ. إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقه، قال ابن سعد: كان ثقة مأمونًا صدوقًا فاضلاً خيرًا كثير الحديث والعلم والفقه حجة. كان يسكن بيروت وبها مات سنة ١٥٧هـ. انظر الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٨ - تهذيب الكمال ١٧/ ٣٠٨ .

(٦) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

التي قالت له: «يا بُنَيَّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[1]!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوَّله بالموعظة والنصيحة لتحضَّه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[2]!!

وهكذا كانت أمه فكان هو.. تَبوَّأ السيادة في العلم والإمامة في الدين!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه بدور الأم في حياة الأئمة المشهورين، مثل البخاري، أمير أهل الحديث، وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك، أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة..

فقد نشأ البخاري - كما سيأتي - يتيمًا ضريرًا في حِجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربية، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. ليرجع ويكون هو البخاريَّ، ولتُعلِّم أمهات المسلمين - والأرامل منهن خاصة - كيف تكون تربية الأبناء، وما دور الأمهات في جهادهن لرفعة الأمة والنهوض بها!

وكان السر أيضًا في نجابة وظهور **الإمام مالك - رحمه الله**- يكمن في أمه العاقلة، تلك التي أحسنت توجيه أبنائها، واختارت لهم الطريق السوي، وهيأت لهم أسباب النجاح، وفي قصتها يأخذنا العجب كل مأخذ حين نعلم أن مالكًا الطفل لم يكن يريد أن يتجه إلى العلم، وإنما رغب في أن يتعلم الغناء ويجيده، وبالتالي يصبح مغنيًا!! فالغناء - كما يخيل للحالم والرائي - مصدرًا للشُّهرة، ومجلبةً سريعةً للثروة، لكن أم الإمام مالك العاقلة لم ترضَ لولدها ذلك، وحالها هنا على عكس الأمهات اللائي يسارعن إلى تشجيع أولادهن لصقل تلك الموهبة التي ظهرت حسب ما يظنون!! ففي لطفٍ شديد ولباقة جمة، استطاعت أن تصرف ولدها عن فكرته، وأن تختار بديلاً سريعًا لها، **وهو العلم**؛ ذلك الذي يرفع من قدر البيوت وإن كانت خاملة، ويُعلي من قيمة الرِّجال وإن جاءوا من حضيض الفقر وقسوة العوز[3].

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠. (٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

(٣) انظر في قصة أم مالك: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ص ٦، ٧.

يقول الإمام عن تلك الحادثة: نشأتُ وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فقالت أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلتَفَت إلى غنائه؛ فدع الغناء واطلب الفقه. فتركت المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى[1].

فهذه الأم الفاضلة العاقلة لم تكذب على ولدها وتقول له: إنه قبيح الوجه؛ إذ لم يكن مالك كذلك، بل كان وسيمًا ذا شقرة، وإنما هي أرادت أن توحي إليه بما يصرفه عن عزمه، فقالت قولتها تلك اللبقة المهذبة[2].

ولم يتوقف دور أم مالك عند ذلك، ولم تكتف بتوجيهه إلى طلب العلم وحسب، بل إنها ألبسته ثياب العلم ووجَّهته إلى من يتعلَّم منه، يقول مالك في ذلك: فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي - يعني القلنسوة الطويلة - وعمَّمتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن!! ثم تختار له المعلِّم والأستاذ - وكان أشهرهم آنذاك ربيعة بن أبي عبد الرحمن - فتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[3]. ومقصدها بالطبع هو تعلُّم العلم والأدب جميعًا.

وبذلك يبتدئ الصبي الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة في طريق العلم حتى يصير إمامًا فذًّا من أئمة المسلمين، فيكون أثمن عطية، وأغلى هدية، من أم فاضلة تجيد التربية وتحسن التوجيه[4].

أمّا والدة الشافعي - رحمه الله- فقد شبَه دورها دور أم البخاري - رحمه الله-. إذ إن والد الشافعي مات بعد أن وُلِدَ الشافعي بزمن قصير، فنشأ الشافعي يتيمًا، وأصبح مصيره مرتبطًا بتصرُّف أمه.. فإن كانت الأم عاقلة حاذقة فإنها - لا شك - ستهيئ للطفل أسباب السعادة والنشأة الصالحة، وإن كانت الأخرى فإنها ستعرض وليدها للشقاء والمستقبل المضطرب..

على أن أم الشافعي أثبتت وبكل جدارة أنها من الأمهات الصالحات الحاذقات المجاهدات؛ إذ أهدت للأمة الإسلامية إمامًا عظيمًا، ملأ سمع الأرض والسماء!!

ومن طريف ما يذكره المؤرخون عن والدة الشافعي أنها كانت ذات حذق وذكاء، وتفقُّه

---

(١) سرح العيون ص ١٨١، نقلاً عن المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ٧ .

(٣) انظر ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ٩ .

(٤) راجع مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ٨، ٩ .

في الدين، وقوة عارضة، وقدرة على الاستبطان، ودليل ذلك أنها تقدمت هي وامرأة أخرى مع رجل للإدلاء بشهادة أمام قاضٍ، فأراد القاضي أن يفرِّق بين المرأتين، ولكن والدة الشافعي المتصفة بما أسلفنا من شمائل اعترضت على القاضي قائلة: ليس لك ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ فأسقط في يد القاضي وانصاع لقولها[١].

وهذه الأم الفاضلة لا يُتَوَقع منها إلا أن تحسن رعاية وليدها، وتسهر على تنشئته تنشئة صالحة، وتختار له الطريق القويم.. وكان من ذلك أنها ارتحلت به حين بلغ عامين من عمره من غزَّة - مسقط رأس الشافعي - إلى مكة، حيث العلم والفضل، وحيث البادية حولها، والتي فيها يقوِّم لسان الغلام وتصح لغته[٢]، وكان الشافعي هو ثمرة جهود تلك المرأة الفاضلة..

وإذا جئنا إلى صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان، فإنا نراها وقد أهدت إلى دنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله-..

فقد وهبت صفية حياتها كلها لطفلها اليتيم (أيضًا!!)، واختارت من أجله الترمُّل في سن الشباب نهجًا لحياتها، وقد كان الكثيرات من نساء العرب يفضِّلن الزواج إذا مات الزوج؛ صونًا للعفة وحفاظًا على السمعة، بل إنه كان من الأمور المتعارف عليها أن تتزوج المرأة إذا ترمَّلت أو طلقت، أما صفية فقد منحت شبابها لوليدها..

ذلك أن زوجها محمد بن حنبل مات شابًّا في الثلاثين، وكانت هي دون الثلاثين حين وفاة زوجها، ورغم ذلك فإنها لم ترض بالزواج، وإنما ارتضت أن تملأ على ولدها حياته حنانًا وأنسًا، وهو ما لم يكن يخفيه أحمد - رحمه الله- بعد أن كبر.

وإذا عرفنا أن الإمام ابن حنبل لم يتزوج قبل سن الأربعين أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام[٣]..

---

(١) ابن حجر: توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس ص ٤٢، نقلاً عن مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٠ .

(٢) راجع في قصة أم الشافعي: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٠، ١١ .

(٣) راجع في قصة أم الإمام أحمد: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٤، ١٥ .

وهكذا وعلى طول الطريق كان دور الأم في تنشئة العلماء.. من أجل النهوض بالأمة، والعمل على تقدمها، ونفع المسلمين ورفعتهم..

ويبقى في دور الأسرة بصفة عامة في تنشئة العلماء **دور الزوجة**..

وأعني بذلك دورها تجاه زوجها ليكون عالمًا؛ فبيت المرأة بصفة عامة هو مملكتها، وهو منطلقها الحيوي والحقيقي نحو أي إصلاح أو تغيير، وذلك يكون عن طريق أولادها - كما قدمنا سابقًا - وقبل ذلك عن طريق زوجها..

وفي هذا الصدد بإمكان الزوجة أن تُهيئ للزوج الجو العلمي المناسب ليُبدِع وينتج في مجاله وعلمه وصناعته.. وبإمكانها أن تُحمِّسه على التقدم والإبداع والاختراع، فتوفر له الجو النفسي الذي يناسب ذلك.. وبإمكانها أن تخفف عنه مطالب الحياة؛ فلا ترهقه بالمتطلَّبات غير الضرورية في المعيشة والحياة؛ لأجل توفير نفقات العلم.. وبإمكانها أن يكون من ضمن طلباتها قبل الزواج مكتبة قيمة، تشترك فيها مع زوجها، ويتعاونان على إعدادها معًا لبيت الزوجية الجديد، ولست أعني بالمكتبة «القيمة» ارتفاع ثمنها أو فخامة شكلها، وإنما أعني تنوع مصادرها، وغزارة محتوياتها.. ولو كانت كتبها ذات طباعة غير فاخرة، أو كانت على رفوف بسيطة زهيدة الثمن، ولا شك أن الأطفال سيستفيدون استفادة جمَّة من وجود هذه المكتبة..

وحقيقة فإن نبوغ الزوج وتفوقه غالبًا ما يكون لأن وراءه زوجة تدفعه إلى ذلك وتعينه عليه، وفي المثل المتداول: «وراء كل رجل عظيم امرأة»، ولا نغالي هنا إذا قلنا: «وراء كل رجل عظيم امرأة أعظم»!!

ولا ضير إذا ما كان دور الزوجة هنا ظاهرًا أو غير ظاهر؛ ولا ضير إذا ما كانت الزوجة تقوم بدور الجندي المجهول أو غيره؛ فالبديهي أن تفوق الزوج ونجاحه في عمله ونبوغه في علمه ما هو إلا دليل على عِظَم الزوجة وتفوقها، وهو يعكس نجاحها هي، بل وصلاحها، تلك التي هيأت له من الوسائل والأسباب التي ذكرناها أولاً ما جعله يصل إلى ما وصل إليه..

فالزوجة الصالحة، والتي تبغي نفع الأمة والعمل على نهضتها، هي تلك التي تدفع زوجها دائمًا إلى الأمام لتحقيق النجاح، والوصول إلى الهدف المنشود.. ورحم الله تلك التي كانت تنادي على زوجها في الصباح تقول له: اتَّقِ الله فينا، ولا تطعمنا إلاَّ حلالاً؛ فإننا نصبر

على الجوع في الدنيا، ولا نصبر على النار في الآخرة[1]!!

وفي تجسيد دور الزوجة في ذلك المجال، فليس أقل من دور زوجة الحافظ الهيثمي (وهي بنت شيخه الحافظ العراقي)؛ إذ ثبت أنها كانت تساعد زوجها في مراجعة كتب الحديث[2].

وفي دور غيرها، فقد أجمع المؤرخون على أن جميع الأعمال الطيبة، والأفعال الحسنة التي قام بها الخليفة المهدي، فأكسبته الشهرة الفائقة، إنما كانت بتأثير زوجته «الخيزران»[3]!!

وغير هذه وتلك فإن ابنة سعيد بن المسيب دخل بها زوجها، وكان من أحد طلبة والدها، فلما أن أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟ فقال: إلى مجلس سعيد أتعلَّم العلم. فقالت له: اجلسْ أعلِّمْك علم سعيد[4]!!

فهي لم تعِنه وتساعده فقط على تعلُّم العلم، وإنما تقوم بدور المعلِّم كذلك!! ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول زوجها عبد الله بن أبي وداعة بعد أن دخل بها: «.. **فإذا هي أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنَّة الرسول، وأعرفهم بحق الزوج، وإن كانت المعضلة وعجز الفقهاء عنها فأجدها عندها فأسألها علمها**»[5]!!

والمرأة بدورها في ذلك كله - كأمٍّ وكزوجة - تُشاطِر الرجال تمامًا بتمام في سبيل تنشئة العلماء والعمل على رفعة هذه الأمة، إن لم يكن لها فضل السبق عليهم والأجر عنهم..

ثانيًا: دور الدولة في تنشئة العلماء:

لا يقِلُّ دور الدولة في تنشئة العلماء عن دور الأسرة، بل إن دورها قد يفوق دور الأسرة في أحيانٍ كثيرة.. وقد يكون لزامًا على الدولة في سبيل بناء نهضتها، وفي سبيل قيادة مسيرتها نحو التقدم والاستقلالية، والبعد عن ذُلِّ التبعية، أن تحوز نصيب الأسد في كفالة العلماء،

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٥٨.

(٢) عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني: تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة، مكتبة القاهرة - مصر ص ٣٩.

(٣) انظر محمد كمال الدين الأدهمي: مرآة النساء فيما حسُن منهن وساء، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة ص ٨٦، وهي أم الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي. انظر الأعلام ٢/ ٣٢٨.

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري بن الحاج: المدخل، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ج ١ ص ٢١٥.

(٥) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٠٤.

ورعايتهم وتنشئتهم، وتفقد أحوالهم!!

والحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل يومًا دورها المحوري في هذا المجال، بل ربما كان هو الدور الغالب عليها، حتى إنك لتجد المدارس، والمعاهد العليا، والمكتبات العامة وكذلك الخاصة، وقد ازدانت بها مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.. وفي ذلك يذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب جمًّا غفيرًا من خلفاء المسلمين وأمرائهم، الذين كان لهم دورٌ كبير في رعاية العلماء وطلاب العلم، وكانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات في مختلف الأمصار الإسلامية، واستطاعوا أن يساعدوا العلماء في بناء أمة متعلِّمة ذات حضارة عالمية..

وكان من هؤلاء على سبيل المثال نظام الملك، الوزير السلجوقي العظيم؛ الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس، حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كلَّما وجد في بلدةٍ عالمًا قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دار كتب[1]!!

ولعلَّ أهم ما كان يتميز به النظام الوقفي هو اشتراطه أن يتولَّى المدرسة أعلم العلماء في مجاله وفي علمه، وهو الأمر الذي كان وراء نبوغ الكثير من العلماء وكذلك الطلاب.

ولم تكن هذه المدارس صغيرة أو بدائية، ويكفي أن نعلم أن إحدى مدارس الوزير السلجوقي نظام الملك، وهي نظامية بغداد، بلغ عدد تلاميذها ستة آلاف تلميذ، وكانوا كلُّهم يتعلَّمون بالمجان، **بل إن الطالب الفقير كان له فوق ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الرِّيع المخصَّص لذلك**[2].

وغير نظام الملك - والأمثلة أكثر من أن تحصى - كان هناك أيضًا صلاح الدين الأيوبي، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه، في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس[3]!!

ومثله كذلك كان الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد مرَّ بنا التعرُّض له في هذا المجال

(١) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق، ودار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال: النعيمي: الدارس في أخبار المدارس.

في أكثر من موضع، فقد قال عنه عبد الله بن المبارك: «ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين والصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، **لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعِلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة**»[1]؛ ولم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم والعلماء وطلابه منذ الصغر!!

ونظرة واحدة على عدد المدارس على اختلاف أقسامها، والبيمارستانات التي شُيِّدَت في عصر النهضة والحضارة الإسلامية تُوقِفُك على ما كان من دور الدولة في رعاية العلماء وتنشئتهم منذ الصغر.. فقد كانت هناك مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره، ومدارس للحديث الشريف، ومدارس للفقه، وأخرى للطب، كما كان هناك مدارس خاصة بالأيتام!!

وفي محاولة للوقوف على بعض من ذلك يقول ابن كثير في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة: «فيها كَمُلَ بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبْنَ مدرسة قبلها مثلها، ووُقِفَت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدارس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقُدِّر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد»[2].

وتابع ابن كثير فقال: «ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلَّف أحدٌ من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعَوَام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا..».

إلى أن قال ابن كثير: «ووُقِفَت خزائنُ كتبٍ لم يُسمَع بمثلها في كثرتها، وحُسْن نسخها،

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي – القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ٢/ ١٥٧.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٦٣ .

وجودة الكتب الموقوفة بها»[1]!!

وبعد مرحلة الصغر كان للدولة الدور البارز أيضًا في الاهتمام بأبنائها العلماء ورعايتهم بما يليق ومكانتهم..

فكانت أولاً توفر لهم من المرتبات ما يكفي لمعيشتهم عيشة هانئة، وهذا عدا ما كان يُعطَون من رواتب أخرى كحاجات معاشية.. فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّنه السلطان صلاح الدين ليدرِّس في مدرسته الصلاحية، وقد جعل له كل شهر أربعين دينارًا عن التدريس، وعشرة دنانير للإشراف على أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًّا من الخبز كل يوم، وراويتين من ماء النيل كل يوم.

وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية، راتب يأخذه الشيخ لنفقات بغلته، إذْ كان من أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها[2].

ومثل هذا يُعَدُّ من أبواب تفريغ العلماء للتأليف والابتكار، وأيضًا تعليم الناس، وإفادتهم، دينيًّا ودنيويًّا..

ومما يستحق التنويه به في ذلك الصدد أيضًا أنه كان للمعلمين في ذلك الوقت المبكر نقابة خاصة بهم، وكان جماعة المعلمين هم الذين يختارون النقيب، وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم..

وفي ذلك يروي أبو شامة في الروضتين عن مقلد الدولعي أنه قال: لما مات الحافظ المرادي، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنّا مَن مال إلى المذهب، وأراد أن يستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنّا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين بن الدّاية نائبًا عنه، وقال لهم: ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين، وهذا الذي

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص ١٠٢ .

جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نُرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين. فاستدعاهما جميعًا، وولى شرف الدين المدرسة التي سُمِّيَت باسمه، وولى قطب الدين مدرسة النفري[1].

وفي مرحلة أخرى **فإن دور الدولة في التعامل مع العلماء المبدعين** كان له شأنٌ آخر!!

فهذا الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يُنشئ **«بيت الطلبة»**، للنابغين ويشرف عليه بنفسه، حتى إن بعض حاشيته حسدوا هؤلاء الطلبة على موضعهم منه، وتقريبه إياهم، وخلوته بهم دونهم، ولما بلغ ذلك المنصور الموحدي فزع وخاطبهم قائلاً: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمرٌ فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمرٍ فأنا ملجؤُهم، وإليَّ فزعهم، وإليَّ يُنسَبون..»[2]، فكان أن قامت دولة الموحدين وسادت وعمَّت الأرجاء!!

ولأبي عُبَيد القاسم بن سلام قصة طريفة مع عبد الله بن طاهر تدل على تقدير الأمراء لعقول العلماء، وتكريم النابغين منهم.. فإنه لما وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ أن لا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش»، ثم أجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم[3]!!

وقد مرَّ بنا ما كان من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي كان يمنحها الخلفاء والحكام للعلماء بهدف التشجيع على تحصيل العلوم، والتي كانت (أي: الجوائز والهبات) في صورة هي أقرب إلى الخيال، وأنه كان من ذلك إعطاء وزن الكتاب المُترجَم - من لغة غير العربية إلى اللغة العربية - ذهبًا للعالِم الذي يقوم بترجمته!!

وقد كان من جرَّاء ذلك أن نشطت حركة الترجمة، ونُقِلَت علوم هائلة على إثرها إلى المسلمين..

وأروع من ذلك ما قامت به الخلافة العثمانية، وذلك حين نجحت في تجميع النابغين من

---

(١) انظر الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص ١٧ .

(٢) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٨١ .

(٣) انظر تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦ - تاريخ دمشق ٤٩/ ٧٤ - تهذيب التهذيب ٨/ ٢٨٤ .

جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فن وعلم؛ وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًّا وعسكريًّا حتى باتت الدولة الأولى في العالم!!

ولم يكن اهتمام الدولة يقتصر على رعاية العلماء من أبنائها، بل كان الحكام يستدعون **العلماء من شتى الأمصار** ليستفيدوا من علومهم، ويسعدوا برعايتهم!!

فها هو الأمير المعز بن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره عنده، بل وجعله من خاصته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل على آرائه، ومنحه أسمى الرتب(١)!!

وها هو السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته، وبذَل له ما يستعين به على أمور دنياه(٢).

وإن هذه الصورة لتتضح في وصيته لابنه وهو على فراش الموت؛ فقد جاء فيها: «.. وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجعهم، **وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال..**»(٣).

وقد مرَّ بنا استدعاء الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر لابن الهيثم العالم الشهير، والاحتفاء بقدومه وإكرامه، وتقديم العون والمال له..

ومرَّ بنا أيضًا انتقال الخوارزمي من بلدته خوارزم إلى بغداد، حيث (بيت الحكمة)، وكيف أحاطه المأمون بعناية خاصة وتكريم كبير، وولاّه منصبًا كبيرًا في بيت الحكمة، ثم أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستزادة من علوم الآخرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

بل إن اهتمام الدولة برعاية وتنشئة العلماء لم يقتصر فقط على المسلمين منهم، وإنما تعدّى

---

(١) انظر في ذلك ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص ١٢٩ - الأعلام ٧/ ٢٦٩ .

(٢) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٨ .

ذلك ليشمل العلماء غير المسلمين أيضًا!!

فها هو السلطان محمد الفاتح يراسل مهندسًا مجريًّا نصرانيًّا يُدعى أوروبان، كان بارعًا في صناعة المدافع، فيحسن استقباله، ويزداد في إكرامه، ويعتني به عناية خاصة، فيوفِّر له جميع الإمكانيات، ويزوده بكل ما يحتاجه؛ ليتمكَّن هذا المهندس بعد ذلك من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة، والتي كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي لم يُرَ مثله[1]!! وهو بعينه ما تقوم به أمريكا وأوروبا الآن..

وهذه أسرة بختيشوع النسطورية، كان أبناؤها أطباء الأسرة العباسية لقُرَابة ٧٠ سنة، من زمن المنصور إلى المعتمد، فكانت لهم الرعاية والاهتمام الخاص[2]. وكان من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت٢١٣هـ)، والذي كان طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله، حتى إنه ليقال: إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إليَّ فليخاطب بها جبرائيل[3]!!

وكذلك كان ابن ميمون اليهودي الأندلسي له رعاية واهتمام خاص عند صلاح الدين الأيوبي، وكان طبيبه الخاص[4]!!

على أن الحكام والأمراء كانت لهم وسائل أخرى إذا لم يستطيعوا أن يجتذبوا العلماء، وكان من هذه الوسائل: شراء مؤلَّفات العلماء العلمية فور انتهاء أصحابها من تأليفها!!

وعلى سبيل المثال فإنه لما سمع الحكم الخليفة الأموي بالأندلس بكتاب «الأغاني» المشهور الآن في الأدب، ما كان منه إلا أن أرسل إلى مؤلِّفه أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه في بلده، وكان له ما أراد؛ حيث أرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه المذكور، فكان أن قُرِئ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!!

ناهيك عمَّا يُصاحِب تلك الروح العلمية العالية عند أولي الأمر، وما يمكن أن يتمخض عنها من حالة علمية ومعرفية عامة!!

---

(١) انظر عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار إشبيلية - الرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ ص٣٦١.

(٢) انظر الأعلام ٢/ ٤٤، ٤٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١١.

(٤) انظر الأعلام ٧/ ٣٢٩.

ونستطيع أن نتلمس دور الدولة في تنشئة ورعاية العلماء في عصرنا الحاضر من خلال **مؤسسة الملك فيصل الخيرية**، كمثال حي وشاهد عيان على ما ذكرناه..

فهذه المؤسسة تَمنح جائزةً سنوية (**جائزة الملك فيصل العالمية**) لتكافئ الذين أوقفوا حياتهم للعلم، وحقَّقوا إنجازاتٍ فريدةً، وتحولاً إيجابيًّا في مجالات إبداعهم، وتُمنَح للعلماء الذين كان لنتائج بحوثهم الأثر في تحقيق تقدُّم جوهري في تخصصاتهم العلمية خدمةً للإنسانية، ومن شأن هذا الحافز أن يشجع على توسيع البحوث العلمية وتطويرها لارتياد آفاقٍ جديدة، وذلك في ميداني: الطب والعلوم.

وقد تحدَّدت غايات الجائزة في:

- العمل على خدمة الإسلام والمسلمين في المجالات الفكرية والعلمية والعملية.
- تحقيق النفع العام لهم في حاضرهم ومستقبلهم، والتقدم بهم نحو ميادين الحضارة والمشاركة فيها.
- تأصيل المثل والقيم الإسلامية في الحياة الاجتماعية، وإبرازها للعالم.
- الإسهام في تقدُّم البشرية، وإثراء الفكر الإنساني.

وتتيح المعايير الموضوعية التي تعتمدها الجائزة الفرصة لأي عالم أو مفكر له دراسة علمية أصيلة في الفرع المعلن أن يكون مؤهَّلاً لنيل الجائزة، ما دام قد أغنى مجال تخصصه، وأسهم في تطوره، وحقَّق فائدة ملحوظة للبشرية[١]..

ومثل هذه الجائزة أيضًا جائزة محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات، ورئيس مجلس الوزراء، وحاكم دبي؛ والتي جُعِلَت خصيصًا لخدمة الأمة العربية، وحرصًا على ضمان تطور ونمو مؤسساتها، ورقي ورفعة شعوبها..

يقول راعي الجائزة: «لقد أردنا أن تكون هذه الجائزة وسيلة فعّالة لتطوير الإدارة العربية، وأداة عملية للارتقاء بالممارسات الإدارية والمهنية في المؤسسات العربية، وحرصْنا على أن تكون فرصة للتعبير عن تقديرنا ومساندتنا للأداء المتميز، والإنجاز الفعّال، والعمل

(١) موقع جائزة الملك فيصل العالمية على شبكة الإنترنت، وهو على الرابط:
http://www.menofia.edu.eg/announcements/faisal/section- 1-ar.html

الجيد الذي يستجيب لمتطلبات أمتنا ويخدم شعوبنا العربية[1]..

بقي أن نقرِّر أنَّ على الدولة جانبًا كبيرًا من الجهود المطلوبة لتنشئة العلماء وإخراجهم إلى الوجود، وأنه لا مناص لها من بذل ذلك الجهد إذا ما أرادت النهوض ومواكبة العصر، والاقتداء بمثيلتها في عصر الحضارة والنهضة الإسلامية؛ فينبغي لها الاهتمام بالعلماء والباحثين في الجامعات وفي مراكز البحوث المختلفة، ومن صور ذلك: تقديم الحوافز الماديّة والمعنوية لهم، وعدم إخضاعهم للبيروقراطية واللوائح التي تعوق طريقهم، كما ينبغي لها منح تسهيلاتٍ، وامتيازاتٍ، وحوافز تشجيعية للمرافق البحثية وللعاملين فيها؛ وذلك بهدف ملاحقة التطور ودفع عجلة الإنتاج في هذا المجال، فضلاً عن إيقاف طوفان هجرة العقول والكفاءات إلى دول أخرى متقدمة.

ثالثًا: دور العلماء والدعاة في تنشئة العلماء:

للعلماء والدعاة في تنشئة العلماء دورٌ لا يُضاهيه دور آخر في تأثيره الفعلي ونتيجته المباشرة والقريبة؛ إذ لا يُثمِّن الشيء إلا من علِمَه وزانه، ولا يعرف طعم العسل إلا من ذاقه وطعِمَه.. والخدُّ يعلم ما في الدمع من حُرَقِ[2]..

فلأنهم أعلم الأمة بمصالح الأمة، ولأنهم أحرص الناس على الإصلاح، ولأنهم أحرصهم على سيادة العلم؛ فكان دورهم جد كبير في إخراج العلماء، وفي تربية المجتمع على إخراج وتنشئة هؤلاء العلماء..

أما بالنسبة للدعاة فالمجال رحبٌ والمساحة واسعة، ولو أخذ الدعاة على عاتقهم هذا الدور بمحمل من الجد لخرج لنا جيلٌ من العلماء يكفي الأمة، ويسدُّ الثغرات في كل المجالات!! وكيف لا والدعاة هم أعلام الأمة وموجِّهو دفَّة مسيرتها؟! وهم وسيلة الإصلاح الأولى في المجتمع، وعن طريقهم يحصل الأمل المنشود؟!

وقد جسَّد معاذ بن جبل ﷺ ذلك الدور، فقام وهو يحمل هم الأمة يخطب الناس،

---

(١) انظر موقع جائزة محمد بن راشد آل مكتوم على الرابط:
http://www.arabmanagementaward.com/Default.aspx?&lang=ar

(٢) شطر بيت لشاعر المهجر إلياس فرحات، وتمامه هو: «الخد يعلم ما في الدمع من حرق .. وليس تعلم ما فيه المناديل».

ويقول: «تعلَّموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبِّر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاّء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة، هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[1].

فلم يترك ﷺ واردة ولا شاردة في الحث على العلم، وبيان فضله ومنزلته إلا أتى بها، يخاطب بها قومه ومجتمعه؛ علَّهم يأخذون في تعليمه ويهُبُّون إلى تحصيله..

فالمهمة جليلة وجد عظيمة، وخاصة إذا كان حال الأمة غير مرضيّ.. ولعلنا نوجه من هنا دعوة إلى كل الدعاة في أنحاء العالم الإسلامي، بأن يسدوا الثغرة التي أوكلهم الله إياها وأوقفهم عليها، وأن يقوموا بها على وجهها.. وقد قال رسول الله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً..**»[2].

وحريٌّ بدعاة المسلمين بأن يقفوا على مواطن النزف التي تصيب الأمة، وأن يكشفوا عنها، ويعملوا على علاجها ومقاومتها، وألا يخوضوا في سفاسف الأمور وما لا يعود بنفعٍ على الأمة من قريب أو بعيد.. وأحرى بهم بأن يسيروا وفق منهج واضح وهدف محدد، عن طريقه يمكن تربية المجتمع وتنشئة وإخراج العلماء.

على أن دور الدُّعاة غالبًا ما يأخذ طابع الحثِّ والنصح، والتوجيه والإرشاد، على الاهتمام بالعلم وتعليمه، وبذل المال فيه، وإنفاقه على طلبته ومشاريعه ومؤسساته، متوجهين في ذلك لكل فئات المجتمع وطبقاته، بدءًا بالأطفال وانتهاءً بالآباء، ومرورًا بأرباب الصنائع والحرف

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٣٥) وقال: هكذا حدثنيه أبو عبد الله عبيد بن محمد -رحمه الله- مرفوعًا بالإسناد المذكور، (وكان قد ذكر الإسناد).

(٢) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٠٢).

المختلفة في المجتمع، وانتهاءً بالدولة ومؤسساتها..

فكان من ذلك، في سبيل تنشئة الأطفال مثلاً وتعويدهم على أن يُصبحوا علماء، أن عمرو بن العاص ﷺ مرَّ على حلقة من قريش فقال: «ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا! أوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه؛ فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم»(١).

فكان الاعتناء بتعليم الأطفال الجرأة على طرح أفكارهم، والمشاركة بها في نوادي الكبار، وذلك بمجالسة العقلاء الكبار، فتكبر عقولهم وينضج تفكيرهم.. كان ذلك وسيلة مهمة من قبل الدعاة والمصلحين في تنشئة الأطفال ليصبحوا علماء، ومن الخطأ أن يُمنَع الصغير من حضور مجالس أهل الخبرة والتجربة، كما أن من الخطأ عدم الاهتمام بالنشء في هذه الفترة المبكرة.

بل إن ابن شهاب الزهري –رحمه الله– كان يشجع الصغار ويقول لهم: «**لا تحتقروا** أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدَّة عقولهم»(٢).

ولم تقتصر نصيحة الدعاة في هذا الدور على الأطفال فحسب، وإنما - كما أشرنا سابقًا - كانت لهم توجيهاتهم الخاصة لآباء هؤلاء الأطفال؛ وذلك أن الآباء ربما ينخرطون في دوامة الدنيا وصروفها، فينشغلون بذلك عن أبنائهم وتقديم الرعاية اللازمة لهم ليصبحوا علماء، لا عن قصدٍ بقدر ما هو عن تكاسل أو جهل.. وهنا يصبح دور الدعاة دورًا محوريًّا ومهمًّا جدًّا!!

فهذا الإمام النووي – رحمه الله– وهو طفل صغير كان الصبيان يُكرِهونه على اللعب معهم، وهو يهربُ منهم ويبكي؛ يريد أن يتعلم ويحفظ القرآن، وقد صادف أن مرَّ بقريته الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي ورأى ذلك، فما كان منه إلا أن ذهب إلى والده ونصحَه بأن يفرّغه لطلب العلم، وكان أن استجاب والد النووي، حتى إنه رحل به إلى دمشق ليتعلم في مدرسة دار الحديث(٣).. ليصبح بعد ذلك الإمام النووي، والذي ملأ سمع الدنيا بعلمه، وصار إمام عصره، وبرع في الحديث والفقه واللغة، وترك لنا أسفارًا وكتبًا ما زالت تحييه في عالمنا!!

(١) انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص ١٥٩ .

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٠٩ .

(٣) انظر القصة في تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي لابن العطار ص ٢.

وكان للمجتمع أيضًا بصفة عامة نصيبٌ بارز من دور الدعاة في هذا المجال.. ومما يُذكر في ذلك أن أسد بن الفرات بن سنان[1] ولاّه زيادة الله القضاء بأفريقية، وقدَّمه على غزو صقلية؛ فخرج في عشرة آلاف رجل، منهم ألف فارس. ولما خرج إلى سوسة ليتوجه منها إلى صقلية، خرج معه وجوه أهل العلم يشيعونه، وهنا استغل ذلك الحدث الجليل وقام فيهم خطيبًا؛ فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يا معشر الناس، **ما بلغت ما ترون إلا بالأقلام! فأجهدوا أنفسكم فيها، وثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة**[2]!

وإذا أردنا تجارب واقعيةً وأسوةً في ذلك الصدد، فإنما هو دور الدعاة والمصلحين في هذه الأمة وعلى امتداد العالم الإسلامي، وسيرتهم في ذلك، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥م)، ومحمد أبو زهرة (١٣١٦-١٣٩٤هـ / ١٨٩٨-١٩٧٤م)، وحسن البنا (١٣٢٤- ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦-١٩٤٩م)، وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥-١٣٥٩هـ / ١٨٨٧- ١٩٤٠م).. وغيرهم كثير من الدعاة والمصلحين، والذين ينبغي أن يُترسَّم خطاهم ويُقتَفى أثرُهم، وخاصة فيما نحن بصدده في قضية تنشئة العلماء.

أمّا دور العلماء في هذا المجال، فإنه لا يقل عن دور الدعاة، ولهم في ذلك سبلٌ ووسائل شتى، على أن أنجع وسيلة يمكن أن يقوموا بها هي **توريث العلم**.. عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران:١٨٧] كما ذكرنا سابقًا في أخلاق العلماء.

وغير وسيلة توريث العلم كان للعلماء المسلمين وسائل أُخرى في دورهم في تنشئة العلماء؛ فكان من ذلك تأليفهم الكتب التي تحثُّ على تعلُّم العلم، وتبين فضله ومكانته، والكتب المؤلَّفة في ذلك أكثر من أن تحصى، ومن أبرزها: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد

---

(١) هو أسد بن الفرات الفقيه المالكي العظيم، أصله من خراسان، ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث. دوّن مذهب الإمام مالك، وكان يعمل قاضيًا للقيروان، ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفتح جزيرة صقلية، واستُشهِد هناك سنة ٢١٣هـ. الأعلام ١/ ٢٩٨ .

(٢) انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ٣١ .

البر، وآداب العلماء والمتعلّمين للحسين بن المنصور اليمني، وأخلاق العلماء للآجري، وجماع العلم لمحمد بن إدريس الشافعي، ومسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب لمرعي الكرمي، واقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، وغيرها كثير..

على أن أهم وأبرز وسيلة قام بها العلماء والدعاة في هذا الشأن هي **رعاية النابغين والموهوبين من طلبة العلم، معنويًّا وماديًّا**..

فقد اهتم الإسلام برعاية النابغين والتنويه بهم، خاصة وأن هؤلاء النابغين يعدُّون في الأساس ثروة الأمة وعمادها..

فكان عمر بن الخطاب ﷺ - على سبيل المثال - يحب عبد الله بن عباس ويقرِّبه من مجلسه، ويستشيره في الكثير من أموره، ويُدخله مع أشياخ بدر، ويأخذ برأيه رغم صغر سنه، حتى عاب ناسٌ من المهاجرين ذلك على عمر، وقالوا: تُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟! وهنا قال لهم عمر: أما أني سأريكم اليوم منه ما تعرفون فضله، فسألهم عمر عن تفسير سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فسكت بعضهم، وقال بعضهم: أمر الله نبيَّه إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا أن يحمده ويستغفره. فقال عمر: يا ابن عباس، تكلَّم. فقال عبد الله: أعلَمَ الله رسوله متى يموت، أي: فهي علامة موتك فاستعدّ، فسبِّحْ بحمد ربك واستغفره[١].

وفي هذا الصدد أيضًا قال الصفدي يصف اهتمام الإمام أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي بالنابغين فيقول: «لم أره قطّ إلا يسمع أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك، **وكان له إقبال على أذكياء الطلبة؛ يعظِّمهم وينوِّه بقدرهم**»[٢].

ولما اتجه مالك بن أنس لطلب العلم وهو حَدَث صغير كان يُعاني شظف العيش، فكان فقيه مصر الليث بن سعد - وكان من الأغنياء - يرسل إليه بالهدايا وبالمال، حتى انصلحت حاله، واستطاع أن يكون مالك بن أنس!!

وبعد أن منَّ الله عليه كان الإمام مالك - رحمه الله- يدعو طلبته لبيته، ويبرهم ويكرمهم

(١) القصة في البخاري: كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح (٣٩٥٦).

(٢) انظر ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ١٢١.

ويهتم بهم؛ فقد قال عبد الله بن عبد الحكم: هيأ مالك دعوة للطلبة وكنتُ فيهم، فمضينا إلى داره، فلمّا دخلنا قال: هذا المستراح وهذا الماء، ثم دخلنا البيت فلم يدخل معنا، ودخل بعد ذلك فأُتِينا بالطعام[1]..

والإمام مالك أيضًا هو الذي أفضى به طلب العلم، وإنفاقه على طلابه إلى أن ينقض سقف بيته فيبيع خشبه[2]!!

بل إن هارون الرشيد بعث إلى مالك مجموعة من الإبل كهدية، فتصدَّقَ بها مالك على تلاميذه، وأعطى واحدًا منها لتلميذه الشافعي!!

وأكثر من ذلك ما كان من قصة أسد بن الفرات – رحمه الله– مع شيخه محمد بن الحسن الشيباني.. فقد ذهب أسد إلى المدينة فتعلَّم على يد الإمام مالك – رحمه الله– ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة – رحمه الله–، وبخاصةٍ من محمد بن الحسن الشيباني وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل عمّا يريد ولا أن يتعلم ما يشتهي، فذكر ذلك للإمام الجليل محمد بن الحسن، وقال له: «إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نَزْر (أي قليل لشدة الزحام)، والطلبة عندك كثير فما حيلتي؟

فقال له العلاّمة الجليل المتجرِّد محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيت عندي وأسمعك!!

قال أسد: «وكنت أبيت عنده وينزل إليَّ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعستُ ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي حتى أتيتُ على ما أريد من السماع عليه»[3].

فانظر –رحمك الله– كيف فرَّغ محمد بن الحسن من وقته لتلميذه أسد بن الفرات، وكيف اهتم به وبتعليمه..

وعلى دربهم يحكي زفر بن الهذيل أن الإمام أبا حنيفة – رحمه الله– كان يجلس إلى شيخه

(١) انظر ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ١٦٩ .

حمّاد، فكان يسمع مسائله فيحفظها، ثم إذا أعادها من الغد حفظها وأخطأ أصحابه، وهنا قال شيخه منوِّهًا به وبتفوقه: «لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة»، وقد صحبه لذلك أبو حنيفة عشر سنين، حتى أمره أن يجلس مكانه(١)!!

ولم يحِدْ أبو حنيفة عن النهج، فكان أيضًا يهتم بطلبته النابهين ويتفقد أحوالهم.. يقول تلميذه النجيب الإمام أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي(٢)، وأنت تحتاج إلى المعاش. فقصرت عن كثيرٍ من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ قال لي: ما شغلك عنّا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلمّا انصرف الناس دفع إليَّ صُرَّة، وقال: استمتع بها، فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني. فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعهَّدني (يرعاني) وما أعلمته بقِلَّة قطّ، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها حتى بلغت حاجتي من العلم أحسن الله مكافأته(٣).

وروي أيضًا أن الحسن بن زياد كان فقيرًا، وكان يلازم الإمام أبا حنيفة، فكان أبوه يقول له: لنا بناتٌ وليس لنا غيرك، فاشتغل بهنَّ؛ فلمّا بلغ الخبر الإمام أبا حنيفة أجرى عليه رزقًا، وشجَّعه وقال له: الزم الفقه؛ فإني ما رأيت فقيهًا معسرًا قط(٤).

وعلى هذا كان نهج العلماء العاملين، ومن قبلهم الدعاة الصادقين..

رابعًا: دور المجتمع في تنشئة العلماء:

للمجتمع في تنشئة العلماء دورٌ لا يقل أهمية عن الأدوار السابقة.. فالمجتمع الذي يعيش فيه العالِم يُعدّ بمثابة البيئة التي يتنفس فيها والأرض التي ينمو في تربتها ومن خلالها؛ ومن ثَمَّ فإنه لكي ينشأ العلماء فلا بد من مجتمع واعٍ وفعَّال، يُقدِّر للعلماء قدرهم، ويُنزِلهم

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٣٣.

(٢) يريد أن لديه سعة في الرزق تعينه على ما هو فيه من التفرغ لتدريس العلم.

(٣) مناقب الكردري ٢/ ١٢٢. (٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

مكانتهم التي أنزلهم الله إياها.

والحقيقة أن هذا الدور ليس من قبيل الترف أو الفضل، وإنما هو فرض وواجب على المجتمع تجاه العلماء؛ إذ هم - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ورثة الأنبياء، وهم الذين زكاهم الله عز وجل ورفع قدرهم فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ويروي عبادة بن الصامت ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»(١)..

وقال أيضًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»(٢).

ومثله ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ(٣)، وَالجَافِي عَنْهُ(٤)، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ»(٥).

فدور المجتمع إذن في تنشئة العلماء دورٌ مهمٌ وجليل، ويتمثل في توقير العلماء وتقديره لهم، وتكريمه إياهم، والنظر إليهم بعين الإكبار والإجلال والتعظيم.. وذلك تمامًا بتمام كما كرَّم الإسلامُ العلمَ، ورفع قدره وأعلى من شأنه وأهله!!

وعلى هذا فإن تكريم المجتمع للعلماء ليس تكريمًا لأشخاصهم بقدر ما هو تكريمٌ للعلم في صورة أشخاصهم..

ومثل هذه الصورة المثلى لم تُعدم في المجتمعات الإسلامية في عصور قوتها، حتى غدا

(١) أحمد (٢٢٨٠٧) واللفظ له، والحاكم (٤٢١)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (١٠١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصغير (١٨٤٣)، وأحمد (٦٧٣٣)، والحاكم (٢٠٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨)، وقال الألباني: صحيح (٥٤٤٤) صحيح الجامع.

(٣) الغالي فيه: المجاوز حده.

(٤) أصل الجفاء ترك الصلة والبر، وجفاه: أبعده وأقصاه.

(٥) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٥٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٨٥)، وقال الألباني: حديث حسن (٢١٩٩) صحيح الجامع.

التواضع للعلماء في هذا المجتمع رفعة، وحتى عُدَّ احترامهم والخضوع لهم فخرًا!! فهذا حَبْرُ الأمة ابن عباس ﷺ مع جلالته وقرابته لرسول الله ﷺ وهو يأخذ بركاب زيد بن ثابت ﷺ رغم صغر سنه ويقول: «هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا»!!

ولن نعجب حين نرى **الشافعي** – رحمه الله– وهو يقول: «كنتُ في مجلس مالك وأريد أن أصفح الورقة[1] فأصفحها صفحًا رقيقًا؛ هيبة له لئلاّ يسمع وقعها»[2]!!

ومثله أيضًا الربيع بن سليمان يقول: «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبة له»[3]!!

وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الجماعات فإن يوسف بن موسى المروزي يحكي فيقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي: يا أهل العلم، **لقد قدم محمد ابن إسماعيل البخاري**. فقاموا جميعًا إليه!!

ثم تابع فقال: وكنت معهم، فرأينا رجلاً شابًّا ليس في لحيته بياض (أي صغير السن)، **فأحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا للإملاء**، فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادي ثانيًا في جامع البصرة فقال: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فسألناه أن يعقد مجلس الإملاء فأجاب بأن يجلس غدًا في موضع كذا...»[4]!!

فهو ينادي في المدينة كلها بقدوم عالمٍ إليها ليس من أهلها، فترى الناس وقد قاموا إليه، وأحاطوا به من كل جانب، يريدون أن يستفيدوا من علمه، فيطلبوا منه مجلسًا لذلك، وحين يحدد ذلك العالم (وهو البخاري) الموعد ينادي المنادي من جديد؛ يُعلم الناس بموعد مجلس العالم المغترب، كي يكون لقاؤهم معه واحتفاؤهم به!!

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول البخاري – رحمه الله– ليعلمهم حديث رسول الله ﷺ، وهو دون العشرين من عمره[5]!!

---

(١) أي: أعرضها ورقة ورقة.

(٢) انظر تاريخ دمشق ١٤/ ٢٩٣ – فيض القدير ٣/ ٢٥٣ .

(٣) انظر تاريخ دمشق ٥١/ ٤٠٤ .

(٤) انظر فتح الباري ١/ ٤٨٦ .

(٥) انظر تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٥٢ .

وعلى النقيض من ذلك، ترى الأمة في حال ضعفها لا توقر العلماء ولا تنزلهم منزلتهم، ولا ترفعهم قدرهم، بل قد تُعلي من شأن المطربين واللاعبين واللاهين ولا تأبه بوجود العلماء!! ولا شك أن هذه علامة من علامات الوهن الشديد، وهي متكررة في معظم مراحل الأمة.

ومما يُذكر في ذلك أن عبد الملك بن حبيب السُّلَميُّ[1] عالم الأندلس وفقيهها سمع أن زِرْياب[2] (المغنِّي) قدِم الأَندلس في عهده، فاحتفى الناس به أيما احتفاء، وصاروا يقلدونه في كل شيء، وبذل له الرؤساء الأموال، حتى بلغ من ذلك أنه غنّى يومًا بين يدي الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم، فطرِب الأمير لذلك لحسن صوته وعذوبته طربًا شديدًا، فأعطاه ألف دينار دفعةً واحدةً، وكان عبد الملك بن حبيب فقير الحال، لا يكاد يجد من يعينه على العيش، فقال شاكيًا حاله وعاتبًا على أهل زمانه:

صلاح أمري والذي أبتغي ... سهل على الرحمن في قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها ... لعالم أوفى على بغيته
زرياب قد يأخذها دفعة ... وصنعتي أشرف من صنعته[3]!

وإن تعجب فعجب بمن يُقدّم صاحب صنعة ما، أنّى كانت، على صاحب صنعة العلم ووريث الأنبياء!! وإنك لن تراهم في ذلك إلا أصحاب الأهواء والشهوات.

وليت شعري ماذا كان سيقول عبد الملك بن حبيبٍ لو رأى زماننا الذي نعيشه؟! وماذا لو رأى جانبًا أو لونًا من تكريم أرباب الفن واللعب فيه؟!!

على أن الذي نقصده هنا هو أن المجتمع الإسلامي في فترات قوته، والتزامه أحكام الإسلام قد حفظ مكانة العلماء وصانها لهم، وبوَّأهم ما يستحقونه من الحفاوة والإكرام،

---

(١) هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي، أبو مروان: عالم الأندلس وفقيهها في عصره. ولد في البيرة سنة ١٧٤هـ، وسكن قرطبة وتوفي بها سنة ٢٣٨هـ. له تصانيف كثيرة، قيل: تزيد على ألف، وكان ابن لبابة يقول: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن عبد الملك بن حسين العصامي فقيهها. انظر تاريخ علماء الأندلس ص ١٠١ - الأعلام ٤/ ١٥٧ .

(٢) هو علي بن نافع، أحد المغنين المطبوعين، والموسيقيين المشهورين، سافر من بغداد إلى الأندلس، واستقبله هناك عبد الرحمن بن الحكم. توفي سنة ٢٣٠هـ . انظر ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء الأندلس ص ٢٥ - نفح الطيب ١/ ٣٤٤ - الأعلام ٥/ ٢٨ .

(٣) انظر الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص ١٠١ - ونفح الطيب ٢/ ٧ .

والمنزلة العالية، والدرجة الرفيعة.. فَسَادَ المسلمون الدنيا وملؤوها علمًا ومجدًا وحضارة.

وإن مثل ذلك لو تم القيام به على الوجه الأكمل، فمن شأنه أن يحفز الشباب على بلوغ درجات العلماء، فوق أنه سيجعل باب الإبداع والابتكار مفتوحًا على مصراعيه.. فيعود من جديد مجد المسلمين وحضارتهم إلى الرِّيادة والصدارة، وتراهم وقد انطلقوا في أصقاع الأرض، ينشرون العلم، ويبصِّرون الناس، ويدلُّونهم على حقيقة إنسانيتهم وأسرار خلقهم!!

خامسًا: دور رجال الاقتصاد والثروة في تنشئة العلماء:

الأسخياء عظَّمهم الله في الدنيا كما عظَّم العلماء.. فإذا كان العلماء بعلمهم وبمنزلتهم التي أكرمهم الله بها، فإن الأسخياء من رجال الاقتصاد والثروة سادوا كذلك بسخائهم وقُربهم من الله عز وجل ومن الناس..

وفي الإنفاق بصفة عامة يقول الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف..»[(١)].

وروى أبو ذر ﷺ قال: انْتَهَيْتُ إلى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ يَقُولُ: هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. قُلْتُ: مَا شَأْنِي؟ أَيُرَى فِيَّ شَيْءٌ؟ مَا شَأْنِي؟ فَجَلَسْتُ إليهِ وَهُوَ يَقُولُ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ، وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللهُ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً، إِلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وزاد مسلم: «مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ..»[(٢)].

وإنه إذا كانت سبل الخير وطرق الإنفاق كثيرة ومتنوعة، فإن من أفضل وأحسن وأنفع ما ينفق فيه المحسنون ويبذل فيه الأسخياء والموسرون من رجال الاقتصاد والثروة نشر العلم، وتعهُّد طلابه ورعايتهم، والعمل على تنشئة العلماء، وإقامة المراكز والمؤسسات

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩١.

(٢) البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦١٤٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (١٦٥٢).

البحثية.. وذلك أن طلب العلم ونشره يحتاج فيما يحتاج إليه إلى تفرغٍ وجهادٍ بالنفس والنفيس كما سبق أن رأينا، وذلك يتعذّر كثيرًا على من لم يُكْفَوا مئونة العيش وهم كُثُر، وقد قال الشاعر[1]:

بِالعِلمِ وَالمالِ يَبني الناسُ مُلكَهُمُ ... لَم يُبْنَ مُلكٌ عَلى جَهلٍ وَإِقلالِ

والمجتمع المسلم قبل كل شيء مجتمعٌ متكافلٌ ومترابط، ومتممٌ بعضه بعضًا، وما من شريحة من شرائحه إلا وهي تقوم بدورٍ فاعلٍ فيه، وتسد ثغرة من الثغرات المهمة التي لا يمكن إغفالها، والتقصير في أي دور من تلك الأدوار يؤدي بالضرورة إلى إحداث خللٍ وأضرار وتأثيرات سلبية على المجتمع الإسلامي ككل!!

وعليه فإن مساعدة رجال الاقتصاد والثروة لإخوانهم من العلماء وطلاب العلم، وعملهم على سد تلك الثغرة الحيوية والمهمة في المجتمع، والتي كثيرًا جدًّا ما تحتاج إلى الإنفاق عليها، من شأنه أن يعمل على قيام حياة علمية متقدمة، ومن شأنه أن يُيسِّر ويتيح للعلماء القيام بواجبهم في نشر العلم، ونفع الناس، وهدايتهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدين والدنيا.

فهذا العالم المجاهد التاجر، الذي اشتغل بالتجارة لأجل الإنفاق على العلماء وطلاب العلم، عبد الله بن المبارك – رحمه الله–، يقول: «إني أعرف مكان قوم لهم فضلٌ وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، وحاجة الناس إليهم شديدة وقد احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أغنيناهم نشروا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بَثِّ العلم»[2]!!

وقد قال له الفضيل بن عياض يومًا: «أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام؟ كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا» فرد عليه ابن المبارك وقال: «يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون بها وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به». فقال له الفضيل:

(١) هو أحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨ - ١٩٣٢م) أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة. انظر الأعلام ١/ ١٣٦ .

(٢) المزي: تهذيب الكمال ١٦/ ١٩، ٢٠ –ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٥٥ .

«يابن المبارك، ما أحسن ذا إن تم ذا»[1].

ويحكي الذهبي عن ابن المبارك أيضًا فيقول: بلغنا أنه قال للفضيل بن عياض: «لولاك وأصحابك ما اتجرت»[2]!!

وذكر ابن حجر أن ابن المبارك كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان (يعني العالمين الكبيرين والمحدِّثين العظيمين: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة رحمهما الله)، والفضيل، وابن السماك، وابن علية؛ فيصلهم[3].

وقال علي بن خَشْرم: قلت لعيسى بن يونس: كيف فَضَلَكُم ابن المبارك ولم يكن بأسن منكم؟ قال: كان يقدم ومعه الغِلْمة الخرسانية، والبزَّة الحسنة، فيَصِل العلماء، ويعطيهم..[4].

وكان من ذلك ما يحكيه جعفر بن عبد الله الوراق حيث قال: قدِم ابن المبارك الكوفة ومعه مال، فقسمه، فصرَّ صُررًا، فجعل يوجه إلى كل شيخ بصُرَّة[5]!!

وهكذا كان حال التاجر المسلم في عصره، عبد الله بن المبارك، مع العلماء وطلاب العلم؛ يكفلهم بالمال، ويغنيهم عن ذل السؤال، ويعينهم على مئونة العيش؛ ليتفرغوا هم للعلم ونشره، ونفع الناس به.. وذلك كله رغم ما أُثر عنه من علمه هو وجهاده في سبيل الله!!

وغير ابن المبارك كان هناك أيضًا دعلج بن أحمد (ت ٣٥١هـ)؛ إذ كان ضمن منظومة من لهم صدقات جارية على العلماء والمحدِّثين!!

قال الخطيب البغدادي في ذلك ما مؤداه: كان من ذوي اليسار، مشهورًا بالبر، له صدقات جارية ووقوف على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان. (أي جعل لهم قدرًا كبيرًا من المال موقوفًا عليهم، لا ينفق منه على وجه آخر من وجوه الخير)، وزاد ابن ناصر الدين قول الحاكم: لم يكن في الدنيا أيسر منه[6].

وقال الذهبي: قال الحاكم: «دعلج الفقيه... له صدقات جارية على أهل الحديث بمكة

(١) المصدران السابقان: الصفحات نفسها.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٦.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ١/ ٢٤٢ - وتاريخ بغداد ٦/ ٢٣٥.

(٤) انظر الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١٣٨٥.

(٥) انظر تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٥٧.

(٦) انظر تاريخ بغداد ٤/ ٤٢ - الأعلام ٢/ ٣٤٠.

وببغداد وسجستان»[1]!!

ومثل ذلك الصنيع إذا قام به رجال الاقتصاد والثروة في مجتمعنا، وكان لهم اهتمام خاص بالمؤسسات والمراكز العلمية الناجحة - وهناك الكثيرون ممن يقومون بذلك بفضل الله - من شأنه أن يعمل على خلق جو علمي عام، ينشأ فيه العلماء ويكثرون، ويدفعهم ذلك إلى إتمام مسيرتهم، واستكمال طريقهم نحو تقدم الأمة ورفع الحرج عنها في كل المجالات العلمية المختلفة..

ونستطيع هنا أن نُشيد ببعض مؤسسات رجال الاقتصاد والثروة في عصرنا الحاضر، والذين بات لهم دورٌ بارزٌ في هذا المجال.. فنذكر على سبيل المثال لا الحصر **مؤسسة سعيد هائل الخيرية**، كمثال حضاري إيجابي..

فهي مؤسسة علمية ثقافية تأسست في عام ١٩٩٦م بقرار من مجموعة هائل سعيد أنعم وشركاه؛ تكريمًا لذكرى هائل سعيد أنعم – رحمه الله - ؛ لما قدمه من خدمات لمجتمعه في الميدان التنموي بصورة عامة، وفي المجال الخيري بصورة خاصة، انطلاقًا من حسِّه الإسلامي وتجسيدًا لأمانيه في تطوير العلوم والثقافة والتكنولوجيا في بلاده اليمن.

وتهدف المؤسسة إلى الآتي:

- الإسهام في تطوير جيل من العلماء والخبراء والمتخصصين اليمنيين في ميادين العلوم الطبيعية الأساسية والتطبيقية والتقنية والتنموية.
- إنشاء مركز للبحث العلمي.
- الإسهام في تطوير قطاعات الإنتاج الوطني وقطاع الزراعة على الخصوص والنهوض بها وتحديثها بزيادة البحوث والتجارب العلمية والعملية.
- تنظيم المسابقات للعلماء والمبدعين لتشجيعهم على البحث العلمي والأعمال الإبداعية وعلى إجراءات علمية مبتكرة أو متطورة وتقديم جوائز للبحوث والابتكارات للفائزين.

وتنتهج المؤسسة أساليب علمية وعملية لتنفيذ أهدافها، وهي تنظيم الندوات والمحاضرات وورش العمل والمؤتمرات العلمية، وكذلك تنمية العلاقات بين المؤسسة ومؤسسات البحث العلمي داخل اليمن وخارجها لتحقيق الأهداف المشتركة، وإبراز عملية الإبداع العلمي والفكري والأدبي،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١.

وضمان تقدير العلماء والأدباء والكتاب ورجال الفكر ونوابغ الباحثين الذين يسهمون في بناء الوطن وحضارته، وتشجيع البحث الأدبي والنقدي والمعرفي.

وتتوزع مجالات منح الجائزة في الوقت الراهن فيما يلي:

- جائزة العلوم الطبية.
- جائزة العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- جائزة العلوم الإسلامية.
- جائزة الإبداع الأدبي.
- جائزة العلوم البيئية والزراعية.
- جائزة العلوم الاقتصادية.

وتمنح هذه الجوائز في اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل من كل عام في ذكرى وفاة السيد/ هائل سعيد أنعم(١).

وفيما يخص البحث العلمي؛ فقد تم إنشاء صندوق السعيد لدعم البحث العلمي بقرار من مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة تكريمًا لذكرى السيد/ هائل سعيد أنعم، ولتحقيق المقاصد والأهداف التالية:

١- دعم البحث العلمي وتشجيعه في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية المتخصصة في اليمن، وذلك من خلال:

- دعم البحوث العلمية الأصيلة للباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز التعليمية المؤهلة.
- تشجيع الباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية اليمنية على إجراء بحوث علمية مبتكرة، ثم تصميمها بعناية مع مؤسسات البحث العلمي الراقية، المحلي منها والعربي والدولي.
- دعم البحوث العلمية عن طريق المنح أو التعاقد مع الصندوق في مجالات معينة من

(١) جائزة السيد/ هائل سعيد أنعم للعلوم والآداب، الدورة الثانية عن عام ١٩٩٨م (كتاب توثيقي) ص ٤ .

العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية ذات الأولوية للصندوق والمؤسسة.

- التطوير المشترك للتكنولوجيات الناشئة التي من شأنها الإسهام في تطوير الاقتصاد اليمني.

٢- المشاركة في دعم المؤتمرات المتخصصة والندوات وورش العمل العلمية التي تتواءم وأهداف المؤسسة.

٣- المشاركة في تنمية إمكانات مكتبة السعيد من كتب ومراجع ونصوص إلكترونية في العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية.

٤- العمل على نشر نتائج البحوث العلمية ووقائع المؤتمرات والندوات وورش العمل التي تقيمها الجامعات ومؤسسات ومراكز البحث العلمية التخصصية والتي تتفق وأهداف المؤسسة.

٥- إقامة وتعزيز الصلات بين مراكز ومؤسسات البحث العلمي محليًّا وعربيًّا ودوليًّا.

ويدير الصندوق لجنة خاصة مؤلفة من رئيس ونائب رئيس وخمسة أعضاء يختارهم مجلس إدارة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة من ذوي الكفاءة العالية، ومن أصحاب التخصصات والخبرات العلمية المختلفة ولمدة ثلاث سنوات[1].

ومثل هذه المؤسسة هناك مؤسسات أخرى كثيرة تقوم بمثل هذا الدور، وهي - ولله الحمد - في ازدياد وتطور مستمر، وإنا لنأمل في أن يقوم خيِّرون من هذه الأمة ذوو ثروة بتخصيص أموال بعينها للبحث العلمي، مضارعة بنوبل السويدي، صاحب ومؤسس الجائزة المشهورة على الأبحاث العلمية الممتازة.

ويهمنا بعد أن نقرر أن كل هذه العوامل التي ذكرناها في سبيل تنشئة العلماء لا شك أنها تساعد كثيرًا في إنتاج وإخراج علماء متميزين، لكن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها هي أن العامل الرئيسي هو الرغبة الداخلية والإرادة الحقيقية في نفس الطفل، أو الشاب، أو الرجل، أو المرأة في أن يصبح عالمًا متميزًا، فهذا هو الأساس والمعوَّل عليه، ومن دون ذلك تضيع كل الجهود المذكورة هباءً منثورًا.. ونسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

***

---

(١) الموقع الرسمي لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة على شبكة الإنترنت، الرابط
http://www.al-saeed.net/index.php

الباب الثالث

دور العلم في بناء الحضارات

(أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ)

لئلاّ يكون الحديث محض تسلية أو تنفيس، وفي سبيل طرق ميدان العمل وترك ميدان القول.. وحتى نخرج من طور النظرية إلى طور العملية والتطبيق..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس..

فهذه أمثلة ونماذج واقعية، نعرضها في فصولٍ ثلاثة:

الفصل الأول: وفيه نماذج من تاريخ الحضارات القديمة التي اهتمت بالعلم؛ فسادت العالم قرونًا طويلة.

الفصل الثاني: ونذكر فيه نماذج من الحضارة الإسلامية، أخذت بأسباب العلم، فارتقى بها في مدارج السماء؛ لتصبح شعلة تضيء سماء الإنسانية، وتبدد ظلام القرون الوسطى!!

الفصل الثالث: وفيه نماذج من الواقع المعاصر، في صورة دول؛ اهتمت بالعلم؛ فصارت قوى عظمى، يخطب الجميع ودَّها، ويلجئون إليها لطلب العلم والحضارة والمدنية.

* * *

الفصل الأول

دور العلم في بناء الحضارات القديمة

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الحضارة الصينية.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الرومانية.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الحضارة الفارسية.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الحضارة الهندية.

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الحضارة المصرية.

المبحث السادس: دور العلم في بناء الحضارة اليونانية.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في بناء الحضارة الصينية

كان للحضارة الصينية منجزات عظيمة في مجال العلوم والصناعة والطب والفلك والمعمار؛ ففي مجال العلوم كتب الصينيون عن الخسوف وعن مجموعات من النجوم كما أوردوا ملاحظاتٍ على الضوء، وعلى المرايا بأنواعها: المقعَّرة والمحدَّبة والمستوية، كما أدركوا النسبة الصحيحة في النحاس والقصدير.

وتذكر كتب التاريخ فضل أسرة (سونج ٩٦٠- ١٢٧٩م) في النهضة العلمية بالصين القديمة؛ حيث حَفِلَت فترة سونج بالعديد من الاختراعات، ونشأت في عام ١١٠٠م مصانع الحديد والصلب العملاقة والتي أنتجت حوالي ١٥٠ ألف طن من الحديد والصلب. وأنتج الصينيون عام ١٠٧٨م من الصلب ما يعادل ما أنتجته إنجلترا في بداية الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. وكانت الدولة تكافئ المخترعين على اختراعاتهم.

ومن أهم الاختراعات التي قام بها الصينيون:

الطباعة، واختراع الورق:

صنع الصينيون حوالي (١٠٥م) الورق من قشر الشجر والقِنَّب والخرق، وقد كانوا قبله يكتبون على الخيزران والحرير.

وقد حوت المتاحف وقتئذٍ مجموعاتٍ موحيةً من النقوش الفنية على البرونز وأحجار اليشب(١)، ومن الصور الزيتية والمخطوطات؛ وأُنشِئَت في البلاد دور الكتب التي بقي بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية من أهم مراكز العلم في آسيا .

وقد دخلت الطباعة في أيام أسرة سونج فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس - حينها - مداها، وكان هذا الفن قد نما شيئًا فشيئًا خلال القرون الطوال حتى بلغ أَوْجَه في أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين؛ إذ صُنِعَت الألواح المحفورة لتُطبَع

(١) نوع من الأحجار الكريمة، كانت تستخدم للكتابة عليها.

عليها صفحاتٌ كاملة، وصُفَّت الحروفُ المفكَّكة المفرَدة من المعادن المجموعة في القوالب، وكان هذا الاختراع الصيني الخالص أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة[1].

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون؛ ذلك أن الحرير غالي الثمن والغاب ثقيل، وكانوا يحتاجون إلى ثلاث عربات نقل يحمل عليها الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أثمن ما يملكون من متاع الدنيا آنذاك.

وكان اختراع الحبر أيضًا في بلاد الشرق. نعم إن المصريين قد صنعوا الورق والحبر في العهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوروبا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح. ولقد كان «الحبر الهندي» صيني الأصل، وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق[2] شائع الاستعمال في الصين من أيام أسرة (هان)؛ فلمّا ظهر الحبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة[3]. وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة؛ لأنه كان أصلح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تُمحَى مطلقًا؛ فلقد وُجِدَت أكداسٌ من الورق في آسيا الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت، ولكن ما عليها من الكتابة ظلَّ واضحًا تُستَطَاع قراءتُه[4].

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنها الطباعة، ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم، وكانت الأختام الصينية تطبع في بادئ الأمر على الطين كما كانت تُطبَع عليه في بلاد الشرق الأدنى، ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يُنَدُّونها بالحبر، وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تُحفَر على الحجر في القرن الثامن بعد الميلاد، وسرعان ما نشأت بعدئذٍ عادةُ استخراج صورٍ من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالحبر. وفي القرن السادس نجد الدَّوِّيين يستعملون أختامًا من الخشب لطبع الرُّقى السحرية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يُجرُون التجارب بقصد استخراج عدَّة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضّاح وطباعة على

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ صـ ١٥١ وما بعدها.

(٢) المادة الخام التي يستخرج منها الزئبق.

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢/ ٤ ص١٥٦.

(٤) السابق :ص ١٥٧

المنسوجات، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود، وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رُقْيَة سحرية طُبِعَت في اليابان حوالي عام (٧٧٠م) مكتوبةً باللغة السنسكريتية وبحروف صينية، فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسيا. وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكليشهات) في أيام أسرة تانج، ولكن يلُوحُ أنها قد تلفت أو فُقِدَت في أثناء الفوضى والقلاقل التي أعقبت عهد (منج هوانج).

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة في بلاد الصين باعثًا دينيًّا، كما كانت الحال في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة، وكما هي الحال بين بعض الشعوب البدائية في الوقت الحاضر؛ ذلك أن الأديان في ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها عن طريق العين وعن طريق الأذن معًا، ولجعل صلواتها ورقاها وأقاصيصها في متناول كل إنسان.

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون؛ فقد اخترعوا البارود في أيام أسرة (تانج)، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذٍ على الألعاب النارية، ولم يستخدموه في صنع القنابل اليدوية وفي الحروب إلا في عهد أسرة سونج (عام ١١٦١م).

وقد عرف المسلمون ملح البارود (نترات البوتاسا) - وهو أهم مركبات البارود - في أثناء اتِّجارِهم مع الصين وسمُّوه (الثلج الصيني)، ونقلوا سِرَّ صناعة البارود إلى البلاد الغربية، واستخدمه المسلمون في إسبانيا في الأغراض الحربية، ولعلَّ سير روجر بيكين - أول من ذكره من الأوروبيين - قد عرفه من دراسته لعلوم المسلمين، أو من اتصاله بـ (ده-بروكي) الرَّحّالة الذي طاف في أواسط آسيا.

والبوصلة البحرية أقدم عهدًا من البارود، وإذا جازفنا بأن نصدِّق ما يقوله عنها المؤرِّخون الصينيون فإن دوق جو قد اخترعها في عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥-١٠٧٨ ق.م) ليهتدي بها بعض السفراء الأجانب في عودتهم إلى بلادهم. ويقول الرواة: إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها «بإبرة تشير إلى الجنوب». وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغناطيس من خواصّ مغناطيسية، ولكن استعماله كان مقصورًا على تحديد الاتجاهات في بناء الهياكل، وقد ورد وصف الإبرة المغناطيسية في (السونج- شو) وهو كتاب تاريخي مؤلَّف في القرن الخامس الميلادي، ويقول

المؤلِّف: إنَّ مخترعَها هو الفلكي جانج هنج (في عام ١٣٩م)[١]، على أن هذا العالِم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه. وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء في كتاب أُلِّف في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وهو يعزو استخدامها في هذا الغرض إلى البحارة الأجانب- وأكبر الظن أنهم من المسلمين - الذين كانوا يُسيِّرون سفنهم بين سومطرة وكانتون[٢].

وكان الصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم وقودًا واستخرجوه من الأرض بكميات قليلة منذ عام ١٢٢ ق.م.

وأنتجت الحضارة الصينية كذلك كتبًا من أرقى الكتب الدراسية في الزراعة، وفي تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين، وأُلِّفت رسالاتٌ قيِّمة في علم تقويم البلدان. وقد خلَّف عالمها الرياضي المعمَّر جانج تسانج (المتوفى في عام ١٥٢ق.م) وراءه كتابًا في الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة، وقد حسب (دزو تسو تشونج- جي) القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية، وحسَّن المغناطيس أو «الأداة التي تشير إلى الجنوب»، وقد وردت عنه إشارة غير واضحة قيل فيها: إنه كان يجري التجارب على سفينة تتحرك بنفسها. واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيمسغرافا) في عام ١٣٢م[٣].

الرياضيات:

وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشأوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض [انظر صورة رقم ٢]، وكان في وُسْعِ الفلكيين في أيام (كونفوشيوس) أن يتنبَّأوا بالخسوف والكسوف تنبُّؤًا

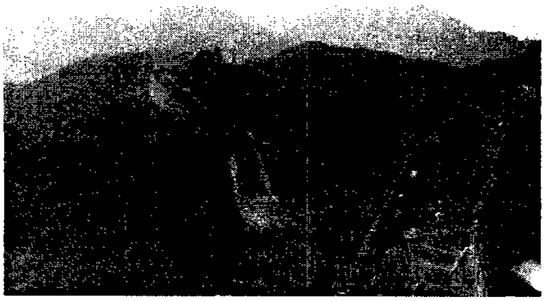

صورة رقم ٢
سور الصين العظيم

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ ص٢٥١.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ صـ ٢٥٢

دقيقًا، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرةَ ساعةً، وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرًا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهرًا آخر في كل بضع سنين لكي يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية.

الطب:

وكان الطب في الصين خليطًا من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية، وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدوَّن، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة (جو) تعقد امتحانًا سنويًّا للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتُحدَّد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات، وقد أمر حاكمٌ صينيٌّ في القرن الرابع قبل الميلاد أن تُشرَّح جثثُ أربعين من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، وأن تُدرَس أجسامُهم دراسةً تشريحيةً، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظري، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد[(١)].

وكتب (جانج جونج- تنج) في القرن الثاني عدَّة رسائل في التغذية والحِميَات (الريجيم) ظلَّت هي النصوص المعمول بها مدى ألف عام، وكتب (هوا- دو) في القرن الثالث كتابًا في الجراحة، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذٍ يخدِّر المريض تخديرًا تامًّا. ومن إهمال المؤرِّخين أن ضاعت أوصاف هذا المخدِّر فيما بعد، ولم يُعرَف عنها شيءٌ[(٢)].

وفي أوائل القرن السادس كتب داو هونج- جنج وصفًا شاملاً لسبعمائة وثلاثين عقارًا مما كان يستخدم في الأدوية الصينية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب جاو يوان- فانج كتابًا قيمًا في أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع المهمة زمنًا طويلاً. وكثرت دوائر المعارف الطبية في أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التي تبحث كل منها في موضوع واحد في عهد الملوك من أسرة سونج، وأُنشِئَت في أيام هذه الأسرة كُلِّية طبية؛ وإن ظل طريق التعليم الطبي هو التمرين والممارسة.

وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلاثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال في اليوم الواحد. وكان الأطباء يطنبون في تشخيص الأمراض؛ فقد

---

(١) ول ديورانت – قصة الحضارة ٢٥٣

(٢) المصدر السابق ٢٥٤

ميَّزوا من أنواع النبض أربعًا وعشرين حالة، واستخدموا اللقاح في معالجة الجدري، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه، ولعلَّهم قد أخذوا هذا عن الهند، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهري. ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر في الصين في أواخر أيام أسرة (منج)، وأنه انتشر انتشارًا مروعًا بين الأهلين، وأنه بعد زواله قد خلَّف وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة.

ولم يتقدم علم الطب تقدمًا يستحق الذكر من أيام (شي هوانج- دي) إلى أيام الملكة الوالدة، ولعلَّ في وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب في أوروبا من عهد أبقراط إلى عهد باستير. وغزا الطب الأوروبي بلاد الصين في صحبة المسيحية، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدُّنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة، أمّا فيما عداها فهم يفضِّلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوروبيين والعقاقير الأوروبية[1].

* * *

(١) ول ديورانت: مصدر سابق ٢٥٥.

المبحث الثاني
دور العلم في بناء الحضارة الرومانية

تعد الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة اليونانية، ولم يكن لحضارة أن تقوم، وتتقدم بذلك القدر دون أن يكون فيها من العلماء، والحريصين على نهضتها وتقدمها من يقودها إلى ذُرَى ذلك المجد والعظمة، وكان هؤلاء هم علماء الحضارة الرومانية، وكان تناولهم للعلم يعتمد على تجارب علمائهم الشخصية، أو النقل عن الحضارات المجاورة لهم .

فنجد مثلاً أن دراسة الجغرافيا كانت لديهم أكثر واقعية، وكان الغرض منها أن يُستَعان بها على الملاحة، وقد نشر بمبنيوس ميلا (Pomponius Mela ٤٣م) خرائط قسَّم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة في الوسط، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية، وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوروبا وشمالي آسيا الغربية، وشماليها الشرقي، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة، وأقاصيص خرافية غريبة. وقد وصلت السفن الإسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر ماديرا Madeira وكناريا أو الخالدات (Canary).

وكان أكبر المنتجات العلمية الإيطالية، وأكثرها دلالة على الجد في ذات الوقت كتاب التاريخ الطبيعي Historia Naturalis الذي وضعه كيوس بلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus، وقد قضى كيوس حياته كلها تقريبًا جنديًا، ومحاميًا، ورحّالة، وحاكمًا، وقائدًا للأسطول الروماني في غربي البحر المتوسط، ولكنَّه رغم هذه المشاغل كلِّها أَلَّف رسائل في الخطابة، والنحو، والحرب، وكتب تاريخًا لروما، وتاريخًا آخر لحروب روما في ألمانيا، وسبعة وثلاثين «كتابًا» في التاريخ الطبيعي هي كل ما بقي من هذا الفيض العظيم من المؤلفات.

وكتابه هذا في جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه. وفي ذلك يقول: «إن الغرض الذي أرمي إليه هو أن أعرض وصفًا عامًّا لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض»، فهو يبحث في عشرين ألف موضوع، ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى، ويشير في هذا الكتاب إلى ألفي مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفًا، ويعترف بدَيْنِه إلى من رجع إليهم من الكتّاب ويذكر أسماءهم جميعًا بصراحة لا نظير لها في

الأدب القديم، ويشير عرضًا إلى أنه وجد أن كثيرًا من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل(١).

الطب عند الرومان:

أمّا الطب فقد أخذوه عن اليونان، ولكنَّهم أحسنوا صياغته، وتنظيمه، وطبَّقوه على الصحة العامة والخاصة، ولقد كانت روما تحيط بها من جميع جهاتها تقريبًا مستنقعات واسعة، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية، فكانت بذلك في أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة، فنحن نسمع أنَّ الملاريا كانت منتشرة في روما في القرن الثاني قبل الميلاد، وأن بعوضة الأنوفيل كانت في ذلك الوقت مستقرة في مناقع بنتين (Pontine)، وانتشر داء النقرس بانتشار الترف، وتدل بعض الفقرات في كتابات الهجائين الرومان على ظهور الزهري في القرن الأول بعد الميلاد، واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى في عام ٢٣ ق.م وفي أعوام ٩٥، ٧٩، ١٦٦ ميلادية(٢).

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات، وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكل إيسكلبيوس Aesculapius ومنيرفا، وكان الكثيرون منهم يتركون فيها الهدايا شكرًا على نعمة الشفاء. فلمّا أن حلَّ القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الحقيقي تزداد شيئًا فشيئًا، ولم تكن الدولة في ذلك الوقت قد وضعت نظامًا لممارسة مهنة الطب، فكان الحذَّاءون، والحلاقون، والنجارون يمارسونه مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا، ويستعينون بالسحر، ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس.

وفُتِحَت في عهد فسبازيان مُستَمَعات Auditoria لتعليم الطب يتولَّى التعليمَ فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدِّي إليهم رواتبهم، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم في هذه المعاهد كما أنَّ اللغة اللاتينية هي اللغة التي تُكتَبُ بها تذاكرُ الدواء في هذه الأيام. وكان يُطلَق على خريجي هذه المعاهد اسم: أطباء الجمهورية، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة الطب بصفة قانونية في روما بعد عهد فسبازيان. ونصَّ في قانون أكوليا Les Aquilia على أن

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٨٦ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٥/ ٢ صـ ١٩٤.

تشرف الدولة على الأطباء، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم. وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم. ومع هذا فإن الدَّجّالين ظلوا يمارسون دجلهم، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظلَّ يزداد شيئًا فشيئًا[(١)].

وقد وصل الطب العسكري في عام (١٠٠م) إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم؛ فكان في كل فيلق أربعة وعشرون جراحًا، كما كان له هيئة للإسعاف الأولي ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم، وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجانًا وتؤدي لهم أجورهم، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء الأطباء Archiarti» يُعنون بالإمبراطور وأسرته، وخدمه وأعوانه، وتُؤدى لهم على ذلك أجور طيبة، وكانت بعض الأسر تتعاقد أحيانًا مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة[(٢)].

وبلغت مهنة الطب في ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص، فكان في البلاد أخصائيون في المسالك البولية، وفي أمراض النساء، وكان فيها أطباء مولِّدون، وأطباء رمد، وأخصائيون في أمراض العين والأذن، وأطباء بيطريون، وجراحو أسنان، وكان في وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب، وأسنان مرتبطة بأسلاك، وكباري وأسنان ذات قشرة ذهبية، كما كان لديهم عدد كبير من الطبيبات، وقد كتبت الكثيرات منهنَّ كتبًا في الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية، وكان الجراحون يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة، وقلَّما كان يوجد جراح غير متخصص في فرع خاص. وكان الأتروبين يُستَعمَل في التخدير، وقد وُجِدَ في خرائب مدينة (بمبي) أكثر من مائتي أداة جراحية مختلفة. وكان تشريح جثث الآدميين عملاً غير مشروع، ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بفحص عن أجسام المجروحين أو المحتَضَرِين.

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار، وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء. وقد جمع شارميس Charmis المرسيلي ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة. وكان

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٩٥.

(٢) السابق ١٩٦.

المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي أفريقية، على حين كان الكبريت يُستخدَم لعلاج الأمراض الجلدية، ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية. وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج، ولكنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من الحالات، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها، ولا يطلعون الجماهير عليها، ويبيعونها بأغلى الأثمان التي يطيقها المرضى[1].

وليس بين الكتّاب المعروفين في علم الطب في هذا العهد كاتب من أصل روماني إلا واحدًا فقط، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيبًا. لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف، جمع حوالي عام ٥٠م في دائرة المعارف كل ما درسه عن الزراعة، والحرب، والخطابة، والقانون، والفلسفة، والطب. وقد ضاع كل ما كتبه إلا القَسَم الخاص بالطب، ويُعَدُّ كتابُه في هذا العلم أعظمَ مؤلَّفٍ وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس، ويمتاز فوق هذا بأنه كُتِبَ بلغةٍ لاتينية فصحى نقية، لُقب سلسس من أجلها بشيشرون[2] الطب. ولقد ظلَّت الأسماء اللاتينية التي ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه[3]!! .

الهندسة عند الرومان:

برع الرومان كذلك في إنشاء الطرق فقد كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء النقي إلى روما، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد. وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية، تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون،وقد أقاموا على أحد شواطئهم جدرانًا ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه .

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٩٧.

(٢) كاتب وخطيب روماني مميز.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٩٧.

كما أنشئوا ميناءً مزدوجًا عند« أستيا »لملوكهم «كلوديوس »(٤١ ـ ٥٤م) ونيرون وتراجان، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وبتيولي، وميسينم، وقرطاجنة وبرنديزيوم ورافنا؛ وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية. وقد جففوا البحيرة الفوسية، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقًا يخترق جبلاً من الصخر الصلب، وأنشأ تحت الأرض في روما مصارف من الأسمنت المتحجر للآجر والقرميد قاومت البِلَى مئات السنين، وجففوا مناقع كمبانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصورًا فخمة كثيرة أقيمت فيها ، وقاموا بتنفيذ المشروعات العامة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من العباقرة التعطل في البلاد وجملوا بها روما.

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام. وكانت سعتها تختلف من ستة عشر إلى أربع وعشرين قدمًا، ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من روما ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل، وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة في سبيل اقتصاد دائم؛ وأقيمت على المجاري التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية، واختلفت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها، وكانت الطبقة السفلى تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة، ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء: الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوي، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضًا، فوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من حجر الصوان أو الحمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلف قطر كل منها بين قدم واحد وثلاثة أقدام، وسمكها بين ثماني بوصات واثنتي عشرة بوصة، وكان يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين، وكانت الطبقة العليا تصنع في بعض الأحيان من الأسمنت المقوى، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء؛

وفي بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء. وكان سمك الطبقات السفلى كبيرًا إلى حد جعل المهندسين لا يعنون كثيرًا بتصريف الماء الجوفي. ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعمارًا في التاريخ كله، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم، ولكن منحنياتها الشديدة التي صُنِعَت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث.

وكانت القناطر التي تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن، ولقد ورث الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حدًّا لم يسبقهم أحد إليه من قبل، وبقيت الأساليب التي نُقِلَت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام، وقد وضعوا الأسس، وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك في أقدم العهود، وكانوا يدفعون في أنواع المجاري أسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير، وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس. وقد أقيمت على نهر التيبر قبالة روما تسعة جسور بعضها قديم: كجسر سبليسيوس الذي لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه، وبعضها متقن البناء كجسر فبريسيوس لدرجة أنه بقي صالحًا للاستعمال إلى هذه الأيام[1].

***

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها.

المبحث الثالث
دور العلم في بناء الحضارة الفارسية

يرجع الفضل في حضارة الفرس إلى (آل ساسان) الذين حكموا فارس في القرن الثالث الميلادي، وككل القوى العظمى كان للفرس حضارة علمية لا يُستَهان بها، وكان أبرز ما عُرِفَت به الحضارة الساسانية علم نظم الإدارة، والتنظيمات السياسية، التي بدأت منذ أقرَّ «أردشير» (أول الحكام الساسانيين) عددًا من الأنظمة والقوانين في الدولة، منها وضع ديانة أساسية للبلاد، ووقع اختياره على الديانة الزرادشتية، التي كانت سائدة لدى الشعب، وأمر كبير وزرائه «تنسر» بجمع كل النصوص المتعلقة بكتابها المقدس المدعو (الفستا) أو (الأبستاق) في مجلدٍ واحد، وأجازه باللغة البهلوية، واعتبره الكتاب المقدس.

وفي عهد ولده وخليفته «سابور» أدخل رجال الدين إلى هذه النصوص الدينية نصوصًا طبية وفلكية وطبيعية، عدّوها نصوصًا تعليمية، وجبت إضافتها إلى ثقافة الزرادشتي الصالح لدينه ووطنه(1).

النُّظم الاجتماعية والإدارة:

بدأ «أردشير الأول» في إرساء أول نظام اجتماعي عرفته الحضارة القديمة، ارتكز على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات رئيسية؛ تأتي في مقدمتها طبقة «رجال الدين»، ثم طبقة «رجال الجيش»، ثم طبقة «الكتّاب»، ثم طبقة «الفلاحين والعمال».

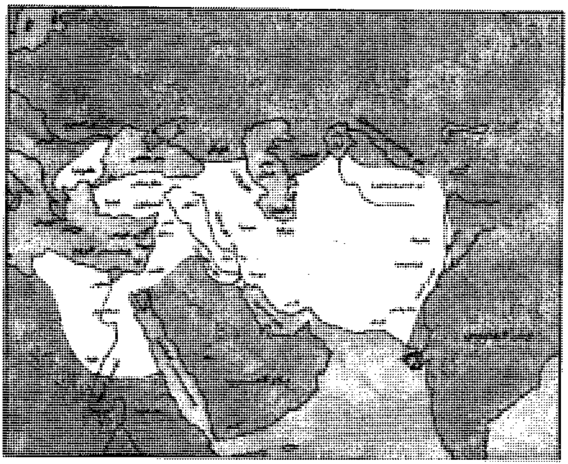

خريطة رقم (٧)
الإمبراطورية الساسانية الفارسية- ٢٢٦م- ٦٥١م -في أقصى اتساع لها سنة ٥٠٠ م

وتذكر المصادر أنه بعد وفاة «أردشير» تولى الحكم ابنه «شابور» الذي ورث دولة قوية، واهتم بتدعيم الدولة، وأعاد تنظيم الإمبراطورية [انظر خريطة رقم ٧]، وأقام سدَّ «شستر»،

---

(١) عبد الحفيظ يعقوب: من ملامح الحضارة الإيرانية القديمة ٨٠.

وأنشأ العديد من المدن، كما اهتم بالعلوم فأمر بترجمة الكثير من الكتب الإغريقية في شتى العلوم، كالطب والفلك والفلسفة[1].

التعليم في الحضارة الفارسية:

يذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن الفرس كان لديهم عاداتٌ خاصّة في تعليم أبنائهم، فيقول: «كان الوليد يبقى في أحضان أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السنة يدخل المدرسة. وكان التعليم يُقصَر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولاّه الكهنة عادةً؛ فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكل أو في بيت الكاهن؛ وكان من المبادئ المقررة ألاّ تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سببًا في إفساد الصغار. وكانت الكتب الدراسية هي (الأبستاق)[2] وشروحها، وكانت مواد الدراسة تشمل الدين، والطب أو القانون، أمّا طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب، وتكرار الفقرات الطويلة غيبًا.

أمّا أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يتلقون ذلك النوع من التعليم، بل كان تعليمهم مقصورًا على ثلاثة أشياء: ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق.

وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين، وكان مَن يُعَدُّ إعدادًا خاصًّا لتولِّي المناصب العامة أو حكم الولايات؛ يُدرَّبون على القتال بلا استثناء.

وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليا حياة شاقة؛ فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين، ويدرَّبون على الجري مسافات طويلة، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهي تركض بأقصى سرعتها، والسباحة، وصيد الحيوان، ومطاردة اللصوص، وفلاحة الأرض، وغرس الأشجار، والمشي مسافات طويلة في حر الشمس اللافح أو البرد القارس؛ وكانوا يدرَّبون على تحمُّل جميع تقلبات الجو القاسية، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط.

لقد كان هذا في الحق تعليمًا ينشرح له صدر فريدرك نتشه في اللحظات التي يستطيع فيها

---

(١) حسن برنيا: تاريخ إيران القديم ٢٣٠.

(٢) هو كتاب الديانة الزرادشتية، وقد سبقت الإشارة إليه.

نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق[1].

العلوم الطبية:

كان الفرس الساسانيون يثقون بعلوم الإغريق والرومان، خاصة في الطب، حيث تؤكِّد المصادر أن معظم أطباء الملوك كانوا إغريقًا أو رومانًا، ومع ذلك تتضمن (الأوتسا) وشروحها، وأشهرها (نسك هُبسارم) معلومات طبية جيدة، تستهلها بحقيقة أن «أهورامزدا» ردًّ على «أهريمن» الذي خلق الأمراض لقهر الإنسان بأن أوجد لكل مرض نباتًا يشفي منه، كما يتضمن (النسك) تفاصيل عن صفات الطبيب الجيد، ومراحل تعليمه، وواجباته تجاه مرضاه ومجتمعه، إضافة إلى أجوره التي تختلف حسب حالة المريض الاجتماعية ونوعية المرض، ونجد في «النسك» توجيهًا للمرضى الإيرانيين بضرورة اللجوء إلى الطبيب الوطني، قبل الاستعانة بالطبيب الأجنبي، وكذلك تفاصيل أخرى عن أنواع الأمراض وأشكال الأوبئة، وكذلك أمراض الحيوانات الأليفة وعلاجها.

ولعل أبرز ما في هذا النسك من معلومات طبية، هو تقديمه معلومات عن الطب النفسي، وتفريقه بين صحة الجسد وصحة الروح، وتأكيده على أهمية طبيب الروح، علمًا بأنه لا يستخدم أدوية بل يستخدم طرقًا معنوية للعلاج.

وقد أوردت كتب التراث العلمية الساسانية ثلاث طرق للعلاج، وهي:

العلاج بالأعشاب وهي «كالأدوية»، والعلاج بالسكين وهي «الجراحة»، وثالثها الكلام المقدس، وهو «العلاج النفسي»، وكان يُضاف له حرقُ البخور لطرد الأرواح الخبيثة، ويبدو أن الأطباء النفسيين كانوا يقتربون بحسب علومهم من رجال الدين أكثر من رجال العلم، حيث كان هؤلاء يشبهون الإثم بالمرض، ويوازون بينهما، ويعتقدون أن الرذائل كالجهل والغرور والخداع ما هي إلا أسباب لا مرئية لأمراض الزكام والإسهال والجفاف والحمَّى وغيرها.

ويبدو أن نجاح العلوم الطبية المعاصرة التي أثبتت وجودها في المجتمع الساساني دفعت في اتجاه إنشاء مدرسة لتخريج الأطباء، وقد سهَّل تحقيق الهدف لجوء عدد كبير من الأطباء

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول ـ الجزء الثاني ٤٤٣.

الرومان إليهم (أثناء اضطهادهم في رومانيا)، مما دفعهم لتأسيس أفضل مدارس الطب في «جنديسابور» آنذاك، وظلَّت هذه المدرسة مزدهرة، وتُخرِّج العديد من الأطباء حتى بدايات العصر الإسلامي[1]..

العلوم الأخرى:

وهي تلك العلوم التي ازدهرت استمرارًا للعلوم التي عرفتها دول إيران الأقدم من الدولة الساسانية، ومعظم هذه العلوم كانت منذ عهد كسرى الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩م) الذي كان - على الرغم من كونه زرادشتيًّا - واسع الأفق، حرَّ التفكير، ذا عقلية علمية متميزة؛ إذ كان يتقبل بحث الآراء المختلفة في مسائل الطبيعة والعلوم المختلفة، ولم يتردَّد في الاستعانة بأبناء الديانات الأخرى (كالنصارى) في الوظائف التعليمية أو العلمية ذات النفع العام، وكان مثقفًا يتقن اللغة السريانية، والسنسكريتية، وكان معجبًا بفلسفة أفلاطون وأرسطو، لدرجة أنه كلَّف أحد المطارنة بترجمة كتب المنطق التي كتبها أرسطو، والتي تحدث فيها عن الآراء التاريخية بوصف الآلهة والعالم، ونظريات الخلق.. وغيرها.

ويبدو تأثير ذلك الملك عظيمًا في إيران، وذلك لحرصه على نقل معارف الأمم المجاورة إلى بلاده، ففي عهده نقلت مجموعة الكتابات الهندية والبوذية إلى اللغة البهلوية والساسانية[2].

العمارة:

كان للفرس طراز فني خاص في العمارة؛ فقد شيَّدوا في أيام قورش (٥٥٠ـ ٥٢٩ ق.م)، مقابر وقصورًا، كشف علماء الآثار القليل منها، وقد يستطيع المعول والمجرف - وهما المؤرِّخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب - أن يكشفا لنا في المستقبل القريب ما يُعلِي من تقديرنا للفن الفارسي.

وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من برسبوليس يقوم قبر (دارا) الأول منحوتًا في واجهة صخرة في الجبل كأنه ضريح هندوسي، وقد نُقِشَ مدخلُه ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عُمُد دقيقة حول باب غير شامخ. ومن

---

(١) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) من ملامح الحضارة الإيرانية ١٠١.

فوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رُسِمَ عليها الملك كأنه يعبد أهورا- مزدا، والقمر. والفكرة التي أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسري فيهما روح البساطة والرِّقة الأرستقراطية.

أمّا أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفرج عنها الأرض الكتوم يومًا بعد يوم فهي الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في برسبوليس؛ ذلك أنَّ دارا (٥٢١ ق. م) ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصورًا يحاولون بها أن يرجئوا الوقت الذي تُنسَى فيه أسماؤهم. ولسنا نجد في تاريخ العمائر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التي كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور.

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى (الزجورات)، أي أبراج أرض الجزيرة، وتلتف حولها، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني. ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من رُكّاب الخيل أن يصعدوها جنبًا إلى جنب. وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلاً بديعًا إلى الطور الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علوًّا يتراوح بين عشرين وخمسين قدمًا، والذي يبلغ طوله ألفًا وخمسمائة قدم، وعرضه ألفًا، والذي شُيِّدت عليه القصور الملكية، وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نُصِبَت على جانبيه تماثيل ثيران مجنَّحة ذات رءوس بشرية كأبشع ما خلَّفه الفن الآشوري. وكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العمائر الفارسية على الإطلاق، ونعني بها (الجهل- منار)، أو الرَّدهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربو مساحتها على مائة ألف قدم مربع، فهي أوسع من معبد الكرنك الفسيح، ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان[1].

ولا يزال ثلاثة عشر عمودًا من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي باقية إلى اليوم بين خربات القصر، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة، وتُعَدُّ هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال، وهي أرفع من مثيلاتها في مصر القديمة أو اليونان، وتعلو في الجو علوًّا لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى، إذ يبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدمًا، وقد خطت في جذوعها ستة وأربعون محزًا، وتشبه قواعدها

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٤٩.

أجراسًا تغطيها أوراقُ أشجارٍ مقلوبة الوضع، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف «الأيونية»، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرّنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف. وقام من خلف الجهل- منار، أي من شرقيها «بهو العُمُد المائة» ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجة لتصميمه العام. ولعلَّ هذين القصرين كانا أجمل ما شاده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء.

وأقام أرت خشتر الأول والثاني (٣٧٩-٣٨٢م) في مدينة السوس (في منطقة الأحواز) قصرين لم يبق منهما إلا أساسهما. ذلك أنهما شُيّدا من الآجر المكسو بأجمل ما عُرِفَ من القرميد ذي اللؤلؤ الزجاجي.

ولم يكن التصوير والنحت في السوس وفي غيرها من العواصم فنين مستقلين، بل كانا تابعين لفن العمارة، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع فنانين جيء بهم من آشور وبابل وبلاد اليونان[١].

بناء الطرق:

أنشأ المهندسون طاعةً لأمر دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) طرقًا عظيمة تربط حواضر الدولة بعضها ببعض، وكان طول أحد هذه الطرق (وهي الممتدة من السوس إلى سرديس) ألفًا وخمسمائة ميل، وكان طولها يقدر تقديرًا دقيقًا بالفراسخ (وكان الفرسخ ٤ ,٣ ميل)، ويقول هيرودوت: «إنه كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزُل فخمة، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عامرة بالسكان»، وكان في كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد، ولهذا فإن البريد الملكي كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التي يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة، أي في أقل قليلاً من أسبوع، مع أن المسافر العادي في تلك الأيام الغابرة كان يجتاز تلك المسافة في تسعين يومًا. وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهي آمنة، وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممرات جبال أفغانستان، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعًا وسطًا لثروة الشرق التي كانت حتى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل. وقد أنشأت هذه الطرق في الأصل لأغراض حربية وحكومية، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية؛ ولكنها أفادت أيضًا في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار[٢].

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٥٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤١٣.

المبحث الرابع
دور العلم في بناء الحضارة الهندية

جهود الهند في العلم قديمة جدًّا وحديثة جدًّا في آنٍ معًا؛ فهي حديثة إذا نظرنا إلى العلم باعتباره بحثًا دنيويًّا مستقلاً، وهي قديمة إذا نظرنا إليه باعتباره مشغلة فرعية من مشاغل الكهنة؛ ولما كان الدين هو لُبُّ الحياة الهندية وصميمها، فإن العلوم التي كان من شأنها أن تعاون الدين هي التي سبقت غيرها بالرعاية والنمو؛ فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية، ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين؛ ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحَّة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية، صحيحة في تركيبها وفي مخارج أصواتها، على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة، فقد كان علماء الهند هم كهنتها، بكل ما في ذلك من خيرٍ ومن شرٍّ.

علم الفلك:

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصودة، ثم أخذ رويدًا رويدًا ينفُضُ عن نفسه الأغلال في ظلِّ اليونان؛ وأقدم الرسائل الفلكية - وهي السِدْ ذانتا حوالي ٤٢٥ ق.م - كانت قائمة على أساس العلم اليوناني حتى لقد اعترف «فارهاميرا» الذي أطلق على مؤلَّفه الموسوعي اسمًا له مغزاه إذ أطلق عليه «مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي» - اعترف صراحة باعتماده على اليونان، وعلَّل «آريا بهاتا»- وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود - الكسوف والخسوف، والاعتدالين والانقلابين (في حركة الأرض حول الشمس)، وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها، وكان فيما كتبه سابقًا لعلم النهضة الأوروبية سبقٌ جريءٌ؛ حيث قال: «إنَّ عالم النجوم ثابت، والأرض في دورانها هي التي تُحدِثُ كلَّ يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق، واختفاءها في الغرب» وجاء بعده خَلَفُه المشهور (براهما جوبتا) فنَسَّق المعلومات الفلكية في الهند، ولو أنه أعاق تقدم الفلك هناك برفضه لنظرية «آريا بهاتا» الخاصة بدوران الأرض، هؤلاء الرجال وأتباعهم هم الذين لاءموا بين حاجات الهنود والتقسيم البابلي للسماء إلى أبراج، وهم الذين قسَّموا العام اثني عشر شهرًا، كل شهر منها ثلاثون يومًا، وكل يوم ثلاثون ساعة، وكانوا يضيفون شهرًا زائدًا كل خمسة أعوام، وحسبوا بدقة تستوقف النظر قُطْرَ القمر وخسوف الشمس، وموضع القطبين

ومواضع النجوم الرئيسية ودورانها، وشرحوا نظرية الجاذبية- ولو أنهم لم يصلوا إلى قانونها- عندما كتبوا في «سِدْ ذانت» : «إن الأرض تجذب إليها كل شيء بما لها من قوة جاذبة»[١].

الجبر والرياضة:

تقدم الجبر عند الهنود وعند اليونان دون أن يأخذ فريق عن فريق فيما يظهر لكن احتفاظنا باسمه العربي (الجبر كلمة عربية معناها ملاءمة التركيب) يدل على أن هذا العلم قد أُتِي به إلى أوروبا الغربية من العرب- وهذا معناه أنه جاء إليها من الهند لا من اليونان، وأبطال هذا الميدان من الهنود هم- كما في علم الفلك- آريا بهاتا وبراهما جوبتا وبهاسكارا؛ ويظهر أن أخيرهم (وُلِدَ سنة ١١١٤م) قد ابتكر العلامة الجذرية وكثيرًا غيرها من الرموز الجبرية، وهؤلاء الرجال هم الذين ابتكروا فكرة الكمية السلبية التي كان يستحيل الجبر بغيرها، وصاغوا القواعد التي يمكن بها إيجاد التباديل والتوافيق، وحسبوا الجذر التربيعي للعدد ٢، وحلّوا في القرن الثامن الميلادي معادلاتٍ غير متعينة من الدرجة الثانية، كانت تجهلها أوروبا حتى أيام «يولر» بعد ذلك بألف عام، ولقد صاغوا علمهم هذا في قالب شعري، وخلعوا على مسائل الرياضة رشاقة تُمَيِّز العصر الذهبي في تاريخ الهند[٢].

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق في الهندسة؛ ولو أن الكهنة استطاعوا - في قياس مذابح القرابين وبنائها - أن يصوغوا النظرية الفيثاغورسية (التي مؤداها أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين) قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين، وكذلك استطاع «آريا بهاتا»- وقد يكون متأثرًا باليونان في ذلك- أن يحسب مساحة المثلث والمعيَّن والدائرة وأن يقدر قيمة النسبة التقريبية (في حساب النسبة بين طول قطر الدائرة ومحيطها) بـ ١٤١٦ر٣- وهو رقم لم يعادله في دقة الحساب رقم آخر حتى عهد «بير باخ» في أوروبا؛ وكان «بهاسكارا» سباقًا إلى حساب التفاضل، إذ فكر فيه على نحو تقريبي، وأعد «آريا بهاتا» قائمة بحساب الجيب، وجاء في كتاب «سوريا سِدْ ذانتا» مجموعة منسقة في حساب المثلثات، كانت أرفع مستوى من كل ما عرفه اليونان في هذا الباب[٣].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الثاني الجزء الثالث ٢٣٦. (٢) المصدر السابق ٢٣٧ .

(٣) انظر : ماكدونال: تاريخ الهند القديم ٢٩.

الكيمياء:

تقدمت الكيمياء بادئة طريقها من مصدرين: الطب والصناعة؛ فقد أسلفنا بعض القول في براعتهم الكيماوية في صَبِّ الحديد في الهند القديمة، وفي الرقي الصناعي العظيم في عصور «جوبتا»، حينما كان يُنظر إلى الهند - حتى من روما القيصرية - على أنها أمهر الأمم جميعًا في صناعات كيماوية مثل: الصباغة والدبغ وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، خصص «ناجارجونا» كتابًا بأكمله للبحث في الزئبق؛ فلمّا كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط طويل من أوروبا في الكيمياء الصناعية، فكانوا أساتذة في التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة، وخلط المساحيق المنومة والمخدرة، وتحضير الأملاح المعدنية، والمركبات والمخلوطات من مختلف المعادن؛ وبلغ طرق الصلب في الهند القديمة حدًّا من الكمال لم تعرفه أوروبا إلا في أيامنا هذه، ويقال: إنَّ الملك يورس، قد اختار هدية نفيسةً نادرة يقدمها للإسكندر ثلاثين رطلاً من الصلب، إذ آثرها على هدية من الذهب أو الفضة؛ ونقل المسلمون كثيرًا مما كان للهنود من علم الكيمياء والصناعة الكيماوية إلى الشرق الأدنى وأوروبا، وكان الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سِرَّ صناعة السيوف «الدمشقية»[1].

الطب الهندي:

كان التشريح وعلم وظائف الأعضاء- مثل بعض جوانب الكيمياء- نتيجتين عرضيتين للطب الهندي؛ ففي القرن السادس قبل الميلاد- رغم أنه عهد يغوص في القدم- كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية، ورتق العظام، والجهاز اللمفاوي، والضفائر العصبية، واللفائف والأنسجة الدهنية، والأوعية الدموية، والأغشية المخاطية والمفصلية، وأنواعًا من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة.

وقد زلَّ أطباء الهند في العصر السابق لميلاد المسيح في نفس الخطأ الذي وقع فيه أرسطو حين تصور القلب مركز الشعور وأداته، وظنوا أن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه، لكنهم فهموا عمليات الهضم فهمًا يستوقف النظر بدقته- أعني الوظائف المختلفة للعصارات

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣ ص ٢٣٨.

المعدية، وتحول الكيموس إلى كيلوس، ثم تحول الكيلوس إلى دم- وسبق «أتريا»، «وإيزمان» بألفين وأربعمائة عام حين ذهب (حوالي ٥٠٠ ق.م) إلى أن نطفة الوالد مستقلة، وكانوا يحبذون فحص الرجال للتحقق من توافر عناصر الرجولة فيهم قبل إقدامهم على الزواج؛ وجاء في تشريع «مانو» تحذير من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل، أو الصرع، أو سوء الهضم المزمن، أو البواسير، أو شقشقة اللسان.

وكان مما فكرت فيه مدارس الطب الهندية سنة ٥٠٠ ق.م، ضبط النسل على آخر طراز يأخذ به رجال اللاهوت، وهو يقوم على نظرية هي أن الحمل مستحيل في مدى اثني عشر يومًا من موعد الحيض؛ ووصفوا تطور الجنين وصفًا فيه كثير جدًّا من الدقة، وكان مما لوحظ في هذا الصدد أن جنس الجنين لا يتعين إلا بعد مدة، وزعموا أن جنس الجنين في بعض الحالات يمكن التأثير فيه بفعل الطعام أو العقاقير(١).

وتبدأ مدونات الطب الهندي بكتاب «أترافا- فيدا»، ففي هذا الكتاب تجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها، لكنك تجدها محاطة بكثير جدًّا من السحر والتعزيم؛ فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر؛ فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض، على أساس أن هذه تساعد على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية؛ ثم أخذ على مرِّ الزمن يزيد من اعتماده على الوسائل الدنيوية، ماضيًا إلى جوار ذلك في تعاويذه السحرية؛ لتكون هذه مُعينة لتلك من الوجهة النفسية، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض.

وفي ذيل كتاب «أترافا- فيدا» ملحق يسمى «أجو- فيدا» (ومعناها: علم إطالة العمر)؛ ويذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب في واحد من العناصر الأربعة: (الهواء والماء والبلغم والدم)، وطرائق العلاج هي الأعشاب والتمائم السحرية؛ ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم في وصف الأمراض وعلاجها مأخوذًا به في الهند اليوم، وإنَّ ذلك لَيُصِيب من النجاح أحيانًا ما يثير الغيرة في صدور الأطباء الغربيين؛ وتجد في كتاب «رجْ- فيدا» نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب، وهو يحبِّذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض؛ على أن الأطباء والجراحين حتى في العهد الفيدي كانوا يتميزون بما يفرِّق بينهم وبين المعالجين

(١) السابق نفسه: ٢٣٩.

بالسحر؛ وكانوا يسكنون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية.

وأعظم اسمين في الطب الهندي هما «سوشروتا» في القرن الخامس قبل الميلاد و«شاراكا» في القرن الثاني بعد الميلاد؛ فقد كتب «سوشروتا»- وكان أستاذًا للطب في جامعة بنارس- باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها، وكان قد ورث العلم بها من معلمه «ذانوانتاري»؛ فبحث في كتابه بإطناب في الجراحة، والتوليد، والطعام الصحي، والاستحمام، والعقاقير، وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية، وأما «شاركا» فقد أنشأ «سامهيتا» (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب، وهي لا تزال مأخوذًا بها في الهند؛ وبثّ في أتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقترب من فكرة أبقراط: «لا ينبغي أن تعالجوا مرضاكم ابتغاءَ منفعةٍ لأنفسكم، ولا إشباعًا لشهوة ما من شهوات الكسب الدنيوية، بل عالجوهم من أجل غاية واحدة هي التخفيف عن الإنسانية المعذبة، بهذا تفقدون سائر الناس»[(١)].

ويتلو هذين الاسمين التماعًا في تاريخ الطب الهندي اسم «فاجبهاتا» (٦٢٥م) الذي أعد موسوعة طبية نثرًا ونظمًا، ثم اسم «بهافامِسْرًا» (١٥٥٠م) الذي وصف الزئبق علاجًا لذلك المرض الجديد- مرض الزهري- الذي كان من عهد قريب مع البرتغاليين، جزءًا من التراث الذي خلّفته أوروبا للهند[(٢)].

وصف «سوشوترا» كثيرًا من العمليات الجراحية- الماء في العين، والفتق، وإخراج الحصاة من المثانة، وبقْر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك، كما ذكر (١٢١) أداة من أدوات الجراحة منها المشارط والمسابير والملاقط ومناظير القُبُل والدُّبُر، وعلى الرغم من تحريم البراهمة لتشريح جثث الموتى، جعل يدافع عن ضرورة ذلك في تدريب الجراحين؛ وكان أول من رقَّع أذنًا جريحة بقطع من الجلد اقتطعها من أجزاء أخرى من الجسم، وعنه وعن أتباعه من الهنود أخذ الطب الحديث عملية تقويم الأنف؛ ويقول «جارِسُنْ»: «لقد أجرى قدماء الهنود كل العمليات الجراحية الكبرى تقريبًا، ما عدا عملية ربط الشرايين»[(٣)]؛ فقد بتروا الأطراف، وأجروا الجراحات في البطن، وجبروا كسور العظام، وأزالوا البواسير؛ وقَعَّد «سوشوترا» القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة، ويعد اقتراحه بتعقيم الجرح بالتبخير أول ما

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣ صـ ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

نعرفه من جهود في وسائل التطهير أثناء الجراحة؛ ويذكر لنا «سوشوترا» و «شاراكا» فوائد أنواع من الشراب الطبي في تخدير الجسم عند الألم، وحدث في سنة ٩٢٧ م أن قام جراحان بتربنة الجمجمة لملك هندي، فخدره عند الجراحة بفعل عقار يسمى «ساموهيني»[١].

وأوصى «سوشوترا» بأن تُتَّبع في تشخيص الأمراض التي أحصى منها (١١٢٠)، طريقة النظر بالمنظار، وطريقتا جس النبض والتسمُّع بالأذن، وقد جاء وصف لجسّ النبض في رسالة تاريخها ١٣٠٠م؛ وكان تحليل البول طريقة مستحسنة في تشخيص الأمراض؛ حتى لقد اشتهر أطباء التبت بقدرتهم على علاج أي مريض دون النظر في أي شيء يتعلق به ما عدا بوله؛ وكان العلاج الطبي في الهند في عهد يوان شوانج، يبدأ بصيام مداه سبعة أيام، وكثيرًا ما كان يشفى المريض في هذه الفترة، فإذا بقي المرض لجئوا بعدئذ إلى استخدام العقاقير، لكنهم لم يكونوا يسرفون في استخدامها حتى في أمثال هذه الحالات؛ إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم، والاستحمام والحقن الشرجية، والاستنشاق، والحقن في مجاري البول، وإخراج الدم بدود العلق أو بالكئوس.

وقد كان لأطباء الهنود شهرة خاصة في تكوين ترياقات السموم، ولقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة ٥٥٠ م، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر، ذلك لو حكمنا من نص يُعزَى إلى «ذانوانتاري» وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود، وهذا هو: «خذ السائل من البثور التي تراها على ضرع البقرة ... خُذْه على سنان المشرط، ثم طعِّم به الأذرع بين الأكتاف والمرافق، حتى يظهر الدم؛ عندئذٍ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حمى الجدري»[٢].

ومن اللافت للنظر أن كثيرًا من قوانين الصحة التي أوصى بها «سوشوترا» و «مانو» تُسلِّم تسليمًا- فيما يظهر- بما نسميه نحن بنظرية المرض عن طريق الجراثيم؛ ويبدو لنا أنَّ التنويم كوسيلة للعلاج قد نشأ عند الهنود الذين كثيرًا ما كانوا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالإيحاء التنويمي، أو «نعاس المعبد» كما كان يحدث في مصر واليونان. أمَّا الأطباء الإنجليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم في إنجلترا- وهم «بريد» و«ازديل» و«اليوتسُن» «فلا شك في أنَّ ما أوحى لهم بآرائهم تلك، وببعض خبرتهم، هو اتصالهم بالهند»[٣].

---

(١) أقيمت المستشفيات في سيلان منذ ٤٢٧ ق.م، وفي شمال الهند منذ ٢٢٦ ق.م.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣ ص ٢٤٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وقد تطور الطب الهندي بصفة عامة تطورًا سريعًا في العهدين الفيدي والبوذي، ثم أعقب ذلك قرونٌ سار فيه التقدم بخطواتِ الوئيد الحذر؛ ولسنا ندري كم يدين «أتريا» و«ذانوانتاري» و«سوشوترا» لليونان!! وكم تدين اليونان لهم!! يقول «جارسن»: إنه في أيام الإسكندر «كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة - هم جديرون بها - بما يتميزون به من تفوُّق في العلم والمهارة في العمل»، وحتى أرسطو نفسه - في رأي طائفة من الباحثين - مدين لهم وكذلك قل في الفرس والعرب، فمن العسير أن تقطع برأيٍ في مدى ما أخذه الطب الهندي من بغداد، ومن الطب البابلي في الشرق الأدنى عن طريق بغداد؛ فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق، وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض، قد جاءت إلى الهند من فارس فيما يظهر، لكنَّك من جهة أخرى ترى الفرس قد ترجموا إلى لغتيهما في القرن الثامن الميلادي موسوعتي «سوشوترا» و «شراكا» اللتين كانتا قد مضى عليهما ألف عام، وينتهي «لورد آمِتهِل» إلى نتيجة هي أن أوروبا الوسيطة والحديثة مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر، وللهند عن طريق العرب؛ ولعلَّ هذا العلم قد نشأ في بلاد مختلفة في وقت واحد تقريبًا، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة في سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكري[1].

***

(١) المصدر السابق ٢٤٥ .

المبحث الخامس
دور العلم في بناء الحضارة المصرية

لا شك أن أي حضارة لا يستقيم بناؤها عبثًا، ولا يمكن أن تكون راسخة شامخة إلا بأسس ودعائم قوية، وأن أساس أي حضارة هو ما توصلت إليه من علم في شتى مجالات الحياة المختلفة، ذلك العلم الذي بدأ بحاجة الإنسان البدائية للحياة، وتطور بإعمال عقله، ولا شك أن الحضارة المصرية القديمة أسهمت إسهامًا كبيرًا في الحضارة الإنسانية لما توصلت إليه من اكتشافات ومخترعات، كما سنرى:

اختراع الكتابة:

يُعَدُّ أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة، وسواء أكانوا هم أول من اخترعها، أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم، وينبغي ألا ننسى أن اختراعًا كهذا - بقطع النظر عن موضع ظهوره - لا يمكن تحديد زمنه بالضبط، لأنه لا يظهر دفعة واحدة، ولا في زمن معين، وإنَّ ذلك الاختراع بدأ في مصر في عصر ما قبل التاريخ، ويمكن أن يقال: إنه وصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر؛ لأن أقدم كتابة وصلت إلينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة.

ونستطيع أن نفترض أن المصريين بدءوا الكتابة باستعمال صور للتدليل على الأشياء أو الأفكار لا الكلمات، ثم أصبحت هذه الصور تدريجيًا - وبمضي الزمن - مصطلحاتٍ مبسَّطة ومعقَّدة مرتبطة في النهاية بكلمات منطوقة، وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب، بل كلمة معينة من كلمات اللغة المصرية، وربما يحدث فيما بعد أن تذهب الفكرة الأصلية وتحتفظ الصورة بقيمتها الصوتية، وأن يحدث أن يستعملوها، بل استعملوها فعلاً في كتابة كلمات ذات أصول واحدة، وبخاصة في كلمات أسماء الأشخاص، أو الكلمات ذات الدلالة المعنوية التي لا يمكن تأديتها عن طريق التصوير، وبمرور الزمن تقدم المصريون خطوة أخرى، حين استعملوا بعض الرموز للدلالة على العلامات الساكنة الأولى في الصوتيات، وهكذا صار لديهم - زمن الدولة القديمة - مجموعة عِدَّتها أربع وعشرون علامة

هجائية، ولم تزد عن هذا العدد فيما بعد[1].

اكتشاف ورق البردي:

بلغ اختراع الكتابة قيمته الاجتماعية عن طريق اختراع آخر، وهو إيجاد مادة صالحة للكتابة، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن في متناول الأيدي، ومن الواضح أنه طالما ظلَّت الكتابة مقصورة على النقش على الحجر (كما كانت الحال على ما يبدو في بلاد اليونان لعدة قرون)؛ فإن مجالها ينحصر في كتابة الوثائق ذات الأهمية البارزة، أمّا الإنتاج الأدبي فيكون طويلاً لدرجة أنه لا يمكن نقشه على الحجر أو المعدن، ولا بُدَّ من مادة أرخص لحفظه عن طريق تدوينه بالكتابة.

وقد تغلَّب المصريون القدماء على تلك المشكلة الأساسية بطريقة رائعة، فقد اكتشفوا طريقة لاستخدام ورق البردي في الكتابة، وهو مادة صالحة جدًّا للكتابة، صنعها المصريون من لُبِّ السيقان الطويلة لنبات البردي الذي كان يكثر في مستنقعات الدلتا، وكان اللُّب يُقطَّع إلى شرائح طويلة توضع متعارضة في طبقتين أو ثلاث، ثم تُبلَّل بالماء، ثم تضغط وتصقل، ولم يكن الأمر يكلفهم أكثر من جمع نبات البردي كثير الانتشار، أمّا صنعه ورقًا فكان هينًا للغاية.

غير أن كل اختراع يتطلب اختراعاتٍ أخرى مكمِّلة له، فلا يكفي أن يكون لدينا شيء في متناول اليد لنكتب عليه، بل يجب أن يكون لدينا أيضًا أدوات الكتابة نفسها، وقد استعمل المصريون في الكتابة أنواعًا مختلفة من الألوان ليكتبوا بها على ورق البردي بفرشاة دقيقة صُنِعَت من السمار الرقيق الذي وجدوه في نفس المواضع المائية مع نبات البردي.

ومن الواضح أن ورق البردي تفوق على غيره من المواد التي استعملها المصريون للكتابة في أي زمن من الأزمنة (مثل: العظام والفخار والعاج والجلد والكتان)، على أن ناحية من نواحي هذا التفوق لم تتضح لأول وهلة، مع أنها في نظرنا أهم هذه النواحي، وهي أن الأخبار المكتوبة على العظام أو الجلد أو غيرهما من المواد تظل قطعًا غير متصلة، لا يمكن الاحتفاظ بها مجموعة مدى قرون من الزمن، أما العباقرة مخترعو ورق البردي، فبعد أن صنعوا منه صفحات منفصلة لم يلبثوا أن أدركوا أنه يمكن لصق كثير من هذه الصفحات بعضها إلى بعض؛ الواحدة ذيل الأخرى وبذلك أمكنهم عمل درج - وهو في اللاتينية فليومن

---

(١) جورج سارتون: تاريخ العلم ١/ ٧٦.

volumen، ومنه اشتُقَّت كلمة فليوم volume في اللغات الأوروبية الحديثة - ليحتوي على نصٍّ مهما بلغ طوله، ويحفظه حفظًا تامًّا في ترتيبه الخاص، واختلف عرض الدرج من ثلاثة أقدام إلى ثمانيةَ عشرَ قدمًا، وأما الطول فيتوقف على النص الذي يحتويه، وأطول بردية معروفة هي التي تسمَّى هاريس رقم ١ (بالمتحف البريطاني رقم ٩٩٩٩)، ويبلغ قياسها ١٣٣ قدمًا × ١٦ قدمًا[١]، وبفضل اختراع الدرج وصل إلينا كثير من النصوص القديمة كاملاً[٢].

الفلك:

ترجع معرفة المصريين بالنجوم إلى أبعد عصر من عصور ما قبل التاريخ، وليس في هذا ما يدعو إلى العجب؛ لأن جوَّ مصر الصافي ولطافة طقسها المنعش أثناء الليل، حدا بالناس إلى التأمل في حركات الأجرام السماوية، ولا بد أنهم لاحظوا أن النجوم موزعة توزيعًا غير متساوٍ، وأنها مجموعات (أو أبراج) ذات أشكال معينة، وتسهيلاً للرجوع إلى هذه المجموعات قسَّموا منطقة واسعة على طول خط الاستواء إلى ستة وثلاثين قسمًا يشمل كل منها أسطعَ النجوم والمجموعات (أو أجزاءها)، مما يمكن رصد ظهوره كل عشرة أيام متعاقبة (وهو ما يُسَمَّى: ديكان)، ولدينا جداول قديمة لهذه الأقسام، والنجوم الخاصة بكل منها[٣].

ومن المعروف أن أهم حدث في الحياة المصرية هو الفيضان السنوي للنيل، إذ يتوقف عليه رخاء الفلاح أو ضنكه (في الفيضان المنخفض)، واتفق ذلك الحدث تمامًا (أو تقريبًا لأن انتظامه لم يكن دائمًا) مع شروق الشِّعرَى اليمانية، وهي أكثر النجوم تألقًا في السماء.

وقبل ذلك حاول المصريون حساب الزمن بواسطة القمر، ولكنهم سرعان ما انتقلوا عنها إلى التقويم الشمسي؛ فغدت السنة عندهم أولاً مقسمة إلى اثني عشرَ شهرًا، وكل شهر منها ثلاثة دياكين، وساوت السنة ستة وثلاثين ديكانًا، ولكنهم سرعان ما أضافوا إليها خمسة أيام أعيادًا[٤].

العمارة والهندسة:

الأهرام معروفة لكل إنسان، وهي لذلك غنية عن التعريف، ولكنَّ القارئ العادي لا

(١) عُثِرَ عليها عام ١٨٥٥م بالقرب من معبد «الدير البحري»، وقد وصلت إلى يد أحد تجار الآثار في نفس الوقت، واشتراها منه في العام نفسه المستر «هاريس» الإنجليزي الأصل، وأول مذكرة كُتِبت عن هذه الورقة كانت عام ١٨٥٨م.

(٢) جورج سارتون: تاريخ العلم ١ / ٨١.

(٣) المصدر السابق ٨٥.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٨٨.

يفكر إلا في أهرام الجيزة الثلاثة وهي أكبر الأهرام، ولكنَّها ليست كل ما هنالك منها، ولا هي أقدمها، أمّا أقدم هرم فهو ما بُنِي للملك زوسر من الأسرة الثالثة (في القرن الثلاثين قبل الميلاد)، وهو المعروف باسم الهرم المدرَّج بسقارة (قرب العاصمة القديمة منف جنوبي القاهرة)، ويبلغ ارتفاع هذا الهرم حوالي مائتي قدم [انظر صورة رقم ٣]، أما الهرم الأكبر، وهو أضخم الأهرام الثلاثة بالجيزة، فكان بناؤه بعد ذلك بقرن من الزمن للملك خوفو من الأسرة الرابعة، وهو أضخم بناء من العصور القديمة، ومن أضخم ما شيَّد الإنسان على الإطلاق، إذ يبلغ طول كل جانب من جوانبه حوالي ٧٧٥ قدمًا، وارتفاعه عندما كان كاملاً ٤٨٠ قدمًا. وهذه الأهرام التي شيدت لإيواء القبور الملكية وحفظها وصيانتها بُنِيَت من الحجر الجيري كتلة فوق كتلة، ما عدا الحجرات الجنائزية والممرَّات المتعرِّجة التي تؤدي إليها.

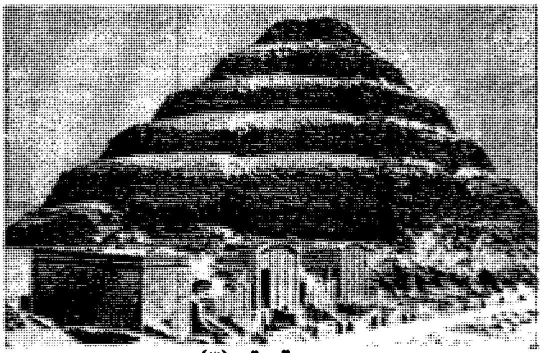

صورة رقم (٣)
هرم سقارة المدرج

وتثير إقامة هذه الأبنية الضخمة منذ تسعة وأربعين قرنًا مضت معضلاتٍ فنيةً متعددة لم يتضح كثيرٌ منها حتى الآن؛ فلا يزال مما يحير الفكر مثلاً: كيف تمكن المعماريون أيام خوفو من ابتكار تصميم لهذا البناء، وكيف تمكَّنت رعيته من إقامته؟ ذلك أن أدواتهم الهندسية، بالغة ما بلغت من التقدم بالقياس إلى أدوات الشعوب القديمة - كانت بدرجاتٍ كثيرةٍ دون أدواتنا - والواقع أن الأهرام بالجيزة عجيبة جدًّا لدرجة أن بعض العلماء الذين حاولوا كشف أسرارها وقعوا فريسةً لنوع من الجنون، فنسبوا إلى بنائيها القدماء قدراتٍ سحريةً وميتافيزيقية [انظر صورة رقم ٤].

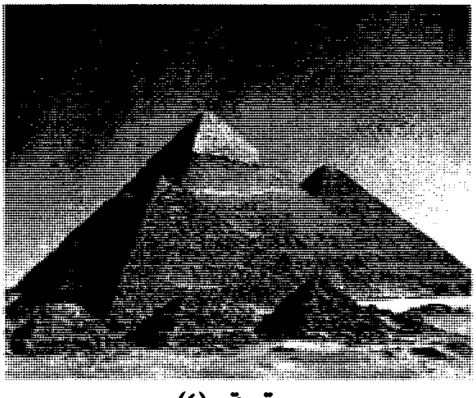

صورة رقم (٤)
الأهرامات

وقد فسَّر بعض المستخِفِّين بمجهودات بناة الأهرام معجزة البناء هذه؛

بقولهم: «استخدم المصريون آلافًا كثيرة من الرجال لمدة طويلة من الزمن، فأحلُّوا القوة البشرية محلَّ القوة الآلية بأعداد لا تنتهي من العمال»، ولا ريب أنهم استخدموا آلافًا كثيرة من العمال، ولكن هذا لا يفسر المعجزات المعمارية والفنية، بل يضيف إليها معجزاتٍ بشرية تشبهها في صعوبة تفسيرها؛ ذلك أنه من السهل أن نتحدث عن حشد ٣٠ ألف رجلٍ، للقيام معًا بعمل شاق، ولكن كيف حدث ذلك بالضبط؟ إنَّ عدد الرجال الذين يمكن حشدهم للإفادة منهم في عمل معين في مكان محدود يتطلب أن يكون عددًا محدودًا، ومع التسليم بأن من المستطاع أن نستخدم عددًا كبيرًا - عشرات الآلاف مثلاً - من العمال معًا في وقت واحد؛ فإن الإشراف على مثل هذا العدد من العمّال يحتاج إلى مهارة كبيرة وتدبير، كما أن إطعامها من جوع، وسدَّ حاجاتها الأخرى يستلزم خبرة إدارية، ومهارة بالغة في شئون التموين، وسواء أكانت القوة اللازمة لعملٍ من الأعمال مستوردةً من محركٍ مكني أم من كتلة بشرية، فإنَّ ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلب معرفة وذكاء وتنسيقًا بين العمل والعمال[1].

الرياضيات:

تتضمن الأعمال المعمارية والهندسية في مصر قدرًا كبيرًا من المعرفة بالحساب والهندسة، وأول ذلك أنهم كانوا في حاجة ضرورية لمعرفة الطرق البسيطة لإجراء الحسابات المعقدة، وقد استطاعوا سدَّ مثل هذه الحاجة منذ القدم، فهناك صولجان ملكي بمتحف (الأشموليان) بأكسفورد يرجع تاريخه إلى عهد الملك نارمر[2] قبل الأسرة الأولى (أي عام ٣٤٠٠ق.م)، يسجِّل الاستيلاء على ١٢٠ ألف أسير، و٤٠٠ ألف ثور، و١,٤٢٢,٠٠٠ من الماعز، وهذه لا شك أعداد كبيرة منقوشة بطريقة قريبة إلى حدٍّ ما من طريقة الأعداد الرومانية، لوجود رموز تحيل المليون لأرقام عشرية يمكن تكرارها عدة مرات حسب العدد المطلوب، وعلى العموم كتب المصريون أكبر الوحدات أولاً، ثم أعقبوها بالوحدات الأخرى حسب أهميتها.

أما الحاجة إلى الهندسة فواضحة حتى في بناء آثار بسيطة في مظهرها الخارجي كالأهرام، وهذه تعود بنا إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد، ذلك أنه تحتَّم على بناة الأهرام أن يقطعوا كتل الحجر الجيري على مقاسات مضبوطة قبل وضعها على مواضعها المطلوبة، وأكبر هذه الكتل هي التي

(١) سارتون : تاريخ العلم ١/ ٩٠.

(٢) موحد مصر في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، ومؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

رتبت ترتيبًا معقدًا فوق المقبرة الملكية بمثابة دعامات لتحويل الضغط عن سقفها، ويوجد من هذه الدعامات ٥٦ دعامة لسقف المقبرة الملكية في الهرم الأكبر، يبلغ متوسط وزنها ٥٤ طنًا، وبلغت الدقة التي رُوعِيَت في بناء ذلك الهرم (خوفو- الأسرة الرابعة) درجة لا يمكن تصديقها[1].

ويدل قطع الأحجار التي تطلب تركيبها بعضها إلى بعض معرفة بالهندسة وقياس الأحجار (وسنرى الآن كيف ذهب المصريون بعيدًا في هذا المضمار). ومع أنه من المستطاع أن تقول في اطمئنان بوجود أجهزة رياضية كافية نوعًا ما لدى بناة الأهرام، وأنه لم يكن في الإمكان أن ينهضوا بالجانب العلمي من عملهم بدون هذه الأجهزة، فلا توجد لدينا نصوص رياضية من الدولة القديمة ولا غيرها قبل الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق.م) مع احتمال إرجاع أهم نصين من النصوص المتأخرة التي وصلت إلينا إلى تلك الأسرة نفسها[2].

الطب:

لا حاجة إلى التأكيد بقدم الطب المصري، ففي كل حضارة من الحضارات يتطور الطب مبكرًا، لأن الحاجة إليه عامة ملحة دائمًا، بحيث لا يمكن إغفالها في أية بقعة من بقاع الأرض، وليس هناك من شك أن المصريين مارسوا نوعًا من الطب منذ أبعد العصور ما قبل التاريخ، أي قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين، مثال ذلك أنَّ استعمال الملاخيت كحلاً وطلاءً للعين يرجع إلى عصر البداري (٤٥٠٠ ق.م)، وأن استعمال الجالينا (خام الرصاص) لأغراض مشابهة جاء بعد ذلك في عصور ما قبل الأسرات أيضًا، وكان الختان طقسًا من طقوس المصريين منذ عصر سحيق، دلَّت عليه آثاره في الجثث التي استُخرِجَت من مقابر عصر ما قبل التاريخ (أي منذ عام ٤٠٠٠ ق.م) وفي مقبرة من الأسرة السادسة (حوالي ٢٦٢٥- ٢٤٧٥ق.م).

وأقدم طبيب معروف باسمه هو إيمحتب وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في القرن الثلاثين قبل الميلاد، وكان إيمحتب رجلاً عالمًا وفلكيًّا وطبيبًا ومهندسًا معماريًّا، وصار إيمحتب في العصور التالية معبودًا عند المصريين، باعتباره بطلاً وطبيبًا منزهًا عن كل شائبة، ثم عبدوه بعد ذلك باعتباره إلهًا للطب. ونحن لا نعرف إلا نزرًا يسيرًا عن مدى معرفة إيمحتب بالطب، غير أنَّ رفعه إلى مقام الإله ينطوي على معانٍ واضحة، تجعلنا مطمئنين إلى

(١) السابق ٩٨.

(٢) سارتون: تاريخ العلم ١/ ٩٩.

تقدير المصريين له بأنه أول رجل عظيم في الطب.

ولم يقتصر الأمر في عصر الأهرام على وجود كثير من الأطباء فحسب، بل تعداه إلى وجود أخصائيين بينهم في بعض فروع الطب، وتظهر مهارة أحد أطباء الأسنان الأولين في فك سفلي وجد في مقبرة من الأسرة الرابعة، (٢٩٠٠- ٢٧٥٠ ق.م) أجريت فيه عملية لتصريف الإفرازات من خراج تحت الضرس الطاحن الأول، ويتضح من اللوحة الجنائزية الخاصة بالطبيب (غيري)، وهو رئيس أطباء أحد فراعنة الأسرة السادسة (٢٦٢٥- ٢٤٧٥ ق.م) أنه كان أيضًا «طبيب العيون بالقصر» و«الطبيب الباطني للقصر» وأنه كان يلقب بألقاب منها «العارف بالإفرازات الباطنية» و«حارس الدبر»[١].

ثم نرتفع في مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والأخصائيين الذين ساروا في صناعة الطب على قانون أخلاقي ظل يُتَوَارث جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القَسَم الذائع الصيت: قسم أبقراط الذي انتقل إليهم من الحضارة اليونانية. وكان من المصريين أخصائيون في التوليد وفي أمراض النساء؛ ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة، ومنهم أطباء العيون. وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحدًا منهم إلى بلاد الفرس. أولئك هم الأخصائيون، أما غير الأخصائيين منهم فقد تُرِكَ لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضِّروا أدهان الوجه، وصبغات الشعر، وتجميل الجلد، وأعضاء الجسم، ومبيدات البراغيث.

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث في الشئون الطبية، وأعظمها قيمة بردية أدون سميث، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها وهي ملف طوله خمسة عشر قدمًا، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق. م تقريبًا وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيرًا . وحتى لو ضربنا صفحًا عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ وهي تصف ثماني وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف من كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكي، وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثًا دقيقًا في نظام منطقي في عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائي مؤقت، وفحص، وبحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة، وتشخيص العلة،

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني ١٣٠.

والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها، ثم تعليقات على سطح المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها. ويشير المؤلف في وضوح لا نجد له مثيلاً قبل القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ.

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من الأقراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها. ففي بردية إيبرز ثَبْتٌ بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة، من عضة الأفعى إلى حُمَّى النِّفاس[1]. وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالي عام ١٨٥٠ ق.م) أقماع اللبوس، ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل. وقد عُثِرَ في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على مزهريات، وملاعق، وعقاقير جافة، وجذور. وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان، ومن الرومان إلى العالم بعد ذلك، ولا نزال إلى اليوم نتجرع في ثقة واطمئنان كثيرًا من الأدوية التي خلطها وجهَّزها لنا المصريون على شاطئ النيل في أقدم الأزمان.[2]

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتِّباع الوسائل الصحية العامة، وبختان الذكور، وبتعويد الناس أن يُكثِرُوا من استخدام الحقن الشرجية. ويقول ديودور الصقلي في هذا المعنى: «وهم يتَّقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام الملينِّات وبالصوم وبالمقيئات، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في البعض الآخر؛ وذلك لأنهم يقولون: إن الجزء الأكبر مما يَخُلُّ بالجسم من طعام يزيد على حاجته، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد»[3].

ويعتقد (بلني) أن المصريين قد تعلَّموا عادةً استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف «بأبي منجل» وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل في دبره واستخدامه كالمحقن. ويروي هيرودوت أن المصريين كانوا «يطهرون أجسامهم مرة في كل شهر ثلاثة أيام متوالية، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيِّئات والحقن الشرجية، لأنهم يظنون أن جميع ما

(١) هي حدوث ارتفاع في درجة الحرارة في خلال أربعين يومًا من الولادة.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني،١٣٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يـأكلون مـن الطعـام»[1]. وهـذا المـؤرخ- وهـو أول مـؤرخ للحضارة- يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين[2] أصح شعوب العالم أجسامًا.

التحنيط:

ومن الأمور التي تميزت بها الحضارة المصرية إيمانها بفكرة الحياة بعد الموت، تلـك التـي دفعت أفرادها إلى التفكير بطريقة يحافظون بها على جسم الإنسان بعد موته، تمهيدًا لانتقاله إلى هذا العالم الآخر، الذي كان في معتقدهم عالم إله الموت (أوزوريس) .

وكانوا يدرسون التفاصيل المادية لجسم الإنسان أثناء حياته، ويحاولون أن يحتفظـوا بهـا بعد موته، بما يكفل عدم تحللها، وانصب اهتمامهم الأسـاسي عـلى الجسـد، كيـف يحفظونـه، وذلك من خلال التحنيط الذي كان يقوم به الكهنة والأطباء أو الفيزيائيون في أماكن خاصـة وفقًا للطقوس الدينية الجوهرية الخاصة بالدفن.

واتبعوا للتحنيط أسلوبًا علميًا دقيقًا، يتلخص في تفريغ جسم الإنسان مما فيه باستخدام بعـض الأدوات في ذلك، فكانوا يفرغون الصدر، ويغسلون الأحشاء، ويقومون بحشوها بالبصل، ثم يلفون الجسم بلفافات كتانية تُسرِع في تجفيف الجسم، كما يفرغون الدماغ مـن الأنـف، ويضـمدون الجسـم بعناية، كل عضو على حدة، وتوضع الأصابع والأكف والأقـدام والأرجـل والأذرع متقاطعـة عـلى الصدر، والجسم يغطى بضمادات طويلة جدًا جدًا مـن الكتـان المغطسة بمادة صمغية تحمي الجسم من الصـدمات ولا تسـمح للبكتريا بالدخول للجسم.

صورة رقم (٥)
جثة محنطة من زمن قدماء المصريين

و بفضل تلك الطريقة العلمية المبتكرة والفريدة جدًا تمكنًا من الوصول إلى عدد من الجثث المحنطة للعديد مـن الأسر الفرعونية القديمة [انظر صورة رقم ٥].

وهكذا كان العلم، والتفكـير العلمـي سـبيل قـدماء المصريين إلى تلك النهضـة العظيمـة، التـي لا تـزال آثارها باقية حتى يومنا هذا.

(١) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة ١/ ٢ صـ ١٣٥. (٢) أقوام بدائيون لا حضارة لهم، عاشوا في أفريقيا.

المبحث السادس
دور العلم في بناء الحضارة اليونانية

عُـرِفَ اليونـان بالتقـدم العلمـي مبكـرًا في تـاريخ الحضـارة الإنسـانية، إذ يـذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن العصر الذهبي للحضارة القديمة كان عند«اليونـان»، حيـث ظهر النشاط الثقافي في ثلاثة أشـكال رئيسـية هـي الفـن، والتمثيـل، والفلسـفة، ويـذكر أن الفلاسفة كانوا يخشون مهاجمة العقائد الدينية للشعب مهاجمـة صريحـة، ونشـط فـيهم علـماء كثيرون، وكان عصر (بركليز) تحديدًا هو عصر النهضة البارزة علميًّـا عـلى مختلـف مجـالات العلوم[1].

علم الحساب والهندسة:

يكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكـون علـمًا بـدائيًّا لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهذيب، فكان يُرْمَز لرقم ١ بشرطـة عموديـة ولـرقم ٢ بشرطتين، وبثلاث شُرَط لرقم ٣ وبأربع لـرقم ٤، وكانـت الأعـداد ٥، ١٠، ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠ر٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التي تُسمَّى بها هذه الأعداد وهـي: بنتي Pente، وديكا Deka، وهكتون Hekaton، وكليـوي Chilioi، ومريـوي Myrioi. ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزًا للصفر. ومما يدل على أن علم الحساب اليوناني مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشري فقد كان اليونان يَعدُّون بالعشرات، وأخـذ عـن البابليين في علمي الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثني عشرية والسِّتِّينية؛ فكانوا يعـدون في هذين العلمين بالاثني عشرات والستينات[2].

أمّا الهندسة النظرية، فكانـت مـن الدراسـات المحبَّبـة إلى الفلاسـفة، ولم تكـن تُـدرَس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها الذهنية النظرية وما فيها من استدلال منطقـي خلاّب، وما فيها من دقة ووضوح، وتفكير متتابع ينبني بعضـه عـلى بعـض. كـذلك كانـت دراسات الفيثاغوريين للقطع المكافئ، والقطع الزائـد، والقطـع النـاقص هـي التـي مهـدت السبيل إلى مؤلّف (أبولونيوس البرجي) Appolonius of Perga في القطاعات المخروطيـة،

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ١٧٤.
(٢) المصدر السابق: ١٧٥.

وهو المؤلف الذي كان عظيم الشأن في تاريخ العلوم الرياضية. وفي عام ٤٤٠ ق.م. نشر أبقراط الطشيوزي (وهو غير أبقراط الطبيب) أول كتاب معروف في الهندسة النظرية وحل مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين. وفي عام ٤٢٠ق.م أفلح هيبياس الآليائي Hippias of Elia في تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى.

وملاك القول أن براعة اليونان في الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضَعفهم في الحساب. وكان للهندسة شأن عظيم في جميع نواحي نشاطهم، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالاً كثيرة للحلي المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم(١).

علم الفلك:

وكان هذا العلم قد خطا خطوته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن (أنبادوقليس) في (أكرجاس) أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى. ثم خطا خطوةً ثانية حين أعلن (بارمنيدس) في (إيليا) Elea أن الأرض كروية الشكل، ثم قسَّم هذا الكوكب الأرضي إلى خمس مناطق، وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام. ثم قام (فيلولوس) Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزلها منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التي تطوف حول «نار تتوسطها» جميعًا. وجاء (لوقيبوس) Leucippus تلميذ فيلولوس فقال: إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد «تندفع في مجرى الحركة العالمية للدوامة الدائرية» ومن تجمع هذه المواد وتركزها. وقام في (أبدرا) (دمقريطس) تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية، فوصف المجرة بأنها مكونة من عدد لا يحصى من النجوم الصغرى، ولخص التاريخ الفلكي بقوله: «إنه تصادم دوري وتحطيم لعدد لا يحصى من العوالم». وجملة القول أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكاد يكون خلوًا من الآلات العلمية(٢).

الطب.. وأبقراط:

لقد كان أهم الحوادث في تاريخ العلوم اليونانية في عصر (بركليز) نهضة الطب القائم على العقل لا على الخرافة؛ ذلك أن الطب اليوناني قبل ذلك الوقت حتى في القرن الخامس نفسه كان وثيق

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٧٧ (٢) السابق نفسه ١٧٨

الارتباط بالدين إلى حد كبير، وكان كهنة هيكل أسكلبيوس Asclepius لا يزالون يقومون بعلاج المرضى. وكان العلاج في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية، والطقوس المؤثرة الرهيبة، والرُّقى السحرية التي تؤثر في خيال المريض وتطلقه من عقاله، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضًا إلى التنويم المغناطيسي وإلى بعض المخدرات. وكان الطب الدنيوي ينافس الطب الديني ويحاول أن يتغلب عليه. وكان أنصار هذا وذاك يعزون منشأ علمهم إلى أسكلبيوس، ولكن الأسكلبيسيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين في عملهم، ولا يدَّعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات، وقد أفلحوا شيئًا فشيئًا في إقامة الطب على قواعد العقل[1].

وتطور الطب الدنيوي في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس في أربع مدارس كبرى: في كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى، وفي كرتونا بإيطاليا، وفي صقلية. وفي أكرجاس اقتسم أنبادوقليس مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقي. وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى (دِمُسِديز) Democedes وُلِدَ في (كرتونا)، ومارس مهنة الطب في إيجينا، وساموس، وسوسة. وفي كرتونا أيضًا خرَّجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرةً قبل أبقراط، ونعني به (ألقميون) Alcmaeon الذي يُلقِّبونه: الأب الحق للطب اليوناني. ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا اسمًا متأخرًا في ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الدينيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ، وقد نشر هذا الطبيب في أوائل القرن الخامس كتابًا في الطبيعة Peri Physeos- وكان ذلك هو العنوان المألوف في بلاد اليونان لأي بحث عام في العلوم الطبيعية، ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدَّد من اليونان موضع العصب البصري وقناة إستاكيوس، وشرَّح الحيوانات، وفسَّر فلسفة النوم، وقرَّر أن المخ هو العضو الرئيسي في عملية التفكير، وعرَّف الصحة تعريفًا فيثاغوريًّا فقال: إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة. وكان أكبر رجال الطب في نيدس هو يوريفرون Euryphron الذي كتب في الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences، وقال عن التهاب البلورا: إنه مرض من أمراض الرئتين، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض، وذاع صيته لنجاحه في عمليات التوليد.

ويبدو أبقراط- كما تراه في سيرته الموجزة التي كتبها سويداس Suidas- أعظم أطباء زمانه بلا منازع. وقد وُلِدَ في جزيرة كوس في السنة التي ولد فيها دمقريطس، وأصبح الرجلان صديقين

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ ص ١٨٤ ..

حميمين بالرغم من بُعْدِ موطنيهما، ولربما كان «للفيلسوف الضاحك» نصيب في توجيه الطب وِجْهَة دنيوية. وكان أبقراط ابن طبيب، وقد نشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس «لأخذ الماء من عيونها الساخنة». ووضع له معلمه هيرودكس السلمبري Herodicus of Selymbria الأساس الذي بنى عليه فنَّه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية. وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل بردكاس Percdiccas ملك مقدونيا، وأردشير الأول ملك الفرس، وفي عام ٤٣٠ ق.م. استدعته أثينا ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها[١].

وليس في كل ما كُتِبَ في الطب، وفي كل ما يمكن أن يكتب فيه ما هو أكثر تنوعًا من مجموعة الرسائل التي كانت تُعزَى في القديم إلى أبقراط؛ ففيها كتب مدرسية للأطباء، ونصائح لغير رجال الطب، ومحاضرات للطلبة، وتقريرات، وبحوث، وملاحظات، وتسجيلات سريرية (إكلينيكية) لحالات طريفة، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيتين: العلمية والفلسفية في الطب. وكانت الاثنان والأربعون سجلاً سريريًّا هي السجلات الوحيدة من نوعها في السبعة عشر قرنًا التي أعقبت ذلك العهد، وكانت أعلى الأمثلة في الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت في ستين في المائة من الحالات. وأربعة لا أكثر من هذه المؤلَّفات هي التي انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط؛ وهي «الحكم» و«الأدلة» و«تنظيم التغذية والعوائد في الأمراض الحادة»، ورسالته «في جروح الرأس»، أمّا ما عدا هذه الأربعة من المؤلَّفات المعزُوَّة إلى أبقراط فمن وضع مؤلِّفين مختلفين عاشوا في أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد.

والتشخيص أضعف النقط في طب أبقراط. فقد يبدو أنه لم يكن يعنى بقياس النبض، وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة. وكان يؤمن بالعدوى في أحوال الجرب، والرمد، والسل. وفي كتابه عن (الجسم Corpus) صور إكلينيكية كثيرة للصرع، والتهاب الغدة النكفية الوبائي، وحمى النفاس، والحمى اليومية، وحمى الثلث، وحمى الربع. ولم يرد في المجموعة ذكر للجدري أو الحصباء، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهري، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود.

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٨٥ ..

وتنزع رسائل «التنظيم» نحو الطب الوقائي بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره - وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل. وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب في الطب، ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى، ويقول: إنَّ معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إمّا عليها، وإمّا على المريض ذاته، وإنَّ تقديره الحسابي - الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيثاغوري - الذي يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية.

ويقول أبقراط: إنَّ الطبيعة - أي قوى الجسم وبِنيته - هي أهم علاج لكل مرض أيًّا كان نوعه، وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلِّل أو يزيل العقبات القائمة في طريق هذين الطريقين الطبيعيين للشفاء؛ ولهذا فإنَّ الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير في العلاج، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقي، والمقيئات، والأقماع، والحقن الشرجية، والحجامة، والإدماء (إسالة الدم)، والكمّادات، والمراهم، والتدليك، والمياه المعدنية. ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليوناني جد صغير يتكون معظمه من المسَهِّلات. وكانت أمراض الجلد تُعالَج بالحمامات الكبريتية، وبالتدليك بدهن كبد الدلفين. ويسدي أبقراط للناس هذه النصيحة: «عِشْ عيشةً صحية؛ تنجُ من الأمراض، إذا انتشر في البلد وباء أو أصابتك حادثة. وإذا مرضت ثم اتبعت نظامًا صالحًا في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء». وكثيرًا ما كان يوصي بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه «كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى». ويمكن القول بوجه عام إن «الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إلا إذا كانت معدته شديدة الجفاف».

أما الجراحة فكانت لا تزال في معظم الأحوال عملاً لا يتخصص فيه الطلاب، ويشتغل به كبار الأطباء، وإن كان من الموظفين في الجيوش جراحون.

وجملة القول: إن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التي ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة، ومن غير التجارب العلمية(١).

***

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٩٤.

الفصل الثاني
دور العلم في بناء الحضارة الإسلامية

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الخلافة في أيام عمر بن عبد العزيز.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس (عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم - قرطبة كمثال تطبيقي).

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الدولة الزنكية والأيوبية (نور الدين محمود - صلاح الدين الأيوبي).

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الخلافة العثمانية.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في بناء الخلافة
في أيام عمر بن عبد العزيز

كان قبسًا من نورٍ أضاء سماء الأمة الإسلامية في فترة من الفترات التي ضعفت فيها الهمم، وفترت فيها العزائم، فقيَّضه الله عزَّ وجلَّ للأمة ليكون مجدِّد دينها على رأس المائة الثانية، وقد كان !!

نشأته العلمية:

اختار «عبد العزيز» ـ والد عمر ـ صالح بن كيسان ليكون مربيًا لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه وتعليمه، وحبَّبه في العلم، وكان أبوه حريصًا على تقويمه، وتشجيعه على الجد والاجتهاد؛ يروي ابن كثير عنه أنه كان يلزم الصلوات المفروضة في المسجد منذ نعومة أظفاره، فتأخَّر مرة عن صلاة الجماعة، فسأله مؤدبه «صالح بن كيسان» عمّا أخره، فذكر له أن الخادمة كانت ترَجِّل له شعره، فقال له: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة، وكتب إلى والده في ذلك، فبعث أبوه له من يحلق رأسه(١)، هكذا كانت تربيته.

كما تأثر فيما بعد بشيوخ كبار مثل «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود» الذي كان عمر يحترمه ويُجِلُّه كثيرًا، وأخذ عنه ونهل من علمه وأدبه، ولما تُوُفِّي والده ضمه إليه عمُّه «عبد الملك بن مروان» (الخليفة الفقيه)، مما دفعه إلى العلم دفعًا، وجعله يدرك ـ منذ فترة مبكرة ـ أن الحياة لا تقوم إلا بالعلم، وأن العلم «لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلَّك»..

وهكذا تربى عمر وتعلم على يد طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء، بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين عالمًا، فيهم ثمانية من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين(٢)، نهل من علمهم وتأدب بأدبهم، ولازم مجالستهم حتى ظهرت آثار هذا العلم وهذه التربية على تصرفاته، فامتاز بشخصية علمية دقيقة...

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٦٧٨.

(٢) مسند أمير المؤمنين عمر ص ٣٤.

حبه للعلم:

كان من توفيق الله جلَّ وعلا له أن حبَّب إليه العلم منذ صغره، فرحل في طلب العلم، وأطال الجلوس في حلقات الفقهاء، ومجالس المحدثين.. ومنذ كان واليًا للمدينة المنورة وهو حريص على تلقي العلم من الصحابة وكبار التابعين، يذكر أنه كان يكثر من مجالسة شيخه «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة»، وكان من شيوخه أيضًا سعيد بن المسيب، الذي عُرِفَ عنه أنه كان لا يأتي أحدًا من الأمراء إلا عمر، وذلك لما عرفه عنه من حبه للعلم، وتوقيره للعلماء، ولمكانته العلمية وما حصله فترة شبابه من علم جعله معلمًا لكثير من معاصريه، ومن شيوخه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان مجلس عمر - رحمه الله- يضم نخبة من كبار العلماء. يذكر الزهري (الإمام العالم) أنه كان مع «عمر بن عبد العزيز» في ليلة يتحادثان، فقال له عمر: «كل ما حدَّثتَه الليلة فقد سمعته، ولكنَّك حفظت ونسينا»[1]..

وهذا يبين رسوخ قدمه في طلب العلم، وكثرة سماعه، وسعة اطِّلاعه، حتى يصرِّح للإمام الزهري، بأنه سمع كلَّ ما حدَّث به...

ومن الدلائل الواضحة على سعة علمه:

أنه ما من كتاب من كتب السنة أو الفقه الاستدلالي، إلا وفيه ذكر لعمر بن عبد العزيز، من حديث أو رأي، أو أمر، أو قضاء، ونحو ذلك الاحتجاج لرأيهم بقوله وفعله، من ذلك الرسالة الشهيرة التي بعث بها الليث بن سعد إلى الإمام مالك، وفيها يحتج الإمام الليث غير مرة لصحة قوله بقول عمر على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

كذلك يرد ذكره في كتب المذاهب الأربعة، على سبيل الاحتجاج به، حتى إن الحنفية جعلوا له وصفًا متميزًا به، وهو « عمر الصغير» تمييزًا له عن جده الفاروق عمر ﷺ، والإمام مالك ذكره في «الموطأ» في زيادة على عشرين موضعًا، كما أنَّ أصحابه من بعده قد أكثروا من ذكر عمر في كتبهم، وكذلك فعل الشافعية، وأمّا الحنابلة فيكفي للدلالة على شأنه الكبير عندهم والاحتجاج بقوله، ما قاله إمام المذهب - رحمه الله-: «لا أدري قول أحد من التابعين حُجَّة إلا قول عمر بن عبد العزيز»[2].

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣٨٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٩٢.

ورسالته الطويلة العظيمة في الرَّد على القَدَرية[1]، وحُجَجه القوية فيها، وتفنيد آرائهم، شاهد واضح، ودليل ناصع، على غزارة علمه، وكبير شأنه، كذلك حِجاجه للخوارج، وكشف زيوف آرائهم، حيث ناظرهم فما ترك لهم حُجَّة إلا كسرها بمنطق قويم، ودليل قوي، وحُجَّة غالبة، ورأي قاهر[2].

أقوال العلماء في علمه:

اجتمعت آراء الأئمة وشهاداتهم على أن عمر بن عبد العزيز أحد الأفراد من العلماء الراسخين، ومن أبرز علماء زمانه المليء بكبار التابعين، وهذه شذرات من أقوالهم:

عن الزهري قال عبيد الله بن عبد الله: «كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة»[3]. وهذه شهادة عظيمة من أستاذه وخاصة شيوخه.

وقال مجاهد: «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج إلينا، فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه»، وقال أيضًا: «أتينا عمر نعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه»[4].

وقال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز معلِّم العلماء»، وقال فيه سيد العلماء أيوب السختياني- وكفى به-: «لا نعلم أحدًا ممن أدركنا كان أخذ عن النبي ﷺ أكثر منه»[5].

وأمّا الإمامان مالك وابن عيينة فقالا: «عمر بن عبد العزيز إمام»[6]. وقال الحافظ ابن سعد فيه: «كان ثقةً مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمام عدلٍ، رضي الله عنه ورضي عنه»[7]، ووصفه الحافظ ابن عبد البر بأنه:« كان أحد الراسخين في العلم»[8].

وقال الإمام الذهبي: «وكان إمامًا فقهيًا مجاهدًا، عارفًا بالسنن، كبير الشأن، ثبتًا، حجة، حافظًا»[9].

فهذه كلمة إجماع من هؤلاء الأئمة الثقات، وبذلك أصبح عمر موئل العلماء، وقبلة الطالبين،

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٤٦.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣٠٩.
(٣) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٠، والكامل في التاريخ ٢/ ٣٧١، وغيرهما.
(٤) الطبقات ٥/ ٣٩٨، و البداية والنهاية ٩/ ١٩٤... وغيره.
(٥) تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٩.
(٦) السابق ص ٤٢٠.
(٧) سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٥.
(٨) جامع بيان العلم ٢/ ١٣٠.
(٩) تذكرة الحفّاظ ١/ ١١٨.

روى الحديث فأكثر، ونظر في النصوص فاجتهد واستنبط، فأخذ عنه الفقهاء، واعتبروا رأيه حجة.

قال الليث بن سعد – رحمه الله–: حدثني رجل كان صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، فقال: «ما التمسنا علمَ شيءٍ إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفروعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة»[1].

جهوده في نشر العلم وتدوينه:

لم يجلس أمير المؤمنين عمر في حلقات العلم ليبثَّ فيها ما عنده، ولم يتصدر المجالس للإفتاء ونشر الفقه؛ إلا أنَّ له سابقة عظيمة، ودورًا أكبر خطرًا، وأعظم أثرًا، وأكثر نفعًا للمسلمين في هذا المجال... ذلكم هو جهده العظيم في تدوين الحديث النبوي، وكذلك جهده الوافر في تسيير العلماء والفقهاء لتعليم الناس وتثقيفهم وإرشادهم، وكان من جهده العظيم في هذين الجانبين ما يأتي:

أولاً: تدوينه العلم وأمره بذلك:

كان رسول الله ﷺ قد نهى عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف، فنُسِخَ النهي، وصار الأمر إلى الجواز.

قال الخطيب البغدادي: «إنَّ كراهة الكتاب في الصدر الأول إنما هي لئلاّ يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشتَغَل عن القرآن بسواه.. ونهى عن كَتْبِ العلم في صدر الإسلام، لِقلَّة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره؛ لأنَّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يُؤمَن أن يُلحِقوا ما يجدون في الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أنَّ ما اشتملت عليه كلامُ الرحمن»[2].

ولقد هَمَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع السنة، وفكَّر طويلاً، ثم لم يلبث أن عَدَلَ عن ذلك؛ فعن عروة بن الزبير « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنة، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير اللهَ فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: إني أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا؛ فأكبُّوا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٩٤.

(٢) انظر محمد الخطيب: أصول الحديث ١٤٧ :١٧٦.

عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا»(١).

ولما أُمِنَ ذلك ودعت الحاجة لم تُكرَه كتابة العلم، وثبت أن كثيرًا من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث، وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه.

بَيْدَ أن التدوين الذي آتى ثمارَه هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلَّى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك؛ فمن إرشاداته قوله: «أيها الناس، قيِّدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة»(٢). ولم يكتفِ أميرُ المؤمنين عمر بهذا الإرشاد العام، والحضِّ على حفظ العلم بكتابته، بل سعى - بحكمه خليفة المسلمين - إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمَّة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين من إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علمًا كثيرًا، فخشي عمر على ضياعه خاصة وأنه ليس دائمًا يتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار.

وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو انتشار الوضع، ودس الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: «لولا أحاديث تأتينا من قِبَلِ المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبتُ حديثًا، ولا أَذِنتُ في كتابته»(٣).

ورأي الزهري هذا كان رأي كثيرٍ من أئمَّة ذلك العصر؛ حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفَّز العلماء على حفظ السنن بتدوينها.

وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بقرار الخليفة الورع المجاهد أمير المؤمنين عمر؛ فاتخذ خطوة حازمة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة(٤)؛ فكتب إلى الإمام الثَّبْت، أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حزم، يأمره بذلك ففي صحيح البخاري: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم (ضياعه)، وذهاب العلماء،

---

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم ١/ ٧٦ :٩٣.

(٢) ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ٢٧٦.

(٣) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ١ / ٢٥٧.

(٤) الخطيب: أصول الحديث ١٧٦، وما بعدها.

ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفْشُوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا»[1]، وعند ابن سعد عن عبد الله بن دينار: قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن[2]، فاكتبه، فإني خِفْتُ دروس العلم وذهاب أهله»[3].

كذلك وجَّه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر أن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا»[4]. ومن هنا قال الحافظ ابن حجر: «وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كَثُرَ التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد»[5]، بل إنَّ عمر أرسل إلى أهل المدينة جميعًا يحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ؛ ليشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث؛ فعن عبد الله بن دينار قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت درس العلم وذهاب أهله»[6].

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّم أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية؛ ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام؛ روى أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» فقال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء»[7].

كذلك فإن عمر بن عبد العزيز ﷺ اهتمَّ باللغة العربية؛ فشجَّع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وإتقانها، وكان يُغدِق عليهم – لذلك – العطايا، كما كان يعاقب من يَلْحَن بالعربية، وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله تعالى والسنة الشريفة[8].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٩٤.

(٢) وكانت من أثبت الناس بحديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، كما ذكر ابن حزم.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٨.

(٤) جامع بيان العلم ١/ ٩١.

(٥) فتح الباري ١/ ٢٠٨.

(٦) الدارمي: باب من رخص في كتابة العلم (٤٨٨) قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح.

(٧) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٩٥.

(٨) عبد الرحمن الشرقاوي: «عمر» ١٧٨.

منهجه وطريقته في التدوين:

اتبع عمر بن عبد العزيز ﷺ في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجًا سديدًا قويًا، ووضع فيه شروطًا صارمة، ويتجلّى ذلك في أربعة أمور:

الأول: حُسْنُ اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فقد اختار له (ابن حزم)، والزهري: فأمّا أبو بكر بن حزم فهو أحد أوعية العلم، ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: «ما رأيت مثلَ ابن حزمٍ أعظم مروءةً ولا أتم حالاً، ولا رأيت من أُوتِيَ مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم» [1].

وأما ابن شهاب الزهري فهو إمام العلم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق: قال فيه الليث بن سعد: «ما رأيت عالمًا قطُّ أجمع من ابن شهاب: يحدِّث في الترغيب والترهيب؛ فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنة، كان حديثه» [2].

وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحدٌ أعلم بسُنَّةٍ ماضية منه» [3]، وقيل لمكحول: «مَنْ أعلم من لقيت؟ قال: ابن شهاب. قال: ثم من؟ قال: ابن شهاب» [4].

الثاني: أنه طلب ممن يدون له السُّنة جمع الأحاديث مطلقًا وتدوينها، وتتبع أحاديث أناس مخصوصين لما امتازوا به، وتدوين أحاديث معينة لأهميتها؛ فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمرة بنت الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة [5]، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله.

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث «عمر بن الخطاب»، وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق، وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب عمر ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر، وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده ﷺ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٣.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦.

(٣) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٥.

(٤) تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢ / ٣٨٧.

الثالث: أنه ألزم مَن يُدوِّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرَّى الثابت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي؛ حيث يقول عمر لابن حزم: «اكتُبْ إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وبحديث عمر»(١)، وعند الإمام أحمد :«اكتب إليَّ من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ﷺ، وحديث عَمْرة»(٢).

وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسسٍ راسخة، ثابتة صحيحة.

الرابع: تَثَبُّته شخصيًا من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأنًا في العلم ممَّن أمرهم بالتدوين؛ لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادةً في التثبت؛ من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء ليس العمل عليه؛ قال: هذه زيادة ليس العمل عليها»(٣).

ثمرة هذا التدوين:

لقد آتَتْ هذه الجهود الباكرة المباركة أُكُلَها، وتمثَّل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدَّة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفترًا منها.

ويُلاحَظ أن كثيرًا من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلَّما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمي، الذي تولَّته الدولة، وعُمِّمَت ثمرتُه على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز.

ومن الثمرات الطيبة- أيضًا – ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط المهمة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده.

وهذا كله ناتج من دِقَّة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له.

ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصِّدِّيق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأئمة، ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش - فإن الله ﷻ قد ادَّخر لعمر بن عبد العزيز تلك المنقبة العظيمة،

(١) الدارمي: باب في من رخَّص في كتابة العلم (٤٨٧).
(٢) أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرجال ١/ ١٥٠.
(٣) محمد الخطيب: أصول الحديث ١٧٩.

والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من واجبات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع.

وهي سُنَّة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فلولا التدوين لضاع الكثير من الحديث النبوي، خاصة في العصور المتأخرة، بعد أن قلَّ الحفظ والرواية والسماع، بل حتى الاهتمام بالحديث الشريف.

ولِعُمَر بذلك مِنَّةٌ عظيمة على الأمة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وهذا من توفيق الله للعظماء وكبار المصلحين، عندما تخلُص سرائرهم، يوفقهم الله للحق، ويدلهم على الخيرات، ويسدد خطواتهم ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا.

ثانيًا: نشره العلم في الأمصار:

لما كان «من واجبات الدولة أن تُسهِّل تحصيل العلم لجميع القادرين على تحصيله، وهو من فروض الكفايات التي يجب على الدولة القيام به، وتمكين الناس من الوصول إليه»(١)، لم يألُ عمر- رحمه الله- جهدًا في القيام بهذا العبء خير قيام، وأداء هذا الواجب على الوجه الأكمل، فأرسل العلماء إلى الأمصار بل والبوادي، ليعلموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم به.

فبعث إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة «نافعًا» مولى ابن عمر وراويته؛ قال عبيد الله بن عمر: «بعث عُمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن»(٢).

وأرسل عشرة من فقهاء مصر من رجال التابعين إلى إفريقية ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي يَعُمُّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم، فلم يحتج عمر أن يسير لها العلماء، بل تطلَّع إلى أقاصي دولته، فأرسل العلماء إليها، بل إنه أرسل الفقهاء إلى البدو ليعلموا الناس في مضاربهم ويفقهوهم في دينهم؛ روى ابن الجوزي عن ابن أبي غيلان قال: «بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقًا...»(٣).

كذلك كان يرسل الكتب إلى الأمصار الإسلامية في دولته الكبيرة، يعلمهم فيها السنن

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١١٩، وذكره الإمام أحمد في مقدمة مسنده.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٩٧. (٣) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي ٩٢.

والفقه، ويأمرهم بإحياء ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، والالتزام بالشرع، وترك ما خالفه، وكانت الكتب تُوَجَّه إلى الولاة والأمراء ليعملوا بها، ويحملوا الناس على التزام ما جاء فيها، وإذا أُشكِلَ على عمر أمرٌ بعث إلى المدينة يسألهم عن ذلك؛ يقول الإمام مالك: «كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عمّا مضى، وأن يعملوا بما عندهم»[(١)]، ويقول الحسن البصري: «وما ورد علينا قَطُّ كتاب عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو رد مظلمة»[(٢)].

وقد أمر - رحمه الله- بإفشاء العلم، وذمِّ كتمانه، وذلك واضح في كتابه إلى أبي بكر بن حزم: «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا»[(٣)].

وقد عمل - رحمه الله- على تذليل الصعوبات أمام العلماء وطلبة العلم؛ ففرض المرتبات للعلماء، ولكلِّ مَنْ نَصَبَ نفسه للعلم وحبسها عليه؛ فقارئ القرآن الذي حفظه، وقام يُقرِئه للناس، ويُعلِّمهم أحكامه، والمحدِّث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها، ويعلِّم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم، وسدُّ حاجاتهم، وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفَّل به الدولة، ويُؤخَذ من بيت المال، ونعمّا فعل - رحمه الله-، فبذلك شجع كلَّ مَن وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة.

روى الإمام الثقة الحجة الخطيب البغدادي عن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: «مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلاّ يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن، وما حملوا من الأحاديث»[(٤)].

اهتمامه - رحمه الله- بتعليم أولاده:

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز بالعلم على هذا القدر - على عِظَمِ شأنه - ، ولكنه كان نموذجًا مثاليًّا في تربية أبنائه على العلم، وحُبِّ العلماء وتوقيرهم، واتبع إجراءاتٍ تعليمية جعل منها منهجًا جديرًا يلبي حاجة الناشيء المسلم، وكان يغرس في أبنائه حب العلم منذ الصغر،

---

(١) مقدمة مسند الإمام أحمد ص١٧.
(٢) السابق ص٦.
(٣) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٩٤.
(٤) الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ١٥٥.

ويتعاهدهم بالرعاية والعناية، فها هو يعلِّم ابنه (عبد الملك) مُذْ أصبح يجيد الكلام القراءة وبعض القرآن، قبل أن يدفع به للمعلمين، ويقول له ابن عمه في ذلك: (دعه يلعب مع الصبيان، فما زال طفلاً)، فأخذ عمر بيده وقال له: «يا بُنَيَّ كُنْ عالمًا، فإن لم تستطع فمتعلمًا»[1]...

ولما اطمأنَّ إلى أنَّ بنيه قد أخذوا حظهم من التربية المستقيمة في بيت الأبوة القويمة العليمة، وأُسِّسَتْ أخلاقُهم على التقوى، وتشرَّبت نفوسُهم حبَّ العلم والتعلُّم، اختار لهم مؤدِّبًا عالمًا تقيًا، بعث به إليهم، وأرسل إليه رسالة يحدد له فيها الطريقة المثلى للتأديب فقال له: «فإني قد اخترتك على علمٍ منِّي بك، لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك من غيرك من مواليَّ وذَوِي الخاصة بي،.. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج للرمي...»[2].

وظلَّ - رحمه الله- يتابع أبناءه ويتعهَّدهم بالرعاية، ويُسدِّد خطاهم ويوجههم، فكتب إلى أحد أبنائه يقول: «يا بُني احذر الصرعة على الغفلة، حين لا تستجاب الدعوة، ولا سبيل إلى الرجعة، ولا تغترنَّ بطول العافية، فإنما هو أجل ليس دونه فناء، ولا بعد أن تستكمله بقاء»[3].

وقال لابنه عبد العزيز: «يا بُني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر، ما وجدت لها محملاً على الخير»[4].

وبلغه أن ابنًا له اتخذ خاتمًا، واشترى له فصًا بألف درهم، فكتب إليه عمر قائلاً: «أما بعدُ، فقد بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه، وأشبع به ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه»[5].

رحم الله عمر بن عبد العزيز؛ كان طودًا من أطواد العلم، ونبراسًا لمن جاء بعده؛ فجزاه الله عن الأمة خير الجزاء !!

***

(١) انظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي،ص ٢١٩.

(٢) السابق ٢٢٠. (٣) أبو نعيم: حلية الأولياء ٤/ ٢٤٠.

(٤) انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٠٠، وما بعدها.

(٥) السابق نفسه.

المبحث الثاني
دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية
(هارون الرشيد والمأمون)

شكّلت «الخلافة العباسية» مرحلة مهمة واسعة التأثير في تاريخ الإسلام، و لايكاد المنشغلون بالحضارة الإسلامية يتحدثون عنها إلا وتأتي فترة الخلافة العباسية كواسطة العقد، وقمة المجد التي تشار إليها دائمًا، ولم يكن ذلك من فراغ، فقد اهتم الخلفاء العباسيون عامة بالنهضة والرقي بالأمة الإسلامية، بعد أن وطدوا أركان دولتهم، وكان أبرز اسمين في النهضة العلمية التي حدثت في العصر العباسي « هارون الرشيد» وابنه «المأمون».

نشأة الرشيد العلمية:

وُلِدَ هارون الرشيد ونشأ وتربَّى في بيت علمٍ وأدب؛ فقد اهتم والده (المهدي) بتعليمه، وعهد بذلك لطائفة من كبار علماء عصره، كان منهم «الكسائي» الذي يُذكَر عنه أنه كان إمامًا في عددٍ من العلوم، وجلس الرشيد كذلك إلى إمام اللغة «الخليل بن أحمد»، وعلَّمه «المفضَّل الضبِّي»(وهو من أوثق رواة الشعر في زمانه) الشعرَ وأيام العرب، وملأه الأصمعي (راوية العرب) بنوادر العرب الأدبية، كما قرأ الرشيد القرآن على «حمزة الزيّات» أربع مرات، واختار لنفسه ـ منذ حداثة سنه ـ إحدى القراءات السبع فأتقنها وأجادها، فلا عجب أن يصبح مثقفًا ثقافة واسعة، وأن يجمع إلى عقله الراجح أدبًا جمًّا، ومعرفةً بشتَّى أنواع العلوم والمعارف، إلى الحدِّ الذي جعل معاصريه يقولون: «كان فهم الرشيد فهم العلماء»[(١)].

وكان الرشيد يحب العلماء، ويسعى لطلب العلم على أيديهم مهما بذل من جهد؛ قال القاضي الفاضل[(٢)]: «ما أعلم أنَّ لملكٍ رحلةً قطُّ في طلب العلم إلا للرشيد؛ فإنّه رحل بولديه: الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك - رحمه الله-، قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين..»[(٣)].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٤٧.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: (٥٢٩ ـ ٥٩٦) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ..(انظر معجم المؤلفين: ٥ / ٢٠٩ وابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٣٥٧ - ٣٥٩).

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٢٤٩.

تقديره للعلماء:

كان الرشيد - رحمه الله- محبًّا للعلم والعلماء، وكان يعرف للعلماء فضلهم؛ لذا لما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه، وجلس للعزاء فعزاه الأكابر، و أمر الأعيان أن يعزوه فيه(١).

وعن أبي معاوية الضرير، قال: صبَّ على يدي بعد الأكل شخصٌ لا أعرفه؛ فقال الرشيد: تدري من يصب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا؛ إجلالاً للعلم(٢).

وقد كان العلماء يبادلونه هذا التقدير، فقد رُويَ عن الفضيل بن عياض أنه قال:« ما من نفس تموت أشد عليَّ موتًا من أمير المؤمنين هارون، ولوددتُ أنَّ الله زاد من عمري في عمره»، قال عثمان بن كثير الواسطي: فكبُرَ ذلك علينا؛ فلمّا مات هارون، وظهرت الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن؛ قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلَّم.(٣)

النهضة العلمية في عصر الرشيد:

كان لابد لهذه النشأة المفعمة بطلب العلم أن تثمر حياةً قوامها العلم، وتشجيع العلماء؛ لذا فقد عُرِفَ عصر الخليفة العباسي الرشيد بأنه عصر ازدهار الحركة العلمية في الدولة العباسية، لاسيما بعد انتشار حركة النقل والترجمة آنذاك...

بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ (الدولة العباسية) التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولة الإسلامية؛ فقد أنشأ بيت الحكمة، وزوَّده بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلَّفات من مختلف بقاع الأرض كالهند وفارس والأناضول واليونان. وكان يضم غرفًا عديدة يمتد بينها أروقة طويلة، خُصِّصَ بعضُها للكتب، والبعض الآخر للمحاضرات، في حين خُصِّص جزءٌ ثالث للناسخين والمترجمين والمجلِّدين، وعهد الرشيد إلى «يوحنا بن ماسويه» بالإشراف على بيت الحكمة، وكلَّفه بالقيام بترجمة كثيرٍ من الكتب التي قدمت لبغداد من حرب أنقرة، ووضعه أمينًا على الترجمة، وكان أكثر هذه الكتب يتجِّه إلى الطب والفلسفة وعلوم الفلك،

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٤٢. (٢) السابق نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٢.

وكان منها مؤلفات علماء اليونان كأرسطو وجالينوس وأبقراط.[1]

وغدت (بغداد) قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقُرَّاء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأي والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، ويحيط نفسه بهم.

وكان الرشيد وكبار رجال دولته يقفون وراء هذه النهضة، يصلون أهل العلم والدين بالصلات الواسعة، ويبذلون لهم الأموال تشجيعًا لهم، حتى إن ول ديورانت يذكر في «قصة الحضارة» : «ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثلما جمعت حاشية الرشيد، من العلماء ذوي العقول الراجحة النابهين »[2]، ففي عصره اجتمع أبو يوسف (صاحب كتاب الخراج أول كتاب في منهج الاقتصاد الإسلامي)، وعبد الله بن المبارك (الزاهد المجاهد)، والفضيل بن عياض ، واثنان من الأئمة الأعلام مالك والشافعي رحمهم الله جميعًا .

اهتمامه بعلماء الشرع:

لما كانت ثقافة الرشيد - رحمه الله- قائمة على الكتاب والسنة، وما يدور حولها من شروح وإيضاحات، لم يكن غريبًا أن يختار وينتقي لمناصب الدولة خِيرَة علماء الشرع، فكان من أول ما قام في هذا الصدد أن اختص العلامة «أبا يوسف» بمكانة عالية، وجعله «قاضي قضاة» الدولة، بحيث لا يُعَيَّن أحدٌ من القضاة إلا بأمره وإشارته، وكان أبو يوسف يكثر من وصية الرشيد، ولم يكن الرشيد إلا مستمعًا له عاملاً بوصاياه ، من ذلك وصيته الطويلة التي يحثه فيها على كل ما فيه مصلحته ومصلحة المسلمين.[3]

وكان يحفظ للإمام مالك بن أنس - رحمه الله- مكانته ومقامه، ويمنحه من السلطة بالمدينة ما يجعل أمره نافذًا على الوالي، بل ويستقبل منه رسالة طويلة في «وعظه» و إرشاده تشمل أجمل ما يهدى للملوك، والأمراء من النصائح والإرشادات، والسلوك في تعامله مع الرعية..[4]

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ١٠٩ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢ .

(٣) الوصية مذكورة بالتفصيل في حسن التقاضي في سيرة أبي يوسف القاضي للكوثري ٩٤ ـ ١٠١.

(٤) انظر الرسالة مطولة: شوقي أبو خليل- هارون الرشيد- أمير الخلفاء ص ١٣٩ وما بعدها.

وذكرنا كيف كانت منزلته عند الفضيل بن عياض، وكيف أدرك فضله وعلمه، ذلك أن الرشيد كان يرفع من قدر العلماء دائمًا، فضلاً عن أنه نفسه كان من العلماء ..

علوم الحياة في عصره:

لقد بلغ التقدم في علوم الحياة في عصر الرشيد ذروةً سامقةً، في حين كان الغرب يعيش أشدَّ عصوره تخلُّفًا، ومما يُذكَر في هذا الشأن أنَّ هارون الرشيد أرسل هدية عجيبة إلى شارلمان ملك الفرنجة، وكانت الهدية عبارة عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة تتحرك بواسطة قوة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد معين من الكرات المعدنية بعضها في إِثْرِ بعض بعدد الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيُسمَع لها رنينٌ موسيقيٌّ يُدَوِّي في أنحاء القصر..

وفي نفس الوقت يُفتَح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة، ويخرج منها فارس يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً، ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغلَق خلفهم. كان هذا هو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبةً، وأثارت دهشة الملك وحاشيته.. ولكن رهبان القصر اعتقدوا أنَّ في داخل الساعة شيطانًا يحركها.. فتربصوا بها ليلاً، وأحضروا البُلَط، وانهالوا عليها تحطيمًا، إلا إنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا [1].

وقد برز عدد كبير من علماء الحياة في عهد الرشيد، بفضل حَثِّه على العلم، وتقديره للعلماء أيًا كانت دياناتهم، وإنزالهم منازلهم، فمن هؤلاء: طبيب الرشيد الخاص «جبرائيل بن بختيشوع» الذي تذكر كتب الطب أنه جمع ثروة عظيمة من الاشتغال بالطب (كطبيب خاص للرشيد)، ويُروَى أنه لما حضر قال له الرشيد: ما اسمك؟ قال: جبرائيل، قال له: أي شيء تعرف من الطب؟ فقال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع، فضحك الخليفة، وقال: هذا غاية ما يحتاج إليه في صناعة الطب، وقال له ذات مرة وهو يحج بمكة: «لقد دعوتُ اللهَ لك في مواقف دعاء كثيرة، ثم التفت إلى أبنائه، وقال: عسى

---

(١) الشادياق: «»كشف المخبا في فنون أوربا» ص ٢١٨ وما بعدها.

أن تكونوا كرهتم قولي!، ولكن تعرفون أنه يقوم على صلاح بدني، وقوامه بـه، وأقـوم عـلى صلاح المسلمين، وقوام المسلمين بي. فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين»[1].

ومما أُثِرَ عنه – رحمه الله– أنه كان يجمع الأطباء، ويستشيرهم في أمور عديدة، فمن ذلـك ما يذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد : جمـع الرشـيد مـن الأطبـاء أربعـة: عراقيًـا، وروميًـا، وهنديًا، ويونانيًا .فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معـه، فقـال العراقـي: الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الأبيض، وقال الهندي: الإهليلج الأسود، وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني ـ وكان أطبهم ـ: حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبـة، والمـاء الحـار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكـن الـدواء الـذي لا داء معـه أن تقعـد عـلى الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه، قال: صدقت [2].

هكذا كان – رحمه الله– حريصًا على العلم والعلـماء، مـدركًا لـدورهم في نهضـة الأمـة الإسلامية ورقيها، فلا عجب ـ والحال كذلك– أن : ينشأ ناشيء الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه، فنجد ابنه المأمون يسير على الخطى التي رســمها لـه، وعلمـه إياهـا والـده الرشـيد، في الحرص على العلم والتعلم ..

المأمون.. والنهضة العلمية

نشأة المأمون العلمية:

لاشك أن رجلاً يحب العلم ويُجِلُّ العلماء، ويقوم بكل تلك المنجزات الحضارية في وقـت توليـه الحكم، مثل الرشيد، لا شك أن اهتمامه بأبنائه، وتربيتهم، وتنشـئتهم نشـأة علميـة رصـينة، سـيكون كبيرًا، ولذا لم يكن غريبًا أن تكون تلك التنشئة العلمية الفذة لولدي الرشيد «الأمين والمأمون»، بل إن بعض المؤرخين قد أطلقوا على المأمون لقب «الخليفة العالم» لما عُرِفَ عنه ـ منذ حداثة سِنِّه ـ من إقبالٍ شديدٍ على العلم والتعلُّم، وقد كان الكسائي معلِّمه ومؤدبه هو وأخاه الأمين.

كذلك كان من مؤدبيه «أبو محمد اليزيدي» أحد كبار علماء عصره، كما سمع من«هشيم بن بشر» الحديث ومن عباد بن العوام، وأبي معاوية الضرير، وغيرهم من كبار العلماء[3]، وقد أَكَبَّ

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٠٩.   (٢) ابن عبدربه: العقد الفريد ٦/ ٣٠٧.

(٣) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٢ / ٢١١.

المأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته، فسمع منه الكثيرون ورووا عنه، ساعده على ذلك ما منحه الله من ذاكرة قوية، كانت مضرب المثل، وكان المأمون يقرأ الفقه على «الحسن اللؤلؤي»، ويذكر ابن تغري بردي أنه برع في الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان[1].

وقد قال عنه «الدينوري»: إنه نجم ولد العباس في العلم والحكمة، أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم، وهو الذي استخرج كتاب إقليدس من الروم، وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل العلاف. ودخل بلاد الجزيرة والشام، فأقام بها مدة طويلة، ثم غزا الروم، وفتح فتوحًا كثيرة، وأبلى بلاء حسنًا»[2]، ويصفه جمال الدين القاسمي بقوله: «عُرِفَ الخليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء، وشغفه بالحكمة والحكماء، بل لم يُرَ في أولاد الملوك من تعشَّق العلوم الحكمية على حداثة سنه، وأقام بين العلماء لمناظرتهم في جميع أنواع العلوم مثله، وكان مجلسه يضم عددًا من العلماء والحكماء، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد..»[3].

وهكذا نشأ «المأمون» يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها، فهو يهوى العربية والأدب، حتى نراه شاعرًا، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين، ويهوى الحديث حتى يؤخذ منه، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك، ويكون له معها شأن»[4]...

النهضة العلمية والحضارية في عصر المأمون:

شهد عصر المأمون نهضة حضارية كبيرة، فقد كان المأمون محبًا للعلم والأدب وكان شاعرًا وعالمًا وأديبًا، يحب الشعر ويجالس الشعراء ويشجعهم، وكان يعجب بالبلاغة والأدب، كما كان للفقه نصيب كبير من اهتمامه، وكان العلماء والأدباء والفقهاء لا يفارقونه في حضر أو سفر، وقد أدى تشجيعه للشعراء في أيامه إلى إعطاء الشعر دفعة قوية، وكان تشجيعه للعلوم والفنون والآداب والفلسفة ذا أثر عظيم في رقيها وتقدمها، وانبعاث حركة أدبية وعلمية زاهرة، ونهضة فكرية عظيمة امتدت أصداؤها من بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومركز الخلافة العباسية إلى جميع أرجاء المعمورة، فقد استطاع المأمون أن يشيد

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ٤٤٥.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ٤٠١.

(٣) القاسمي: تاريخ الجهمية والمعتزلة ١٦٥.

(٥) محمد هدارة : المأمون الخليفة العالم ص١١٠.

صرحًا حضاريًا عظيمًا، وأن يعطي العلم دفعةً قويةً ظلّت آثارها واضحة لقرون عديدة؛ فقد أرسل البعوث إلى «القسطنطينية» و«الإسكندرية» و«أنطاكية» وغيرها من المدن للبحث عن مؤلَّفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، وأنشأ مجمعًا علميًا في بغداد، ومرصدين أحدهما في بغداد والآخر في «تدمر»، وأمر الفلكيين برصد حركات الكواكب، كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم[1].

ازدهار حركة الترجمة في عصر المأمون:

كان لتشجيع المأمون حركة الترجمة أكبر الأثر في ازدهارها في عهده، فظهر عدد كبير من العلماء الذين قاموا بدور مهم في نقل العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى العربية، والإفادة منها وتطويرها، ومن هؤلاء:

«حنين بن إسحاق» الطبيب البارع الذي ألَّف العديدَ من المؤلَّفات الطبية، كما ترجم عددًا من كتب أرسطو وأفلاطون إلى العربية[2].

«ويوحنّا بن ماسويه» الذي كان يشرف على «بيت الحكمة» في بغداد وكان يؤلف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنًا من اليونانية، وله كتاب طبي عن الحميات اشتهر زمنًا طويلاً، ثم ترجم بعد ذلك إلى العبرية واللاتينية[3].

و«ميخائيل بن ماسويه» وكان طبيب المأمون الخاص، وكان يكرمه غاية الإكرام، وكان يثق بعلمه فلا يشرب دواءً إلا من تركيبه[4].

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك النهضة الحضارية والعلمية في عصر المأمون، ذلك الهدوء الذي ساد الأجواء بين الخلافة العباسية والروم، والذي استمر لأكثر من عشرة أعوام.

وهكذا ازدهرت الحركة العلمية في عهد المأمون تأليفًا وترجمة، واستهل فيها أبو يوسف يعقوب «الكِنْدي» نشاطه العلمي، الذي لم يقتصر على التعريف بفلسفة أرسطو وأفلاطون

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١ / ١٢٠. (٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٦٤.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٩
(٤) السابق ٢/ ١٢٦.

عن طريق الترجمة، بل تعدَّى ذلك للتوسع في الآفاق العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي، وعلم الظواهر الجوية[1]..

هذا، ولم يكن نشاط المأمون العلمي مقتصرًا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة، بل كان يسعى إلى إحضار العلماء الأجانب للاستفادة من علمهم وخبرتهم، ولعلَّ أصدق ما يدل على ذلك إلحاح المأمون في طلب العالم الهندسي «ليون» الذي كان قد دفن نفسه في أحياء القسطنطينية الفقيرة، وأخذ يعيش عيشًا بسيطًا بتعليم الناس، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى المسلمين، فأظهر في إحدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسي، فلمّا سُئِلَ عن مُعلمه دلَّ عليه، فأرسل «المأمون» إليه يدعوه للحضور إلى بغداد، فعرض «ليون» الرسالة على الجهات الرسمية في بلاده، وعلم الإمبراطور بها فمنعه من السفر، وكانت تلك الرسالة سببًا في شهرة هذا العالم، وتنبُّه بلاده إلى عبقريته، وظل المأمون يراسله ويسأله عن أمور في الهندسة والفلك[2].

اهتمامات المأمون العلمية:

لم يكن المأمون بعيدًا عن الإحاطة ببعض المسائل الهندسية، فقد كان واسع الاطِّلاع، شغوفًا بالعلم والمعرفة، يقول: «لا يعرف الهندسة من لم يقرأ كتاب إقليدس»[3]. وإلى جانب ثقافته في العلوم الحياتية، كان على دراية بالمسائل الفقهية، كما كان لتلقيه دروسًا في علوم القرآن والحديث دوره المهم في تكوينه العلمي.

ويدلنا يحيى بن أكثم (قاضي المأمون) على صورة من مجالس المأمون العلمية، فيقول: كان إذا حضر الفقهاء ومن يناظرونه من سائر العلماء، أدخلهم حجرة مفروشة، ثم أمرهم بالطعام والشراب، ثم أمر أن يتطيبوا ويتزينوا، حتى يدخلوا عليه فيدنيهم، ويناقشهم، ويناظرهم أحسن مناظرة[4].

وكان المأمون في سعيه لتثقيف الناس لا يفرق بين علم وآخر، وكانت غايته من كل علم

---

(١) القفطي : إخبار العلماء ٢٤٠، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (٢/ ١٧٩).

(٢) العصامي: النجوم العوالي ٢/ ٢١٤.

(٣) انظر الأعلام للزركلي ٨/ ١٣٨، ووفيات الأعيان ٦/ ١٤٧.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣/ ٤٣٢.

التماس ما لا يسع جهله، أي الأخذ من

غ كل علم بطرف، ولهذا خاض في كل العلوم والمعارف، ولم يقتصر على شيء منها بعينه، حتى إنه كانت له معرفة بالطب، روى أحد الفقهاء الذين كانوا يحضرون مجلسه أنه تغدى عنده يومًا فوُضِعَ على المائدة أصنافٌ متعددة من الطعام، فكلَّما وُضِع صنفٌ نظر إليه المأمون؛ وقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا... يقول: فما زالت تلك حاله حتى رُفِعَت الموائد، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت «جالينوس» في معرفته، أو في النجوم كنت لَبرع من«هرمس» في حسابه، أو في الفقه كنت كعلي بن أبي طالب في علمه[1]،.... فرَدَّ المأمون قائلاً: يا أبا محمد إنَّ الإنسان إنما فُضِّلَ على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحمٌ أطيب من ؤلحم، ولا دمٌ أطيب من دم[2]!!.

وهكذا كان المأمون ـ ومن قبله والده الرشيد ـ مثالاً لحكام المسلمين الذين اتخذوا العلم طريقًا لرفعة أمتهم، ووصلوا بها إلى ذُرَى المجد..

***

(١) ولا شك أن مقارنته بعلي بن أبي طالب ﷺ فيها الكثير من المبالغة غير المقبولة.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٣ / ٢٩١.

المبحث الثالث

دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس

(عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم)

يذكر المؤرخون أن النهضة العلمية في الأندلس بدأت متأخرة بعض الشيء، وهي التي قام عليها عماد تلك الحضارة العظيمة، التي قلَّما يجود الزمان بمثلها..

والحق أن بوادر تلك النهضة العلمية كانت مع الفاتحين الأوائل، الذين كان بينهم العديد من العلماء، في مختلف مجالات الحياة، ثم كان أن أنعم الله على الأندلس، وشعب الأندلس بحكام علماء، نشأوا على حُب العلم وأهله، وعرفوا ما للعلم من أهمية وقيمة في الرقي بمجتمعهم وأمتهم، فساعدوا على قيام تلك النهضة العلمية، وكان من أعظم هؤلاء الخلفاء وأبرزهم« عبد الرحمن الناصر»، وابنه الحكم المستنصر.

عبد الرحمن الناصر والنهضة العلمية:

كان لنشأة الناصر العلمية، وحبه للعلمغ منذ صغره دور بارز في النشاط العلمي الذي حدث للأندلس أثناء تولِّيه الخلافة، فقد درس عبد الرحمن القرآن والحديث وهو طفل لم يبلغ العاشرة بعدُ، وبرع في اللغة والحساب وفنون الفروسية، وتلقّى العلم على أيدي محدثين وفقهاء كبار، منهم «قاسم البياني»[1].

وعلى الرغم من تولِّيه السلطة في عهد مليء بالفتن والاضطرابات، إلاّ أنه استطاع بفطنته وذكائه أن يقضي على كل هذه الفتن، ويوحِّد البلاد تحت إمرته، ويعلن الخلافة الأموية بالأندلس، وتلقَّب بـ«أمير المؤمنين الناصر»[2]، وبدأ يركز على العلم والعلماء، ومحاولة الترقي العلمي بالأندلس؛ لذلك يذكر المؤرخون أن بلاط الناصر كان يحفل بالكثير من العلماء والأدباء، فمنهم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، و«منذر بن سعيد»كبير فقهاء عصره، و«أبو القاسم الزهراوي»الطبيب والجراح الكبير ، وقد كان عبد الرحمن يكرم هؤلاء العلماء، ويُجِلُّهم، ويحرص كل الحرص على إنزالهم ما يليق بهم من مكانة، والسماع لرأيهم ومشورتهم

(١) محمد عنان: تراجم إسلامية ١٦٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ١٥٨.

دائمًا، كما اجتهد في تخير قضاته من أولي العلم والمعرفة[1].

هذا وقد بلغ من عناية «الناصر» بالعلم والمعرفة أن بذل جهدًا خارقًا في جمع الكتب، كما وضع أساس المكتبة الأموية الكبرى[2] التي ازدهرت في عهد ابنه «المستنصر»، ورفعت من شأن الأندلس كمنارة علمية كبرى يقصدها القاصي والداني.

ويُذكَر أنه اشتُهِرَ عنه اهتمامه بالكتب، وولعُه الشديد باقتنائها، حتى بلغ ذلك أحد ملوك عصره، وهو الإمبراطور البيزنطي (أرمانوس) الذي أرسل له هدية علمية، يتودَّده ويأمل أن يحوز رضاه، فأرسل إليه كتابين من تصانيف الأوائل، أحدهما في الطب: وهو كتاب«ديسقوريدس»، والآخر في التاريخ: وهو كتاب« رهوشيش»، وكان باللاتينية[3].

وبذلك كان عهد الناصر بداية مجيدة، ودفعة قوية، لعصرٍ عظيمٍ ازدهرت فيه العلوم والآداب، وانصرف العلماء فيه لتحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى فروع المعرفة، ولا ريب في ذلك فإنَّ كثيرًا من كتب العلم التي أُلِّفت في عهده، لَتَدُل على ما اتَّسم به من مناخ خصب نمت فيه القدرات العلمية، فأعطت ثمارًا يانعة في ميدان الفكر، وجعلت من حاضر الخلافة «قرطبة» دارًا للعلوم، ومركزًا ثقافيًا مهمًا استقطب العلماء من نواحي الأندلس المختلفة، بل ومن خارجها، في صورة تؤكد عظمة ذلك العصر، ومدى اهتمام الناصر بالعلم والعلماء حينئذٍ.

يُذكَر من اهتمامه بعلوم الحياة أن حركة الاشتغال بالطب ـ مثلاً ـ بدأت في عصره تأخذ أبعادًا جديدة، فتتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق، وقامت الهمم، وظهر الكثير من الأطباء المشهورين في دولته.

ومن أهم تلك الكتب كتاب «زاد المسافر» الذي نقله الطبيب العلاّمة (ابن بريق)، الذي كان من أمهر أطباء الأندلس، ودرس الطب في القيروان على يد (ابنْ الجزار) ستة أشهر، ثم عاد للأندلس بهذا الكتاب، فأحسن الناصر وفادته، وأجزل له العطاء..

وكان الخلفاء يحرصون على أن يكون في قصورهم عدد من الأطباء البارعين المهرة،

(١) الإشبيلي: ريحان الألباب وريعان الشباب ١١٣٩. (٢) ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص١٢٢.

(٣) الإشبيلي: ريحان الألباب وريعان الشباب «مخطوطة» ١١٣٩.

لحاجتهم إليهم في التداوي، ولهذا اشتغل الكثير من الأطباء الأندلسيين، وعُرفوا بخدمة الخلفاء، وممارستهم الطب في قصورهم، فمنهم «أصبغ القرطبي»، الذي خدم عبد الرحمن الناصر، وكذلك «ابن بريق»..، ومنهم «سليمان بن باج» الذي عرف الناصر عنه تمكُّنه العميق في الطب وتركيب الأدوية، فقرَّبه منه، وأصبح طبيبه الخاص، وكذا نال «يحيى بن إسحاق» مكانة رفيعة عند الناصر نظرًا لما تمتع به من سعة العلم والسيرة الحسنة، مما جعله يوليه الوزارة[1].

تقديره للعلماء:

لما بنى الناصر مدينة «الزهراء» واستفرغ جهده في زخرفتها وتنميقها وإتقان قصورها، كان من انهماكه بذلك أن تخلَّف مرة عن شهود الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة، وكان من عادته أن يشهدها في المسجد الجامع لا في غيره بحكم ولايته. فلمّا حضر لصلاة الجمعة- بعد افتتاح «الزهراء» - وكان القاضي «المنذر بن سعيد» يخطب في المسجد، بدأ خطبته بقوله تعالى: **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** [الشعراء: ١٣٥:١٢٨].

ومضى في هذه الطريقة والتذكير الخاشع، والموعظة المؤثرة، والقول البليغ في النفوس والقلوب، وما زال بالقوم حتى أخذ منهم الخشوع كل مأخذ، وضَجَّ المسجد على رحبه بالبكاء، وأخذ الخليفة من تلك الكلمات الإيمانية الصادقة بأوفر نصيب، فبكى وندم على ما حصل من التفريط، وكانت كل كلمة بالنسبة إليه سلاحًا ماضيًا يعمل عمله متخطيًا كل الحواجز والاعتبارات. غير أن الخليفة - على كل تأثره - وجد بعض الشيء على المنذر، وشكا ذلك لولده الحكم وقال - وقد أتعبته نفسه -: والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، ثُمَّ أقسم ألاّ يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يلزم صلاتها وراء «أحمد بن مطرف» صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة في الزهراء؛ عند ذلك قال له ابنه الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن

(١) انظر ابن جلجل: طبقات الأطباء ١١٠.

الصلاة بك إذا كرهته؟ وهنا تبدَّت الأصالة وغلب الدين، إذ قال الخليفة للحكم بعد أن زجره: أمثل «منذر بن سعيد» في فضله وخيره وعلمه - لا أُمَّ لك - يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوَدِدْتُ أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض عنه أبدًا.

فهذه مكانة العلماء عند الناصر، مكانة عظيمة، يعرف بها حقهم، ويقدِّر موعظتهم ولو كانت ثقيلةً عليه.

الحكم المستنصر ودور العلم في حياته:

كان لنشأة المستنصر العلمية، على يد والده الناصر، أثرٌ بالغٌ في تشكيل وعيه العلمي المبكر؛ فقد درس على أيدي نخبة من كبار علماء عصره، منهم «محمد القرطبي»، الذي درس عليه علوم اللغة والحساب، والأدب والنحو، وأفاد منه دراسة العلوم بطريقة تحليلية عميقة، كما درس علوم الدين على يد العلامة «ابن أصبغ»، وأخذ علوم التاريخ عن «علي الرعيني»، فكان لكل هؤلاء العلماء وغيرهم أعمق الأثر في تكوين شخصية «الحكم» العلمية[١]..

وقد نتج عن إقبال «الحكم» على دراسة العلوم والآداب، ومجالسته للعلماء أن أصبح شغوفًا بالعلم وتحصيله، مما كوَّن لديه شخصية علمية فذَّة، جعلت المؤرخين والعلماء يشيدون به، ويعتدُّون بآرائه، ومن الأمثلة على أن أقوال «الحكم» كانت حُجَّة لدى العلماء ما أشار إليه «الحميدي» عند ترجمته لابن عبد ربه، إذ قال: «هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر - وخطه حجة عند أهل العلم - ؛ لأنه كان عالمًا ثبتًا[٢]»...

ولا شك أنه إذا كان الخليفة «عالمًا ثبتًا»؛ فإن العصر سيكون عصر العلم والعلماء، والرقي والازدهار للأندلس على نحو ما رأينا!!، وهكذا قدم المستنصر إلى الحركة العلمية في الأندلس دفعة كبرى من النشاط، بل إنه أسهم فيها إسهامًا ماديًّا، بأن وضع كتابًا في (أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب)، وذلك لسعة معرفته بالتاريخ والأنساب[٣]..

(١) المقَّري: نفح الطيب ١ / ٣٩٥.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص١٠١.

(٣) المقَّري: نفح الطيب ٣ / ٦٠.

وكان لغلبة النشاط العلمي في عهد الحكم المستنصر أثر في ذهاب بعض المستشرقين إلى القول بأن انصراف «الحكم» إلى العلم واهتمامه بالكتب والعناية بها، قد أدَّى إلى عدم تطلعه للغزو والجهاد..» [1] وهذا الأمر غير صحيح على إطلاقه، فلم يكن خلفاء المسلمين وعلماؤهم ليهتموا بجانب على حساب جانب آخر، ولو أمعنّا النظر في سيرة الحَكَم، لوجدناه قد اهتمَّ - إلى جانب اهتمامه بالعلم - بالجهاد والغزو، وهذا ما يثبته المؤرِّخون، فيذكر «الحميدي» أنه «واصل غزو الروم، ومن خالفه من المحاربين»[2]، ويؤكِّد «ابن الخطيب» أنه كان «ذا همة عالية في الجهاد، جعلت ملوك عصره يهادنونه ويسالمونه، لقوته وبأسه»[3]، هذا كله بالإضافة إلى أن عصر «الحكم» كان عصر سلام نسبي مع ممالك النصارى، واستقرار لشتى مناطق الأندلس، وذلك بعد جهود أبيه (الناصر) وما عقده من معاهدات صلح مع ملوك النصارى.

وقد اتبع الحكم وسائل عديدة لنشر العلم في البلاد فمنها:

١ـ العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف: فقد سعى إلى تقريب أولي العلم والمعرفة وإكرامهم، وتهيئة المناخ الملائم الذي يمكِّنهم من الانصراف إلى العلم والبحث العلمي، وبالتالي فقد يسَّر السبل أمام إنتاجهم الفكري حسب تخصص كل منهم، وفي هذا يقول «الإشبيلي»: «وفي أيامه كثُرَ العلماء وأدلوا بما عندهم، وأُلِّفت التواليف، وصُنِّفَت التصانيف»[4]..

ولذلك لا غرابة أن نجد في عصره كثيرًا من العلماء المبرَّزين في شتى ميادين العلم، فبرز في علوم الدين: الليثي، والثغري، وابن الفخار، وغيرهم، وفي ميدان الأدب واللغة برز أبو علي القالي، وابن الصفّار، وغيرهما، وفي الطب: أحمد الحرّاني، والزَّهراوي، وفي الرياضيات والفلك والجغرافيا برع المجريطي، وابن السَّمْحِ وغيرهم من العلماء الذين أسهموا في ازدهار العلوم والآداب بما أضافوه من أنواع الإنتاج العلمي القيم..

٢ ـ اهتم الحكم اهتمامًا بالغًا بالكتب، وسار على نهج والده في ذلك، في الحرص على جمع كل

---

(١) لين بول: قصة العربي في إسبانيا، ترجمة علي الجارم ص١٤١.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٦.

(٣) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٤٧٨.

(٤) الإشبيلي: ريحان الألباب « مخطوطة».

المؤلَّفات في مكان واحد، ذلك أنه رأى أنَّه لن يتم النشاط العلمي إلا بتوافر المؤلفات في شتى المجالات، وحتى يتمكن المشتغلون بالعلم وطلاب العلم على السواء من تحصيله بأيسر الطرق.

٣ـ توفير المكان المناسب لطلبة العلم.. تمثَّل ذلك في مكتبة «قرطبة» التي تحوَّلت إلى ما يشبه الجامعة بمفهومنا المعاصر، لأنها كانت بحق (دار العلوم)[١]، حيث كانت تستقبل أفواجًا من الكتب، التي كان المستنصر قد أوصى بها أعوانه المنتشرين في كل مكان من العالم الإسلامي يومئذٍ، وهكذا رسم المستنصر خطة لإنشاء مكتبة عامرة تكون عونًا لطلاب العلم، ومرجعًا أساسيًا لكل من أراد الاستزادة، فقد ورث عن أبيه ثروة طيبة من الكتب كانت النواة والأساس لمكتبة قرطبة العظيمة، التي نمّاها «الحكم»، وأمدَّها بذخائر نفيسة من التآليف العلمية، حتى أصبحت في صورة فريدة لم يجمع مثلها أيُّ خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتُهِرَ أمرُها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، حتى أصبحت مثلاً بارزًا على الازدهار العلمي والنشاط الفكري، وغدت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام[٢]..

يذكر «ابن الأبار» في حديثه عن الحكم أنه: «كان حسن السيرة فاضلاً عادلاً مشغوفًا بالعلوم، حريصًا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان، ونفق ذلك لديه، فحُمِلَت من كل جهة إليه، والمُلْكُ سوق، ما نفق فيها جُلِبَ إليها، حتى غصَّت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه[٣]».

قال ابن حيان عند ذكر «الحَكَم»: «كان من أهل الدين والعلم، راغبًا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم، باحثًا عن الأنساب، حريصًا على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته التي هو منها، مستجلبًا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروى عنهم»[٤]..

ولم يُسمَعْ في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ «الحكم» في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها، فلقد أفاء على العلم، ونوَّه بأهله ورغَّب الناسَ في طلبه، ووصلت عطاياه وصِلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر،

(١) انظر الفصل الخاص بقرطبة ص٣٤٢ من هذا الكتاب. (٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٦٦.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ١ / ٢٠١.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ٢ / ١٢٥.

وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكِنْدِي وغيرهما؛ جرى ذِكْرُ هذا في كتب تواريخهم.

وكان له ورَّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها. ومن وَرَّاقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة، وكان مع هذا كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلَّما تجد له كتابًا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم: يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقًا به مأمونًا عليه. صار كل ما كتبه حُجَّة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به»[(١)].

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب جمهرة الأنساب من تأليفه، وذكر «الحكم»: «اتصلت ولايته خمسة عشر عامًا في هدوء وعلو. وكان رفيقًا بالرعية، محبًا في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم. وأخبرني تليد الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس - أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[(٢)].

فإذا كان هذا الحال مع الدواوين (تتجاوز الألفي ديوان) فما بالنا بمصنفات العلم وكتب المعرفة الأخرى، التي لا شك ستكون أعظم وأكثر عددًا!! بالإضافة إلى أن تلك المقولة تشير إلى ما امتازت به تلك المكتبة من تنظيم، إذ إنَّ مواد المكتبة مرتبة تبعًا لمواضيعها، ولكل موضوع فهرسه الخاص، وهو ما يعرف بالفهرسة الموضوعية الموجودة في مكتبات اليوم.

وذكر «المقَّرِي» عند حديثه عن مكتبة المستنصر: «أنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرةً ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها»[(٣)].

(١) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٢ / ١٢٥.

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١ / ٤٤ .

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٣٩٥.

وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الكُتّاب المحدثين ممكن كتبوا عن هذا الخليفة و تحدثوا عن سيرته العلمية، بل إن المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» تشير إلى أن تلك المكتبة ضمت نصف مليون كتابٍ[1]...

وهكذا أسهمت هذه المكتبة، وذلك الاهتمام البالغ بالعلم والعلماء في نهضة غير مسبوقة للأندلس، غدت دليلاً واضحًا على مدى ما حققه «الحكم» المستنصر للحركة العلمية من جهود، وما حققه الأندلسيون في ميدان العلم، جعلتهم يصفون قصر الحكم بأنه «مصنع لا يُرَى فيه إلا النَّسَّاخون والمجلِّدون والمزخرِفون يُحلُّون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجميلة»[2].

والجدير بالذكر أنَّ الورّاقين قد نالوا من وراء علمهم هذا منزلةً رفيعةً في المجتمع، كما أنهم بلغوا درجةً طيبةً من الثَّراء، كل ذلك من اهتمام الخليفة بالعلم، والعلماء والكتب..

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي باعتباره وسيلة من وسائل حفظ العلوم وصيانتها من الضياع، ونشرها بين الناس، فقد اهتم الخلفاء باستقدام أمهر الكتاب، وأشدهم عنايةً بالعلم من أجل ذلك، بل وتذكر صاحبة كتاب (فن التجليد عند المسلمين)[3]: إلى أن ذلك الاهتمام تعدَّى إلى المجلِّدين المختصين بالشكل الخارجي للكتاب وتجليده، وإخراجه في أحسن صوره.

جهوده في نشر التعليم:

يضاف إلى ذلك جهود الخليفة المستنصر في رفع شأن التعليم في بلاده، وتيسيره لرعيته، فيذكر ابن عذاري أنه: «أمر بإنشاء سبعٍ وعشرين مكتبةً يُلحَق ثلاثٌ منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرَّقه على أنحاء قُرطُبة، وعيَّن فيها العلماء والفقهاء للقيام بتدريس النشء في تلك المكتبات، وأجرى عليهم المرتبات، وأغدق عليهم الصلات، وبالَغَ في تعليم أطفال المسلمين»[4].

ولم يقتصر الخليفة الحكم على ما تقدَّم، بل كان يسعى للأفضل في سبيل الترقي بالمستوى العلمي لرعيته، فقد أنشأ «حوانيت خاصة» بقرطبة لتعليم أولاد الضعفاء والفقراء؛ مما يدل

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٥٣.

(٢) إنجل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة: حسين مؤنس) ١٠.

(٣) اعتماد القصيري: فن التجليد عند المسلمين ص ٣٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٤٠.

على أن «الحكم» قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الاستفادة مما هيأه لهم من سبل اكتساب العلم والمعرفة، فلم يعد العلم مقصورًا على ذوي المقدرة المادية من الناس، بل غدت فرص التعليم متاحة لكل من يريد.

الحكم وعلماء الشرع:

ولم يقتصر اهتمام الحكم على حدِّ نشر العلم والمعرفة، والاهتمام بالعلوم الحياتية فحسب، بل كان - كما ذكرنا - يحمل كل الإجلال والإكبار لعلماء الشرع، ويوقِّرهم، ويستشيرهم في كل أموره، من ذلك أنه أراد - رحمه الله- أن يقطع شجرة العنب من الأندلس، في محاولة منه للقضاء على الخمور، فاستشار الفقهاء في ذلك، فذكروا له أنها قد تُصنَع من غيرها (أي الخمور)، فكَفَّ عن ذلك[1]، وفي ذلك إشارة دالَّة إلى مكانة هؤلاء العلماء، وما وصلوا إليه وما بلغوه من احترام وتعظيم.

كما كان حريصًا على تعليم ابنه «هشام المؤيَّد» على يد كبار علماء الفقه في الأندلس، وهو «يحيى الليثي» - رحمه الله-، الذي كان مجلسه من أشهر المجالس العلمية في قرطبة، وكان يتوافد عليه الطلاب من شتّى أقطار الأندلس لينهلوا من علمه، ومن بينهم ابن الخليفة، يجلس مع طلبة العلم، كواحد منهم، وقد حمل في نفسه ما ربّاه عليه والده، من إجلالٍ وإكبارٍ للعلم والعلماء[2]..

ولما نبغ الفقيه «عبد الله بن القاسم الثغري»، وحصَّل العلم من أقطار المشرق والمغرب، حتى شبهه أصحابه بسفيان الثوري، لم يكن من الخليفة المستنصر إلا أن ولاّه القضاء على بلاده، تقديرًا لدوره، وعلمه، بالإضافة إلى أنه كان يشجع العلماء على البحث والدرس، فهو الذي جعل الفقيه «محمد بن الحارث الخشني» يؤلِّف عددًا من الكتب يذكر ابن الفرضي أنها بلغت ألف كتاب[3]!!.

ولم يكن «الخشني» وحده من حَظِيَ بتأييد الخليفة، وتشجيعه، بل كان إلى جانبه عدد كبير من العلماء والفقهاء، منهم « أبو بكر محمد بن يحيى» الذي أظهر اهتمامًا كبيرًا بالدراسات

(١) المقري: نفح الطيب ١ / ٣٩٥.
(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ٩٨.
(٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٩٠.

الفقهية، وألَّف كتبًا كثيرة في ذلك، منها كتاب خاص عن «فقه التابعين»، ولمعرفته الواسعة بالفقه وأحكام الشريعة، ولاّه الخليفةُ القضاءَ، وأجزل له العطاء[1].

كما يذكر ابن الفرضي (في تاريخ علماء الأندلس) أن «محمد بن عبد الله بن سيد» نال منزلة سامية لدى الخليفة الحكم، وبتشجيع منه كتب له كتاب (المستخرجة) وهو كتاب فقهي في الفقه المالكي[2].

ومن علماء الحديث الذين قرَّبهم «الحكم» كان (قاسم بن أصبغ البياني) - رحمه الله-، الذي يُعَدُّ من كبار حفّاظ الحديث في زمانه، ومن ألمع مَنْ أخرجته الأندلس في هذا الميدان، رحل إلى المشرق فأخذ العلم من« القيروان ومصر وبغداد والمدينة» ثم عاد إلى الأندلس، فتهافت عليه طلاب العلم من كل مكان، وأُعجِبَ «المستنصر» بجهوده، فقرَّبه منه، بل وأمره بتأليف كتابٍ في الحديث، فصنَّف كتابًا في السنن المسندة فيه ٢٤٩٤ حديثًا[3].

كما شجَّع المستنصر المحدث «يعيش بن سعيد الوراق» على تأليف كتاب في الحديث سماه (مسند ابن الأحمر) نسبة إلى «محمد بن معاوية القرشي»[4]، ولا شك أن في اهتمام المستنصر بإخراج مصنف في حديث (ابن الأحمر) ما يدل على مكانته العلمية، وما يتمتع به من منزلة علمية كبيرة بين أهل الحديث، ويدلنا كذلك على إحاطة الخليفة بكبار أهل الحديث في عصره، وإنزالهم منازلهم[5].

وكان لابن الأحمر إسهام في حركة الإنتاج العلمي المتصل بالحديث، فقد ألَّف مسندًا في الحديث فيه أربعة آلاف وثلاثون حديثًا..

وكذلك ما فعله الحكم (وقت أن كان وليًا للعهد) من اهتمام بمحمد بن مفرح القرطبي، الذي كان قد رحل للمشرق في طلب العلم، فلمّا عاد للأندلس، أرسل في طلبه، وأكرمه،

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٩١. (٢) السابق ١٩٢.

(٣) المقري: نفح الطيب ٣/ ١٦٩

(٤) وهو غير سعيد بن الأحمر، ذكره الذهبي في تاريخه بأنه محدث الأندلس ومسندها الثقة، وكان الوراق من أروى الناس عنه، وانظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ٦٨.

(٥) انظر سيرة ابن الأحمر المحدث في: جذوة المقتبس للحميدي ـ ٣٨٦، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وابن خير الإشبيلي في«الفهرسة».

ورفع مكانته بين علماء الحديث، فصنَّف له مؤلفات عديدة في مختلف ضروب المعرفة[1].

وكان من متابعاته للعلماء، أن تابع النشاط العلمي للعلامة المقَّرِي «عبد الملك البجانيك، الذي رحل للمشرق، وأخذ عن علمائه، ثم عاد إلى الأندلس ومعه كتاب «الوقف والابتداء» عن نافع برواية (ورش)، وما إن علم الخليفة بذلك حتى بعث في إحضاره، وقرَّبه من مجلسه، وأفاد من علمه[2].

كما اهتم المستنصر بتخصيص جانب من دار الملك (قصر الخلافة) لتكون مركزًا للبحوث والدراسات (كما نطلق عليها اليوم)، يجتمع فيها العلماء والباحثون للبحث والدراسة والتأليف، من هذه الاجتماعات ما يذكره الحميدي في (جذوة المقتبس): «دعا الحكم المستنصر بعض علماء اللغة (محمد بن أبي الحسين، وأبو علي القالي، وابن سيده)؛ وذلك لمقابلة كتاب «العين» للخليل بن أحمد، وأحضر لهم نسخًا كثيرة من هذا الكتاب، وانصرف هؤلاء العلماء إلى دراسة تلك النسخ، ومعرفة وجوه الاختلاف بينها»[3]، وهو عمل يُذكِّرنا بما يقوم به المحقِّقون لكتب التراث هذه الأيام، ويدلُّنا على عقلية الحكم المستنصر العلمية، وحرصه على التحقق من كتبه، وعنايته الفائقة بها.

كذلك يذكر ابن حبان في المقتبس، أنه - رحمه الله- اهتم بجهود (الزبيدي)[4] في علم اللغة، وخلع عليه «خلعة سنية» بعد تصفحه لكتابه في اختصار كتاب «العين»، بل إن الزبيدي يذكر في تأليفه لكتاب (طبقات النحويين) (الذي ضمَّنه أشهر النحاة في المشرق والأندلس) يذكر أنه اتبع في تأليف هذا الكتاب منهجًا علميًا أملاه عليه الخليفة المستنصر؛ يقول: «ألَّفتُ هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به (أي الخليفة المستنصر)، وأقمته على الشكل الذي حدَّه.. بعنايته وعلمه، وأوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر لا تُعبَر أواذيه، ولا تُدرَك سواحلُه...»[5].

وهو بذلك يشير أيضًا إلى سعة علم المستنصر، ومدى اهتمامه بالتأليف، وإدراكه لحاجة الناس لكتابة مثل هذا الكتاب، في طبقات النحويين.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢/ ٩١ وما بعدها. (٢) المراكشي: الذيل والتكملة لكتاب الصلة ٥/ ١٣.

(٣) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس ص٥٠ وما بعدها.

(٤) العالم اللغوي الأندلسي الكبير، وصاحب معجم (تاج العروس)، وله العديد من المؤلفات الثرية.

(٥) الزبيدي: طبقات النحويين ٢٣١.

تقديره لعلماء الحياة:

وإذا كان هذا هو الحال مع علماء الشرع، فإن الحال لم يختلف كثيرًا مع علماء الحياة، الذين اهتم بهم المستنصر اهتمامًا بالغًا، وأجزل لهم العطاء، بل يذكر أنه استحدث نظامًا جديدًا للأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء، فقد أنشأ ديوانًا يضم أولئك الأطباء، وينزلهم درجاتٍ متفاوتةً حسب قدرهم وكفاءتهم، فمنهم «أحمد بن حفصون» الذي اشتغل بخدمة الخليفة المستنصر، ونال مكانة عالية بين أطباء البلاط. ولحق بخدمة الخليفة كذلك «أبو بكر أحمد بن جابر»، وكان كبير المنزلة عند الخلفاء مُعظَّمًا لديهم، وكذا الطبيب «أبو عبد الملك الثقفي» الذي جمع بين المهارة في الطب والبراعة في الهندسة، وكان عالي المقام عند المستنصر[(١)].

وكان المستنصر على عادته في تقديرهم وتشجيعهم على تأليف الكتب المهمة، كلّ في مجاله:

فمن العلماء الذين حظوا بعناية المستنصر في مجال الطب (عريب بن سعد القرطبي) وهو مؤرخٌ طبيب، حظي بمكانة عالية عنده، جعلته يُهدي عمدة كتبه، وأجلَّها في هذا المجال للخليفة المستنصر، يقول في مقدمة كتابه (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود): «وإنَّ أحق ما طرقت الهمم إليه، واستعملت الأفكار فيه بعد حقوق الله ﷻ، واستيفاء حدود شكره طلب الزلفى إلى الإمام الحكم المستنصر.. ولما رأيت أنَّ أحظى الأعمال المقربة من رأيه - أيَّده الله - وأقرب الوسائل إليه، وأزكاها لديه تأليف كتب العلم، وجمع منثور الحكم، وتجديد آثار الذين سبقوا إلى فضيلة... تكلَّفت كتابًا يشتمل على أقاويل العلماء في ابتداء خلق الله تعالى الإنسان...»[(٢)].

وفي ميدان طب العيون برع الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس الحراني في عصر الناصر والمستنصر، حيث رحلا إلى المشرق ودرسا الطب على يد ثابت بن سنان وغيره، ثم عادا للأندلس، فأحسن المستنصر استقبالهما، ورفع مكانتهما بين علماء الطب... وكان أن تُوُفِّي عمر، وبرع أخوه أحمد من بعده في الطب، فسمح له الخليفة المستنصر بإقامة خزانة طبية بالقصر رتَّب فيها ١٢ صبيًا لصناعة الأدوية، ولم يكن يبخل بشيء من العلاج للفقراء والمساكين الذين كانوا يترددون على هذه الخزانة (كأنها الصيدلية في أيامنا)[(٣)].

---

(١) ابن جلجل: طبقات الأطباء ١١١.

(٢) عريب بن سعيد: خلق الجنين (مخطوطة) ورقة ٨٥ب... (٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء: ١١٣.

كذلك ازدهر علم الفلك في عهد الخليفة المستنصر، فقد أولاه رعايته وأحاطه بتشجيعه، واستجلب من مصر والعراق أهم الكتب الأساسية فيه، قديمها وحديثها، مما أدّى إلى نبوغ الكثير من الفلكيين الذين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات المرصد، وأثبتوا نبوغهم وعبقريتهم في ذلك المجال بما قاموا به من تصحيح وتحسين للجداول الفلكية، وتقويم نتائج من سبقهم. كما كان له أثره البالغ - رحمه الله- في ازدهار الدراسات الرياضية، والبحث في مواضيعها المختلفة، إذ يُروَى عنه أنه كان يقدر العلاّمة (عبد الله السري) المعروف ببراعته في الحساب والهندسة، وألَّف كتابًا مشهورًا في (البيع)، وعلى الرغم من حرص المستنصر على تقريبه منه للاستفادة من علمه، إلا أنه كان - رحمه الله- حريصًا على الزهد والبعد عن مجالس الأمراء، إلا في حاجة[1]..

وتذكر المستشرقة (زيغريد هونكه) أن «الحكم» لم يكن - إلى ذلك كله - يقتصر في أخذ علوم الحياة عن العلماء المسلمين، بل كان من العلماء المقربين إلى مجلسه علماء نصارى، يقدرهم ويرفع من قدرهم لما لديهم من علم، كان أبرزهم (الأسقف القرطبي ابن زيد) الذي نال مكانة رفيعة لدى الحكم المستنصر، وصنَّف له كتابًا في الفلك أسماه (تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان) ذكر فيه منازل القمر، وما يتعلَّق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه...»[2].

وهكذا كان اهتمام الخلفاء في الأندلس بالعلم، وبالكتب، وبالعلماء، لم يقتصر على حدِّ التحفيز والتشجيع، بل شمل شتى جوانب النهضة العلمية، وتيسيرها على طلبة العلم، ووصل إلى حدِّ الأمر بكتابة المؤلفات، والمكافأة على إنجازها، بل ووضع الخطط العملية، والخطوات المنهجية للباحث والعالم حتى يؤلِّف مؤلَّفاته، التي عُدَّتْ بحقٍّ ذُخرًا للإسلام والمسلمين، وخيرَ دليل على اهتمام هؤلاء الخلفاء رحمهم الله بنهضة أمتهم على أساس قوي من العلم، فلا عجب بعد ذلك أن نرى في الأندلس علماء نوابغ، أناروا العالم كله من مغربه إلى مشرقه، وبنوا في الأندلس حضارةً أضاءت الشرق والغرب، وبقيت حتى يومنا هذا مثالاً يُحتَذَى، ودليلاً راسخًا على أن العلم سبيل للنهضة والرقي والرفعة.

***

(١) القفطي: أخبار الحكماء ص ٢٤٣

(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٠١.

قرطبة كمثال تطبيقي

مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

في عمق التاريخ.. وفي غابر الزمن.. وفي أرض حُجبت فيها شمسُ العلم والحضارة بغيمٍ كثيف من ظلمات الجهل والتخلف..

وسط كل ذلك.. وامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية، طالت السماء وناطحتها؛ علمًا وقِيمًا ومجدًا.. بزغ نجم مدينة قرطبة، **كشاهدٍ حيٍ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزّ الإسلام** في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).. يوم أن كانت أوروبا تغطّ في جهل عميق..

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس معين، ووقع خاص في الأذن الإسلامية.. بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية..

قرطبة.. تلك المدينة التي ينسب إلى عبد الرحمن الناصر أنه قال فيها:

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها ... من بَعْدهم فَبِألْسُن البنيان
أَوَ ما تَرَى الهرمَيْن قد بقيا وكم ... مَلِكٌ محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يَدُلّ على عظيم الشان

والتي أنشد **أبو البقاء الرندي** يرثيها:

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالمٍ قد سَمى فيها له شان؟!!

وتلك هي الحقيقة..

ولنبدأ بالبداية..

فهي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا.. وقد أرَّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين»[1] (انظر خريطة رقم ٦).

---

(١) موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).

وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهيد طارق بن زياد - رحمه الله -، وذلك سنة (٩٣ هجرية - ٧١١ ميلادية).

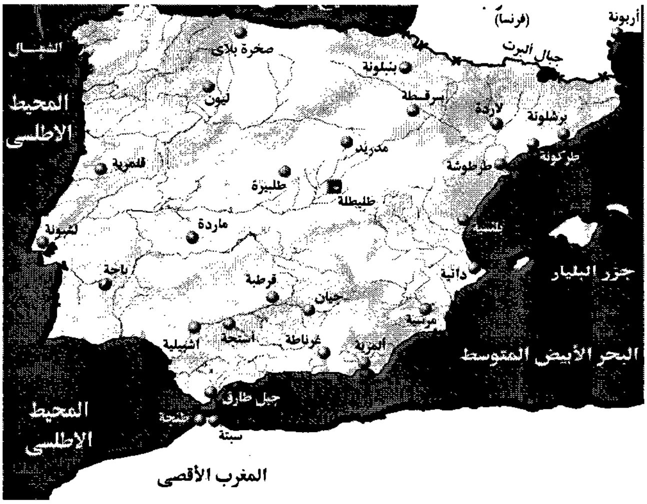

خريطة رقم (٦)

ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخط لنفسها خطًا جديدًا، وملمحًا مهمًا في تاريخ الحضارة، فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لاسيما في عام ١٣٨هـ / ٧٥٦م، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) لقيام الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسيين..

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها، خاصة أنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي.. وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية.. حتى غدت تنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروان والقاهرة في إفريقيا.. وحتى أطلق عليها الأوروبيون «جوهرة العالم»..!!

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها، من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة وغيرها.. وقد شقوا الترع وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تزرع فيها..!!

معالم من قرطبة:

في هذه السطور القادمة سنتعرف على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميزت بها الأندلس عامة، وقرطبة خاصة؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية لمسيرة الإنسانية..

١) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمة في **قرطبة** «**قنطرة قرطبة**» (انظر صورة رقم ٢)، والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عرفت باسم «الجسر» وأيضًا «قنطرة الدهر»، وكان طولها سبعةً وثلاثين مترًا تقريبًا، أما عرضها فثمانون ذراعًا (الذراع يساوي ٦٤ سم)، وارتفاعها ستون ذراعًا!!

وقد وصفها **ابن الوردي** فقال: وبمدينة **قرطبة** القنطرة العجيبة التي فاقت قناطر الدنيا حسنًا وإتقانًا، وعدد قسيها سبع عشرة قوسًا، كل قوس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسين خمسون شبرًا[1]..

ووصفها **الإدريسي** فقال: و**لقرطبة** القنطرة التي علت القناطر فخرًا في بنائها وإتقانها، وعدد قسيها سبع عشرة قوسًا، بين القوس والقوس خمسون شبرًا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرًا، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرًا، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعًا، وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو حلوقها، وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الخاشنة من الرخام، وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربعة مطاحن[2]..

٢) مسجد قرطبة:

يعتبر الجامع الكبير من أهم معالم **قرطبة** وآثارها الباقية إلى اليوم.. وهو يُسمى بالإسبانية Mezquita (وتنطق: ميتكيتا) وهي تحريف لكلمة (مسجد)، وقد كان أشهر مسجد **بالأندلس** (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في **أوروبا**..!!

وقد بدأ بناؤه **عبد الرحمن الداخل** سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م ومن بعده ابنه **هشام الأول**.. وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه.. ليكون أجمل المساجد في مدينة **قرطبة**، ومن أكبر المساجد وقت وجوده..!!

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: «وبها (بقرطبة) الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أجلِّ مساجد الدنيا كبرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولاً وعرضًا!!».

---

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢.   (٢) الإدريسي: نزهة المشتاق ٢/ ٥٧٩.

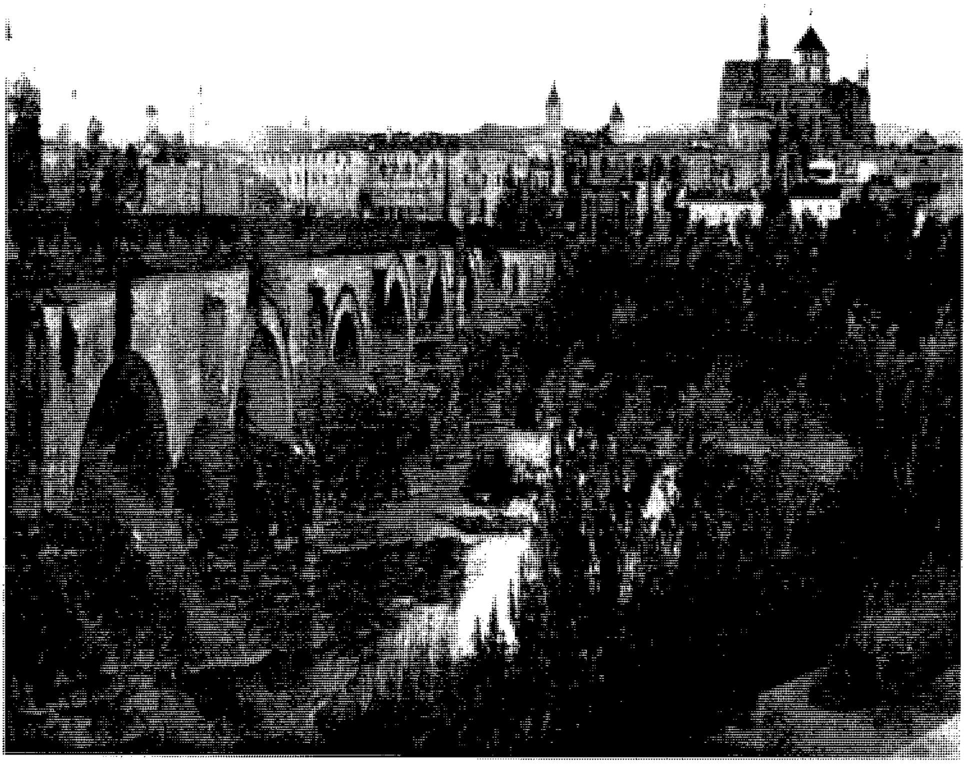

الصورة رقم (٦)

قنطرة قرطبة!!

طوله مائة باع وثمانون باعًا، ونصفه مسقف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد قسي مسقَّفه أربع عشرة قوسًا، وسواري مسقفه بين أعمدته وسواري قببه صغارًا وكبارًا مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي، ارتفاع الجائزة منه شبر في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضًا، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها، وسعة كل بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى **عبد الرحمن الناصر لدين الله**.. وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان، لا تُقوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصّة رخام قطعة واحدة مسبوكة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر، يقال إنه صنع في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير من يخدمهم تصرفًا!!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطسوت ذهب وفضة وحسك، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف **عثمان بن عفان** ﷺ الذي خطه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويخرج هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولى إخراجه قوم من قَوَمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسي يوضع عليه، فيتولى الإمام قراءة نصف حزب فيه، ثم يرفع إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباط متصل،